رواية

برنار فيربير

ثلاثية القطط ٢

ملكة القطط

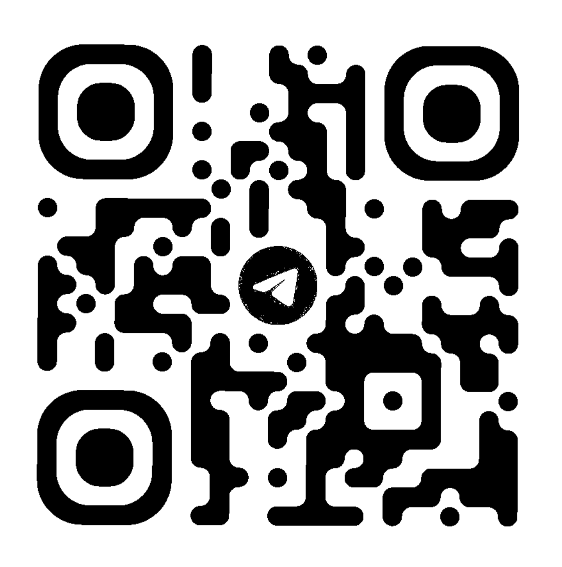


ترجمة: حسين عمر

مكتبة

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa



ملكة القطط



Author: **Bernard Werber** | اسم المؤلف: برنار فيربير

Title: **SA MAJESTÉ DES CHATS** | عنوان الكتاب: ملكة القطط

Translated by: **Hussein Omar** | ترجمة: حسين عمر

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 | + 964 (0) 780 808 0800 | + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 | + 961 706 15017 | + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 | + 963 11 232 2275 | + 963 11 232 2289 | ص.ب: 8272

برنار فيربير



ملكة القطط

ترجمة : حسين عمر



إلى فانيسا بيتون، جارتي في نفس الطابق،
التي رعت قطّتي دومينو كلّما سافرتُ.

تعبيراً عن شكري لها على تحمّلها خرمشات
وشراهة هذه الأميرة الرائعة، وبشكلٍ عام،
نوباتها العصبية وأنانيتها المفرطة المَرَضية.

«عند البشر، كما هو عند جميع الأجناس:
لا ينبغي أن نلجأ إلى التعميم؛ نظراً لعددهم الهائل، لا يمكن أن يكونوا جميعاً مخيّبين للآمال، لا بدّ أنّ يكون بينهم بعض الرائعين».

والدة القطّة باستيت

«كلّ كائن يُخفي مؤخرته، يمكن من الناحية المنطقية أن يُعتبَر مُتّهَماً بالرغبة في إخفاء مشاعره الحقيقية».

القطّ فيثاغورس

«الحقيقة ليست سوى وجهة نظر».

القطّة باستيت

الفصل الأوّل
طوباوية جميلة

1. القراءة

كم أودّ إجادة القراءة.

ربّما تكون القراءة هي الكفاءة التي تنقصني حالياً أكثر من أيّ شيءٍ آخر في حياتي. كم أودّ أن أفكّ طلاسم كلّ هذه الأحرف الصغيرة المصفوفة على الصفحات والتي تشكّل كلماتٍ. كم أودّ أن أفهم واحداً من هذه النصوص الطويلة التي تروي قصصاً وحكايات.

يبدو أنّ بعض الأفراد، من خلال قلب الصفحات فقط، تتراءى لهم في أذهانهم، كما لو أنّه بفعل السحر، شخصيات ومناظر وأماكن محدّدة، بل يشعرون بأنهم يسمعون نغماتٍ وأصواتاً وموسيقى. إنّه لأمرٌ مذهلٌ للغاية.

ومن ثمّ، وما إن أجيد القراءة تماماً – فليجمح بي الطموح –، لمَ لا أتعلّم أيضاً... الكتابة!

كلا، لا تسخروا منّي، أنا متأكّدة من أنني سأكون قادرة على ذلك يوماً ما. ولكنني، حتى الآن، ما زلتُ بعيدة عن بلوغ هذين الهدفين، وبالتالي أريد أن أبقى منطقية وأكتفي بمهاراتي الحالية، حتى وإن كنتُ أتّفقُ معكم على أنّها لا تزال محدودة. ولهذا السبب، وطالما أنني لستُ قادرة على كتابة سرد مغامرتي الاستثنائية، سوف أكتفي الآن بأن أموء بها لكم بهذه الطريقة، لكم أنتم الذين تقفون أمامي. ومن جراء ذلك، لن تكونوا قرائي، بل مستمعيّ.

إذاً، ارفعوا آذانكم عالياً، ومدّوا شعرات الاستشعار في شواربكم حتى تلتقط على نحوٍ أفضل، وأنتم أيضاً سوف تدخلون إلى حلقة «الذين يعلمون». وبعد ذلك، سوف يكون عليكم، أنتم أيضاً، أن ترووا هذه الحكاية للآخرين وكذلك لصغاركم حتى لا تُنسى أبداً. وسوف تصبحون بدوركم من «القطط الرواة». ومن يدري، ربما، ذات يومٍ في المستقبل، سيتمكن أحدكم أن يحتفظ بذكرى ذلك جيّداً، ويجيد الكتابة في نهاية المطاف، ويجعل من هذه الحكاية كتاباً حقيقياً، ولَمَ لا؟

قبل كلّ شيء، احفظوا هذه الجملة:

كلُّ ما لا يُروى يُنسى.

وكلّ ما يُنسى يُعتبَر كأنّه لم يكن موجوداً قط. إنّ رواية حكاية تعني جعلها خالدة.

لقد أدركتُ ذلك حينما توصّلتُ أخيراً إلى فهم عالم البشر وعلى نحوٍ خاصّ الموسوعة المدهشة م.ع. ن. م «موسوعة العلم النسبيّ والمطلق» للبروفيسور ويلز.

2. تاريخ الكتابة عند البشر

حالياً، تعود أقدم قصّة مروية على سندٍ ثابتٍ بحوزتنا إلى 18000 سنة قبل الميلاد. لقد عُثِرَ في كهوف لاسكو على نقوشٍ أشبه بصور الرسوم المتحرّكة التي تمثّل مشاهد الصيد أو الحرب. وكان الحبر المستخدم في رسمها عبارة عن دمٍ أو فحمٍ ممزوج بحبات طلع أزهارٍ، بل كان ممزوجاً بالروث. كان أساسها الجدار الصخري للكهوف. على الأرجح كان لهذا السرد الفضل في تلاحم أبناء القبيلة حول ذكرى المآثر البطولية لأجدادهم.

كما عُثِرَ على آثارٍ للكتابة تعود إلى 6000 سنة قبل الميلاد في الصين. وهذه المرّة، لم تكن الرسومات عبارة عن مشاهد كاملة، بل رسومٌ تخطيطية - أي أنّها إشارات رمزية تمثّل كلّ واحدة منها كلمة كاملة:

على سبيل المثال، للحديث عن حصانٍ، يجري رسمه في بضعة خطوطٍ.

في عام 3100 قبل الميلاد، شرع السومريون في مزج رسمين تخطيطيين، الأمر الذي أتاح لهم الحصول على رسومات فكرية والتعبير بذلك عن مفاهيم أكثر تجريداً، بعبارة أخرى ليس التعبير عن الحيوانات والأماكن فقط، بل عن أفكارٍ أيضاً.

في عام 3000 قبل الميلاد، وبالتوازي مع ما حدث في سومر، ظهرت الكتابات الهيروغليفية في مصر، التي ربطت هنا أيضاً رسوماتٍ بمقاطع كتابية. وكانت مقاطع كتابية عديدة تُستخدم في صياغة كلمة.

في عام 2500 قبل الميلاد، ظهرت الكتابة المسمارية، وأيضاً كانت في سومر. لم تعد هناك رسومات صغيرة تمثّل شيئاً حقيقياً، بل مزيجٌ من الخطوط المحفورة بفضل رأسٍ مدبّب لقصبة على ألواح من الصلصال الطري. أمّا أوّل أبجدية معاصرة فقد اختُرِعَت في إسرائيل بحدود عام 2000 قبل الميلاد. كانت مؤلّفة من اثنين وعشرين حرفاً وتبدأ بالحرف العبري (ألف) الذي كان يمثّل رأس ثورٍ مقلوبٍ (المصدر الرئيسي للطاقة في ذلك العصر)، والذي سوف يُستلهَم منه حرف (ألف) الإغريقي ومن ثمّ حرف (A) اللاتيني. ثمّ جاء حرف (باء)، الذي كان يمثّل بيتاً له سطحٌ والذي سوف يؤدّي إلى ظهور حرف (B) اللاتيني، ومن ثمّ (جيم) الذي يشير إلى رقبة جملٍ.

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق.

المجلد الثاني عشر، المسمّى «موسوعة ق» (أي موسوعة القطط).

المنقولة من قبل فيثاغورس حسب الموسوعة القديمة للبروفيسور ويلز.

3. أنا التي

قبل أن أروي لكم بالتفصيل الأحداث المفاجئة التي وقعت حتى يومنا هذا، يجب أن أشرح لكم منْ أكون بالفعل.

قبل كلّ شيء أحدّثكم عن مظهري: في مظهري الخارجي، أبدو قطّة في الثالثة من عمرها ولها شعرٌ طويل، ذات فراءٍ أبيض اللون منقّطٍ ببقعٍ سوداء موزّعة على نحوٍ منسّق – على سبيل المثال، لديّ بقعة سوداء على شكل قلبٍ مقلوبٍ على خطمي. ولون عيني أخضر زمرّدي.

فلننتقل إلى وصف شخصيتي. لكي أعرّف نفسي، سوف أتحدّث في البداية عن عيوبي. نعم، نعم، أعلم أن هذا يفاجئكم، ولكن في الحقيقة لديّ بعض العيوب. بأيّ عيبٍ من عيوبي أبدأ؟ لدي نزعة مفرطة في السعي إلى الكمال، وذلك على الأرجح لأنني لا أُطيق الكائن المتواضع. وكذلك لدي هوسٌ بالنظافة: إذ يمكنني أن أمضي ساعات في لعق نفسي لكي أنظّف كلّ شعرة من فروتي وأنا أحتقر كلّ المتّسخين بل وحتى المهملين.

وماذا أيضاً؟ هناك من يعتبرني متغطرسة بعض الشيء. ويجب أن أعترف بأنني أمارس كلّ ما هو قبيح ومبتذل. في بعض الأحيان، يجذب إلهامي الطبيعي الحسد والجشع، وهذا يجعلني، لنَقُل، جافّة مع الخاطبين غير اللبقين الذين يتقدّمون لي ومع منافساتي الغيورات. كما يمكنني أن أبدو عنيفةً. وقد حدث أن خرمشتُ بأوّل مخلبٍ من مخالب كفّي الأيمن (وهو المخلب الأكثر حدّةً) أشخاصاً قلّلوا من الاحترام لي.

أيّ عيبٍ آخر يمكنني ذكره؟ آه نعم، أنا شرهة في تناول الطعام، ويطيب لي أن ألتهم عصفوراً كاملاً دفعةً واحدة، بشراهة منقطعة النظير، بينما لا يزال العصفور حيّاً، بما في ذلك التهام رجليه ومنقاره وريشه... بل وقد حدث أن شعرتُ به وهو يتلوّى داخل حلقي محاولاً الخروج منه والإفلات من فمي.

وأنا قاسية في بعض الأحيان. إذ غالباً ما أتلاعب بالفئران وأمثّل بها وأشقّ بطونها وأنتزع أحشاءها، وألفّها على قدمي دون حتى أن أتناولها. حسناً، لا تتظاهروا بالغضب، فأنا متأكّدة من أنّكم أنتم أيضاً لا بدّ أن فعلتم الشيء نفسه، في لحظة من لحظات حياتكم، ولو كان ذلك عندما كنتم أصغر سنّاً.

بكلّ تأكيد، إلى جانب هذه «العيوب الخفيفة»، لدي من المزايا ما يعوّض عنها على نحوٍ واسعٍ.

هذه الفئران نفسها التي أنكُل بها بعض الشيء، أقدّمها ضيافةً، وهي لا تزال دافئة ولذيذة ونابضة، دون أن أنتظر أيّ شيءٍ مقابل ذلك.

وأنا سريعة أيضاً. فأنا أستطيع أن ألتقط الذبابة وهي طائرة (جرّبوا ذلك، وسوف ترون أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بعض التدريب).

وأنا رشيقة: أجيدُ أن أضع قدماً فوق أذني لكي ألعق قاعدتي.

ما الذي يمكنني أن أقوله أيضاً عن نفسي من أمور مهمّة؟

لدي حياة جنسية نشطة. أستطيع أن أمارس الجنس طيلة ليالٍ كاملة مع عددٍ كبيرٍ من الشركاء المتعاقبين دون أن أشعر بالتعب. وأصرخ حينها بكلّ قوّة حبالي الصوتية، إلى درجة أنّ كلّ الذكور والإناث الذين يعيشون في الأنحاء المحيطة بي يعلمون أنني سعيدة، الأمر الذي يجعلهم أكثر غيرةً.

لا أحبّ الشركاء الجنسيين الذين يعضّون أثناء الممارسة الجنسية أو يلعقون الطرف العلوي بل وداخل أذني (يا لها من فظاعة أن يكون هناك لسانٌ في تجويفي السمعي! وعلاوة على ذلك، تُصدرُ هذه الحركة ضجيجاً كهفياً لا يُطاق).

لا أحبّ المطر. وأنا أكره أن يبتلّ شعري. بل في الحقيقة لا أحبّ الماء بشكلٍ عامّ (لدي ذكرى مرعبة عن حمام أُخضِعتُ له في مغسلة عندما كنتُ لا أزال صغيرة، وخرجت منه وقد أصبح كل جسمي لزجاً).

لا أحبّ أن يُملى علي ما يجب أن أقوم به. أنا مستقلة جدّاً في شخصيتي. كما أنني في الحقيقة «غير قابلة للترويض». لا سيّد ولا زوج، هذا الشعار ينطبق عليّ تماماً، وهو مستوحى من أحد شعارات أمّي: «لا طوق ولا رسن» (باستثناء طوقٍ مضادٍ للبراغيث في حالة الضرورة؛ فأنا أكره هذه الحشرات التي تندسّ بين فرائي لكي تزحف على جلدي. إنّها صغيرة جدّاً بحيث لا أستطيع أن أسحقها بين شعري بمخالبي. حسناً، أتصوّر أنّ لديكم نفس المشكلة: فمن ليست لديه مشاكله الصغيرة مع طفيلياته، من الديدان أو البراغيث؟).

عندما لا أحبّ أحدهم، أتبوّل على المكان الذي ينام فيه. ورائحة فيروموناتي قويّة جدّاً وراسخة بحيث يصبح من الصعب إزالتها. وفي حال

لم يكن هذا كافياً بالنسبة إليّ، أتبوّل مباشرةً في طعامه. وهنا، بطبيعة الحال، لا بدّ أنّه يكوّن فكرة واضحة عن موقفي منه.

نعم، أنا هكذا، ولكن الشيء الذي أنا متأكّدة منه هو أنني أحبّ نفسي. من خلال الأوقات التي تمرّ، يقوم الكثير من الأشخاص بتصرّفات حمقاء لأنّهم يكرهون أن يحبّ أحدهم نفسه، وهذا جديرٌ بالإشارة إليه، أليس كذلك برأيكم؟ برأيي أنا، أن يحب المرء نفسه ليس شيئاً من الأنانية، بل إنّها الحكمة الأكثر بساطةً.

في الختام، سوف أكون صريحة معكم: أنا أرى نفسي رائعة.

لو لم أكن أنا نفسي، لوددتُ أن ألتقي مع نفسي. لو كنتُ ذكراً، لوقعتُ في غرام نفسي من النظرة الأولى. وما أعشقه أكثر من كلّ شيء هو المغامرات الجديدة التي حوّلتني من قطّة منزلية بسيطة إلى غازية رؤيوية. بفضل تلك المغامرات، أشعر بأنني قادرة على خلق عالمٍ جديد لي وحدي.

حتى وإن كنت قطّة. حتى وإن كنتُ أنثى.

آه نعم، ربّما نسيتُ أن أوضّح لكم أمراً: لدي مشروعٌ شخصي جدّاً، مشروعٌ عظيم. يمكنه أن يتلخّص في جملة واحدة: «**أن أجعل كلّ الأجناس تتواصل فيما بينها**».

في البدء، كنتُ، مثل الكثيرين من بينكم، قطّة هادئة تعيش في منزلها الهادئ، في عالمٍ هادئ، تتوالى فيه الأيام دون مفاجآت. كنتُ أجد طعامي الخاصّ في الصباح موضوعاً في قصعتي الخاصّة بالطعام (وكنتُ أفضّل من بينها تلك الأطعمة المحضّرة من لحم الدجاج المدخّن والمضافة إليها نكهة الأعشاب المجفّفة المستجلبة من إقليم بروفانس)، وكذلك أجد حليباً (وهو طبيعي، مع نسبة 20% من المواد الدسمة) في كوبي الخاصّ بالشراب، وتبقى درجة الحرارة في أجهزة التدفئة على درجة مستقرّة وثابتة، وهي الدرجة 21 مئوية، ولديّ محفّة لمخالبي، ووسادة من المخمل الأحمر، بل وحتى كمية من نعناع الهرّ الحقيقي للحظات جنوني.

في لحظة ما، ومن أجل تسليتي، قُدِّم إليّ ذكرٌ من فصيلة الأنغورا أبيض اللون له عينان خضراوان، ويُدعى فيليكس. ولكنّه أُصيب بالاكتئاب بعد

استئصال خصيتيه ووضعهما في وعاءٍ، وازداد وزنه باستمرار وهو يتناوب على النظر إلى خصيتيه اللتين خسرهما تارةً وشاشة التلفزيون تارةً أخرى – مع تفضيله لمشاهدة مباريات كرة القدم.

كانت خادمتي تُدعى (ولا تزال تُدعى) ناتالي. ربّما لم أوضّح لكم بعد أنّ خادمتي كانت كائناً بشرياً. هل تعرفون البشر؟ لا بدّ أنّكم قد رأيتم أو لمحتم بعض البشر. البشر... هيا لنتحدّث عنهم، وأنتم تعرفون جيّداً: تلك الكائنات الثنائية الأقدام التي لا فراء لها، ولها فقط أجمة شعرٍ في قمّة جمجمتها.

كانت لخادمتي عينان خضراوان (مثلي أنا، ولكن لونهما أغمق قليلاً)، وشعرٌ طويلٌ أسود اللون، ذو لمعانٍ، تضمّه غالباً برباطٍ أحمر اللون. كانت في الحقيقة صغيرة الحجم مقارنة بحجم البشر بشكلٍ عام، وترتدي غالباً بلوزةً بيضاء اللون وبنطال جينز أزرق اللون. أظافرها مطلية باللون الأحمر، تغطّي شفتيها بمادة دهنية لامعة من نفس لون طلاء الأظافر. أعتقد أنّ اختيار هذا اللون له علاقة بالدم. حسب المعايير البشرية، لا بدّ أنّ هذه مسألة جمالية.

ربّما سأفاجئكم، ولكنني لا أكنّ الاحتقار لخدمنا البشريين. فهؤلاء المساكين متواضعون جدّاً من ناحية مظهرهم الخارجي. ولكي أخبركم بكلّ شيء وبصراحة، كلّما أعرفهم أكثر، أكنّ لهم المزيد من التقدير.

إنّهم ليسوا على جمالٍ لافت. ودعونا نعترف بكلّ صراحة، إنّهم يطلقون رائحة خاصّة. وليس لديهم ذيلٌ طويل لكي يحافظوا بواسطته على توازنهم في مشيتهم، ولا يرون في الليل، بل ليست لديهم آذان قابلة للتوجيه، ولا شوارب استشعار لكشف مقدار المساحات، ولا مخالب قابلة للسحب. يخاف معظمهم العتمة. وحينما يسيرون على قوائمهم الخلفية، نشعر بأنّهم يفتقرون إلى الرشاقة والتوازن (لا بدّ من القول إنّهم يمتلكون عموداً فقرياً صلباً ورفيعاً جدّاً بحيث يصعب عليه تحمّل وزنهم، الأمر الذي يسبب الآلام لدى معظمهم على مستوى الفقرات القطنية – ومع التقدّم في العمر، لا يمكن معالجة هذا الأمر). في بعض الأحيان، أشعر بالأسى من أجلهم.

أمّا بالنسبة إلى حياتهم الجنسية... آه، الحياة الجنسية للبشر... أنا الشغوفة بهذا الموضوع، يمكنني أن أؤكّد لكم أنّ الحياة الجنسية للبشر

مضحكة حقّاً. لدى ناتالي القليل من العلاقات الجنسية، وحينما يحدث لها وتقيم علاقة جنسية، فيكون ذلك بشكلٍ عام بطريقة متحفّظة ومع ذكرٍ وحيدٍ مرّة واحدة. يتمّ ذلك سريعاً جدّاً، ويكاد يكون خفيّاً. بل إن خادمتي ناتالي لا تصرخ حينما تبلغ هزّة الجماع: تصدر صريراً خفيفاً شبيهاً بصرير فأرة علقت إحدىٰ قوائمها في شيءٍ ما.

في الحقيقة، لطالما اعتقدتُ أنّه لو أرادت ناتالي حياةً جنسية أكثر ازدهاراً، لكان عليها أن تكفّ عن إخفاء أعضائها التناسلية. ليس هناك سرٌّ في الأمر: فأنا أعرض مؤخّرتي، الأمر الذي يبعث رائحتي الطبيعية. وهذا هو الذي يشكّل جزءاً كبيراً من نجاحي لدى أكثر نماذج الذكور جمالاً. كما كانت تقول أمّي: «لا تجذب الزهرة النحل من دون أن تكشف عن مدقتها».

ولكن هناك حتماً بعض المزايا التي يتمتّع بها البشر ونحن نفتقر إليها. لا ينبغي أن ننسى أنّهم هم منْ بنوا هذه المنازل العالية والمتينة وذات درجة حرارة معتدلة، ويتوفّر فيها الماء الصالح للشرب في عدّة أماكنٍ منها. ثمّ أنّهم يزوّدوننا بالطعام، وهم يستحقون منّا التقدير حتى لو كان من أجل هذا الأمر فقط. من بين الأشياء التي تؤثّر عليّ إيجابياً عند البشر، يمكنني أيضاً أن أذكر أطرافهم المنتهية بخمس (وأنا أقول هنا خمس وليس أربع) أصابع طويلة ذات مفاصل. خمس أصابع، يتقابل فيها الإبهام مع الأصابع الأخرى ويتحرّك مثل ملقطٍ. كم أودّ لو كان لدي هذا الإبهام! بفضل هذه الأيادي، يستطيعون أن يلتقطوا، بل ويعصروا الكثير من الأشياء، التي لا يمكن استخدامها عندنا. مقابض الأبواب على سبيل المثال (أنا أكره مقابض الأبواب: فبسببها أجد نفسي في بعض الأحيان محبوسةً داخل غرفةٍ!).

في الفترة التي عشتُ فيها في مونمارتر -وهو حي رائع في مدينة باريس-، روّضتُ جيّداً خادمتي البشرية لكي تُطعمني، وتداعبني حينما أرغب في ذلك، وخاصّة أن تتصرّف في كلّ شيء كخادمة مطيعة. كنتُ سعيدة في تلك الشقّة، التي أنسلُّ منها في المساء من خلال تسلّق الأسطح لتحتفي بي كلّ قطط الحيّ.

في أعقاب رحلةٍ ليلية، وضعتُ ستّة صغارٍ. فطلبت خادمتي من خطيبها أن يتكفّل بها: أغرق خمسة صغارٍ منها. ولم يبقِ إلا على واحد، وهو أنجيلو، وعلى الأرجح لأنّه كان يمتلك شعراً أصهب اللون يقترب من اللون البرتقالي وأنّ هذا اللون مرغوبٌ جدّاً عند البشر (يسمّون هذا «marmelade cat»، الأمر الذي يعني «قطّاً بلون مربى البرتقال»). عليّ أن أعترف بأنني، بعد هذا الفعل الفظيع، رغبتُ في الانتقام لأطفالي وأن أقتل البشر جميعاً. بيد أنني لم أكن بحاجة إلى الرغبة في إيذائهم لأنّ أسوأ مفترسي البشر هم... البشر أنفسهم.

ذات يوم، وقع أوّل حدث جعلني أعي هذه الحقيقة الغريبة: من شرفة منزلي، رأيتُ كائناً بشرياً يدخل إلى مبنى مليءٍ ببشرٍ صغار، وهو يصرخ بأعلى صوته بجملةٍ. كان للرجل لحية سوداء ويردّد طيلة الوقت نفس الجملة، كما لو أنّه يحفّز نفسه بها ويُشعل حماسه. وكان البشر الصغار، وقد دبّ الذعر فيهم، يصرخون ويحاولون الفرار، لكنّ المُقتَحِم ضربهم واحداً تلو الآخر بسلاحه الذي كان يلفظ ناراً. وسقط البشر الصغار أرضاً، غارقين في الدماء. استمرّت هذه العملية وقتاً طويلاً؛ إلى أن قضى بشرٌ آخرون على الرجل ذي اللحية السوداء نفسه. لقد حيّرني هذا الأمر بالفعل.

اكتشفت خادمتي ناتالي المشهد فيما بعد، عندما عُرِض على شاشة تلفزيونها. وفي الحال تغيّرت حالتها النفسية. سالت قطراتٌ سائلة شفّافة من عينيها. ارتضيتُ أن ألعق تلك القطرات (أنا أعشق لعق الماء المنساب من عيون البشر، لها مذاقٌ مالحٌ لذيذ). ثمّ جئتُ وتكوّرتُ على نفسي فوق صدرها قريباً من قلبها وأخذتُ أخرخر لكي أبثّ فيها الهدوء والطمأنينة. قرّب هذا الحادث بيننا من جديد. لقد غفرتُ لها قتلها لأطفالي ورغبتُ في أن أخفّف من كربها. من أجل تهدئة البشر، لا أدري كيف تتصرّفون أنتم بهذا الشأن، ولكن بالنسبة إليّ، أقوم بتعديل خرخرتي وتكييفها من خلال البدء بترددٍ بدرجة 30 هرتزاً، ثمّ أنزل إلى حدّ بلوغ 25 هرتزاً.

في الحقيقة، هذا الرجل الملتحي الذي فوجئتُ به وهو يقتل البشر الصغار هو أحد أوائل الذين ارتكبوا هذا النوع من الأفعال في تلك الحقبة. بعد ذلك، شاهدتُ من شرفتي على نحوٍ متزايد بشراً يتقاتلون ويقتلون

بعضهم في الشوارع. كانوا يقتلون بعضهم جماعياً، وبشكلٍ عامّ، كان رجالٌ ملتحون (والذين كانوا يرددون نفس تلك الجملة) يواجهون رجالاً بلا لحى (وهم في غالب الأحيان أقلّ عدداً وأقلّ تصميماً على القتال). انهمكوا في قتال بعضهم بعضاً غاية الانهماك بحيث لم يعد لديهم الوقت ليؤدّوا أشغالهم اليومية المعتادة. وبالتالي، أهملوا تجميع القمامة ونقلها، التي تراكمت في أكوامٍ سرعان ما تحوّلت إلى جبالٍ من القمامة. وأصبحت أكوام القمامة المنتشرة في كلّ مكان مرتعاً للديدان والصراصير والذباب. وانتشرت روائح كريهة ومقزّزة في المدينة، في حين واصلت المجموعات المسلّحة من الملتحين الانقضاض بشراسة على غير الملتحين المرتدين زيّاً موحّداً باللون الأزرق البحري، ولكن أيضاً على غير الملتحين ممن لا يرتدون زيّاً موحّداً، وكذلك على الإناث.

وحينما يلقي الملتحون القبض على الإناث، يرمونهن بالحجارة. وهذه الممارسة كانت تُسمى، كما علمتُ ذلك لاحقاً، «الرجم». كيف يمكن لجنسٍ من الكائنات أن يكره إناثه، وهنا يكمن السرّ الذي سيكون عليّ أن أكشفه.

ثمّ تفشّى وباءٌ وتسبّب بقتل عددٍ أكبر من عدد البشر الذين قُتلوا في النزاعات بين الملتحين وغير الملتحين. شممتُ في كلّ مكان رائحة الموت، التي لم يكن البشر يشعرون بها. وحينئذٍ بدأتُ أُدركُ أنّ هذه الأزمة بمنزلة أفول الحضارة البشرية: إذ بدل أن يصبحوا أكثر إقداماً في القتال، باتوا أكثر نزوعاً نحو الانتحار. كانوا يفضّلون أن يقتلوا بني جنسهم بسبب الاختلافات بينهم بدل أن يحاولوا التصالح بعضهم مع بعض لكي ينجوا معاً. لقد أصبحوا «بهائم».

وبالتوازي مع ذلك، رأيتُ النمو المطّرد، في القوّة والعدد، للجنس المنافس الذي كان ينتظر أن يضعف البشر: الجرذان. لا أعلم ما هو شعوركم تجاه الجرذان، ولكنني أنا لا أحبّ الجرذان. إنّ عدوانيتها وسرعتها في التأقلم وخصوبتها تمنحها التفوّق على أغلبية الأجناس الأخرى. هذا دون الحديث عن أنيابها الطويلة القادرة على قطع الخشب.

في الواقع، كلّما ابتعد البشر بعضهم عن بعض بسبب النزاعات، تراكمت

جبال القمامة بعضها فوق بعض أكثر، وتكاثرت الجرذان أكثر، وتفشّت الأمراض عل نطاقٍ أوسع.

في البداية، كانت هذه القوارض تختبئ، ولكنني رأيتها تزحف في أقبية عمارات المدينة. بفضل المجارير وأنفاق المترو، نجحت في التسلّل إلى سائر أنحاء المدينة. وشيئاً فشيئاً، ومن جراء ضعف البشر، لم تعد الجرذان تخاف السير على وجه الأرض، بل كانت في بعض الأحيان تجابه البشر. لقد رأيتها بأمّ عيني وهي تهاجم في مجموعاتٍ بشراً منعزلين وتسقطهم أرضاً.

وبالكاد مضى بعض الوقت على الحادثة الأولى، حتى شاهدتُ من شرفة شقّتي قطّاً جاراً. قطّاً سيامياً؛ له شعرٌ فضّي وعينان زرقاوان. في الحالة الطبيعية، لا أحبّ القطط السيامية، وهذا ليس بدافعٍ عنصري، بل بدافعٍ غريزي. لقد سبق لكم أن رأيتم على الأرجح قططاً سيامية؛ ولذلك اعترفوا أنّها مختلفة عنّا نحن القطط الأخرى! إنّها في غاية الغرور والغطرسة.

وهذا القطّ الذي شاهدته كان معتداً بنفسه كثيراً بحيث تجرأ على القيام بما هو أسوأ: لم يهتمّ بي. ظلّ في شرفته يراقب الشارع بدل أن ينظر إليّ، في حين كنتُ في منتصف حقل رؤيته تماماً، ومكشوفة له تماماً. في البداية، ثار غضبي. كرهته دون أن أعرفه. ثمّ ارتضيتُ أن أنسى كبريائي وحاولتُ أن أقيم اتصالاً معه.

حسب رأيي، أفضل طريقة للتعامل مع ذكرٍ مغرور هو جعله عاشقاً متيّماً، ثمّ إهماله. هذه استراتيجية أنثوية ناجحة على الدوام، حتى مع أكثر الذكور برودةً.

كان عليّ قبل كلّ شيء أن أداهنه وأستميله. فلجأتُ إلى خزيني من الأدوات الاعتيادية للإغراء، ولكنني لم أحقّق نجاحاً. حتى حينما عرضتُ مؤخّرتي، لم يُظهر تأثّراً بروائحي الحسّاسة. كما لو أنّ هرموناتي انزلقت على خطمه دون الولوج إليه.

أدركتُ أنني أستخدم التكتيك الخاطئ. واضطررتُ لأن أنتظر إلى حين توفّر الفرصة التي يصبح فيها تحت رحمتي تماماً. وقد جاءت تلك الفرصة بالفعل: حينما حوصِرَ على غصنٍ عالٍ لشجرةٍ في الشارع، يهدّده كلبٌ ينبح

بصخب ويحاول أن يسقطه أرضاً، أنقذته من خلال إلهاء الكلب. وبعد ذلك، أصبح مديناً لي، بكلّ تأكيد.

اقتربنا بعضنا من بعض بعد تلك الحادثة، وتكلّمنا مع بعضنا. أنتم تعرفون قناعتي: كلّ المشكلات نابعة من انعدام التواصل. كشف لي عن اسمه، فيثاغورس، وأراني ميزته غير العادية: ثقبٌ في جبينه فوق العينين مباشرةً، يسمّيه «عينه الثالثة». وقد شرح لي أنّ هذا الثقب في الواقع هو عبارة عن قابس كهربائي للناقل التسلسلي (يو إس بي) زرعه البشر في جمجمته، ويتيح له توصيل دماغه مع حاسوبٍ وبذلك يتّصل بالإنترنت، وهو المكان الذي يخزّن فيه كلّ البشر معلوماتهم.

وقد روى لي بالتفصيل حكايته. كان فيثاغورس قد كبر في مختبرٍ؛ إذ استخدمه البشر لإجراء تجارب علمية عليه في سبيل فهم مشاكل الإدمان. وقد جنّت القطط الأخرى التي أُجريت عليها نفس التجارب. وحده فيثاغورس نجا منها. حسب قوله المأثور: «كلّ ما لا يقتل المرء يجعله أقوى» (كانت هذه الجملة، حسبما قال، مقتبَسة من كتابٍ بشريٍّ قديم). وبالتالي، انتهى الأمر بخادمته البشرية، وهي عالمة عجوز تُدعى صوفي، إلى التعلّق به وإسكانه في منزلها.

كان فيثاغورس ذكيّاً جدّاً، ولكن علاوة على ذلك، وبفضل عينه الثالثة، بات بمقدوره الوصول إلى جميع معارف البشر في شتّى المجالات. ومن خلال هذا الجهاز الملحق، علّمني على نطاقٍ واسع أشياء كنتُ أجهلها حول العالم المحيط بي.

هو منْ أخبرني أنّ البشر من ذوي اللحى السوداء الذين قتلوا البشر الصغار هم من المتطرفين الدينيين، وأنّ سلاحهم كان بندقية آلية؛ وهو منْ شرح لي ما هو التلفزيون. وقد كشف لي أنّ الماء الذي يسيل من عيني خادمتي هو عبارة عن دموع.

أمّا المرض المعدي الذي كان يفتك بالبشر، فحسبما قال لي، هو عودة ظهور وباء قديم من القرون الوسطى، وسمّاه «الطاعون»، وقد انتقل عبر الجرذان. كما جعلني فيثاغورس أعي التهديد الكبير الذي تشكّله هذه

الجرذان القارضة: إنّها تستغلّ انحلال الحضارة البشرية لكي تطرح نفسها بديلاً اجتماعياً، كحيوانات قارضة تتغذّى على المواد الحيوانية والنباتية، وقادرة على التكيّف وسريعة التطور. وقال إنّه إن لم نفعل شيئاً، من شأن الجرذان أن تسيطر على عالم البشر ولكن أيضاً على عالم القطط.

ولكن كان لدى فيثاغورس عيبٌ كبير: كان مسالماً، حامياً سيئاً ومحارباً سيئاً وقاتلاً سيئاً.

في الواقع، ليس هناك شخصٌ كامل.

والحال أنّ العالم من حولنا كان يصبح يوماً بعد آخر أكثر عنفاً. ولم يكن الوقت مناسباً بالفعل للتفكير بطريقة فلسفية.

ذات يوم، تعرّضت شقّة ناتالي إلى هجومٍ من قبل عصابة من البشر القساة بقيادة خطيبها السابق. وقد انتهى الأمر برفيقي السابق، قطّ أنغورا فيليكس، بأن شُوي على السيخ من قبل أولئك الوحوش. وقُتِلَت الخادمة العجوز للقطّ السيامي، صوفي. وأثناء الهجوم، استطاع ابني أنجيلو أن يهرب بأعجوبة. وقرّرنا، فيثاغورس وأنا، أن نذهب للبحث عنه في غرب المدينة، حيث أخبرنا قطٌّ بأنّه توجّه إلى هناك.

انتهى بنا المطاف بالوصول، معاً، إلى غابة بولونيا، وهي منطقة حرجية في غرب باريس. وفي تلك الغابة عثرتُ على صغيري أنجيلو مثله مثل المئات من القطط التي كانت قد فرّت هي الأخرى من الجرذان. كان أنجيلو قد حظي هناك برعاية أسميرالدا، وهي أنثى سوداء ذات عينين صفراوين. كانت قطّة في منزل مغنيّةٍ، وهي نفسها تجيدُ الغناء بطريقة ممتازة. عندما قُتِلَت خادمتها وفقدت هي صغيرها، فرّت، وحينما وجدت بمحض الصدفة أنجيلو قامت بإرضاعه وتبنّيه. في البداية، ويجب أن أعترف بذلك، كنتُ أغار منها بعض الشيء. بيد أنني انتهيتُ، مع مرور الوقت، إلى الإعجاب بها لأنّها كانت متميّزة جدّاً ومحترمة للغاية في تعاملها معي.

من بين جماعة القطط في الغابة، قابلتُ قطّاً عملاقاً هارباً من سيرك غابة بولونيا. وقد أخبرني فيثاغورس بأنّ هذا النموذج هو من فصيلة نادرة جدّاً من القطط: «الأُسود». اسمه هانيبال. ثمّ التقينا مع فولفغانغ، وهو قطّ من فصيلة

شارتروه فراؤه رمادي مائلٌ إلى الأزرق، وكان سابقاً قطّ رئيس الجمهورية، أي زعيم البشر.

وبناءً على مبادرتي، شكّلنا مع هؤلاء الناجين جماعة راغبة في مقاومة تكاثر الجرذان. كان الأسد بكلّ تأكيد سلاحنا الأكثر فتكاً ورعباً.

وقد التقينا مع كائنة بشرية مدهشة، تُدعى باتريسيا، تتّسم بميزة القدرة على التواصل معي ذهنياً. كانت تزعم أنّها عرّافة (وهذا يعني، عند البشر، أنّ بإمكان المرء أن يقيم تواصلاً ذهنياً مع الحيوانات). لكن المشكلة التي واجهناها هي أنّها إلى جانب موهبتها في القدرة على التحاور معي عبر التخاطر، كانت صمّاء. الأمر الذي حدّ من تفاعلها مع أبناء جنسها.

مع بعض الشبان البشريين من أصدقاء ناتالي، بحثنا بعد ذلك عن مكانٍ يمكنه أن يُفيدنا ملاذاً لكي نحمي أنفسنا من الجرذان على نحوٍ فعّال. كان المكان الوحيد الخالي من الممرات تحت الأرضية أو المجارير أو أنفاق المترو (لأنّه، مثلما سبق أن شرحتُ لكم، كانت الجرذان تخرج من تلك الأماكن لتنتشر في كلّ مكان) كان المكان الوحيد هو... جزيرة البجع. وهي جزيرة صغيرة تمتدّ طولاً، كشريطٍ أرضي يقع في وسط النهر المركزي في باريس الذي يسمّيه البشر نهر السين. هناك، بنى رفاقنا من البشر مخيّماً سرعان ما استثمرناه مع قططٍ أخرى وأسدنا.

مع ذلك، هوجِمَت جزيرة البجع في وقتٍ واحدٍ من جميع الضفاف (الجرذان، وبخلافنا تماماً، تجيد السباحة إجادة تامّة). وجرت معركة ملحمية بيننا.

تعرّضنا نحن القطط وخدمنا من البشر إلى خسائر عديدة، ولكن، في اللحظة الأخيرة، وبناءً على توصياتي، لجأنا إلى خدعةً: لقد نشرنا غطاءً من الوقود على سطح النهر أوقدنا فيه النار في الوقت الذي سبحت فيه الجرذان باتجاهنا للهجوم على جزيرتنا.

اشتعلت فيها النيران قبل أن تصل إلى ضفاف جزيرتنا. وهكذا استطعنا، أنا وابني أنجيلو وذَكَري فيثاغورس، وخادمتي ناتالي والعرّافة باتريسيا والأسد هانيبال وأسميرالدا وفولفغانغ، أن ننعم أخيراً بالهدوء في جزيرة البجع.

وهكذا مضت ستة أشهر وبات يبدو لي كأنّ كلّ شيء يسير نحو الأفضل. بيد أنّ فيثاغورس وحده لم يشاطرني طمأنينتي وحماستي.

قال لي:

– لدي خبرٌ سار وآخر مزعج.

– ابدأ بالخبر المزعج.

– هناك خطر أن يتزايد عدد الجرذان، وأن تقوم عندئذٍ بغزونا.

لعقتُ فراء كتفيّ، وهذا بالنسبة إليّ علامة على تركيزٍ عميقٍ.

قلت:

– دعنا نعزّز دفاعاتنا.

– أخشى ألا يكون هذا كافياً.

– ماذا تقترح، إذاً؟

– لا أدري بعد. في الوقت الراهن، علينا أوّلاً التفكير في وسيلةٍ للحفاظ على ما بحوزتنا الآن: المعرفة. أنا القطّ الوحيد الذي تمكّنتُ من الوصول إلى الإنترنت وفهم تاريخنا. إذا ما حدث ومتُّ في هجومٍ جديد، أخشى كثيراً أن تُنسى هذه المعلومات. علينا أن نترك أثراً.

هززتُ أذنيّ.

– هيا، أخبرني بالتفاصيل. أنا أصغي إليك.

– لقد وجدت على الإنترنت فكرة مصدرها كائنٌ بشري (يُدعى البروفيسور إدمون ويلز)، تقوم على حفظ أكبر قدر ممكن من المعارف. وهو يُسمّي هذا (م. ع. ن. م) أي «موسوعة العلم النسبي والمطلق». أعتقد أننا سوف نستطيع بدورنا أن ننشئ (م. ع. ن. م. ق) أي «موسوعة العلم النسبي والمطلق.. للقطط». يمكن لهذه الوثيقة أن تصبح الكنز الذهني لجنسنا. وهذا هو الخبر السارّ.

– وماذا تُريد أن تضع في «الموسوعة» خاصّتك؟

– كلّ ما يتعلّق بنا: كلّ ما رويته لكِ سابقاً عن تاريخنا. سوف يكفي أن نضعها في مكانٍ آمن. وبذلك، حتى إذا متنا، سوف يعثرُ آخرون عليها فيما بعد ويقرؤونها. ولن تضيع ذاكرتنا تماماً.

- ولكن ما الذي ستفعله لكي تحفظ أثر كلّ هذا إذا كنت لا تقرأ ولا تكتب؟

- بفضل اتصالي بالإنترنت، يمكنني الوصول إلى الشبكة العنكبوتية العالمية وأن أحرّك سهماً يفيدني كفأرة (كلا، ليست الفئران التي تفكّرين فيها، يا باستيت) على لوحة المفاتيح الافتراضية. وسأنجح بهذه الطريقة في نقر الأحرف التي تشكّل كلمات والتي بدورها تشكّل بنفسها سطوراً، ثمّ صفحاتٍ. وبجانب ذلك، لكي أمتلك الأفكار الأكثر وضوحاً، سأموء لكِ نصّي في نفس الوقت الذي أكتبه على النسخة الإلكترونية.

حدّقتُ في عينيه الزرقاوين.

- متى تريد أن تقوم بهذا، يا فيثاغورس؟

أجابني بصوتٍ خفيض:

- في الحال، أخشى كثيراً من أن تختفي هذه المعلومات.

فطلب فيثاغورس من خادمتي ناتالي أن تقدّم له حاسوباً ووصلة (يو إس بي). أوصل وصلة يو إس بي بعينه الثالثة وانهمك في القيام بالعملية، متهيئاً لكتابة ومواء، في آنٍ واحدٍ، كلّ ما تذكّر مما قرأهٔ على الإنترنت.

سألته:

- بماذا تبدأ؟

- ربّما عليّ أن أبدأ بموجزٍ سريعٍ عن التاريخ الكامل للقطط. سوف تكون هذه افتتاحية مناسبة، ألا تعتقدين ذلك، يا باستيت؟

وبدأ حينئذٍ بذكر ماضينا المذهل.

4. تاريخ القطط والبشر (الجزء الأوّل)

تعود الاتصالات الأولى بين البشر والقطط إلى عشرة آلاف سنة، في العصر النيوليتي (الحجري الحديث). في ذلك العصر، بدأ البشر بزراعة أول محاصيلهم، الأمر الذي جذب بطبيعة الحال الفئران والجرذان الراغبة في استهلاك تلك المحاصيل. وبالتالي تحالف البشر والقطط فطرياً بدافع المصلحة المشتركة.

ورغم ذلك، فإنّ تاريخ إسكان القطّ الوحشي الأفريقي (الذي تعود أقدم آثاره إلى أثيوبيا) في المنازل البشرية يعود إلى خمسة آلاف عام، في مصر.

بالنسبة إلى المصريين، كانت القطط (التي كان المصريون يسمونها «ميو» نسبة إلى صوت موائها) تُعتبَر تجسيداً للإلهة باستيت، الإلهة التي لها جسد امرأة ورأس قطّة. في نظرهم، كانت السنوريات مقدّسة: وكان قتل قطّ يُعتبَر جريمة تستوجب عقوبة الإعدام. وعندما يموت قطّ، يقومون بتحنيط جسده ومن ثمّ دفنه في مقابر خاصّة.

حينما أراد الملك الفارسي قمبيز، في عام 525 قبل الميلاد، أن يغزو مصر، اكتشف تقديس هذه الحضارة للقطط وبالتالي راودته فكرة أن ينصب قططاً حيّة على دروع محاربيه. ومن جراء ذلك، لم يجرؤ الجنود المصريون على إطلاق سهامهم على السنوريات، واستسلموا للهزيمة في معركة الفرما (حالياً بورسعيد). في أعقاب تلك الكارثة، قتل الفرس أفراد الطبقة الأرستقراطية المصرية، ودمّروا المعابد وأبادوا القطط.

وانتشرت القطط الناجية من المذبحة بعد ذلك في العالم عبر سفن التجار الفينيقيين والعبرانيين الذين لجأوا إلى مزاياها الفريدة في صيد الجرذان في سبيل حماية المؤن الخاصّة بهم على متن السفن وكذلك في حماية حبال أشرعة السفن من تلك القوارض الضارة.

والقطط الوليدة خلال هذه الرحلات كانت تُباع من قبل البحارة إلى سكان الموانئ. كما أنّها كانت تُقدّم كهدايا في سبيل إغراء النساء الإغريقيات، على غرار الحلوى والزهور. وكانت تحظى بتقدير الفلاحين لأنّها كانت تحميهم من القوارض التي تعيث فساداً في مخازن الحبوب، كما كانوا يستخدمونها من أجل حماية أنفسهم من العقارب والثعابين (وقد حلّت القطط في أداء هذه المهمّة محلّ الظرابين الآكلة للعقارب والأفاعي، التي جعلتها رائحتها الكريهة في الحقيقة عاطلة عن العمل نتيجة الاستغناء عن خدماتها).

وإذ أصبحت القطط مسافرة مع قوافل التجارة، أُدخِلت إلى الهند، حيث تمّ تقديسها عبر الإلهة ساتي، المرأة ذات رأس قطّة، ثمّ إلى الصين، مع الإلهة لي شو. كما أنّ إمبراطور كوريا أهدى قطّاً لنظيره الياباني الإمبراطور إيشيجو بمناسبة بلوغه سنّ الثالثة عشرة، فاتحاً هذه البلاد أمام القطط التي سرعان ما أصبحت دُرجة فيها.

وقبل ذلك بكثير، كانت القطط قد وصلت إلى بلاد الغال وجرمانيا وانكلترة مع قوات الغزاة الرومانيين، لأنّها حظيت بإعجابٍ بالغٍ من قبل جنود القيصر (الذي كان، شخصياً، يعاني من فوبيا القطط). ولأنّ عدد القطط المنزلية في كلّ بلدٍ كان قد قلّ كثيراً، فإنّ التزاوج الحتمي بين المحارم وسط القطط أدّى إلى حدوث تحوّلات وراثية. واختار البشر منها القطط ذات المزايا التي تهمّهم -شكل أو لون الشعر أو العينين، على سبيل المثال- وأوجدوا أنواعاً محلية: القطّ الفارسي في بلاد فارس، والأنغورا في تركيا، والسيامي في تايلند.

وهكذا بدأت الموجة الأولى من انتشار القطط على الكوكب.

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

5. من جزيرةٍ إلى أخرى

كانت أمّي تقول: «المشاكل تأتي دائماً بأسوأ الطرق في أسوأ وقت». ومع أنّها كانت في غاية الذكاء، فإنّها كانت تتفوّه في بعض الأحيان بحماقات، إذ إنّ هناك بكلّ تأكيد احتمال ظهور المشاكل في أسوأ وقت تماماً كما في أفضل وقت، وفقط نحن نولي المشاكل اهتماماً أكبر حينما تأتي في لحظةٍ تكون بالأساس صعبة علينا.

وفي هذا الصدد، في اللحظة التي وقع فيها الحادث الصاعق، كنتُ بأفضل حال. حدث ذلك في ليلة مقمرة يشعّ البدر بضيائه على المشهد؛ إذ حدث أنني عانيتُ من أرقٍ بسيط (كنتُ قد تناولتُ فأرةً غير طازجة)، وخرجتُ لكي أحرّك قوائمي وأستنشق هواءً نقياً.

أمّا بالنسبة إلى المشكلة نفسها، فالأمر يتعلّق بهجومٍ ليلي عاديّ من قبل العديد من الجرذان. أقول «العديد من الجرذان»، لكن حتى أعترف بكلّ الحقيقة، لستُ متأكّدة من العدد الدقيق، إذ إنني رأيتُ قطّين جريحين يسبحان في ماء النهر وهما يموءان استغاثةً تلحق بهما أربعة جرذان، أصغر حجماً مما كانت عليه.

إذاً، إنّها مشكلة صغيرة تحت السيطرة تماماً. والعنصر الذي يمكنه أن يجعل المشكلة مزعجةً هو أنّ المُطاردين بدوا عاقدي العزم تماماً على اللحاق بالقطّين. وحينما بلغ القطّان المنهكان أخيراً الضفة الجنوبية للنهر، لم تستسلم الجرذان (التي لا بدّ أنّها قد شعرت بأنّها على أرضٍ من غير المرحّب بها فيها) على أيّ حال. بدأ الجرذان الواصلان أوّلاً بالصعود إلى جزيرتي.

أمّا أنا، وأنتم تعرفونني، فلستُ من ذلك النوع الذي يستسلم للانبهار بحيواناتٍ تبلغ نصف حجمي وليس لها حتى أنياب كبيرة. وإذا كنتُ غير شجاعةٍ بما فيه الكفاية، فأنا غيورة، وبالتالي هذا الوضع بالنسبة إليّ فرصة جيّدة لكي أختبر صلابتي.

أعزائي الجرذان، يبدو أنّكم لا تعلمون مع منْ تورطّتم.

تقدّمت واقتربتُ بخطى متمهّلة لا يُسمَعُ لها صوت، وقد سحبتُ مخالبي، ونفشتُ وبري لكي أبدو أضخم حجماً وأُرهبَ العدو. استفدتُ من كون أوّل جرذ يصل إلى الضفة لا يزال مبلّلاً وأنّ هذا جعله ثقيلاً وبطيء الحركة في القتال الفردي. أي أنني، وقبل أن يفعل أيّ شيء، قتلته بضربةٍ من كفي الأيمن الذي كان قد أفرد كلّ مخالبه. مزّقتُ رقبته ووضعتُ بذلك حدّاً نهائياً لخطره.

بيد أن الجرذ الثاني الذي لامس الأرض اليابسة لم يستسلم. بدا أنّه لم يتأثّر قط بأدائي: قفز فوقي، مدفوعاً بهذه الذهنية اللئيمة والجبانة التي تميّز جنسه تماماً. عضّ كتفي بأنيابه الطويلة؛ وقد وخزني ذلك ولكنّه لم يزدني إلّا عزماً وتصميماً.

تخلّصتُ منه بدفعٍ بسيط وتراجعتُ إلى الوراء، اكتسبتُ زخماً

وانقضضتُ عليه مفتوحة الفم. فعل هو الآخر نفس الشيء واصطدمت أسناننا بعضها ببعض. التحمنا جسداً لجسد، وكلٌّ منّا يسعى لأن يعضّ الآخر بأعمق ما يمكن في لحم الآخر. انتشر مذاق دمه على لثّتي، ضرب بذيله مثل سوطٍ على عيني، ألقيتُ بقدمي البيضاء والسوداء على جذعه وانتزعتُ منه عضواً جعله جثّة هامدة: القلب.

يبدو أنّ البشر يمارسون هذا النوع من الحركة تحت تأثير المخدّر لكي يعالجوا المرضى. شخصياً، فعلتُ ذلك من دون تخديرٍ بل بهدف القتل.

وصل الجرذان الآخران بعد ذلك بقليل؛ وإذ شاهدا المشهد وأدركا بعد ذلك مع منْ تورّطا، آثرا الاستسلام واستدارا إلى الوراء.

تناولتُ قلب عدوّي بعد أن مضغته جيّداً بأضراسي، لأنني كنتُ أعلم أنّ قلب الجرذ ليفيٌّ بعض الشيء. حينما ابتلعتُ آخر قطعةٍ منه، تجشّأتُ على نحوٍ خفيفٍ تعبيراً عن الانتصار.

هذه أيضاً إحدى مزاياي، فأنا أحقّق الانتصارات المتواضعة.

نظر إليّ القطّان الناجيان بإعجابٍ. كانا في غاية الإنهاك: آذانهم ممزّقة، والدماء تسيل من خطميهما، وقد فقد أحدهما إحدى عينيه، بينما فقد الآخر إحدى قوائمه، وفروتهما منتّفة بفعل ضربات الأنياب، ولا يزالان يرتعشان من الخوف والحمّى والجوع.

مؤتُ لكي يأتي خدمنا من البشر لنجدتنا. ظهرت شابّتان بشريتان، وأدركتا الوضع، وقامتا بإطعام ومعالجة القطّين. لمّا استعادا قواهما، استغللتُ الفرصة وسألتهما:

– ما الذي حدث لكما؟

أجاب الأوّل، وعيناه الرماديتان تتّسعان ذعراً:

– الجرذان!

سألتُ كما لو أنّه ليست لديّ أيّ فكرة عن الموضوع:

– أين؟ متى؟ لماذا؟

أجاب القطّ الثاني، الأكثر واقعيّةً:

– جئنا من جنوب باريس. حينما نشبت الأزمة، قُتل خدمنا البشريون،

وبسبب نقص الغذاء غادرنا المكان. فرأينا العالم الخارجي المُدمّر. وقد نجونا بعد الانهيار من خلال تجمّعنا في مجموعات. ثمّ شاهدنا، ذات يوم، وصول...

انتابته رعشة ذعر، فشجّعته:

- وصول ماذا؟

-... جيش من الجرذان. قتل دون توقّف، لم تترك أيّ حيوانٍ على قيد الحياة.

استكمل القطّ الجريح الآخر الحديث:

- قطيعٌ متماسك على عدوانية غير عادية.

- لقد عرف كيف ينتصر ويوحّد كلّ قطعان الجرذان الأخرى في المنطقة لتشكيل قوّة كبيرة واحدة. هذا القطيع البنّي المنفرد متشكّل ليس من مئات أو آلاف الجرذان، بل من عشرات الآلاف من الجرذان التي تجري مثل نهرٍ من العيون السوداء البرّاقة، ذات فراء بنّي وأنياب بيضاء قاطعة، تدمّر كلّ شيءٍ في طريقها.

بينما بدأت شمس الصباح تبزغ أخيراً في الأفق، راح القطّان يتحدّثان بالتناوب ليعيدا بناء حكايتهما.

- الجرذان منظّمة أحسن تنظيم وتهاجم بموجاتٍ متعاقبة، بحيث لا يمكن لأحدٍ الإفلات منها. إنّها تبثّ الرعب وسط جميع الحيوانات؛ حتى البشر يفرّون لدى اقترابها منهم.

أوضح القطّ الأخر:

- إنّها تتقدّم من الجنوب نحو منطقة باريس.

جاء فيثاغورس يُصغي إلى هذه الشهادة، وراح بقائمته الخلفية يحكّ بعصبية أذنه اليمنى، وهذه الحركة بالنسبة إليه هي علامة على قلقه الفائق.

ماءَ فيثاغورس:

- نعم، هذا هو ما كنتُ أخشاه. لم يعد لدينا من خيار، علينا أن نُخلي المكان.

وكي لا أستسلم للذعر، أجبته:

– لقد سبق أن حاولت الجرذان النيل منّا، وكان عددها كبيراً جدّاً ولم تنجح في التغلّب علينا.

ردّ فيثاغورس عليّ:

– لقد فشلت مرّة واحدة، ولكن هذا لا يعني أنّها لن تنجح أبداً. جزيرة البجع ضيّقة جدّاً ومن الصعب الدفاع عنها. لا بدّ أنّ الجرذان قد استخلصت الدروس من هزيمتها السابقة، وسوف تكون أكثر فاعليّةً في الهجوم المقبل. يجب أن نغادر في الحال.

أمّا أنا، وقد بدأتم تعرفونني الآن، فلا يجوز استعجالي في الصباح. لم أدع نفسي عرضةً لتأثير العاطفة، وبدأتُ بممارسة تمارين التمدّد التي كنتُ قد عزمتُ على القيام بها. وبعد ذلك فقط، سألتُ:

– نرحل، ولكن لكي نذهب إلى أين؟

– ليس بعيداً بالضرورة. إلى جزيرةٍ أخرى في نهر السين على سبيل المثال. لقد سبق أن اكتشفتُ جزيرةً من خلال الإنترنت، يُسمّيها البشر جزيرة المدينة. إنّها أوسع من هذه الجزيرة وفيها عددٌ أكبر من الأبنية، وبالتالي، من الأسهل تحصينها في وجه الهجوم.

عرفتُ أنّه، مرّة أخرى، محقٌّ في اقتراحه، ولكنني لم أشأ أن أُظهر أنني سهلة الانقياد للاتّفاق معه في الرأي. إنّها مسألة مبدأ. ولذلك أخذتُ كلّ وقتي قبل أن أسأله مجدّداً:

– وكيف يمكننا الوصول إليها؟ لم تعد هناك جسورٌ فوق جزيرة البجع، وبالتالي لم يعد هناك أيّ اتصالٍ برّي مع الضفّة.

أجابني:

– باستخدام قاربٍ.

– من المستبعد أن أسير فوق المياه. تخيّل للحظة أن ينقلب بنا القارب.

– ليس لدينا حلٌّ آخر في الوقت الحالي والوقت يضغط علينا.

نخرتُ قليلاً معبّرة عن تبرّمي، ووجدتُ بعض الذرائع بسوء نية خالصة لكي أعارضه (من بين الذرائع الأخرى، قلتُ له: «لقد عانينا الكثير حتى عثرنا على هذه الجزيرة»، «إنّ أيّ جزيرة أخرى سوف تكون فيها مجارير

الصرف الصحي ومداخل مترو الأنفاق، وبالتالي سيتمكّن أعداؤنا من الوصول إليها»، «نحن متعبون»، «كيف سننقل كلّ شيء من هنا؟»)، كلّ هذا قبل أن أوافق، أخيراً، على مقترحه.

التفتُّ نحو القطط الأخرى، وأعلنتُ عن ضرورة مغادرة المكان لكلّ من يعتبرني رمزاً للسلطة (الوضعية التي نلتُها بفضل موهبتي كقائدة استراتيجية خلال معركة جزيرة البجع).

أوصل فيثاغورس عينه الثالثة بهاتفٍ ذكي أصبحت بطاريته مشحونة بفضل لوحٍ للطاقة الشمسية - واستطاع بذلك أن يكتب رسائل ويرسلها إلى خادمتي ناتالي. وانهمكت هذه الأخيرة في الحركة في الحال بعزيمةٍ وإصرار.

قبل الأزمة، كانت ناتالي مهندسة معمارية في ورشة للبناء، أي أنّها كانت تبني بيوتاً. راقبتها من بعيد وهي تضع خطّة إجلائنا موضع التنفيذ. لم أستطع إلا أن أُعجب بفعاليتها. منذ وقوع الأحداث، تغيّرتْ كثيراً. أصبحت أكثر نشاطاً بكثير، ولكي أخبركم بكلّ الحقيقة، أصبحت أكثر لطفاً ووداً في نظري. لم يعد لديها ذلك الجانب البشري الأنثوي السلبي الذي كانت تُزعجني به كثيراً. أصبحت تتوقّع ما سيحدث وتستبقه، فتقترح حلولاً جديدة وتستنفر طاقات خيالها.

في الحقيقة، بفضل طاقتها وكفاءتها، نُظِّمَت عملية الانتقال بسرعة: جمع البشر الشبّان أمتعتهم، وجلبوا بعض القوارب وملأوها بالطعام وبكلّ ما سيكون مفيداً لنا. وما إن مضت بضع ساعاتٍ، حتى كان كلّ شيء جاهزاً. صعد هانيبال إلى أحد القوارب. وكانت تلك إشارة الانطلاق.

غامرتُ بالصعود إلى أحد تلك القوارب الواهية الموضوعة فوق مياه النهر وغادرنا جزيرة البجع. وفعل القطط والبشر الآخرون نفس الشيء.

عمنا فوق ماء النهر، الذي فصلته فقط بضعة سنتمترات عن أقدامي! لم أستطع منع نفسي من التخيّل أنّ المركب ينقلب وأنني أغرق. وجعل هذا رعشاتٌ تسري في كلّ جسمي.

لا تفكّري في الأمر.

تأرجح القارب مع كلّ حركةٍ من المجداف؛ داهمني إحساسٌ مؤلمٌ وعصيب، ولكنني أغمضتُ عينيّ وضغطتُ على فكّي.

لن أغرق.

ارتميتُ بين ذراعي خادمتي، ودسستُ خطمي تحت إبطها حتى لا أعود أفكّر في تلك المياه المرعبة المحيطة بنا والتي قد أسقطُ فيها وأقاوم عبثاً، وعليّ أن أعترف أنّ رائحة عرقها أشعرتني بالطمأنينة. ضربتُ جبيني بصدرها. داعبتني بشدّة، الأمر الذي أنساني التهديد المحدق بي. وكادت ناتالي تنجح في ترك تأثيرٍ مهدّئٍ عليّ بقدر ما كنتُ أترك تأثيراً مهدّئاً عليها. وربّما يكون هذا هو السبب الذي جعلني أحرص على التحدّث إليها مباشرةً من قطّة إلى إنسانة، حتى نتمكّن في النهاية من مساعدة بعضنا بعضاً بطريقة أكثر فاعليةً.

رأيتُ جزيرة البجع، ملاذنا القديم، وهي تختفي عن الأنظار.

وقد راودتني ذكريات رائعة عن الحياة في ذلك المكان المميّز جدّاً. إقامتنا فيه ومعاركنا على أرضه وانتصاراتنا التي حققناها، وبعض اللحظات الحميمة التي أمضيتها مع من كنتُ معجبة بهم. كما لمحتُ ذراع تمثال الحرية الذي ابتعدت شعلته تدريجيّاً.

لقد انتهى كلّ هذا الآن. لقد كان فيثاغورس محقّاً: المستقبل بالنسبة إلينا في مكانٍ آخر.

انزلق مركبنا فوق نهر السين ورحلت ذكرياتي. مشهد باريس المدمّرة من حولنا لم يدعني لامبالية. عبرنا جسوراً مهدّمة. وشاهدنا الضفاف مزدحمة بالسيارات المهجورة التي غزاها الصدأ بدرجاتٍ متفاوتة. وحده ماء النهر بدا نابضاً بالحياة. استفادت الأسماك والسلامندر والضفادع من تلك المهلة التي انشغل فيها البشر عنها لكي تتكاثر. وأخيراً، لاحت لنا من بعيد جزيرة المدينة.

لمحنا أوّلاً عمارة رائعة، عالية بقدر ما كانت فخمة ومهيبة، وأخبرني فيثاغورس بأنّها كاتدرائية نوتردام دو باريس. في اللحظة التي رأيتُ فيها تلك العمارة، شعرتُ بأننا حسناً فعلنا بمغادرة جزيرتنا الضيّقة، جزيرة البجع لكي نأتي إلى هذه الجزيرة، الأكبر حجماً بكثير.

يوجد هنا، كما أتمنى، المكان الذي سوف يمكننا أن نبني انطلاقاً منه الحضارة السنورية المستقبلية، التي سوف تحلّ محلّ الحضارة البشرية الآفلة.

6. تاريخ القطط والبشر (الجزء الثاني)

منذ القِدَم، حتى الآن حيث باتت مريحة إلى حدٍّ ما، أصبحت حياة القطط صعبة.

في عام 392 ميلادي، منع الإمبراطور المسيحي ثيودوسيو، بناءً على طلب البابا، على المواطنين اقتناء القطط. ولأنّها كانت تنشط في الليل ولها حياة جنسية صاخبة، تمّ ربط هذه السنوريات بالفسق والفساد، وبالسحر والشعوذة، وبالتالي أُبيدت بشكلٍ منظّم خلال الأعياد التي كُرِّسَت لقتل القطط: وبهذه الطريقة، كان على المسيحيين الأخيار، في ليلة القديس يوحنا، أن يقبضوا على القطط ويلقوا بها وهي حيّة في محرقة كبيرة مُقامة في الساحة المركزية.

خلال تفشي وباء الطاعون الأسود الذي قضى على نصف سكان أوروبا في أعوام 1347–1352، أصبحت الجماعات اليهودية (التي كانت، من الناحية المنطقية، الطوائف الوحيدة التي كانت لا تزال تملك قططاً لأنّ ذلك لم يُمنَع عليها) أصبحت نسبياً أكثر نجاةً من غيرها من الجماعات من وباء الطاعون لأنّ القطط كانت تطارد الجرذان التي تنشر الطاعون وتُرغمها على الفرار. ولأنّه لم يكن أحدٌ قد ربط بين الجرذان والطاعون إلى ذلك الحين، بدا ذلك مثيراً للشبهات وقامت مجموعات متعصّبة في سعيها إلى إيجاد أكباش فداء بارتكاب المجازر ضدّ اليهود.

في عام 1484، أصدر إنوسنتيوس الثامن مرسوماً يقضي بقتل أكبر عددٍ ممكنٍ من القطط، لأنّها اعتُبِرَت الشكل الذي يتّخذه الشيطان لكي يتموّه به على الأرض.

في انكلترة، في ظلّ حكم ماري تيودر، تمّت التضحية بالقطط، التي

اعتُبِرَت رمز الهرطقة البروتستانتية – في محارق كبيرة، في حين أنّها لاقت المصير نفسه، في عهد الملكة إليزابيت، كرموزٍ للهرطقة الكاثوليكية.

في القرون الوسطى، أصبح القطّ سلعة استهلاكية: في إسبانيا، بات لحم القطّ المشوي طبقاً فاخراً، وفي أوروبا الشمالية، صُنِعَت أغطية ووسائد ومعاطف من جلد القطط.

في عام 1665، تفشّت الموجة الثانية من وباء الطاعون الكبير الذي دمّر أوروبا. وقد حدث ذلك بعد حملة كبيرة للقضاء على القطط شُنّت في لندن.

تمّ نزع صفة الشيطنة عن القطط من قبل الفاتيكان بعد مئة عامٍ من ذلك. وسُمِح للمسيحيين أخيراً باقتناء القطط دون أن يكونوا معرّضين لخطر الطرد من الكنيسة. ولم يكتشف ألكسندر يرسن، عالم البكتيريات، إلا بحلول عام 1894، أنّ للطاعون في أصله بكتريا عضوية تنقلها براغيث الجرذان، وسُمّيت لاحقاً باسم *اليرسينيا الطاعونية*.

في عام 2019، وجد القطّ نفسه على أنّه الحيوان الأليف المفضّل لدى الفرنسيين (يُقدّر عددها بأكثر من عشرة ملايين، أي أكثر من الكلاب بنسبة الثلث). وقد سمح رؤساء بلديات بعض المدن الكبيرة مثل روما أو القدس للقطط غير المنزلية أن تتجوّل وتتكاثر دون أيّ رقابة في الشوارع والحدائق، لكي تمنع تكاثر الجرذان، وبذلك وصل عدد القطط في هاتين المدينتين إلى ألفي قطٍّ في كلّ كيلومترٍ مربّعٍ واحدٍ، مقابل وجودٍ ضعيفٍ جدّاً للجرذان.

موسوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المجلّد الثاني عشر.

7. جزيرة كلّ الآمال

بلغنا الضفّة الغربية لجزيرة المدينة ورأينا بضع مئاتٍ من الجرذان تتجوّل هناك.

حينما رأت الجرذان هانيبال، كان الأوان قد فات بالنسبة إليها. كان الأسد الهارب من السيرك آلة رائعة لتدمير الجرذان. اكتشفها سريعاً وقفز نحوها، وقبل أن تستطيع فهم ما يحدث لها، مزّقها ببراثنه وخزقها بأنيابه، وسحقها بقدميه الخلفيتين كما لو أنّه يسحق فاكهة طرية مليئة بالعصير. بعض الجرذان المتهوّرة التي حاولت أن تقاوم انتهت بأن قضت دهساً. في النهاية، استطاع جرذان فقط أن ينجوا من خلال الفرار سباحةً نحو الضفّة الجنوبية.

سألت أسميرالدا، التي لا تخاف الماء، وقد تهيّأت للسباحة:

– هل نلحق بهما؟

قلتُ:

– لا بالتأكيد. فلندعهما يعودا إلى القطيع البني، وبذلك سوف يعلم بنو جنسهما أيّ خطرٍ سيحدق بهم إن غامروا واقتحموا هذا المكان. من الآن فصاعداً سوف ينتقل الخوف إلى الجانب الآخر.

تدخّل فيثاغورس، قائلاً:

– لستُ متأكّداً من أنّه سيكون أمراً جيّداً أن تعرف الجرذان أننا هنا.

كانت الجزيرة بالطبع عبارة عن خليطٍ من الأنقاض والعمارات القديمة المتصدّعة بدرجاتٍ مختلفة، تغزو كلَّ آثار الحضارة البشرية أعشابُ اللبلاب والأشواك والأعشاب الأخرى، وتتناثر بعض الهياكل العظمية فوقها، وكذلك أكوامٌ من القمامة والنفايات. شوهِدَت على الجدران آثارُ الطلقات النارية أو فتحاتُ القذائف، كشواهد على الحرب الأهلية التي نشبت هنا قبل **الانهيار**.

خلال الساعات التي أعقبت وصولنا، شرع شركاؤنا البشريون بالعمل. نظّفوا الجزيرة وبدأوا يجعلون من هذا المكان المُدمّر والمُحوّل إلى أنقاض معسكراً محصّناً. وجدت خادمتي ناتالي نفسها، لكونها مهندسة معمارية، في مكانها الطبيعي الذي تحبّ أن تكون فيه وفي مجال اختصاصها. قامت بتوجيه الجميع بمنهجية وتنظيم وأرشدتهم إلى كيفية التصرّف والعمل. قام الشبان البشريون بجمع المواد المتفجرة من ورشة بناء مهجورة ونسفوا بها الجسور التي تربط الجزيرة بضفاف نهر السين. ثمّ، ومن خلال استخدام

أيديهم وأصابعهم ذات المفاصل وإبهامهم المقابل للأصابع الأخرى، قاموا بسدّ فتحات المجارير وأنفاق المترو بجدرانٍ من القرميد الإسمنتي تحاشياً لأيّ هجومٍ من قبل الجرذان عبر الأقبية. وبعد ذلك، أقاموا سوراً دائرياً واقياً بارتفاع مترٍ من نفس المواد حول كامل الجزيرة. وبسبب النقص في القرميد، اضطروا إلى هدم جدران المدارس للحصول على القرميد اللازم منها.

فيما يتعلّق بتموين الأطعمة الطازجة أيضاً وتخزينها، لم نتوان عن تنظيم أنفسنا. وقد وجد كلٌّ منّا نفسه مكلّفاً بأداء مهمّة: كُلِفَ الشبان البشريون بالصيد، حيثُ شتى أنواع الأسماك، مثل الأنقليس والكارب وأسماك الكراكي، وكذلك سمكة أطلقوا عليها اسماً غريباً ألا وهو «السمكة – القطّ»، وحتى أسماك الحفش، الأسماك الشهيرة التي تقدّم غذائي المفضّل: الكافيار.

بالنسبة إليّ، استرحتُ وأنا أراقب سير الأعمال. راقبتُ من بعيد خادمتي ناتالي.

لماذا حيواتنا مرتبطة بعضها ببعض؟

من خلال النظر إليها وهي تكدّس قرميد جدار الحماية مع الشبان البشريين الآخرين، وجدتُ فيها جمالاً بشرياً نموذجياً. أحببتُ عرف شعرها الأسود الملفوف برباطٍ أحمر اللون، وببشرتها البيضاء، وبقوامها الرشيق، وإن كان منتصباً عمودياً.

رأتني، ورفعت خصلةً من شعرها نازلة أمام عينيها وأرسلت إليّ إشارة ودّية. أجبتها بتثاؤبٍ ينمّ عن الإحباط. أنا أعرف البشر، لا ينبغي لأحدنا أن يكون أليفاً معهم، وإلّا يمكن أن يبدّلوا الأدوار ويعتبروا أنفسهم سادتنا! وفي الواقع، أعرف قططاً حينما تتحدّث عن بشرٍ آووها في منازلهم، تسميهم «السيّد» أو «السيّدة». أمّا بالنسبة إليّ، فأنا أعتبر أنّ البشر يدينون لنا بكلّ شيء، بينما نحن لا ندين لهم بأيّ شيءٍ على الإطلاق.

قرّرتُ أن أختصر مدّة قيلولتي لكي أتحقّق من سير عمل خدمي. حينما تأكّدتُ من أنّ فعّالية البشر تتيح تماماً تحسين أمن ملاذنا الجديد، شرح لي فيثاغورس، المثقّف بفضل الإنترنت، جغرافية هذه الجزيرة الواقعة في وسط باريس.

– حسناً، من الغرب إلى الشرق، نرى قبل كلّ شيء منتزه فير غالان، ساحة دوفين، قصر العدل، المحكمة التجارية، مديرية الشرطة، بعض المباني الخاصّة، الكاتدرائية، ثمّ مستشفى أوتيل ديو ليس بعيداً عن منتزه يوحنا الثالث والعشرين ومنتزه إيل دو فرانس.

لم أستطع الامتناع عن الإشارة إلى السخرية الكامنة في أن يتحوّل مكانٌ من المفترض أنّه يُنقذ البشر إلى مكانٍ هو نفسهُ مليءٌ بجثثهم.

أبعد من ذلك المكان بقليل، لاحظتُ أنّ شباناً بشريين يحصون علب الخضار المحفوظة التي عثروا عليها حديثاً. وبما أنّهم كانوا من آكلي اللحوم، كانوا يحتاجون أيضاً إلى تناول الخضراوات.

حرص فيثاغورس على أن يجعلني أزور جوهرة الجزيرة: نوتردام دو باريس. كنتُ أعرف قبلاً كنيسة القلب المقدّس في مونمارتر، وسعدتُ باكتشاف هذه الكاتدرائية. أعتقد أنني أحبّ الكاتدرائيات. برأيي أنّ بناء هذه الكاتدرائيات هو أفضل ما فعله البشر. شرح لي فيثاغورس:

– كانت على وشك أن تحترق بالكامل في شهر نيسان / أبريل من عام 2019، ولكن، كما ترين، لقد تمّ ترميمها. والآن، في حين أنّ الانهيار الكبير قد تسبّب في تدمير الكثير من المعالم الأثرية، فإنّها أحد المباني النادرة التي نجت من الكارثة. كما لو أنّ حريق عام 2019 جعلها منيعة غير قابلة للتدمير.

دخلنا من الباب الواسع وأعجبني مشهد النوافذ الزجاجية التي تنسلّ أشعة الشمس منها. سألتُ:

– ما الفائدة من كاتدرائية؟

– يأتي إليها البشر للصلاة.

– صلاة؟ لم أعد أتذكّر ما الذي تعنيه هذه الكلمة.

– هذا مرتبطٌ بالدين. يأتون ويطلبون من ربّهم بعض الطلبات.

– مثل ماذا، مثلاً؟

– كلّ شيء وأيّ شيء: حبّ أنثى، النجاح في امتحانٍ أو في اختبار إجازة قيادة السيارة، الصحّة؛ ويمكن أن يكون ذلك أيضاً من أجل أن ينجبوا

أطفالاً أو الفوز باليانصيب أو أن يصبحوا أغنياء؛ أو حتى الدعاء بأن يموت أعداؤهم، وينتصروا على خصومهم.

- وهل يتحقّق هذا؟

- في بعض الأحيان نعم، وفي بعض الأحيان لا. ولكنّهم يعتقدون غالباً أنّ كلّ شيء يتعلّق بصلاتهم وبعلاقتهم مع الربّ.

جعلني أتسلّق سلّماً حتى وصلنا إلى أرغن. ضغط على مفتاحٍ من لوحة المفاتيح، فغزا صوتٌ قويّ كلّ أرجاء الكاتدرائية. شرح لي فيثاغورس:

- لحسن الحظ، إنّه مغذّى بالتيار الكهربائي الذي يبقى موصولاً على الدوام.

- كيف تفسّر وجود الكهرباء بشكلٍ دائم؟

- أصبح تشغيل محطّات توليد الطاقة النووية مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالحواسيب والمعلوماتية بحيث تواصل العمل بشكلٍ آلي حتى بغياب البشر. وهذا ما يُفسّر وجود التيار الكهربائي في المدينة بشكلٍ دائم.

ضغطتُ بقدمي على مفتاحٍ من مفاتيح اللوحة وصدر صوتٌ جعل كلّ شعري يتموّج. انضمّ رفيقي السيامي إليّ. وحينئذٍ، سار كلٌّ منّا على لوحة من مفاتيح الأرغن، وأنتجنا بذلك ما سمّاه فيثاغورس في الحال «أوّل سيمفونية للقطط».

اهتزّ المبنى بكلّ نغمةٍ صادرة عن دوس أقدامنا على المفاتيح. قفزتُ من طرفٍ للوحة المفاتيح إلى الطرف الآخر، وتغيّرت الأصواتُ عند كلّ ملامسةٍ. عزفنا لوقتٍ طويلٍ على هذا الأرغن، إلى أن قادني فيثاغورس إلى غرفةٍ كان فيها زرٌّ أحمر اللون. أخبرني، قائلاً:

- إذا حدث مكروهٌ، يجب الضغط على هذا الزرّ لكي يتمّ دقّ أجراس الكاتدرائية.

بدلاً من أن يشرح لي ما الأمر، أشار إليّ فيثاغورس أن ألحق به. صعدنا إلى برجٍ وأراني الهياكل الكبيرة الرمادية اللون وعلى شكل كمثرى.

- سوف يسمح هذا بإطلاق إنذارٍ يُمكن سماعه حتى في الأماكن البعيدة جدّاً. إنّه يصدرُ صوتاً صاخباً بالفعل.

– أكثر صخباً من صوتي عندما أصرخ؟

صعدنا إلى البرج الواقع إلى الشمال في الكاتدرائية باستخدام سلّمٍ ضيّق. أنا أعشق المراصد العالية. اخترنا مكاناً محدّداً للمراقبة: اعتلينا أعلى هيكلٍ بارزٍ سمّاه فيثاغورس «غرغول»، أي تمثال حيوانٍ من الحجر، هو كلبٌ برأس ضفدع، مكشّراً وماذّاً لسانه.

من هذا المرصد المميّز، تأمّلنا الوضع ما وراء جزيرتنا الجديدة. بدا المشهد فظيعاً. كان وجه باريس قد تغيّر. فقد انهارت المباني الأكثر ارتفاعاً، وغزت الأعشاب المباني الأخرى.

شاهدنا أعمدة الدخان الأسود تتصاعد من بعض الأماكن نحو السماء، الأمر الذي دلّ على أنّه لا يزال هناك بعض البشر الأحياء الذين يعدّون طعاماً لأنفسهم. لاحت لنا أشباح بعض الأشخاص خلسةً ورأيناهم يركضون ويختبئون وينبشون أكوام القمامة.

وفي بعض الأحيان، سُمِعت صرخاتٌ من بعيد، كان من المستحيل التعرّف على مصدرها.

وحدها جزيرتنا، منذ أن قام الشباب البشريون بتنظيفها، بدت مكاناً نظيفاً وآمناً.

قلتُ لابن جنسي السيامي:

– أشعرُ بأنني قد وصلتُ أخيراً إلى المكان الذي كان يجب أن أصل إليه.

– لدى البشر مصطلحٌ لتعريف هذا: «الفردوس». هذه كلمة من أصلٍ فارسي وتصفُ في الأصل روضةً محاطةً بجدران واقية.

منذ أن عرفتُ حكاية قمبيز الذي غزا مصر وقتل قططها، وأنا لا أثق بالفرس. ولكنني أحببتُ كثيراً مفهوم الفردوس هذا.

دوّى صراخٌ جديد، وهذه المرّة، استطعنا تحديد مصدره بوضوح كصرخةٍ صادرة عن كائنٍ بشري. أنا سعيدةٌ بكوني قطّة أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

قلتُ:

– من هنا يمكننا أن نعيد بناء عالمٍ أفضل. المستقبل لنا.

- لا بدّ أنّ هذا ما تفكّر فيه الجرذان أيضاً.

- الجرذان لا تقترح أيّ مشروعٍ بنّاء لكي يتطوّر العالم. إنّها تفكّر فقط في نجاتها واحتلال أراضٍ جديدة.

- من يدري؟ لا يمكن أن تكون مخطئة بهذا العدد الكبير. ربما يكون لديها مشروعٌ سرّي خاصّ بها، ففي نهاية المطاف...

- ما الذي يجعلك تقول هذا؟

- لا ينبغي أبداً الاستهانة بالخصم، يا باستيت.

- لا تقل لي إنّك تتصوّر إمكانية أن تكون جرذاً مستقبلياً.

- لمَ لا؟

- سوف يكون هذا جِد...

- سوف يكون جِد ماذا؟

بحثتُ عن الكلمة المناسبة ولكنني لم أجدها.

- سوف يكون هذا جِد قاسياً.

- ربّما هذا هو معنى التطوّر: عالمٌ يصبح أكثرُ قسوةً باطّراد.

قلتُ بلهجة حاسمة:

- يجب أن ننجح.

- سيتطلّب هذا النجاح منّا الكثير من الطاقة والتكيّف.

- نستطيع معاً، أنت وأنا، أن نقود وننقذ هؤلاء الموجودين في مجمّعنا، أنا مقتنعة بذلك.

هذا الحوار الذي جرى بيننا أقلقني وأثار حماستي في آنٍ واحد. ولكي أرتاح، استلقيتُ على ظهري وأفرجتُ بين قائمتيّ الخلفيتين قليلاً وأخفضتُ أذنيّ في علامة على الخضوع (المؤقّت، لا داعي للمبالغة).

مارسنا الجنس في وضعية غير متوازنة وغير مستقرة على الغرغول الأعلى في الكاتدرائية، تحت طائلة خطر السقوط والموت.

في ذروة المتعة، أطلقتُ صرخةً دوّت فوق هذه الجزيرة الجديدة التي استحوذتُ عليها.

8. جزيرة المدينة

في الأصل، كانت جزيرة المدينة مأهولة بإحدى القبائل الغالية، وهي قبيلة باريسي. وتوجدُ آثارٌ لها منذ عام 250 قبل الميلاد. ولا بدّ أنّ هذه القبيلة هي التي منحت اسمها للمدينة. كانت هذه القبيلة تسكنُ في أكواخٍ أسقفها من القشّ وتقع في الجزيرة، المحمية بدورها بأسوارٍ خشبية. كان أفراد قبيلة باريسي يتغذّون على الأسماك التي يصطادونها من نهر السين والغزلان التي يصطادونها من المستنقعات المحيطة.

حينما غزا الرومان بلاد الغال في عام 52 قبل الميلاد، أعادوا تسمية جزيرة المدينة وأطلقوا عليها اسم «لوتيسيا» وشيّدوا فيها معبداً تمجيداً للإله جوبيتر. كان عدد سكان لوتيسيا آنذاك حوالي ألف وخمسمئة نسمة، معظمهم من بلاد الغال الذين أصبحوا غاليين-رومانيين. بُنيت جدرانٌ من الحجر في سبيل حماية الجزيرة وكذلك تمّ بناء ميناء على الضفة الجنوبية الشرقية.

إبّان غزو الهون بقيادة أتيلا في عام 451 ميلادي، استطاع سكان تلك الأنحاء النجاة من خلال التجمّع في الجزيرة خلف الأسوار. وفي أعقاب هذه الواقعة، شُيّد جدارٌ أكثر سماكة، بعرض مترين وارتفاع ثلاثين متراً، حول الجزيرة.

في عام 508، شيّد الملك كلوفيس قصره في وسط الجزيرة. حينما اعتنق المسيحية، حوّل معبد جوبيتر إلى كنيسة مسيحية في موقع كاتدرائية نوتردام دو باريس الحالية.

في أعوام 845 و861 و877، نُهِبَت الجزيرة وأُحرقت من قبل الفايكينغ. وفي عام 885، هاجمت 700 سفينة تحمل أربعين ألف مقاتلٍ بقيادة الملك سيغورد باريس. هذه المرّة، نجح الكونت أود، كونت باريس أن يحتويهم وتفاوض معهم على المغادرة مقابل مبلغٍ من المال. وبناءً على هذا الانتصار النسبي، انتُخِبَ الكونت أود ملكاً لفرنسا.

في عام 1163، شيّد الملك فيليب أوغست على ضفّتي الجزيرة سوراً خارجيّاً بهدف حمايتها من وصول الغزاة إليها، وباشر الأسقف موريس دي سولي ببناء كاتدرائية نوتردام دو باريس.

بعد ذلك، غدت جزيرة المدينة قلب العاصمة: بُنيت جسورٌ من الحجر بهدف تنمية المبادلات التجارية، وتحوّل موقع ساحة دوفين الحالية إلى سوق باريسية كبيرة.

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

9. الحياة في جزيرة المدينة

نبّهني فيثاغورس:

– تصدرين صخباً بالغاً حينما تبلغين ذروة النشوة. أرسلت إليّ ناتالي رسالةً من هاتفها الذكيّ لكي تُخبرني بأنّكِ قد أيقظتِ كلّ الجماعة حينما مؤتِ من اللذّة.

يا إلهي! ليس هناك أيّ شيء يثير غضبي مثل الناس الذين يريدون أن يلقوا عليّ المواعظ بشأن حياتي الجنسية. أنا أعيش الحياة التي أريدها، وإذا كان هذا لا يعجب الآخرين، ولا سيما خدمنا من البشر، فلا شأن لي بذلك.

قلتُ:

– كأنّ ناتالي لا تُريدُ أن أمارس الجنس. على الرغم من أنني أُقدّر خادمتي، فإنّه يجب أن أقرّ في الوقت ذاته بأنّها محدودة التفكير بعض الشيء ولا تزال تعتبرنا دمى حيوانية باردة جنسياً. تذكّر أنّها قد استأصلت خصيتي فيليكس. سوف يصعب على البشر دائماً اعتبارنا كائنات حرّة، مستقلّة في كيانها، ومتساوية بالقوّة. وعلاوة على ذلك، يساورني الشكّ في أنّها تغار منّي.

راقبتُ خادمتي من بعيد ووجّهتُ لها هذه الكلمات من خلال التفكير.

عزيزتي ناتالي المسكينة، ليس لديك ذنبٌ في ذلك، ولكنّكِ لم تولدي

في الجنس الجيّد. أعتقد أنّكِ جزءٌ من العالم القديم الذي يوشك على الزوال. من الأفضل لكِ أن تُدركي أنّ هذه الحيوانات التي كنتِ تعتبرينها حيوانات أليفة بسيطة ذات طبيعة تزيينية بشكلٍ أساسي هي في طريقها إلى أن تحلّ محلّكم، أنتم البشر.

ولكن لم يكن لهذا أيّ جدوى. لم تفهمني. لا يزال هناك طريقٌ طويل يجب أن أقطعه قبل أن أنجح في التكلّم معها مثلما أتحاور مع فيثاغورس.

تنفّستُ بعمق لكي أهدّئ من غضبي. ولأنني لم أستطع التحاور مع خادمتي، رحتُ أنضمّ إلى باتريسيا، الوسيطة الروحية الخرساء التي استطعتُ في بعض الأحيان أن أتواصل معها بالتخاطر. أشرتُ إليها بأنني أرغب في التحدّث إليها فأخذتْ وضعية التلقّي.

باتريسيا، أنتِ الكائنة البشرية الوحيدة التي نجحت في الماضي أن تتواصل معي. أودّ أن توضّحي الأمور لخادمتي وأن تقولي لها إنني أفعل ما أشاء، متى ما أشاء، وإذا كان هذا لا يعجبها فالأمر عندي سواء. لا تقلقي، هي تعلم إلى ماذا أُلمّح.

تمنّيتُ أن تكون عرّافتنا الوحيدة قد فهمت رسالتي. هزّت رأسها وداعبت جبيني باتجاه انحدار الوبر.

يؤلمني أن أقول هذا، ولكنني أعتقد أنّ باتريسيا قد فقدت قدرتها التخاطرية. أو أنني أنا التي لم أعد قادرة على التواصل معها.

سرتُ في جزيرة المدينة وأنا أُضمِرُ هذه المعلومة الجديدة.

لم يتكفّل الزمن بمعالجة الأمور. لقد فقدتُ كلّ وسيلة للتعبير عن رأيي عند خدمنا. لا بأس، سوف أستخدم فيثاغورس لكي يتحدّث إلى ناتالي من خلال عينه الثالثة، طالما أنّه من الآن فصاعداً المعبر الوحيد بين حضارتينا.

مرّ يومٌ إضافي، وراودني الشعور بأنّه، على الرغم من تحفّظاتي على المغادرة، يسير كلّ شيء نحو الأفضل في هذه الجزيرة التي أرسلتها لنا السماء. ظهرت ستّة قطط جريحة جديدة على الضفة الشمالية وطلبت منّا الملاذ. ثمّ حان دور الشبان البشريين الثلاثة الذين كانوا قد نجوا من الطاعون وأرادوا هم أيضاً الانضمام إلينا. وقد جاء ذلك في الوقت المناسب، إذ إننا

كنّا بحاجة إلى أقصى عددٍ ممكن من الأيادي الخماسية الأصابع ذات المفاصل التي يتقابل فيها الإبهام مع الأصابع الأخرى.

ذهب شركاؤنا البشر إليهم بالقارب لكي يجلبوهم إلى جزيرتنا. وبما أنّ جزيرة المدينة كانت واسعة المساحة، لم تكن هناك أي مشكلة في تأمين المسكن لهم. وبهذه الطريقة، ازداد عدد جماعتنا، وبالتالي ازداد ملاك جيشنا الدفاعي.

وفي الأيام التالية، تسارعت ظاهرة اللجوء إلى جزيرتنا. وكلّما طوّرنا المرافق والتجهيزات في الجزيرة، جذبنا ناجين جُدداً من الانهيار الكبير. وما كاد أسبوعٌ يمضي حتى تحوّلنا من بضع مئاتٍ من القطط وقرابة عشرة أشخاصٍ من البشر إلى تجمّعٍ سكاني يضمّ ألف قطٍّ وقطّة وما يقرب من مئة شخصٍ من البشر.

كبُرَ ابني أنجيلو واستقرّ مع مجموعة من عشرين «مراهقاً» عند أسميرالدا، التي بدت أنّها تستمتع وتسرُّ بالاهتمام بالجيل الجديد.

أمّا بالنسبة إليّ، فكما أخبرتكم سابقاً، ليست لديّ من الغريزة الأمومية سوى القليل، وأعتبر الأطفال كبحاً لتطوّري الشخصي. أمّا أنجيلو، فأنا أحبّه ولا سيما أنني... لا أراه غالباً. وحقيقة أنّ أسميرالدا تسهر على تربيته بدت لي على أنّها بادرةٌ منها تجاهي. بل إنني اعتقدتُ أنّه يجب أن يودَع الأطفال لدى منْ يحبّون القيام بتربيتهم وليس لدى منْ يعتبرون تربيتهم سخرةً وعملاً شاقّاً.

في المرّة الأخيرة التي ذهبتُ فيها لزيارة ركن «الشباب»، لمحتُ من بعيد ابني أنجيلو وهو يتلهّى مع المراهقين الآخرين بسلخ ضفدعٍ وسط تشجيع أسميرالدا. قلتُ في نفسي آنذاك إنّ هذا أفضل ما يمكن أنْ يحصل له. لا سيما أنّه، من خلال ممارسة التشريح، سيتعلّم أين تقع أعضاء الجسم (ولأنّ للبرمائيات دمٌ شفّاف، فهي تلوّث فراء من يقومون بسلخها بدرجة أقلّ ممّا تلوّثه القوارض، وجميع الأمّهات يعلمن هذا).

عندما نظرتُ من بعيد إلى صغيري، الذي، ويجب أن أقرّ بذلك، أصبح قطّاً يافعاً، أدركتُ أنّه قد اتّخذ لنفسه دور قائد القطيع. كان يتوجّه إلى

القطط الشابّة الأخرى بازدراء. كان يتّخذ وضعية المُسيطر أمام الأكثر ضعفاً والأسهل تأثّراً.

يجب أن أراقبه، لم يعد ينقصه سوى أن يعتبر نفسه... أنا!

ولكي نختم تعاوننا الناشئ مع أصدقائنا من ذوي القدمين، اقترحتُ أن نقيم حفلاً نحتفي فيه بفردوسنا.مكتبة سُر مَن قرأ

ناقش فيثاغورس هذا الموضوع مع ناتالي التي لم تكتفِ بالموافقة على إعطاء بعض التوجيهات في هذا الاتجاه إلى البشر الآخرين لكي يقوموا بتنظيم هذا الحدث، بل صعدت إلى الكاتدرائية وراحت تعزف على الأرغن. ودوّت الألحان الأولى في المكان.

قال القطّ السيامي كخبيرٍ في هذا المجال:

- إنّها مقطوعة «توكاتا» للموسيقي يوهان سيباستيان باخ.

دوّت أنغام «توكاتا» باخ، التي ازدادت مهابةً باطّراد. أعجبتني تلك الموسيقى، وهذا ما منحني فكرة الصعود إلى الكاتدرائية والانضمام إلى خادمتي أمام الأرغن. حينما وصلتُ إلى قبالتها، راقبتُ أصابعها العشر وهي تسير فوق لوحة المفاتيح مثل عنكبوتين كبيرتين ورديتين.

بعد صوت كالاس في مقطوعة «كاستا ديفا» للعازف بيلليني، ومعزوفة «الربيع» للموسيقي فيفالدي، اللتين استمعتُ إليهما سابقاً في مونمارتر في منزل خادمتي، اكتشفتُ «توكاتا» باخ. المقطوعة الواسعة والقويّة هزّت قفصي الصدري وسرت ارتعاشاتٌ حتى بلغت ذيلي. وبذلك، شعرتُ بالأثر المدهش الذي يمكن للموسيقى أن تتركه على الجسد.

شعرتُ بأنني أتحسّن حالاً تدريجيّاً كلّما ارتفع صوت المقطوعة وتردَّدت أصداؤها. أُعجبتُ بأداء خادمتي ناتالي. مأخوذةً بإلهامٍ مفاجئ، بدأتُ أمشي على المفاتيح وأموء. نويتُ أن أخترع أوّل مقطوعةٍ موسيقية مشتركة للبشر والقطط.

لكنّ تدخّلي هذا أثّر سلباً وجعلها تتوقّف عن العزف. أخذتني بين ذراعيها وداعبتني. وقد أغاظني هذا التصرّف بعض الشيء، فأنا التي أردتُ أن أعزف، شعرتُ بأنّها استهانت بي مرّة أخرى، واعتبرتني أيضاً مثل دميةٍ، دون أن تُدرك أنني لبؤة صغيرة.

آثرنا أن نغادر، أنا وكرامتي، لكي نعود إلى حارة القطط. مؤْنا في جوقةٍ بأغنيةٍ شعبيةٍ خاصّة بحي مونمارتر ما كان لأحدٍ من البشر أن يفهمها.

أوقد الشبان البشريون ناراً كبيرة وبدأ الجميع بالرقص على أنغام موسيقية أكثر جاذبيةً. في البداية، رقص الشبان البشريون، ذكوراً وإناثاً، وسرعان ما انضمّت إليهم قططٌ حاولت أن تقلّد حركاتهم في الرقص وهي تسير لأطول مسافة ممكنة على قوائمها الخلفية.

اقترب منّي فولفغانغ وقال لي:

– شخصياً، أنا أرى فنّ الطبخ أكثر أهمية من فنّ الموسيقى أو فنّ الرقص.

فشرح لي قطّ شارتروه ذو الفراء الأزرق المائل إلى الرمادي تجربة لها علاقة ليس بالغذاء، بل بما يعتبره مكمّلاً غذائياً ضرورياً: السمك. كما اقترح عليّ أن أتذوّق أرقى مشروبات البشر: «الشمبانيا».

– هل أحببتِ الكافيار؟ الشمبانيا هي المُعادل السائل للكافيار: إنّه ثاني أغلى غذاءٍ للبشر.

طاب فيثاغورس من ناتالي أن تعثر على بعض الشمبانيا. وإذ قبلت التحدّي، تمكّنت من العثور على زجاجة في شقّة مهجورة وقدّمتها لي في إناءٍ. ولأنني كنتُ قد أُعجبتُ بالكافيار، شعرتُ بأنني في مأمن. وحتى من دون أنّ أشمّها، أخذتُ لعقةً كبيرةً ابتلعتها دفعةً واحدة. سعلتُ. الشمبانيا ليست معقّدة: إنّها تشبه البول، ولكن لها نفس مذاقه أيضاً! الاختلاف الوحيد بينهما هو الفقاعات التي تتفرقع في سقف الفم والحلق. كما أنّها تسبّب الدوخة والدوران! بصقتُ عدّة مرّات. بدا فولفغانغ لاهياً، ولكنّه حثّني على المواصلة.

– واصلي الشرب؛ سترين، إذا شربتِ الكثير منها سوف تُعجبين بها في النهاية. لقد انزعجتِ لأنّكِ لم تشربي منها سوى ما يكفي لجعلها تبدو سيئة.

وإذ قرّرتُ أن أعمل بنصيحته، على الرغم من غرابة المبرّر الذي قدّمه، لعقتُ أيضاً المزيد من الجرعات منها ولكنني بقيتُ لا أستسيغها. لقد أدى ذلك إلى شعوري بالمزيد من الدوخة. شعرتُ بدوارٍ، وتمايلتُ، وشعرتُ بأنني لم أعد أتحكّم بذهني.

سألني فولفغانغ:

- هل أنتِ بخير؟
- كلّا، لستُ بخير، وكأنّ دماغي متهتّك.
- هل هو شعورٌ جميل؟
- كلّا، إنّه كما لو أنني لم أعد أسيطر على تفكيري. هذا المشروب يشبه نعناع الهرّ الحقيقي بعض الشيء ولكنّه أكثر حموضةً. أنا أكره فقدان السيطرة على أفكاري. من غير الوارد أن أشرب مرّة أخرى من سُمّكَ هذا!

بدا أنّ قلب قطّ شارتروه قد رقّ من جرّاء ردّ فعلي.

- لم تشربي بعد ما يكفي منه. عليكِ أن تعاودي شربه، ولكن بالإقبال عليه على نحوٍ أكثر جدّية. لا تكتفي بلعقةٍ، بل ابتلعي محتوى الوعاء كلّه. هذا ما كان يتناوله رئيس الجمهورية لكي يبدأ نهاره. هذا مشروبٌ رئيسي، ويهب أفكاراً رئيسية.

لم أعد أُصغي إليه، وإذ استبدت بي رغبة مفاجئة في التقيّؤ، أسرعتُ إلى شرب الماء لكي أخفّف هذه المادة الشرّيرة التي أثارت الاضطراب في جسدي وذهني.

10. الفوارق بين القطط والبشر

القطط والبشر لا يشعرون بالأشياء بنفس الطريقة. على سبيل المثال، فيما يتعلّق بالطعام: القطّ يأكل حينما يكون جائعاً في حين أنّ الإنسان يأكل حينما يحلّ موعد الفطور أو الغداء أو العشاء. وبفعل هذه العادة، يمكن للقطّ أن يتناول عشر وجبات في اليوم أو لا يتناول أيّ وجبة، في حين أنّ الإنسان يتناول ثلاث وجبات كلّ يوم، حتى إن لم يكن جائعاً. في الوقت ذاته، حينما تمتلئ معدته، يكفّ القطّ عن تناول الطعام، في حين يواصل الإنسان تناول الطعام بحكم العادة. حينما يلتهم الكائن البشري أطعمة مالحة، حلوة أو دسمة، يشعر دماغه بمتعة ليست لها أيّ علاقة بالشبع. يمكن لمظهر الطعام أو لونه أو حتى قيمته الغذائية أن يمنح الكائن البشري الرغبة في تناوله، في حين أنّ الجسد لا يرى ضرورة لذلك.

كما أنّ هناك اختلافاً بين القطّ والإنسان بشأن مواعيد نشاطهما: الإنسان

ينشط في النهار ويرتاح في الليل، في حين أنّ القطّ ينشط وقتما يرغب ويرتاح عندما يشعر بالتعب. كلّ هذا يؤدّي إلى أن يمرض الإنسان في أغلب الأحيان، لأنّه يعاني من سوء في طريقة التغذية ومن التعب، في حين أنّ القطّ، الذي اعتاد على تلبية حاجاته الحقيقية، يبقى متّسقاً مع جسده. لنأتي الآن إلى الحواس، التي يتمّ استخدامها على نحوٍ مختلفٍ تماماً عند السنوريات وعند البشر.

فيما يتعلّق بحاسّة السمع، لدى البشر نمطٌ صوتي أكثر انخفاضاً بكثير. فإذا كان القطّ يلتقطُ الأصوات المرتفعة التي تصل إلى حدّ خمسين ألف هرتزٍ، فإنّ طاقة الأذن البشرية محدودة بقدرة 20 ألف هرتزٍ.

أمّا بالنسبة إلى حاسّة الشمّ، فإنّ قدرة القطّ على تحسّس الروائح متطوّرة أكثر بأربعين ضعفاً ممّا هي عند الإنسان، وذلك بوجود ما لا يقلّ عن مئتي مليون نهاية عصبية لخلايا الاستقبال، مقابل فقط خمسة ملايين عند البشر.

أمّا فيما يتعلّق بحاسة النظر، لدى البشر حقل رؤية يقتصر على 180 درجة، مقابل 280 درجة بالنسبة إلى القطط، علاوة على أنّ البشر لا يرون في الظلام. وعلى خلاف القطط، ليس لدى البشر الجفن الثالث، الذي يُسمّى «الغشاء الراف»، ويعني جلداً رقيقاً جدّاً وشفّافاً يبدأ من الزاوية الداخلية للعين (ويتيح فلترة بعض أنواع أشعّة الشمس ويخفّف من توهّجها).

القطط مزوّدة بعضو جاكبسون، وهو عضو شم إضافي. وهو عبارة عن حاسّة تسمح بتذوّق الروائح من خلال رفع الأنوف لكي تسمح للروائح بالصعود عبر قناتين واقعتين خلف القواطع.

كما أنّ القطط تشعر بالذبذبات الخفيفة للغاية في الهواء، في حين أنّ البشر، لكونهم لا يملكون شعرات استشعار، ليسوا حسّاسين سوى للأصوات والصور. وبالتالي كلّ حدث صامت يجري خلفهم يكون غير محسوسٍ بالنسبة إليهم، وذلك بعكس السنوريات.

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

11. الإفراط في الثمالة

لا أدري تماماً، ولكنني أعتقدُ أنني لم أُخلق حقّاً من أجل شرب الشمبانيا. مشروب الزعماء البشريين الذي شربتُه مساء أمس أصابني بآلامٍ في الرأس وبتشنّجات في المعدة خلال الساعات التي تلت. حتى إنني استيقظتُ من النوم جفلةً في منتصف الليل. يبدو أنّ الفنّ الموسيقي الممزوج بفنّ المطبخ له تأثيرٌ سيّئ على جهازي الهضمي وعلى دماغي.

ولما استيقظتُ من نومي، لم أعد قادرة على العودة إلى النوم، وقرّرت أن أغادر غرفة عازف الأرغن في كاتدرائية نوتردام الباريسية (التي نمتُ فيها ملتصقةً بخادمتي مثل كيس ماءٍ دافئ). نزلتُ درج الكاتدرائية ووصلتُ إلى الساحة.

هناك، تبوّلتُ لكي أتخلّص من ذلك السائل المشبوه.

غامرتُ بالتجوّل وحدي في جزيرة المدينة، المهجورة في ذلك الوقت المتأخّر من الليل. فكّرتُ في الفرصة الرائعة التي توفّرت لنا لكي نحصل على ملاذٍ محميٍّ جيّداً حيث تستطيع القطط أن تُحضّر فيه بهدوء لعصر «ما بعد البشرية».

تساءلتُ في نفسي ما إذا كان عليّ أن أُعيد النظر في رأيي بشأن وضعية السير على قدمين وارتداء الثياب. لقد بدا لي هذا الأمر على الدوام من الأخطاء، ولكن في نهاية المطاف ربّما يكون هذا الأمر قد ساهم في نجاح البشر.

شعرتُ بالعطش، وكان عليّ أن أشرب ماءً بارداً لكي أُخفّف من الآثار الضارّة للشمبانيا وأُنظّف أمعائي. وبدا لي تماماً أنني قد رأيتُ نافورةً في مترو الأنفاق.

اكتشفتُ مدخل نفق المترو، ونزلتُ السلالم ووجدتُ موزّع مياهٍ يمكنُ فتح صنبوره من خلال الضغط على مقبضٍ، الأمر الذي كنتُ قادرة تماماً على فعله. وأخيراً شربت.

ولكن سمعتُ سريعاً جدّاً صوتاً غير طبيعي. أدرتُ أذني اليسرى (الأكثر

حساسيّةً) على محورها لكي أكتشف مصدر هذا الضجيج الليلي. كان الصوت أشبه بصوتِ سحجٍ على حجرٍ. دوّى صوت الضجيج من جديد، قبل أن يتوقّف. ثمّ بدأ مرّة أخرى. ليس هناك من شكّ، يصدر الصوت من أسفل المصعد.

نزلتُ درجات السلّم بخطواتٍ بطيئة وصامتة ووصلتُ إلى أمام الجدار القرميدي الذي بناه خدمنا البشريون من أجل سدّ مدخل المحطّة. كان الصوت المتقطّع شبيهاً بخدشٍ عنيفٍ. كما لو أنّ شيئاً حادّاً وقاسياً يخدش القرميد من خلف السور. كان ذلك يُصدر صوتاً عميقاً ومنتظماً وواخزاً.

مؤتُ بنبرةٍ متسائلة:

- هل من أحد؟

توقّف الضجيج في الحال. انتظرتُ في مكاني. استؤنِفَ الضجيج. مؤتُ مرّة أخرى.

- هل تسمعونني؟

توقّف الضجيج.

لم يكن هناك أيّ شكّ. لا بدّ أنّ أحداً ما أو شيئاً ما يخدش خلف الجدار. فكّرتُ بصورة عفوية في تسرّبٍ للمياه من أنبوبٍ صدئٍ ولكن حقيقة توقّف الصوت حينما أموء دحضت هذه الفرضية.

استخدمتُ كلّ حواسي بهدف محاولة تحليل هذه الظاهرة. انحنيتُ على عصفورٍ كان نظام التهوية قد سحبه.

- منْ هناك؟

ألصقتُ أذني بالسور، وأوسعتُ ذهني لكي أحاول أن أتصوّر شكل الحياة التي تتجلّى خلف الجدار.

في تلك اللحظة بالتحديد، فجأةً، انهار الجدار.

وظهرت حينئذٍ من بين الأنقاض، ليس جرذ واحد ولا جرذان، بل عدّة مئات من الجرذان الضخمة السوداء.

وكردّ فعلٍ عفوي، قفزتُ إلى السقف، وغرزتُ مخالبي فيه كي لا أسقط. مرّ قطيع الشعر والأسنان القاطعة من تحتي، دون حتى أن يُعيرني انتباهاً، وهرول إلى نفق المترو لكي يصعد إلى السطح.

وحينئذٍ فهمتُ كلّ شيء: *لقد حفرت هذه الجرذان بقواطعها القرميد مباشرةً.*

وبعد أن مرّت، ركضتُ لكي أعود إلى الكاتدرائية. تسلّقتُ السلّم بأقصى سرعة وضغطتُ على الزرّ الأحمر الذي كان فيثاغورس قد دلّني عليه وأخبرني بأنّه مخصّص لإطلاق النفير العامّ.

أخذت الأجراس تتأرجح وتُصدرُ ضجيجاً يصمّ الآذان.

استيقظت قطط الفردوس جفلاً. مرّة أخرى، أبديتُ ردّ الفعل المناسب. صرختُ من الأعالي:

- جرذانٌ! جرذان!

رأيتُ من مكاني قطيع الجرذان وهو يجري وينتشر في فردوسنا.

إنّها في ديارنا، ويجب إيقاف هذا الأمر.

مؤتُ:

- هيا أسرعوا في البحث عن هانيبال وإحضاره!

وأخيراً، تصرّفت بعض القطط التي سمعت ندائي. راحت توقظ الأسد الهارب من سيرك غابة بولونيا. لا أدري إن كنتم تعرفون ذلك، ولكنّ الأسود أكثر حساسية حتى منّا نحن القطط فيما يتعلّق بنومها. ربّما يتطلّب حجمها الضخم جهازاً هضمياً أكثر ثقلاً، الأمر الذي يجعلها تكره أن يُزعجها أحد. شخصياً، ما كنتُ لأفضّل أن أكون جرذاً أمام أسدٍ قُطِعت استراحته على نحوٍ غير متوقّع. وقف هانيبال، الغاضب، أمام القطيع المعادي وأطلق زئيراً جمّد فجأةً المهاجمين الأوائل في أماكنهم. ثمّ غاصت قوائمه في قطيع الجرذان. مزّقت مخالبه الطويلة والحادّة كتلة الوبر الرمادية. أخفض هانيبال خطمه وبدا أنّه يلتهم القوارض مثل العشب. تمزّقت أجسام الواصلين الجدد واختُرِقَت وسُحِقَت، وتطايرت في الهواء.

ظهرت خلف الأسد قططٌ بدت كأنّها جاءت كتعزيزات ولكنّها لم تكلّف نفسها حتى عناء التدخّل، بل اكتفت بإبداء إعجابها بقوّة كهذه للطبيعة.

خلال بضع دقائقٍ من المواجهة (إذا كان بوسعنا أن نسمّيها بهذا الاسم)، تحوّل الغزاة إلى جثث، بعضها كاملة، وأخرى ممزّقة إلى أشلاء.

مؤثُ:

- هيّا يا هانيبال، أظهر لهم أنّ الجرذان ليست محلّ ترحيبٍ هنا.

وصل البشر أخيراً ولم يجرؤوا حتى على الاقتراب من ساحة المعركة، خشية من أن يتلقّوا ضربات عشوائية من مخالب الجرذان أو من أن تُصيبهم عدوى الطاعون. أمّا بالنسبة إلى الجرذان القليلة التي نجت من المعركة، فقد انتهت إلى محاولة الانسحاب نحو النهر.

ولكنّ القطط من أبناء جنسي، التي استبقتها، قطعت عليها الطريق.

مؤثُ:

- أيّها القطط، لا تقتلوهم جميعاً! حاولوا أن تأخذوا بعض الأسرى منهم!

لم يبقَ سوى جرذٍ واحدٍ محاصَرٍ من قبل القطط.

حينئذٍ، وجدتُ نفسي مرغَمَةً على أن أقوم بما هو أسوأ: تدخّلتُ واعترضتُ أبناء جنسي لكي أحمي هذا الجرذ الوحيد الناجي من المعركة.

- ولكن انتبهي! يجب الإبقاء عليه حيّاً لكي يكشف لنا عمّا يعلم عن الجرذان الأخرى. إذا قتلتِه، سوف نخسر معلومات قيّمة.

حدّقتُ في الحيوان الذي أنقذته. كان جرذاً ضخماً لونه رماديٌّ غامق، وله عينان سوداوان وقواطع طويلة بيضاء وحادّة، ولا يزال يرتعش من شدّة الخوف. حتى إنني سمعتُ فكّيه وهما يصطكان. يجب أن نفهمه: كان على الأرجح يجهل حتى هذا اليوم وجود الأُسود. تصوّرتُ أنني لا بدّ أن أواجه جرذاً أكبر حجماً من الجرذان الأخرى بعشرة أضعاف، وفكّرتُ بأنني، حتى أنا، سوف أكون في حالةٍ من الذهول التامّ أمامه.

تساءلتُ في نفسي عن كيفية التحدّث مع هذا الأسير. شخصياً، لا أتحدّث لغة الجرذان. أمّا باتريسيا، وهي الأكثر قدرة على الحوار، تهيّأت وهي تتناول أعشاباً خاصّة، وغرقت في ما يشبه غفوةً. أُطعِمَ الجرذ هو الآخر قسراً من نفس تلك الأعشاب المهلوسة. ظلّ الاثنان لوقتٍ طويل كما لو أنّهما نائمان، ووحدها الرموش المرتعشة والحركات الخفيفة لفميهما كانت تدلّ على أنّ حواراً صامتاً يجري بينهما.

حين فتحت باتريسيا عينيها أخيراً، أشارت إلى أنّها استطاعت أن تحصل

على المعلومات التي نرغب في الحصول عليها. كتبتْ ما حصلتْ عليه إلى ناتالي، التي حوّلته بدورها إلى فيثاغورس، الذي ترجمه لكلّ القطط.

بعد هزيمتها في جزيرة البجع، فرّت الجرذان الناجية وتجمّعت في جنوب غرب باريس. وقد أجرت نوعاً من التقييم والمراجعة: استُدعي قمبيز، ملك الجرذان، لكي يشرح للذكور الآخرين فشل المعركة. وقد ذكّروه بالنتيجة الرديئة التي توصّلت إليها قواته، في حين أنّها كانت متفوّقة عددياً وكان من المفترض أن تسهّل قدرتها على السباحة انتصارها.

حاول قمبيز أن يجد لنفسه الأعذار، ولكن جهوده ذهبت سدى. وبالتالي أصبح موقعه كزعيم موضع شكٍّ وتساؤل. وقد خلص الذكور إلى تحميله كامل المسؤولية عن النتيجة المزرية لمعركة جزيرة البجع. وكان عليه أن يدفع ثمن هذا الإخفاق.

فتح الذكور الآخرون جمجمته والتهموا دماغه ملء قواطعهم وهو حيّ. عندنا، نحن نأكل أعداءنا لكي نحصل على قوّتهم؛ أمّا الجرذان، فقد التهمت زعيمها لكي تحصل على ذكائه. في أعقاب عملية الإعدام الطقوسية تلك، أجرت الجرذان مبارزات بين الذكور المسيطرين في سبيل إيجاد خلفٍ للملك السابق قمبيز. حيث وحده الأقوى من بينهم يستطيع قيادتهم.

تقاتل المحاربون بعضهم مع بعض حتى الموت حتى لم يتبقّ منهم سوى محاربٍ واحد. ولكي تتأكّد من أنّها تمتلك أفضل قائدٍ، كانت الجرذان مستعدّة للتضحية بمقاتليها الأكثر شجاعةً.

وفي الواقع، تغلّب واحدٌ من بينها على جميع الجرذان الأخرى.

والمثير للدهشة هو أنّه لم يكن الجرذ الأكبر حجماً ولا الأقوى عضلاتٍ ولا الأطول أنياباً ولا الأكثر حدّة لمخالبه، كلا، كان المنتصرُ على حجمٍ متواضعٍ، ووبره أبيض اللون على نحوٍ متناسقٍ وعيناه حمراوين. حسب ما قال أسيرنا، كانت أسطورته تسبقه.

لقد قيل إنّه أقام عند البشر الذين أجروا عليه تجارب وأخضعوه لأسوأ الاختبارات، ولكنّه نجا منها جميعاً ومنحته هذه الاختبارات القدرة على النجاة وعلى التأقلم الهائل.

اتّسم هذا الزعيم الجديد بالهدوء الدائم. وحين يُقاتل، يعوّض عن حجمه الصغير بموهبةٍ فائقة في تحاشي أيّ ضربة من خصومه. وكان يكتشف نقطة ضعفهم ويضرب بسرعةٍ هائلة، وبذلك يكون متقدّماً دوماً بخطوةٍ على الآخرين.

وبهذه الطريقة انتصر هذا الجرذ الصغير الأبيض ذو العينين الحمراوين على جميع خصومه. وبعد انتصاره، أعلن أنّه يكره البشر بسبب الأذى الذي ألحقوه به وأنّه ينوي أن يقتلهم جميعاً دون استثناء، لكي يُنسى حتى وجودهم. كما كان يكره الكلاب والقطط أيضاً، التي، حسب رأيه، لا تمتلك ذرّة من الكرامة وليست سوى عبيدٍ خاضعين للبشر.

وقد تعهّد لشعبه بأنّ القطط والبشر الذين شاركوا في معركة جزيرة البجع سوف يُذاقون عذاباً أليماً في سبيل إزالة آثار هذه الهزيمة المذلّة وحتى لا يحاول أيّ قطّ أو إنسانٍ في المستقبل أن يقاومه.

وقد شرح الأسير أنّ هذا الملك الجديد مزوّدٌ بثقبٍ في جبينه يستطيع بفضله أن يتّصل بالحواسيب البشرية ويصل بذلك إلى كلّ المعارف البشرية القديمة.

تبّاً، هو الآخر مزوّدٌ بعينٍ ثالثة!

بعد اكتشافه لتاريخ البشرية وزعمائها الرئيسيين، اختار الملك الجديد للجرذان اسمه تيمّناً بكائنٍ بشريٍّ شهيرٍ من الماضي رغِبَ في أن يُقارَن به.

«تيمورلنك».

لقد أكّد الأسير أنّ هذا الجرذ الأبيض ذا العينين الحمراوين، أوّل ما أصبح ملكهم الجديد، استطاع أن يوحّد كلّ قطعان المنطقة من الجرذان لكي يشكّل منها قطيعاً واحداً ويُطلق عليه اسم: القطيع البنّي. وهذا القطيع يُقيم في منزلٍ كبيرٍ يقع في غرب باريس، وهو المنزل الذي يُخطّط تيمورلنك انطلاقاً منه لغزوة الجرذان القادمة.

سوف يأتي القطيع البنّي إلى هنا قريباً، لأنّ المجموعة التي دهمت الجزيرة هذه الليلة لم تكن سوى فرقة خاصّة من الكشّافة والمستطلعين. سوف يأتي الجزء الأكبر من الجيش، المكوّن من العديد من الجرذان، لكي

يدمّر كلّ شيء. وخلُص الأسير إلى القول إنّنا لن نستطيع فعل أيّ شيء لإيقاف تيمورلنك وقطيعه البنّي.

بيد أنّ أسيرنا استغلّ لحظةً من الإهمال وعدم الانتباه واستطاع أن يفلت منّا. ما كدنا أن نلحق به حتى صعد إلى برجٍ من أبراج نوتردام وقفز في الهواء، متحطّماً في الأسفل في ساحة الكاتدرائية. ذُهلتُ لما فعله، وسألت:

– لماذا فعل هذا؟

أجاب فيثاغورس:

– إنّه جرذٌ متعصّب. لقد أراد على الأرجح أن يضحّي بحياته كيلا يُزوّدنا بالمزيد من المعلومات حول أبناء جنسه.

– ولكن في هذه الحالة، لماذا لم يُقدم على ذلك في وقتٍ سابقٍ؟

– أراد أن يمرّر إلينا رسالة مفادها أنّ تيمورلنك والقطيع البنّي سيأتون إلينا. أراد أن يزرع الخوف في صفوفنا.

لم يستطع القطّ السيامي أن يكبح حركة غاضبة بطرفي أذنيه.

توجّه نحو غرفة ناتالي ولحقتُ به. أمسك بكفّيه بحبل الناقل التسلسلي العام (يو إس بي) وأوصله بعينه الثالثة. عرفتُ أنّه كان يُراجع الإنترنت. رأيته يركّز تفكيره، ثمّ نزع في النهاية الحبل؛ لم يستطع أن يكتم تكشيرة بطرف خطمه.

سألته بلهجة حذرة:

– ماذا هناك؟

انتفض كما لو أنّه أراد أن يتخلّص من المعلومة التي دخلت لتوّها إلى دماغه.

– ما حدث هو أنني وجدتُ على الإنترنت منْ هو الكائن البشري الذي يعود إليه اسم تيمورلنك.

12. تيمورلنك (الجزء الأوّل)

كان تيمورلنك الغازي الأشدّ قسوة والأكثر دمويةً من بين جميع غزاة القرون الوسطى. يجري الحديث عنه كما لو أنّه «حدثٌ تاريخي»

لأنّه يُعطي الانطباع بأنّه قد قضى حياته في الحروب ليس من أجل بناء إمبراطورية، بل بكلّ بساطة من أجل قتل أكبر عدد ممكن من البشر وبأبشع الأساليب. وُلِد تيمورلنك في الثامن من نيسان / أبريل من عام 1336 في مدينة كيش، في أوزبكستان. جرت عملية الولادة بطريقة سيّئة وخرج من بطن أمّه ويداه داميتان. بالنسبة إلى بعض الناس، هذه الحادثة الأصلية تفسّر تعطّشه للقتل.

كان والده زعيماً قبلياً منغولياً معتنقاً الإسلام. حسب الأسطورة، سيكون هذا الأخير قدّ سمّى ابنه تيمور لأنّه بينما كان يريد أن يقدّمه إلى الشيخ المحلي الذي كان يتلو القرآن، قطع الشيخ تلاوته عند كلمة تامارو التي تعني «ارتجاج». وفيما بعد، أُضيفت صفة (لنك) التي تعني (الأعرج) في اللغة المنغولية إلى اسمه، لأنّ تيمورلنك كان يعرج نتيجة إصابته بجرحٍ في إحدى معاركه الحربية.

في سنّ السادسة عشرة، انخرط تيمورلنك في جيشٍ تركيّ كانت ميزة قائده، كازغان، الوحيدة هي أنّه قتل آخر خانٍ للقبيلة المنغولية المحلية. علّمه كازغان فنون السياسة، مؤكّداً له أنّ الرياء والخيانة والقتل والتآمر هي مكوّنات ضرورية لتسلّق سلالم السلطة.

في سنّ السادسة والثلاثين، تحالف تيمورلنك مع شقيقه حسين من أجل غزو سمرقند، ومن ثمّ قام بتسميم هذا الشقيق نفسه لكي ينفرد بالحكم. ولكنّه لم يبقَ طويلاً في حكم عاصمته الجديدة، إذ سرعان ما جرّد جيشاً عرمرماً وانطلق به من أجل غزو البلدان المجاورة. وخلال السنوات الثلاثين التي أعقبت ذلك، كرّس حياته لإشباع رغبته في التدمير وسفك الدماء والسلب والنهب والتعذيب والقتل على أوسع نطاق. حسب مؤرخيه الرسميين، كان يزجّ بنفسه في المعركة كما لو أنّه ينخرطُ في حفلةٍ. لم يكن يقود قواته كقائدٍ استراتيجي، بل تبعاً لنوبات غضبه العارمة ونزواته الهوجاء. كان سلاحه عبارة عن هراوة على شكل جمجمة ثورٍ مغطاةٍ بطبقة سميكةٍ من الدماء الجافّة لضحاياه.

كان تيمورلنك يحلم بإعادة تأسيس إمبراطورية جنكيز خان المغولية. ولكنّه أراد أيضاً أن تكون هذه الإمبراطورية مسلمة وأوسع مساحة بما لا يُقاس. وبدل أن يأخذ لقب الخان، لقّب نفسه بالسلطان.

في عام 1380، استولى على إيران، وفي عام 1386، استولى على العراق وجورجيا قبل أن يشنّ، في عام 1389، حملةً ضدّ خانيّة القبيلة الذهبية المغولية التي يقودها الابن البكر لجنكيز خان.

وقد نجح في التغلّب عليه. وبهذه المناسبة، دمّر منطقة أستراخان تدميراً كاملاً، وهاجم موسكو، ودمّر القرم. وأينما حلّ، أسر السكان المسيحيين، ثمّ قتلهم بالطريقة الأكثر إيلاماً والأكثر إثارةً، مخترعاً في كلّ مرّة وسائل تعذيب جديدة وحشية ومروّعة بهدف ضرب الروح المعنوية لضحاياه. على سبيل المثال، في عام 1383، في إقليم باكستان، كدّس ألفي أسيرٍ حيٍّ بعضهم فوق بعض وصبّ فوقهم الأسمنت لكي يبني منارة.

في عام 1387، في أصفهان، ولكي يقمع تمرّداً، راودته فكرة أن يبني في مدخل المدينة العديد من الأهرامات المبنية من جماجم 70 ألف أسيرٍ كان قد قتلهم.

في عام 1398، خلال غزوه للهند، وبعد الاستيلاء على دلهي، نحر 100 ألف أسيرٍ، قائلاً: «كنتُ أتمنّى أن أجنّب السكان هذه المحنة لكنّ الله شاء خلاف ذلك».

في عام 1400، في بغداد، طلب من جنوده أن يجلب كلّ واحدٍ منهم رأس أحد السكان، يُلقى القبض عليه مصادفة. وبنى باستخدام 90 ألف جمجمةٍ، أُحضِرَت بهذه الطريقة، مئة وعشرين برجاً يتكوّن كلّ برجٍ من 750 جمجمةً. وقبل أن يرحل، أحرق المدينة، ودمّرها عن بكرة أبيها.

في عام 1402، وصل إلى أنقرة ووجد نفسه في مواجهة السلطان العثماني بايزيد الأوّل. وكان هذا الأخير، المسلم بدوره، منافسه الرئيسي في الغزوات والمجازر ضدّ غير المؤمنين. في الواقع، كان قد سبق له أن

دمّر بلغاريا وصربيا واليونان وأباد كلّ السكان المسيحيين لتلك البلدان. تواجه القائدان ذات يومٍ أثناء معركة أنقرة، التي وقع فيها وحدها، حسب مؤرخي ذلك العصر، مليون قتيل. حينما هبط الليل، كان النصر من نصيب تيمورلنك. أسر بايزيد الأوّل وتركه يحتضر في قفصٍ حديديٍّ صغير معلّقٍ في الهواء داخل قاعة الطعام خاصّته. مات بايزيد جوعاً وهو يُشاهدُ ولائم أعدائه.

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

13. أيام هادئة في الفردوس

أضاء شعاعٌ من الشمس السماء. بعد الهجوم الليلي، استعادت الحياة مجراها الطبيعي في جزيرة المدينة.

أعاد خدمنا البشريون سدّ النفق المؤدّي إلى المترو وركّبوا باباً معدنياً مصفّحاً حصلوا عليه من أحد البنوك. أمّا بالنسبة إلى القفل الرقمي، فكان فقط إدخال رقمٍ من عدّة أعداد يسمح بفتحه وإغلاقه.

في الأيام الّتي تلت ذلك الهجوم، انضمّ إلينا عددٌ إضافي من القطط والبشر سباحةً إلى الجزيرة. وكلّما ازداد ملاك جماعتنا عدداً، استطعنا بناء المزيد من التحصينات للاحتماء من هجمات المعتدين. ونتيجةً لذلك، ارتفع عددنا، خلال أسبوعٍ واحدٍ فقط، إلى ثلاثة آلاف قطّ وقطّة، وخمسمئة كائنٍ بشري. وعلى الأرجح لأننا كنّا متلاحمين في مواجهة المحن والشدائد، كنّا جميعاً متفاهمين على نحوٍ ممتاز.

لإراحة أعضاء جماعتنا، شكّلت أسميرالدا جوقة غنائية من القطط والبشر الذين تعلّموا المواء معاً مستفيدين من النظام الصوتي الخاصّ الموجود داخل كاتدرائية نوتردام.

وزّعت المشاركين على ثلاث مجموعات منفصلة وطلبت منهم أن يغنّوا مع فارقٍ زمنيٍّ قصير وفقاً للمجموعات نفس الأغنية المكوّنة من نفس المواء. وقد أخبرنا فيثاغورس أنّ هذه المقطوعة الموسيقية تُسمّى «كانن».

حضرتُ واحدة من جلسات المواء الجماعي تلك. وما أدهشني هو أنّ هذا المزيج من كلّ أصواتنا، البشرية والسنورية، نجح في الاندماج ليشكّل صوتاً واحداً لا غير. سمّى القطّ السيامي هذه السحابة الصوتية «إغريغور»[1] وأخبرني بأننا نستطيع أن نتصوّر سحابةً تفكيرٍ مشابهة لسحابة الصوت هذه، أي نتصوّر «إغريغوراً روحياً» شبيهاً بالإغريغور الصوتي الذي شكّلناه للتوّ.

حتى الآن لا أعلم تماماً عن ماذا كان يتحدّث، ولكننا قرّرنا أن نقيم ورشات تعليمية تكون لكلّ واحدٍ منّا مهمة التعليم فيها.

على سبيل المثال، علّمنا هانيبال فنّ الزئير. فقد كشف لنا أنّ السرّ بأكمله يكمن في إخراج الصوت من بطنه وفي استخدام قفصه الصدري كصندوقٍ للصدى وهو يسعى إلى إطلاق الصوت الأقوى قدر الإمكان.

بعد ذلك، علّمنا الأسد فنّ القتال. لقد أرانا كيف يسحب مخالبه مثل سيوفٍ بتّارة، وكيف يهجم لكي يعضّ العدوّ من عنقه حتى يجعل عصارة دمه اللذيذة تنبجس.

أطلق فيثاغورس على هذا الفنّ القتالي الجديد اسم «شاكوندو»، الذي يعني فنّ قتال القطط.

حتى أنجيلو، الذي بات من كبار المعجبين بالأسد، تبيّن ذات مرّة أنّه قد أصبح تلميذاً نبيهاً. قال لي:

– ماما، لقد وجدتُ طريقي وانتهى الأمر.

– أخبرني، أنا أصغي إليك.

– إنّ أكثر ما أحبّه هو... العنف.

ومن جرّاء كلامه هذا، بدأتُ أشعر بالقلق على جيل المستقبل.

– كفّ عن التفوّه بالترّهات، يا بُني.

– كلا، ماما، لقد اكتشف هانيبال موهبتي. أحبّ أن أُقاتل. أنتِ تعلمين أنني أيضاً أمتلك روحَ قائدٍ.

وبدأ يزأر في محاولة للتأثير عليّ وإخافتي.

أجبتُه، وأنا منزعجة بعض الشيء:

1- إغريغور: مفهوم غامض يمثل كيانًا غير مادي متميز ينشأ عن مجموعة جماعية من الناس. المترجم

- يجب أن تعلم، يا أنجيلو، أن تصبح قائداً لا ينبع من قرارٍ أحادي الجانب. يجب أن تُلهم الآخرين فكرة أنّك سوف تستطيع أن تؤدّي هذه المهمّة، وحينها هم بأنفسهم سوف يقومون بتعيينك في هذا الموقع بشكلٍ طبيعي.

- وهل تعتقدين أنني لستُ بالقوّة الكافية لكي أُلهِم الآخرين هذه الفكرة؟

وبدأ أنجيلو يؤدّي حركات الشاكوندو.

- اسمعني، يا بُني، أنا أحبّك كثيراً ولكنني أعتقد أنّه يجب عليك أن تتحلّى بالتواضع. انظر إليّ، أنا أحظى بالاحترام بالضبط لأنني لا أتباهى بقوّتي. في اللحظة التي تبدأ فيها القتل، تصبح ضعيفاً.

- ولكن، يا أمّاه، من دون العنف لا يمكن أن نفوز.

- العنف هو الذريعة الأخيرة للأغبياء.

- لستُ متّفقاً معكِ بل على العكس من ذلك، أعتقدُ أنّ العنف هو أفضل وسيلة لإقناع الجميع بأننا على حقّ.

وعلى الرغم من كونه ابني، فإنني شعرتُ بأنّه في النهاية سوف يُثير هو الآخر غضبي. لا بدّ أن يكون هذا من جرّاء التأثير السلبي الذي مارسَتْه عليه أسميرالدا، هذه الأمّ البديلة التي دعته يفعل كلّ ما يشاء. ربمّا سيكون عليّ ذات يوم أن أفكّر باسترداده منها، بل وتربيته من جديد. ولكن ليس الآن وفي الحال. في وقتٍ لاحقٍ. أما في الوقت الراهن، فلدي ورشةٌ عليّ أن أرأسها.

بطريقة أكثر هدوءاً من طريقة ابني، علّمتُ مجموعة أخرى من القطط، التي كانت بمعظمها من الإناث، كيف تُعالج، فقط وبكلّ بساطة، بالخرخرة.

- يجب البدء باكتشاف الموجات السلبية التي يبثّها الكائن الذي يعاني الألم، ومن ثمّ انتاج اهتزاز معاكس قادرٍ على تحقيق التوازن.

بعد الدروس النظرية، جاء دور الدروس العملية: حينما قالت إحدى تلامذتي إنّها تعاني من ألمٍ في بطنها، بدأتُ أُخرخرُ بالقرب منها بتردّدٍ يقارب 19 هرتزاً قبل أن أزيد مستوى التّرددات. لاحظتُ أنّ تقنيتي قد تركت أثراً بمقدار ما يُقارب 24 هرتزاً، إذ إنّ طالبتي، التي عانت من إمساكٍ، أشارت إلى أنّها تشعرُ بتحسّنٍ في أمعائها.

- هذا هو. الأمرُ ليس أكثر تعقيداً من هذا.

في إطار الدروس المشتركة، كانت باتريسيا تعلّم البشر والقطط الراغبين فنّ التأمّل.

شخصياً، كنتُ أشعر بأنّ فترات قيلولتي هي بالأساس شكلٌ من أشكال التأمّل، ولكن العرّافة أرتنا فضلاً عن ذلك كيف يمكن اتّخاذ وضعية عمودية، يكون فيها العمود الفقري مستقيماً، والقائمتان الخلفيتان في حالة القرفصاء، وهي الوضعية التي اعتبرتها العرّافة الأكثر ملاءمةً لتأمّل الفرد في أفكاره.

وقد جعلتنا نفهم من خلال الإشارات أنّه، لقضاء لحظة مُرضية من التأمّل، علينا على نحوٍ خاصّ ألّا ننام. والحال أنني شخصياً كنتُ أُنهي على الدوام لحظات تأمّلي بإغفاءةٍ. لا أدري إن كنتُ قد أخبرتكم، ولكنني أحبّ حبّاً جمّاً أن أنام، وخاصّةً أن أحلم.

تابعتُ جولتي على الورشات.

أبعد من هناك، كان فيثاغورس ينشر معارفه حول عالم البشر. وكان يعطي درساً عن علم الهندسة للمهتمين بهذا العلم. تحدّث لهم عن النظرية الشهيرة لفيثاغورس التي، وبكلّ فخر، لم أفهم منها أيّ شيء. كانت تتحدّث عن وتر المثلّث القائم، وهذا صعبٌ عليّ بعض الشيء وأكبر من طاقتي على الاستيعاب. وتحدّث أيضاً عن موضوع، حسب المعلومات التي استطاع أن يجمعها، مهمٌ للغاية بمجانسه البشري ألّا وهو «التناسخ». حسب فيثاغورس، نحن القطط، لدينا تسع حيوات، بحيث كلّما نموت، نولَدُ من جديد في جلد قطٍّ صغيرٍ جديدٍ مختلفٍ تماماً.

إذاً، إذا ما آمن المرءُ بنظرية التناسخ هذه، سأكون قد ولدتُ ومتُّ، ثمّ مرّة أخرى ولدتُ ومتُّ وهكذا لمرّات عديدة. سألتُ نفسي في أيّ حياةٍ من حيواتي التسع أجدُ نفسي حالياً.

في كلّ الأحوال، لقد جعلتني هذه الفكرة أشعر بأنني أكبرُ سنّاً مما كنتُ أعتقد حتى الآن. كما أنني أدركتُ أنّه، حتى إذا متُّ، فلن أموت بالفعل طالما أنّ روحي سوف تولَدُ في شكلٍ آخر وفي مكانٍ آخر.

ثمّ واصل فيثاغورس إعطاء الدرس حول ما أسماه «التنويم المغناطيسي

الارتدادي». تشتمل هذه التقنية على تخيّل، من خلال قوّة الوعي وحدها، الحيوات السابقة التي نسيها المرء. حتى إنّه جعلنا نقوم ببعض التمارين. حاولت أن أقوم بتلك التمارين، ولكن عبثاً. مهما يكن، لم أكن أؤمن بذلك بالفعل، بنظريته عن تناسخ الأرواح، وبالتالي انصرفتُ إلى انشغالات أخرى أكثر واقعيةً.

انتظرتُ نهاية درسه لكي أتناقش معه. ما أعجبني في هذا القطّ السيامي هو سعة قاموسه من المفردات. لقد شرح لي مفاهيم دقيقة ومجرّدة لن أجيد أبداً تسميتها. بفضله هو، نجحتُ في إيجاد الكلمات للتعبير عن الفوارق الدقيقة للمشاعر أو أنماط الأفكار التي ما كنتُ لأستطيع تحديدها أبداً من دونه. أصبحتُ أقدّر بذلك قدرة فكرةٍ معقّدة، ولم أعد أعاني صعوبة، في غالب الأحيان، في التعبير عن أفكاري.

كم أحبّ اكتشاف الكلمات! كلمة «الحنين»، على سبيل المثال، التي تعني الحسرة على كون الحاضر لم يعد مثل الماضي. كلمة «الانسجام»، التي تعبّر عن الإحساس بأنّ كلّ شيء في مكانه الصحيح. كلمة «البالي» التي تشير إلى أنّ شيئاً ما قد عفا عليه الزمن بسبب سرعة التقدّم. كلمة «عُصابي» التي تُستخدَم للحديث عن شخصٍ عانى من صدمة الطفولة التي تمنعه من رؤية الواقع كما هو عليه.

كلّ كلمةٍ من هذه الكلمات النادرة هي بمنزلة غذاءٍ لذهني. أنا أدرك أنّ من يمتلك، في الحياة، أكبر عددٍ من المفردات يمتلك أكبر عددٍ من الأدوات لتوسيع وعيه ومداركه وبالتالي يمكنه التفوّق على من لديه عدد أقلّ من المفردات.

من جهته، علّمنا فولفغانغ، لكونه قطّاً سابقاً لكائنٍ بشري، «آداب السلوك الجيّد». لقد علّمنا كيف نأكل فأراً بنظافة دون أن نوسّخ أنفسنا. لقد علّمنا أساسيات فنّ تناول الطعام.

بالنسبة إليه، هناك نوعان من الأطعمة الخاصّة بالقطط، وهي الأطعمة الرخيصة، والأطعمة الغالية. وعلينا أن نحكم على الطعام من خلال رائحته، ومن خلال ميزته في القرمشة تحت الأضراس، ومذاقه في الفم.

كما علّمنا فولفغانغ ألا نتناول الطعام بسرعة كبيرة وألا نصدر صوتاً صاخباً خلال تناولنا للطعام، وهذا ما سمّاه «آداب السلوك»، حسب البشر.

في المساء، ولكي نرتاح، حيث كانت مصابيح الشوارع لا تزال تُلقي علينا أضواءها، مارسنا رياضة أسميتها «شاتبول». في هذه اللعبة، كنّا نشكّل فريقين يضمّ كلّ منهما أحد عشر قطّاً وقطّة، ونجتمع في مكانٍ مستطيل الشكل، هو بشكلٍ عامّ عبارة عن شارعٍ مغلق. ثمّ نمارس لعبة شبيهة بكرة القدم التي يلعبها البشر، باستثناء أننا نستخدم، بدل الكرة، فأراً حيّاً اختاره مسبقاً الحَكَم. وهذا الفأر يشبه كرةً تتدحرجُ من تلقائها. وهدف اللعبة هو أن يقومَ كلُّ فريقٍ بإخافة الفأر لكي يُرغمه على الذهاب إلى مرمى الفريق المُنافس.

لا أدري إن سبق لكم ولعبتُم هذه اللعبة، ولكنني أنصحكم بمحاولة ممارستها. وبالمناسبة، فكّروا في استبدال الفأر من وقتٍ إلى آخر، وإلا فسوف يُنهَك الفأر وذلك سوف يُفسِدُ المباراة.

كما أنني أقترح أن يكون للفريق الذي يُسجّل هدفاً الحقّ في أن يأكل الفأر الذي سمح له بتسجيل الهدف، وذلك لكي يكون متأكّداً من أنّه سيحظى بفأرٍ - كرةٍ نشيطٍ على الدوام. وبعد ذلك، على الفريق الخاسر أن يذهب لجلب فأرٍ جديد.

باختصار، كانت الأيام تمضي بهذه الطريقة في جزيرة المدينة، وذلك بالتعلّم وبالتسلية. وبدأتُ أُعجَبُ على نحوٍ متزايدٍ بالعيش في ذلك الفردوس الخاصّ بالقطط والبشر.

قام الشبّان البشريون بتجهيز شققهم وتوزيعها، في حين أقمنا، أنجيلو وناتالي وأنا، في غرفة عازف الأرغن في الكاتدرائية.

وقد عزّز تدفّق قطط وبشر جدد يومياً إلينا وطلب الملاذ منّا تفاؤلنا.

عمل فيثاغورس وناتالي، بمساعدة بعض الشبّان البشريين المتفوّقين في المعلوماتية، من أجل تعزيز الحوار بين القطط والبشر. وقد نجحا قبل ذلك في تحسين التواصل بين القطّ السيامي وخادمتي إلى درجة كبيرة.

لقد طوّرا جهازاً ذا حجمٍ صغير مزروعاً في العين الثالثة لفيثاغورس،

يسمح بالتواصل عبر الموجات. وبالمثل، صنعا برنامجاً يقوم بترجمة مواء القطط إلى لغة البشر ويُترجم لغة البشر إلى مواء القطط.

وبهذه الطريقة كان يكفي فيثاغورس أن يتحدّث بلغة القطط حتى تُلتَقَطَ كلماته من قبل جهاز عينه الثالثة، متحوّلة إلى كلمات بشرية، ثمّ تُرسَل إلى ناتالي التي تسمعها بدورها ملفوظةً بلغتها في سمّاعة أذنٍ صغيرة جدّاً وتُجيب عليها بلغتها البشرية الطبيعية التي بالمقابل تُحوّل من جديد إلى لغة القطط. يبلغ التصغير هنا منتهاه، وتتولّدُ الطاقة من سطحٍ حسّاسٍ للضوء يلتقط أشعة الشمس. كان الجهاز بحجم عين قطٍّ، لونه أسود ولامع.

ومع كلّ محاولةٍ جديدة، كان الجهاز يتحسّن.

وقد استطاعا، وحدهما، بهذه الطريقة أن يبنيا أوّل جسر تواصلٍ شبه طبيعي. استطاعا أن يتحاورا كما لو أنّهما من نفس الجنس.

بينما كنتُ أتّخذُ مكاني فوق الغرغول، جاء فيثاغورس ينضمّ إليّ.

– كم أحسدكِ! كم أودُّ لو أنني أنا أيضاً أتحدّث إلى خادمتي!

أصبحت الرياح أشدّ قوّةً، وهي تلامسُ فرائي الأسود والأبيض. راقبتُ جزيرتي. لاحظتُ أنّ أوراق الشجر قد أصبحت برتقالية اللون، وحمراء وكستنائية. مؤتُ بحنينٍ:

– لم أشعر بالوقت وهو يمضي.

– ومع ذلك، تشكّل الأيامُ الأسابيعَ، والأسابيعُ الأشهرَ، وها قد وصلنا إلى نهاية الخريف. نحن نسير نحو الشتاء. سوف يشتدُّ البرد تدريجياً.

– أعتقدُ أننا نجحنا، أنتَ وأنا، في إنجاز شيءٍ مهمٍّ، يا فيثاغورس.

– ومع ذلك، الأفضل هو القادم، يا باستيت.

– بيد أنني لا أستطيع أن أنسى التهديد الذي يمثّلهُ تيمورلنك هذا. ما الجدوى من تأسيس مجمّع الفردوس هذا إذا كان مجرّد جرذٍ أبيض ذي عينين حمراوين يستطيع أن يحتلّه ويدمّر كلّ شيء فيه فقط بسلاحي العنف والعدد؟

هزّ رأسه كما لو أنّه أراد أن يقول: «الخوف لا يُجنّبُ الخطر».

14. تيمورلنك (الجزء الثاني)

أشاد تيمورلنك إمبراطورية واسعة من جرّاء كثرة المجازر التي ارتكبها وأعمال النهب التي قام بها. غير أنّه لم يكن يُطيق أن يقترن اسمه بالدمار الذي تسبّب به. أراد أن يُظهِرَ نفسه بمظهر المدافع عن اللباقة والذوق الرفيع. كان يُحبّ أن يرتدي ثياباً فاخرة، ولم يكن يرغب في خوض المعارك إلّا وهو يرتدي بزّته الفاخرة المصنوعة من الحرير ومتزيّناً بكلّ مجوهراته.

مُعتَبِراً نفسه متذوّقاً للفنّ ومُحباً للجمال، استقبلَ فناني دمشق بعد أن أباد بقية السكان. وكان يختارُ بهذه الطريقة في البلدان المنهزِمة أفضل المعماريين، وصاغة المُجوهرات، والنحّاتين، والخيّاطين والرسّامين لكي يُعيد بناء وزخرفة عاصمته المكرّسة لمجده: سمرقند. وبهذه الطريقة، كانت كلّ مدينة عريقة يُدمّرها بالنسبة إليه فرصةً لاقتناء تُحَفٍ فنية وموادّ لتزيين وزخرفة مدينته، سواءً كانت الأحجار الثمينة لمدينة دلهي، أو المنحوتات والجداريات للمدن الإيرانية أو السورية أو الروسية أو الصينية.

بيد أنّه، وإن كانت قوّته الضاربة من البدو الرحّل، لم يكن يحبّ أن يحكم المدن المُحتلّة.

كان يُبيد المدنيين خوفاً من أن تُحاول الأُسرُ الناجية الانتقام منه. بعد كلّ غزوٍ، كان يُسمّم آبار المياه من خلال تكديس الجثث فيها التي تتفسّخ وتجعل المياه غير صالحة للشرب. كان يُدمِّر أنظمة الري والسقاية. دفعته كراهيته للحياة المستقرّة وللفلاحين أيضاً إلى رشّ الحقول بالملح. ومن خلال هذه العملية، حوّل الحقول إلى برار للرعي أو إلى صحراء قاحلة.

كان يتهيّأ لغزو أوروبا الغربية حينما أُصيب بحمّى بسيطة أودت بحياته. وقد مات في عام 1405 وهو في التاسعة والستين من عمره.

بعد وفاته، تنازع أبناؤه الثمانية عشر إمبراطوريته في حروبٍ بين

الأخوة. وكان هذا كافياً لتمزيق وتفتيت كلّ ما بناه والدهم. ولم تعش الإمبراطورية التيمورية بعد موت مؤسّسها.

بشكلٍ إجمالي، ومن خلال تدمير الشرق الأوسط والشرق الأقصى وأوروبا الوسطى، سيكون تيمورلنك مسؤولاً عن قتل 17 مليوناً من البشر، أي ما يُعادل 5% من مجموع البشر في ذلك العصر الذي كان عددُ السكان فيه يُقدّر بنحو 350 مليون نسمة.

موسوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المجلّد الثاني عشر.

15. نهاية الأوهام

كانت أمّي القلقة بطبيعتها تقول لي دائماً: «إذا عشتِ فترة طويلة بلا مشكلة، فهذا يعني أنّ مصيبةً كبرى في طريقها للحدوث».

بعد ظهيرة أحد الأيام حيث كان الطقس جميلاً ومشمساً وتهبُّ رياحٌ قويّة، بدأت أجراس كاتدرائية نوتردام دو باريس تدقّ مدويّةً.

إنّه الإنذار، وهذه المرّة لستُ أنا منْ تطلقه. خشيتُ من أن يكون هناك هجومٌ جديدٌ للجرذان عبر الأقبية، لكنّ شيئاً آخر هو ما حدث.

ذهبتُ إلى الكاتدرائية وصعدتُ إلى الغرغول الذي يُعدّ بمنزلة شرفة مفتوحة على إطلالة واسعة. ومن هناك، استطعتُ أن أرى ما يُفسّر هذا الإنذار.

وجدتُ ضفاف النهر ممتلئة بالجرذان. لم تعد أعدادها بالمئات، بل بعشرات الآلاف من الجرذان.

انضمّ فيثاغورس إليّ. قال:

– أعتقدُ أنّها لن تُهاجم.

– كيف تعرف ذلك؟

– إذا كان قائدها ذكيّاً جدّاً، لا بدّ أنّه قد أخذ الدروسِ والعبر من فشل مهمّتها الخاصّة الأولى. حتى إنني أتساءل إن لم يكن الهدف من ذلك التوغّل هو اختبار دفاعاتنا ومدى سرعة ردّ فعلنا. وإذ تأكّدت من فشلها، فلا بدّ أنّها

قد غيّرت استراتيجيتها. لقد فرضت علينا ما يُطلق عليه في اللغة العسكرية للبشر اسم «حصارٍ».

– وما هذا؟

– هو عدم الإقدام على أيّ شيء والانتظار إلى حين انهيار الخصم. إنّها لا تُريدُ أن تتحرّك، بل تريد أن تمنع الغذاء من الدخول إلى جزيرتنا إلى حين أن نعاني من الجوع كثيراً لكي نضطرّ إلى الاستسلام دون قتال. إنّها تُراهن على عامل الوقت، وعلى نفاد صبرنا، وعلى جوعنا.

– في هذه الحالة، ليست هناك أيّ مشكلة، لن نعاني من نقصٍ في الغذاء بوجود كلّ الأسماك التي تجوب النهر.

أشار القطّ السيامي بأذنه إلى شرق النهر، ولمحتُ سدّاً.

– لقد لاحظتُ وجوده للتوّ. لقد بنته الجرذان في وقتٍ مبكّرٍ من هذا الصباح من خلال السباحة والدفع بقطع الخشب المأخوذةِ من الأثاث القديم.

– لا يمكنها أن توقف جريان المياه في نهرٍ بأكمله، وخاصّة إذا كان نهراً واسعاً مثل السين.

– دقّقي جيّداً وسوف تفهمين الأمر.

آه كم أكره عندما يتّخذ هيئة القطّ المتفوّق الذي يعرف كلّ شيء. ألقيتُ نظرةً نحو الاتجاه الذي دلّني عليه ورأيتُ شبكةً مشكّلةً من تلك القوارض.

– يمكنها، انطلاقاً من هذا الحاجز، أن تغوص لكي تقتل عند أعلى مجرى النهر كلّ الأسماك قبل أن يقودها التيّار نحونا. وبهذه الطريقة، تدمّر صيدنا دون أن نستطيع تناوله.

– حسناً، سوف نصطاد عند أسفل مجرى النهر.

– لا أعتقدُ ذلك.

أشار فيثاغورس بأذنه الأخرى إلى الاتجاه المعاكس. التفتُّ نحو الغرب وتبيّن لي أنّ الجرذان قد بنت في الليل، بنفس الطريقة، سدّاً مماثلاً للأوّل.

بدأتُ أفهم ممّا تتكوّن تقنية الحصار. ومع أنني كنتُ متفائلة، فإنّ هذا لم يدعني أتفاءل بأيامٍ أفضل. لم يكن فيثاغورس مطمئناً.

– الوقتُ يعملُ لمصلحتها. سوف تنتظر.

- سوف نُقاوم. عددنا كبيرٌ.

- لن يعود بوسعنا أن نتأمّل أيّ مساعدة في الأيام المقبلة. لن يستطيع أيّ قطٌّ أو كائنٍ بشريٍّ أن يقترب من هذه المنطقة.

اشتدّ بي الغضب، ففتحتُ فمي واسعاً وبدأتُ أبصقُ وأنا أتنفّس على نحوٍ صاخبٍ، الأمر الذي يعني أنني أكبح الرغبة في تحطيم كلّ شيء، ولكن صبري لن يطول على ذلك.

عرض عليّ فيثاغورس أن يُخفّف عنّي من خلال ممارسة الجنس، ولكن لم تعد لديّ رغبة في ذلك على الإطلاق. إنّ واقع أن نجد أنفسنا محاصرين من دون أن نستطيع فعل أيّ شيء وضعني في حالةٍ من السخط التامّ.

في المساء، حاولتُ أن أهدِّئ من روعي بجلسة تأمّل. حاولتُ أن أتذكّر نصائح باتريسيا: جلستُ في وضعية اليوغا الشبيهة بزهرة اللوتس، وصالبتُ قوائمي أمامي بطريقة مؤلمة، منتصبة الظهر، ومُلصقةً ذيلي بمؤخرتي لكي أستقرّ في جلستي، وبدأتُ أتنفّس ببطءٍ على نحوٍ تدريجي لكي أهدأ.

لم تنجح محاولتي. يتعيّن عليّ التفكير في إخبار القطط الأخرى بالأمر. التأمّل مثل الشمبانيا، إنّه مناطٌ بالبشر وليس بالقطط.

نظرتُ من بعيد إلى الشمس وهي تغيب، وأنا مُحبَطة وأشعر بشيءٍ من المرارة. كنتُ أعلم في أعماقي أنّ أيامنا الجميلة قد أصبحت خلفنا وأنّ البؤس سيبدأ من الآن فصاعداً ويقضم ببطء هدوء فردوسنا.

جاء أنجيلو لرؤيتي وبدأ يخرخر كما لو أنّه يُريدُ تهدئتي.

أحسنتَ يا أنجيلو، لا أعرف إلى أيّ مغامرةٍ سحبتُك، ولكنني آملُ أن تنتهي هذه الحكاية على خيرٍ.

لم أجرؤ على إخباره بأنني أعتقد أنني ولدتُ في الجيل المناسب، الجيل الذي استطاع أن يحظى براحةٍ كبيرةٍ بكلّ أمانٍ، ولكن الجيل المقبل معرّضٌ لخطر أن يعيش مستقبلاً أكثر قتامةً.

سألني ابني:

- هل سيمكننا أن نذهب ونقتل كل تلك الجرذان؟

– كلا، يا أنجيلو، إنّ عددها كبير للغاية. لن تكون لنا أيّ فرصة للفوز.

– ولكن، يا أمّاه، من خلال الشاكوندو، أستطيع أن أقضي على المئات منها!

– إنّها تبلغ عشرات الآلاف. سوف تُنهَكُ سريعاً.

– أرجوكِ، يا ماما، دعيني أذهب لقتلها!

– اذهب إلى النوم.

حدّق فيّ، وقال:

– حسناً، أمّا أنا، فحين أصبح الزعيم، لن أكون قائداً جباناً. لن أخاف شنّ الحرب على أعدائنا.

– حسناً، اذهب إلى النوم الآن.

كم من الوقت يستغرقه الشباب حتى يصبحوا عقلانيين؟ بكلّ تأكيد، لستُ ضدّ استخدام العنف إذا كان مفيداً وفعّالاً، ولكن في حالتنا هذه، سيغدو التحرّك انتحاراً. تكمن مشكلة الشباب في أنّهم يُفكّرون بمتعتهم الآنية (متعة القتل، في حالة أنجيلو)، دون التفكير في العواقب. والحال أنّ العنف، على المدى الطويل، هو ضريبة يُدفَعُ ثمنها غالياً جدّاً. أنا أعلم في قرارة نفسي أنّ السلام وحده مربحٌ.

أخذتني ناتالي بين ذراعيها وداعبتني. كانت هي الأخرى قلقة، وقد شعرتُ بذلك. لعقتُ ذقنها ودسستُ رأسي تحت إبطها الأيسر، وتنشّقتُ رائحةَ عرقها التي وجدتها لطيفةً ومريحةً على نحوٍ متزايد، وأنا أواصلُ التفكير.

توصّلتُ إلى خلاصةٍ: يجب أن يجتمع الجميع لكي يجدوا معاً حلّاً لهذه المشكلة.

نهضتُ ونزلتُ مهرولةً لكي أصل إلى ساحة الكاتدرائية وأخبرتُ بالفكرة بعض القطط الأخرى التي ذهبت بدورها لتُخبر قططاً أخرى وتدعوها للحضور. حينما أصبح هناك ما يكفي من القطط حولي، اقترحتُ أن نتواجد جميعاً في المنطقة الواقعة بين جوقة الكاتدرائية وجناحها.

لم نوجّه الدعوة إلى البشر، لأننا لم نشأ أن نضيّع الوقت في انتظار

ترجمات ناتالي أو ترجمات باتريسيا (وبيني وبينكم، رائحتهم تزعجني وتعكّر صفو تفكيري).

في الصفّ الأوّل، اصطفّ ما يقرب من عشرين قطّاً، بمعظمها من القطط التي كانت تعيش سابقاً في الشقق السكنية أو من قطط الشوارع التي شاركت في معركة جزيرة البجع والتي تعرف بالتالي أنّنا قد عانينا الكثير من المصاعب قبل أن نبني هذا الملاذ.

نظرنا بعضنا إلى بعض. ولأنّ لا أحد من بيننا عقد العزم على أن يتحدّث أوّلاً، أخذتُ زمام المبادرة لإطلاق النقاش.

قلتُ بنبرة جدّية:

– ربما سيُدهشكم ما سأقوله، ولكن في هذه المرحلة، حتى أنا نفسي لا أمتلك حلاّ.

اقترحت أسميرالدا:

– سوف يمكننا أن نحاول القيام باختراقٍ للحصار.

وافقها أنجيلو الرأي:

– نعم، هذه فكرة رائعة! دعونا نهاجمها! دعونا نقتلها جميعاً!

سيكون من الأفضل لو أنّه يسكت. ما كان عليّ أن أدعه يأتي إلى هنا.

أطلقتُ تنهيدةً وهززتُ رأسي بعنف في إشارةٍ إلى رفض ذلك. أنا لا أحبّ أن أكرّر كلامي، فقام فولفغانغ، الذي فهم عليّ، بالردّ نيابةً عنّي:

– إنّ عددها كبير للغاية.

تدخّل فيثاغورس، مقترحاً:

– ما الذي بقي أمامنا من خيار؟ الفرار؟

أجبتُ:

– من أين نفرّ؟ أعداؤنا يراقبون كلّ الضفاف المحيطة بنا. إنّهم يسدّون أعلى المجرى وأسفله. سوف تكون مهاجمتنا في هذه الحالة أسهل من مهاجمتنا في جزيرتنا المحصّنة، جزيرة المدينة. من حيث المبدأ، إذا كانت الجرذان تبقى على الضفاف، فهذا لأنّها لا تمتلك السبل لمحاولة شنّ هجوم

مباشرٍ وجهاً لوجه ضدّ أنظمتنا الدفاعية وسورنا الدفاعي. ولكنّها لن تتردّد في مهاجمة هدفٍ عائمٍ يحاول الفرار منها.

اقترح فيثاغورس الذي سعى، كمحبٍّ للسلام، إلى تجنّب المواجهة:

- هل نفاوضها؟

ألحّت أسميرالدا، وعيناها الصفراوان الجميلتان تلمعان وسط فرائها الأسود:

- نُهاجمها على حين غرّة.

ردّد أنجيلو:

- نعم، فلنقتلها جميعاً!

استمعتُ إلى المقترحات. وإذ لم أجد بينها أيّ مقترحٍ قابلٍ للتنفيذ، استأنفتُ حديثي. قلتُ:

- في النهاية، كلّما فكّرتُ في الأمر، بدت لي الفكرة الأقلّ سوءاً هي محاولة إيجاد مخرج في الليل لكي نذهب ونستقدم تعزيزات. بفضل هذه القوات الجديدة، سوف نستطيع أن نُباغِت الجرذان التي تُحاصرنا بهجومٍ مزدوجٍ من الخارج.

ساد صمتٌ قصير، ثمّ ساد هرجٌ ومرج. حسب ما بدا لي، كانت جميع القطط الحاضرة تُقرّ بصحّة خطّتي، حتى وإن كنتُ لا أزال حتى هذه اللحظة أرى صعوبة في وضعها موضع التنفيذ.

لقد طرحتُ هذا الاقتراح لأنني كنتُ أعلم أنّه لا مناص من الانتقال إلى الفعل وعدم الركون إلى البقاء في موقفٍ سلبي. هذه هي طريقتي في إدارة أزمة كهذه: القيام بكلّ شيء من أجل الإبقاء على المبادرة، وعدم الخضوع للخيارات الاستراتيجية لأعدائي ولا حتى لخيارات حلفائي.

بيد أنّ إحدى نقاط ضعفنا، بالنسبة إلينا نحن القطط، هي استقلاليتنا. لا نحب الطاعة، ولا نحبّ الزعماء، ولا نحبّ التراتبية. كلُّ قطٍّ أو قطّة يعتبر نفسه هو الأفضل ويرى الآخرين أدنى مرتبة منه. ومن الصعب في ظلّ ظروف كهذه فرض انضباطٍ جماعي. وبالتالي، حاولتُ أن أغامر بكلّ شيء في سبيل كلّ شيء:

- فلنشنّ عملية خاصّة خلال الليل! أنا متأكّدة من أنّنا سوف ننجح في ذلك.

آثرت القطط الأخرى، التي كانت أقلّ ثقةً بنفسها، أن توافق في النهاية على فكرتي.

في نفس المساء، وفي اللحظة التي اشتدّت فيها عتمة الليل، وبناءً على توجيهاتي، انطلقت ستّة قططٍ كنتُ قد اخترتها بسبب كفاءتها في الكتمان والتسلّل خلسةً، وقدرتها على السباحة، انطلقت لكي تقوم بتنفيذ المهمّة (من دون أنجيلو الذي اضطررتُ لأن أُعيده إلى مكانه: «أنت صغير السنّ، وليست لديك الخبرة الكافية. وعلى العكس مما تعتقده، لن تكفي الشاكوندو في إنقاذ حياتك. وبالتالي، عليك أن تسكت وأن تُصغي إليّ وتبقى هنا!»).

مستفيدين من بصيص الضوء المنبعث من النجوم، نجح جنودي الستّة من شقّ مسار النهر وصولاً إلى الضفّة.

حتى الآن يسير كلّ شيءٍ على ما يُرام.

راقبتُ تقدّمهم من أعلى برج كاتدرائية نوتردام بفضل رؤيتي الثاقبة من بعيد خلال الظلام، وبفضل شعيرات الاستشعار في شواربي التي تشعر بكلّ ما يتحرّك في الأنحاء، مثل رادارٍ بشري.

تقدّمت فرقتنا الخاصّة بعد ذلك على الأرض الصلبة دون أن تتحرّك أيّ حراسة في معسكر الخصوم.

يا للعجب!

سيكون بعد الآن على القطط الستّة أن تلتفّ على الجرذان النائمة دون أن توقظها لكي تجتاز خطوط الحصار. ولأنني لم أسمع أيّ ردّ فعلٍ قادمٍ من الضفاف، شعرتُ بالاطمئنان.

انضمّ إليّ فيثاغورس في مكاني المرتفع.

- لقد نجحت القطط في المرحلة الأولى من مهمّتها. الآن، بقي علينا أن نعرف إن كانت سوف تنجح في العثور على تعزيزات بالعدد الكافي وفي إحضارها في الوقت المناسب.

وكما هي الحال غالباً في هكذا وضع، وضعتُ رجلاً فوق رقبتي ولعقتُ بطني لكي أرتاح. أمّا فيثاغورس الذي لاحظ أنني متوتّرة، فتقدّم على نحوٍ عفوي لكي يحكّ ظهري حتى يُزيل عنّي القمل. لقد أُعجبتُ على الدوام بالذكور من ذوي القلوب الطيّبة الذين يُجيدون تلبية رغبة أنثاهم.

تصرّف فيثاغورس في غاية الرقّة واللطف وانتهى هذا الأمر بإثارتي.

فعرضتُ عليه أن ينزو عليّ في الحال. لم يدعني أن أنتظر وشعرتُ بعضوه الذكري المغطّى بالأشواك وهو يغوص في داخلي (وقد شرح لي فيثاغورس ذات يوم أنّه إذا كان قضيب القطط مزوّداً بهذه الأشواك فذلك من أجل إزالة السائل المنوي للقطّ السابق وزيادة فرص التخصيب بحيواناتها المنوية وليس بالحيوانات المنوية للقطّ الذي سبقها في ممارسة الجنس مع القطّة).

آلمني ذلك قليلاً في البداية، ثمّ آلمني كثيراً، ولكن هنا أيضاً وجدتُ في النهاية الأمر ممتعاً. حين أُمارس الحبّ، أشعر بأعماق جسدي، كما لو أنّ رأس قضيبه يوقظُ أحشائي في العمق (لا ذكر ولا إنسان سوف يفهم هذا النوع من الإحساس النموذجي عند إناث القطط).

عندما بلغتُ ذروة النشوة، مؤتُ بقوّة، إلى حدّ انفصال حبالي الصوتية، بنوتة سي منخفضة (لقد أخبرني فيثاغورس ذات يوم بأنني، أثناء بلوغي النشوة الجنسية، أموء دائماً بهذه النوتة).

توسّل فيثاغورس إليّ:

– توقّفي!

أجبته:

– كلّا، تابع.

– كلّا، توقّفي عن المواء بهذا الصوت العالي! ستوقظين الجرذان!

اللعنة، لم أعد أفكّر في ذلك الموضوع!

متضايقةً من سفاهتي، تحرّرتُ من ذكري ورفسته بقدمي على خطمه بطريقةٍ بحيثُ أفهمتُه إذا ما حدث مكروهٌ للفرقة الخاصّة الليلية، فسيكون ذلك خطأه هو.

طلبتُ منه أن يتركني وحدي. عدتُ إلى غرفتي ووجدتُ فيها خادمتي وقد نامت. فأخذتُ مكاني فوق بطنها وشرعتُ في الدوسِ عليه وأن أُدخِلُ وأُخرِجُ مخالبي لكي أرتاح.

فتحت عينيها واعتبرتْ ذلك لفتة تنمّ عن محبّة. داعبتني.

حبذا لو تعلم أنني أفعل هذا لكي أنفّس عن غضبي، وأنها هي الدمية التي تُستخدَمُ في إراحتي...

بدأتُ أخرخر بشدّة 25 هرتزاً.

غمغمتْ:

– باستيت؟ (كانت هذه هي الكلمة البشرية الوحيدة التي أفهمها).

ثمّ، بعد كلّ هذه العواطف السلبية والإيجابية بالتناوب، قررتُ أن أنام.

ولكن ارتياحي كان لمدّة قصيرة: سُرعان ما عاودتُ الشعور بالقلق بشأن وضعنا.

أتمنى أن يستطيع المستكشفون الستّة الذين نجحوا في عبور خطوط القطيع البنّي أن يجلبوا النجدة في الوقت المناسب لكي تحرّرنا من حصارنا.

16. حصار أليزيا

في القرن الأوّل قبل الميلاد، رغِبَ القنصل يوليوس قيصر أن يصبح القائد الأوحد لروما من خلال القضاء على القنصل بومباي، الذي كان يتقاسم معه السلطة، فأراد أن يُبهِر الشعب الروماني بانقلابٍ عسكري.

في عام 58 قبل الميلاد، سحب أموالاً من ثروة والدته، واشترى لنفسه سلاحاً خاصّاً وقرّر أن ينخرط في «عملية إحلال السلام» في بلاد الغال (التي كانت على علاقاتٍ حسنة مع روما حتى ذلك الحين).

أخبر بومباي الغاليين بأنّ هذه الحرب هي حربُ رجلٍ واحدٍ وليست حرب الجمهورية الرومانية بأكملها – لم يكن مجلس الشيوخ قد وافق على هذا التدخّل العدواني –، ولكن الغاليين لم يكونوا قادرين على إيقاف هذا الجيش الخاصّ الذي ظهر لهم من جنوب شرق بلادهم.

وكدبلوماسيّ محنّك، استخدم قيصر الانقسامات الداخلية للشعب الغالي لكي يحرّض بعضهم ضدّ بعض. وكقائدٍ استراتيجيٍّ بارع، راكم الانتصارات في المعارك، بحيث نجح مع جيشه في غزو كامل بلاد الغال، مواصلاً تقدّمه حتى بلغ الجزر البريطانية بل وعبر نهر الراين لكي يغزو جرمانيا.

بيد أنّ قائداً من قبيلة آرفيرني الغالية، وهو فرسن جتريكس، جهّز، في عام 52 قبل الميلاد، جيشاً غاليّاً وقاده لمواجهة الغازي الروماني. وقد نجح في هزيمة جيش يوليوس قيصر الذي حاصر معسكر دفاعات جيرجوفيا.

بناءً على هذا الانتصار الأوّل، قاوم فرسن جتريكس الرومانيين في العديد من المعارك الأخرى. ولكن القائد الغاليّ الشابّ لم يستطع الحفاظ على تفوّقه، وانتهى به المطاف إلى أن يضطرّ للفرار واللجوء مع ثمانين ألف رجل إلى معسكرٍ مسلّح، وهو أليزيا، الذي يُحدّد موقعه الآن في منطقة بورغوني - فرانش كومته في شرق فرنسا.

أمّا يوليوس قيصر، فكان تحت تصرّفه جيشٌ قوامه سبعون ألف محارب. وإذ تبيّن له النقص العددي لجيشه، آثر القائد الروماني، بدل شنّ هجومٍ، أن ينفّذ خطّة حصارٍ معقّدة جدّاً: أقام حول أليزيا خطّ دفاعٍ بطول خمسة وثلاثين كيلومتراً. وكان عبارة عن خندق بعرض أربعة أمتار ونصف وبعمق أربعة أمتار ونصف، يليه جدارٌ بارتفاع ثلاثة أمتار ونصف، يعلوه سياجٌ. وعلى مسافة كلّ خمسة وعشرين متراً، كانت هناك أبراج مليئة برماة السهام.

أمام الخندق، نُصبت أوتادٌ ذات رؤوسٍ حديدية حادّة، وقد حُفِرَت أمامها حفرٌ مخروطية بعمق مترٍ واحدٍ مغطاةٌ بأوتاد أصغر حجماً، مخفية تحت الأعشاب والأغصان لكي تسقط فيها الخيول إن سارت فوقها. لم يكتفِ قيصر بهذه التحضيرات، بل أمر ببناء خطّ دفاعٍ ثانٍ شبيهٍ بالأوّل. وإذا كان الهدف من الخطّ الدفاعي الأوّل هو منع هجمات

فرسن جتريكس من معقله، فكان الغرض من الخطّ الدفاعي الثاني هو استخدامه في إعاقة وصول جيشٍ محتملٍ من التعزيزات القادمة لنجدة القائد الغاليّ.

دام الحصار عدّة أشهر. حينما عانى المحاصرون من نقصٍ في المؤن الغذائية، أخرجوا من المعسكر النساء وكبار السنّ والأطفال. منع قيصر عبور هؤلاء وجعلهم يموتون جوعاً بين خطّي الدفاع.

وصل الجيش الغاليّ المؤازر أخيراً في شهر سبتمبر / أيلول. كان يضمّ مئتين وخمسين ألفاً من المحاربين الغاليين الذين يقودهم فيركاسيفيلانوس، ابن عمّ فرسن جتريكس. بعد محاولتين لاختراق خطّ الدفاع، انتهتا بالفشل، انتقل فيركاسيفيلانوس إلى الهجوم مع قوّته من الخيّالة في السادس والعشرين من سبتمبر / أيلول (يوم خسوف القمر)، في الليل. في البداية، بدا أنّ الانتصار قد آل للغاليين، ولكنّ قيصر استعاد زمام المبادرة سريعاً ونجح في إرسال جيشٍ باغت المهاجمين من الخلف، وبذلك كسب المعركة في اللحظة الأخيرة.

في اليوم التالي، استسلم فرسن جتريكس وطلب العفو لجنوده الذين نجوا من المعركة. وقُدِّم الأسرى الغاليّون كعبيد للمحاربين الذين شاركوا في المعركة.

اقتيد فرسن جتريكس إلى روما، ثمّ رُبطَ إلى عربته، وعُرِضَ على الناس بمناسبة انتصار ألدّ أعدائه. بعد مرور بعض الوقت، شُنِقَ في سجنه.

ولكن أحد نجاحات قيصر الرئيسية، عدا الانتصار العسكري بالمعنى الدقيق للكلمة، يكمن في الرواية التي نشرها عن هذه المعركة في كتابه (الحرب الغالية). لقد قرأ فيه الرومانيون مغامراته في البلدان البربرية وذُهلوا جميعاً بتشويق روايته، الذي يبلغ ذروته مع حكاية حصار أليزيا.

بعد ذلك بقرونٍ، ظلّ كتاب (الحرب الغالية) العمل الوحيد الذي

يصف ما كان قد حدث. وبغياب مؤرخين غاليين، فإنّ الرواية التاريخية الوحيدة التي نمتلكها بين أيدينا هي الرواية التي يقدّم فيها قيصر نفسه بطلاً للحضارة ومكافحاً ضدّ البربرية.

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

17. حلٌّ مبتكَر

في تلك الليلة، حلمتُ أنني أمارس الجنس مع ملك الجرذان شخصيّاً، النموذج الشهير الذي له شعرٌ أبيض وعينان حمراوان، والذي يُدعى تيمورلنك.

في حلمي، أغريته بسهولة مُظهرةً له مؤخّرتي. سمحتُ له تدريجياً بأن يقترب مني، ونزلتُ، وقفز فوقي. وكم كانت دهشتي كبيرة حينما اكتشفتُ أنّ له قضيباً أكبر من قضيب فيثاغورس.

وفي النهاية، قال لي:

– أنتِ وأنا، نستطيع أن نسيطر على العالم. فلنتّحد بدل أن يُقاتل أحدنا الآخر.

فاتّخذتُ من جديد وضعية القطّة الخاضعة المستعدة لتقديم جسدها وحدث نزاعٌ جديد بين جرذٍ وقطّة.

في هذه المرّة، أُصيب الحيوان القارض الأبيض، بعد الممارسة، بالإنهاك ونام. وحينئذٍ، فتحتُ جمجمته بمخلبي الأكثر حدّةً، والتهمتُ دماغه الذي كان لا يزال ينبض بالحركة. وأنا أمضغ دماغه، قلتُ:

– أنتم الذكور، من السهل التلاعب بكم، إن كنتم قططاً أو جرذاناً. يمكننا، نحن الإناث، أن ننال منكم دائماً من خلال الجنس.

في ذلك المكان العالي، أنهيتُ تناول دماغه، ومن ثمّ ملأتُ بالحليب جمجمته لكي أشرب هذا المشروب الأبيض في هذا الإناء ذي الوبر الأبيض. إنّه تناسقٌ في الألوان.

أيقظتني أجراس كاتدرائية نوتردام من ذلك الحلم. ودون أن أنتظر، ذهبتُ إلى قمّة الغرغول وعاينتُ الأنحاء المحيطة لأكتشف سبب هذا الإنذار.

وحينئذٍ، رأيتُ.

في هذه اللحظة من الفجر حيث تبدأ الأشعة البرتقالية للشمس بإضاءة ضفاف النهر، لمحنا القطط الستّة للفرقة الخاصّة. رأيناها متشبثة بلوحين من الخشب على شكل حرف T اللاتيني، قوائمها الخلفية مضمومة بعضها إلى بعض وقوائمها الأمامية ممدّدة، وتغطّي آثار العضّات أجسادها، ولكن بعضها كانت لا تزال تتحرّك مهتزّةً بفعل تشنجات عصبية خفيفة.

آوه لا، ليس هذا.

سرت رعشةٌ غير مريحة في عمودي الفقري.

أقلقتني أمورٌ عديدة في تلك اللحظة. في مقدّمتها، كان فشل الفرقة الخاصّة في مهمتها يعني أننا لن نحصل على النجدة في وقتٍ قريبٍ وأننا سوف نعاني على الأرجح من شحّ الطعام. ثم أنّ هذه المهمّة، ورغم أنّ هذا تفصيلٌ صغيرٌ ولكنّه يهمّني كثيراً، كانت فكرتي وبالتالي تُفقدني مصداقيتي أمام جماعتي.

نزلتُ إلى ساحة الكاتدرائية واقترحتُ عقد اجتماعٍ طارئ. وشكّلنا بطريقةٍ عفوية ما أسماه فيثاغورس «حكومة أزمة»، مؤلّفةً من لجنة مصغّرة من الحكماء.

قرّرنا أن نجتمع على الطاولة الكبيرة في قاعة الكاتدرائية، التي سمّاها فيثاغورس «الهيكل». كان عددنا الإجمالي يصل إلى اثني عشر قطّاً وقطّة من الأكثر ذكاءً وشجاعةً.

قبل أن يبدأ أحدٌ بالحديث، مارستُ سلطتي من خلال افتتاح المناقشات.

– كان هناك خياران. كان الخيار الأوّل هو أن نخرج بحثاً عن استقدام تعزيزات. وقد استُكشِفَ هذا الخيار وأفضى إلى نتائج أستطيع أن أصفها بأنّها ليست مرضية كثيراً. أمّا الثاني، فكان الانتظار دون القيام بأيّ شيء، وهو ما يعني أننا في حال اعتماده، كنّا سنتعرّض لخطر الموت جوعاً. برأيكَ، يا فولفغانغ، كم من الوقت يمكننا أن نصمد؟

ردّ فولفغانغ كأنّه يدافع عن نفسه، وأجاب على سؤالي بسؤال:

– أنا؟ لماذا تسألينني أنا هذا السؤال؟

– لأنني أعلم أنّ الطعام هو مركز اهتمامك الرئيسي. هيّا أجب على سؤالي؟

– من دون السمك، وفقط مع المؤن الموجودة؟ حسناً، سأقول مدّة شهرٍ واحدٍ. ولكن فصل الشتاء قادم، وربّما مع حلول البرد سوف نحتاج إلى المزيد من الطعام لكي نصمد.

شعرتُ بأنّ القطط الأحد عشر الأخرى متوتّرة. رفعت أسميرالدا كفّها لكي تطلب الإذن بالحديث.

– فلنهاجم الحاجز عند أعلى مجرى النهر.

– كيف تتصوّرين الهجوم؟

– ربّما سيكون بإمكاننا أن نطلب من خدمنا البشريين أن يوقدوا فيه النار. ففي نهاية المطاف، هو هيكلٌ مبنيٌّ من قطع الخشب، التي لا بدّ أنّها قابلة للاشتعال.

تدخّل فيثاغورس.

– نعم، ولكن هذه أخشاب مبلّلة، الأمر الذي يجعلها صعبة الاحتراق.

أكملت أسميرالدا:

– إلا إذا استخدمنا وقوداً. لقد سبق أن رأينا فاعلية العملية حينما تعلّق الأمر بإيقاف الهجوم على جزيرة البجع.

قال فولفغانغ، بحسرةٍ:

– ولكن لم يعد لدينا وقودٌ.

ماء أنجيلو الذي كان قد لحق بنا خلسةً:

– فلنقتلها جميعاً!

قلتُ:

– اعذروه، فهو لا يزال صغيراً.

أعلن القطّ السيامي بعد بضع ثوانٍ من التفكير:

- ربّما يكون لديّ حلٌّ.
أنا أعشقُ هذه الجملة.
أردف، قائلاً:
- ولكنّه حلٌّ معقّدٌ بعض الشيء. قبل أن آتي إلى هنا، استخدمتُ عيني الثالثة لأرى ما هي الحالات المشابهة لوضعنا الراهن التي عاشها البشر في الماضي. بين الأوضاع الأكثر شهرةً، نجد حصار طروادة من قبل الإغريق، وحصار أليزيا من قبل الرومانيين، وحصار القسطنطينية من قبل الأتراك، وحصار حصن متسادا اليهودي من قبل الرومانيين، وحصار فيينا من قبل المغول... باختصار، لن أعدّ قائمة شاملة، ولكن هناك حالة واحدة من بين جميع الحالات جذبت انتباهي على نحوٍ خاصّ.
أثار غضبي بنبرته التي أراد من خلالها أن يُظهر بأنّه يعرف أموراً يجهلها الآخرون.
- إنّه حصار باريس في اكتوبر / تشرين الأوّل من عام 1870 من قبل القوات البروسية.
لم تُدرك القطط الأخرى الحاضرة قط إلى ماذا يلمّح فيثاغورس، لأنّها بالطبع لم تكن تعرف تاريخ البشر. أنا أيضاً كنتُ جاهلة تماماً بالأمر، ولكنني تظاهرتُ أنني أعرف، فقلت:
- اروِ لها.
اتّخذ فيثاغورس موقف منْ يُريد تعليم التلاميذ. شرح لنا:
- حسناً، بعد حرب عام 1870 التي وقعت بين الفرنسيين والبروسيين (أي الألمان)، غزا البروسيون البلاد عبر الحدود الشرقية وانتهوا إلى فرض طوقٍ على العاصمة، باريس، من أجل محاصرتها.
سمحتُ لنفسي أن أضيف على كلامه:
- وبالتالي حدث هذا هنا أيضاً.
- في الواقع نعم. أقصد، ليس فقط هنا، بل في كامل مدينة باريس. سعى المحاصَرون إلى إيجاد وسيلة للتواصل مع الخارج لكي يذهبوا في طلب نجدةٍ وفي النهاية وجدوا وسيلةً إلى ذلك: الفرار ليس أرضاً وإنّما... جوّاً.

سألت أسميرالدا باندهاش:

– مثل الطيور؟

– تماماً. مثل الطيور. وبهذه الطريقة نجح قائدهم، الذي كان يُدعى ليون غامبيتا، في مغادرة باريس من خلال الطيران والهبوط خلف خطوط العدو لكي يذهب ويشكّل جيشاً للمقاومة.

سأل فولفغانغ، منبهراً:

– كيف أمكنه ذلك؟

– بفضل... «منطادٍ».

سألت أسميرالدا، مندهشةً:

– بفضل ماذا؟

– إنّها مركبة رائعة تسمح، حصراً، للذين لا أجنحة لهم بالطيران.

حكّ فيثاغورس رأسه كما لو أنّ عينه الثالثة كانت تحكّه.

– وهذه المركبة تعمل حسب المبدأ التالي: يصعد الهواء الساخن إلى الأعلى، وبالتالي، إذا ما نُفِخَ الهواء داخل بالونٍ، يُمكن لهذا البالون أن يرفع الناس أو الأشياء التي تكون داخل سلّة معلّقة بالبالون.

في بعض الأحيان، تساءلتُ إن كان هذا القطّ السيامي يروي أيّ شيءٍ كان بهدف إثارة إعجابي. بيد أنني، كما بدا ذلك واضحاً جدّاً، كنتُ أميلُ في نهاية المطاف إلى تصديقه. ومع ذلك، سمحتُ لنفسي أن أُقاطعه لكي أبقى في مركز الاهتمام:

– الهواء الساخن يصعد إلى الأعلى، هذا مؤكّد، وبالتالي، ماذا يشبه منطادٌ، على نحوٍ أكثر تحديداً؟

– إنّه يتكوّن من غلافٍ كبيرٍ مثل بيتٍ. وهو منفوخٌ بالهواء الساخن وبالتالي يرفعُ سلّةً، وهي شبيهة بالسلال الكبيرة المصنوعة من أغصان الشجر. ثمّ يرتفع في السماء.

سألت أسميرالدا، مفتونةً وحالمة:

– يرتفع أعلى من السطوح؟

– يرتفع أعلى من الغيوم. إنّها التقنية البشرية المتطوّرة.

تدخّلتُ في النقاش:

– وتُريدُ أن تصنع واحدة من هذه المركبات؟

– ليس أنا من سيصنعها، فهذا صعبٌ بدون الأيادي، إلا أنّ خدمنا البشريين يستطيعون القيام بذلك. أنا أعرف ما هو موقع الإنترنت الذي يجب الدخول إليه لمعرفة كيفية صنع المنطاد:

www.fabriquerunemongolfiereen10leçons.com.

وافقتُ على رأيه من خلال هزّ رأسي.

– يبدو لي أنّ هذا هو أفضل اقتراحٍ نسمعه حتى الآن. أمّا فيما يتعلّق بصنع المنطاد «خاصّتنا»، فسوف يكفي، يا فيثاغورس، أن تُعطي تعليماتك لخادمتي ناتالي. فهي كمهندسة معمارية سابقة، تُجيدُ إدارة الورشات والتنسيق بين جهود أبناء جنسها.

سألت أسميرالدا التي لم تكن مقتنعة تمام الاقتناع:

– وحين ننجح في تجاوز خطوط الأعداء، ما الذي سوف يحدث بعد ذلك؟

– سوف نعثر على قوات النجدة التي سوف تكسر الحصار الذي نخضع له. وسوف ننتصرُ معاً على الجرذان.

نجح الأمر، لقد استعدتُ تلك الهيبة الطبيعية التي هي هيبتي والتي تفرض الاحترام على محيطي.

ختمتُ اجتماع حكومة الأزمة بمواءٍ حازمٍ يعني: «لم يعد هناك وقتٌ نضيّعه، باشروا جميعاً بالعمل».

نقل فيثاغورس الأمر، ونظّمت ناتالي ورشة بناء مع أبناء جنسها. استقرّوا في باحة مستشفى أوتيل ديو وبدأوا بالعمل.

جلبوا ما يُقارب خمسين شرشفاً من المستشفى، وقصّوها في أشرطة طويلة خاطوها معاً للحصول على شكلٍ شبيهٍ بزهرة توليبٍ مقلوبة. ثمّ دهنوا هذا النسيج بالشمع اللزج لكي يصبح أكثر إحكاماً ومانعاً لتسرّب الهواء. ثم أحضروا حوضاً بلاستيكياً، وفتحوا ثقوباً في حوافه وثبّتوا فيها حبالاً لبناء السلّة. ثمّ ربطوا الأطراف الأخرى لهذه الحبال بغلاف البالون.

حان وقت تركيب قلب الآلة: أسطوانة غاز موصولة بأنبوبٍ، والأنبوب مرتبطٌ بموقدٍ، وهي الأدوات التي عثرنا عليها في كراج مديرية الشرطة. قاموا بتجهيز طرف الأنبوب بفوهة واسعة الفتحة منبثقة من مرشّ حمامٍ. وقد شكّل مجموع هذه التوصيلات ما أسماه فيثاغورس «فوهة النار».

وأخيراً، بعد ثلاثة أيامٍ من العمل المرهق والدقيق، أصبح المنطاد جاهزاً للإقلاع.

اجتمعنا من جديد، نحن المجلس المكوّن من اثني عشر قطّاً قائداً في جزيرة المدينة، لنتّخذ القرار بتنفيذ مهمّة الفرصة الأخيرة هذه.

سألت أسميرالدا:

- من سيذهب في هذا المنطاد؟

قال فولفغانغ:

- أنا!

زمجر الأسد هانيبال، الذي كان قد انضمّ إلينا في هيكل الكاتدرائية بدافع الفضول المحض:

- أنا!

مستغلّةً هيبتي الطبيعية، أسكتُّ تلك القطط متّخذة وضعية الوقوف على قائمتين وباصقةً كما لو أنني غاضبة.

- سيكون من المثالي أن ينطلق به كائنٌ بشري وقطّان. كائنٌ بشري، في حال احتجنا إلى إدارة الأدوات أو تشغيل المركبة. وقطّان من أجل التصرّف بفاعلية. بالنسبة إلى الكائن البشري، أعلم مسبقاً منْ سأختار. ستكون ناتالي هي المكلّفة، لأنني أعرفها ولأنني أعلم أنّها ماهرة جدّاً، وبالنسبة إلى القطّين... سيكون أحدهما فيثاغورس، لأنّه وحده مزوّدٌ بعينٍ ثالثة تسمح له بالتواصل معها.

استأنفت أسميرالدا الكلام، وسألت:

- وماذا عن القطّ الثالث؟

قلتُ:

- سيكون... أنا.

سأل هانيبال مندهشاً:

– لمَ ليس أنا؟ ألستم تمارسون العنصرية الآن ضدّ الأسود؟

– أنت ثقيل الوزن جدّاً، يا هانيبال، ويؤسفني أن أقول لك ذلك. ثمّ إنّك تثير الخوف. والحال أننا سوف نحتاج على الأرجح إلى أن نكون مثيرين للطمأنينة لكي نستطيع إقناع حلفائنا المُحتَملين بأن يلتحقوا بنا. وأخيراً، سوف أذهب لأنني أعتقد أننا، في هذا الوضع الحرج، نحتاج إلى شخصٍ قادرٍ على أن يتّخذ سريعاً القرارات الصحيحة والمناسبة. والحال أنني، ودون تفاخر، أذكّركم بأنّ كلّ ما نجحنا فيه منذ بداية هذه المغامرة قد أُنجِزَ بفضلي أنا. وكما لو أنّ الأمر مصادفةٌ، في كلّ مرّة لا أشترك فيها، تفشل المهمّة. سوف أذكر فقط حادثة القطط الستّة المُعذّبة على ضفّة النهر.

ردّت أسميرالدا محتجّةً:

– الفرقة الخاصّة من ستّة قطط؟ ولكن كانت هذه فكرتكِ!

قلتُ بنبرةٍ حادّة مطبوعةٍ بسوء النية هذا الذي يطبعني:

– بكلّ تأكيد، ولكن البعثة لم تنجح في مهمّتها لأنني لم أذهب معها. لو أنني كنتُ جزءاً من أولئك الستّة، لكان على الأرجح الخمسة الآخرون لا يزالون على قيد الحياة. إذا أردنا النجاح، يجب أن أذهب في هذه المهمّة.

في الحقيقة، وليكن هذا بيني وبينكم، اعلموا أنني أحبّ أن أكون مخطئة وأن أفرض وجهة نظري مهما حدث. أحب كثيراً أن أكذب، وأحبّ كثيراً أن أتظاهر بأنني قد قلتُ أشياء لم أقلها. أفي هذا ضيرٌ؟ برأيي، سوء النية هو موهبة ضرورية من أجل ممارسة السياسة. وحسب المعلومات القليلة التي أخبرني بها فيثاغورس، فإنّ البشر الوحيدين الذين نجحوا في أن يصبحوا قادة محترَمين لم يكونوا الأكثر ذكاءً بل الذين كانوا الأكثر اتّساماً بسوء النيّة؛ وفي الواقع، حتى حينما كانوا يخطئون، كانوا يجعلون المروّجين لهم يروون الرواية التي تصبّ في خدمتهم وتعزّز مكانتهم.

حاول فولفغانغ أنّ يصرّ على رأيه برعونة:

– لستُ متّفقاً مع قراركِ، يا باستيت. نعم، نحن ندين لكِ بالكثير من

الأمور، ولكن هذا ليس سبباً كافياً لكي تشاركي في كلّ المهمّات. أريد فعلاً أن أذهب أنا أيضاً في هذه المهمّة. لا بدّ أنّه من الرائع أن نطير في السماء. لطالما حلمتُ أن أكون طائراً.

بدأوا بإزعاجي.

رددتُ عليهم بقسوة وجفاء:

- لا يهمّني رأيكم كثيراً ولا يغيّر شيئاً في قراري.

اقترح فولفغانغ:

- ولكننا اثنا عشر قطّاً، ويمكننا أن نجري تصويتاً على الأمر.

- لا أعتقد أنّ التصويت سبيلٌ لاتّخاذ الخيار الصحيح. من خلال التصويت، سوف نحصل في أفضل الحالات على توافقٍ ضعيف. أنا أفضّل نظامي الدكتاتوري المستنير. المستنير بفضلي أنا، بكلّ تأكيد. عليكم أن تصغوا إليّ وأن تُطيعوا أوامري، وإذا فشلتُ، يمكنكم أن تعتبروني المسؤولة الوحيدة عن الفشل. وبخلاف ذلك، إذا نجحت، سوف أُبرهنُ مرّة أخرى على أنني كنتُ على حقّ وأنّ المعارضين لي كانوا على خطأ.

نظروا جميعاً إليّ بشيءٍ من الاستهجان، ولكن لم يكن لديهم الكثير لكي يعارضوا إرادتي الحازمة والصريحة. كلّما كانت الكذبة كبيرة جدّاً، صارت أقرب إلى التصديق. في الواقع، كانوا هم أيضاً مازوشيين، وكانوا يحبّون الإناث المسيطرات وأنا أجيد لعب هذا الدور جيّداً. يكفي تبنّي لهجة قاسية ومحتقِرة حتى يُعادوا إلى ضعفهم.

أدركتُ أنّه لا ينبغي أن يُثار الجدل حول قراري، فقلتُ بلهجةٍ قاطعة:

- سوف أنطلق مع فيثاغورس وناتالي، ونقطة في آخر السطر.

أنا أعلم أنني أكثر فاعليةً حينما أتصرّف بوقاحة وأعامل الجميع بفوقية. أنا أعلم أنّ الضعفاء يخشون دائماً النزاع وأنّهم يفضّلون، بدافع الكسل فقط لا غير، أن يُطيعوني بدل أن يُعارضوني. وبهذه الطريقة نويتُ أن أُقيم دكتاتوريتي المستنيرة، بحيث نصل إلى سعادتنا الجماعية.

حدّقتُ فيهم واحداً تلوَ الآخر، منتصبة الأذنين، مرتعشةَ الشوارب، تاركةً

أحد أنيابي يظهر من فمي لكي أُظهر إرادتي وتصميمي. كان هانيبال أوّل من خرخر. أخفض فولفغانغ عينيه. هزّت أسميرالدا رأسها، حانقةً.

ظهر أنجيلو من جديد وقال:

– وأنا، هل يمكنني المجيء معكم؟

– هذه المهمّة خطيرة جدّاً لقطٍّ صغيرٍ مثلك.

– ولكن، يا أمّاه، لم أعد قطّاً صغيراً، كما تعلمين.

– نعم، اعذرني، ولكنّك لا تزال صغير السنّ، وبرأيي، طائشاً أكثر من اللازم.

– أنا قويّ، وأُجيد الزئير. أريدُ أن أقتل جرذاناً! أُريد أن أقتل كلّ الجرذان!

وهنا أطلق زئيراً خفيفاً، وهو أقوى ما يمكن لحنجرته كمراهق أن تُصدره.

تجاهلتُ طرائفه لكي أتوجّه مرّة أخرى إلى مجلس الاثني عشر:

– هل هناك أي اعتراضات أخرى؟

لم يجرؤ أحدٌ على معارضتي. وبالتالي، وقبل أن يغيّر أيّ منهم رأيه، ختمتُ حديثي بالقول:

– أنا سعيدةٌ بأن نكون مرّة أخرى متّفقين جميعاً لكي نتّخذ أفضل الخيارات وندافع عن المصلحة العامّة. الآن، فلنسارع إلى القيام بالتحضيرات الأخيرة لهذه المغامرة الحاسمة لإنقاذ حياة سكان جزيرة المدينة.

مرّة أخرى، كنتُ رائعة.

شعرتُ كما لو أنّ لبعضهم أيادي، لصفّقوا لي.

18. تاريخ المناطيد

لطالما حلم الإنسان بأن يطير مثل الطيور. ربّما تعود المرحلة الأولى من تحقيق هذا الخيال إلى عام 1783. ونحن مدينون بذلك للأخوين مونغولفييه.

كان والدهما، بيير مونغولفييه، رجلاً ثريّاً يعمل في مجال صناعة الورق، ويقيم في مدينة آنوناي، التي لا تبعد كثيراً عن مدينة سان إتيان. وكان لديه ستّة عشر طفلاً.

كان جوزف، وهو الثاني عشر في الترتيب بين أخوته، تلميذاً غير مجدٍّ، ومشاغباً، وغير منضبطٍ، ولكنّه كان مولعاً بمراقبة الطبيعة وبعلم الفيزياء. كان لجوزيف تأثير كبير على شقيقه الأصغر منه إتيان، وهو الخامس عشر في الترتيب في العائلة، وهو الآخر كان مهتمّاً بالعلم أكثر من اهتمامه بالمدرسة.

ذات يوم، بينما ألقى بورقةٍ في نار المدفأة، لاحظ جوزف أنّ الورقة قد ارتفعت في الهواء. تحدّث عمّا شاهد لشقيقه إتيان، فقاما معاً بإجراء سلسلة من التجارب لتطوير هذا الاكتشاف واستثماره.

أمام سكان آنوناي المجتمعين، عملا على رفع مكعّبٍ مصنوعٍ من الورق بعلوّ مترٍ واحدٍ من الجانب المنفوخ بالهواء بفعل الحرارة الناتجة عن احتراق كمية صغيرة من الصوف والقش. حلّق النموذج المصمّم على ارتفاع قرابة ثلاثين متراً في الهواء.

وصلت أخبار تلك الحكاية إلى مسامع الملك لويس السادس عشر، المولَع بالعلم، فأراد أن يرى الظاهرة بنفسه. في التاسع عشر من شهر سبتمبر/ أيلول من عام 1783، أجرى الأخوان مونغولفييه تجربةً كبيرة في فيرساي أمام الملك وحاشية بلاطه. ولهذه المناسبة، قاما بإنشاء بالون من ألف مترٍ مكعّب وبارتفاع أربعة وعشرين متراً، مكوّنٍ من أربعة وعشرين مغزلاً قطنياً ومقوّى بالورق. وقد أُضيف اختراعٌ آخر، إذ استقبلت المركبة هذه ركاباً في كبسولتها المصنوعة من أغصان الأشجار: وهم عبارة عن خروف وديكٍ وبطّة. ارتفع البالون إلى علوّ 500 مترٍ، وحلّق مدّة ثماني دقائق وقطع مسافة ثلاثة كيلومترات وخمسمئة مترٍ. عند الهبوط، كانت الحيوانات على قيد الحياة وفي صحّة جيّدة (باستثناء الديك الذي كان منقاره قد انكسر بفعل حادثٍ صغير: فقد جلس الخروف فوقه).

شجّع الملك آل مونغولفييه على الانتقال إلى المرحلة التالية وعلى إطلاق واحدة من هذه المركبات وعلى متنها بشرٌ. فكّروا في البداية في جلب سجناء محكومين بالإعدام وإرسالهم على متنها - إذا ما سارت

الأمور على نحوٍ سيّئ، ستكون الخسارة محدودة –، ولكن لم تأخذ هذه الفكرة في الحسبان حماسةَ شابٍّ مغامر، هو جان فرانسوا بيلاتير دي روزيير الذي أراد بأيّ ثمن أن يكون أوّل إنسانٍ يطير. ظلّ يتقرّب من البلاط ويثير حماسته للفكرة إلى أن سُمِح له بأن يجرّب رحلة طيران بشرية في السماء.

جرت التجارب الأولى في شهر تشرين الأوّل / اكتوبر 1783، في باريس، في ضاحية سان أنطوان. في البداية، ظلّت رحلات الطيران محصورة وتحت السيطرة، أيّ أنّ المنطاد كان موصولاً بحبلٍ يربطه بالأرض. ثمّ بعد ذلك، في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر 1783، جرّب بيلاتير دي روزيير، برفقة ماركيز دي آرلانديز، رحلة «طليقة» تماماً: أقلع المنطاد من باب دي لا مويت في غرب باريس وارتفع إلى علّو ألف مترٍ، قبل أن تدفعه الرياح نحو الجنوب الشرقي، حتى بلغ حي تل أوكاييه. بيد أنّ الرجلين اضطرا لأن يهبطا حينما أوقد رماد الجمر النار في أسفل البالون. وبلغت المسافة المقطوعة في ذلك اليوم تسعة كيلومترات خلال خمس وعشرين دقيقة.

وقد كوفِئ الأخوان مونغولفييه على هذا الصنيع بنيل لقب فارس واتّخذا لهما شعاراً: «سوف نذهب حتى نصل إلى النجوم».

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

19. التحليق

كانت أمّي تقول دوماً: «حينما يكون لديكِ الخيار بين المغادرة وعدم المغادرة، اختاري دائماً الحلّ الأوّل. في أسوأ الأحوال، سوف تعرفين لماذا كان عليكِ أن تغادري».

ولذلك غادرت.

للوهلة الأولى، بدا الطقس جيّداً.

اجتمعنا جميعاً في باحة مديرية الشرطة في جزيرة المدينة.

لقد أتاح لنا البناء ذو الجدران العالية ذاك ألّا نُشاهَد من ضفاف النهر لأنني استطعتُ قبل ذلك أن ألاحظ أنّ بعض الجرذان المكلّفة بمهمّة الرصد والمراقبة تعتلي قمّة الأشجار لكي تستطيع مراقبة ما يحدث عندنا.

صعدنا فيثاغورس وأنا إلى السلّة المصنوعة من الحوض البلاستيكي. وفي داخلها، وضعت ناتالي ثلاثة مقاعد صغيرة. حمل أحدها قوارير الغاز، وجلست ناتالي على أحدها، في حين خُصّص الثالث لنا نحن القطّين لكي نستقرّ عليه حتى نتمكّن من رؤية خارج سلّة المنطاد. كنت أكياسُ رملٍ قد عُلّقت على الجوانب بغرض استخدامها كأثقال لحفظ توازن المنطاد إذا ما احتجنا إلى الصعود بسرعة.

بسبب نقص الطعام، جلبت خادمتي حقيبة ظهرٍ مليئة بأدوات متنوّعة، بدءاً من السكين وانتهاءً بالمطرقة، مروراً بمنظارٍ وبوصلة. ثمّ رفع البشر غلاف البالون لكي يجنّبوه الاحتراق بالنار وأشعلت ناتالي فوهات النار، فامتدّ لهبٌ أصفر اللون.

بدأ الهواء الساخن بملء النسيج، الذي انتفخ وارتفع. انتشرت الكرة الواسعة للمنطاد ببطءٍ. شعرتُ بأنّ سلّة المنطاد ترتفع نحو الأعلى. وعلى الرغم من هذا، ومن باب الاحتياط والاحتراس، كنّا قد ثبّتنا حبالاً تربطنا بأوتادٍ على الأرض. حينما انتفخ البالون تماماً، امتدّت الحبال المثبِّتة، وارتجف الحوض البلاستيكي، ثمّ ارتفع، ولم يعد مرتبطاً بأيّ شيءٍ سوى الحبال.

القطط الأخرى والبشر الآخرون نظروا إلينا، مستغربين ومتلهّفين لمعرفة هذه الظاهرة. رأيتُ أنجيلو يقف على كتف باتريسيا، بينما فولفغانغ وأسميرالدا على شجرةٍ.

خاطبني ابني بصوتٍ عالٍ:

– اقتلي أكبر عددٍ من الجرذان!

– سوف أجلب لكم فقط تعزيزات وغذاءً!

ماءت أسمير الدا:

– حاولوا قبل كلّ شيء أن تعودوا إلينا وأنتم أحياء!

أضاف فولفغانغ:

– لا تتخلّوا عنّا، من دونكم سوف نهلك لا محالة!

ختم أنجيلو:

– في كلّ الأحوال، لا تقلقي، يا أمّاه، إذا متّ سأكون هنا لكي أتولّى الأمور.

لم أطق المزيد من الانتظار وتلهّفتُ إلى الانطلاق ومغادرة هذا الجمع من المشكّكين الانهزاميين، فأعطيتُ الإشارة بالانطلاق.

نقل فيثاغورس رسالتي إلى ناتالي التي قطعت الحبال، وارتفع المنطاد دفعةً واحدة فوق الأرض.

لاحظتُ أنّ العرّافة، التي نظرت إلينا ونحن نحلّق في السماء، قلقة، ولكن عند البشر يغدو من الأصعب فكّ شيفرة المشاعر، فهم لا ينصبون أذيالهم، ولا يمدّون آذانهم، ويُخفون روائحهم بأقمشةٍ. إنّهم بالفعل الكائنات التي تزرع الغموض عندما يتعلّق بأحاسيسهم العميقة.

أنا متأكّدة من أنّهم حتى فيما بينهم لا يفهمون بعضهم مشاعر بعض. صعدتُ إلى كتف خادمتي لكي أراقب ما يحدث من أفضل مرقبٍ. أمّا فيثاغورس، فقد آثر أن يختفي تحت مقعدٍ خشية من أن يُصاب بالدوّار.

هل يمكن أن يُعاني من الدوّار؟ هذا مثيرٌ للدهشة، لأنّه لم يكن يخاف ممارسة الجنس على غرغول نوتردام. واستنتجتُ من ذلك أنّ ما يخافه هو أن يكون على علوٍّ مرتفع دون أي صلة بالأرض.

أنا بنفسي، لم أكن على ما يُرام تماماً. فكما تعلمون، لدي رهابي الخاصّ من بعض الأشياء، مثل الماء والاستخفاف وكلّ ما هو متّسخ، ولكن في كلّ الأحوال لا أخاف الفراغ.

صعدنا بسرعة كبيرة في الهواء. وفي غضون ثوانٍ قليلة تجاوزنا قمّة كاتدرائية نوتردام دو باريس، وفي تلك اللحظة، راودت بعض الشبان

البشريين فكرةٌ حسنة في أن يقوموا بقرع أجراس الكاتدرائية تحيةً لنا. لقد أصبحنا في أمان، فحتى إذا رأتنا الجرذان المُستطلِعة، لن يكون بوسعها أن تفعل شيئاً لمنعنا من الفرار عبر الأجواء.

ارتفعنا أكثر ورأيتُ جزيرة المدينة وهي تشبه تدريجياً شكل حبّة لوزٍ رمادية محاطة بنهرٍ أخضر يبعث إشعاعات متلألئة.

كان فردوسنا، ونحن ننظر إليه من هذا العلوّ، يشبه عيناً بشرية.

قلتُ، مندهشةً:

– لم يسبق لأيّ قطّة أن صعدت إلى هذا المستوى من العلوّ!

أجابني فيثاغورس من قعر سلّة المنطاد:

– بلى، تذكّري: لقد أرسل البشر في عام 1963 القطّة فيليسيت في مركبةٍ فضائية.

– بالتأكيد، ولكنّك أخبرتني بأنّها لم تكن تستطيع النظر إلى الخارج، في حين إننا نفعل ذلك.

أقصد، أنا، أجل، على أيّ حال.

اتّسع الأفق ورأيتُ الخطوط الداكنة لجيوش الجرذان على الضفاف وكذلك حواجزها على النهر. لقد كانت أكثر عدداً مما قدّرتُ للوهلة الأولى.

واصلنا الارتفاع في السماء.

لا لشيء سوى إثارة إعجاب فيثاغورس وإبهاره، وقفتُ على حافة سلّة المنطاد، وقد غرزتُ مخالبي في أحد الحبال، في حالة توازنٍ غير مستقرّ. كان المنظر مثيراً للدوّار. ومع ذلك، هؤلاء البشر بارعون للغاية في اختراعهم لهذه المركبة الطائرة.

شعرتُ بسخونةٍ في أعلى جمجمتي بفعل حرارة الفوهات النارية، وهي القنوات التي تنقل الحرارة، في حين غرقت قوائمي في البرد كلّما ارتفعنا أكثر. وقد اكتشفتُ بهذه المناسبة أنّ درجة الحرارة تنخفض أكثر كلّما ارتفعنا أكثر.

جاءت ناتالي تداعبني. إنّها امرأة شجاعة. قلتُ في نفسي إنّها قامت بعملٍ رائع.

إذا ما نجحتُ ذات يومٍ في التحاور معها، يتعيّن عليّ التفكير في تقديم الشكر لها.

تسلقتُ على كتفها، وداعبتني أكثر ومؤتُ في أذنها بكلمة «واصلي».

أجَابتني بلغتها، وكعادتنا، لم أتعرّف في الحديث إلّا على اسمي، «باستيت».

افترضتُ أنّها تهنّئني على كوني صاحبة على هذه الدرجة من الطيبة، لأنّه في النهاية، لا يحظى جميع البشر بفرصة أن يصادفوا صاحبات - قططاً مثلي.

يبدو أنّه فيما مضى كانت هناك قططٌ تقوم حتى بتربية خدمها البشريين من خلال ضربات المخالب على أيديهم.

ولكن، في لحظةٍ ما، وربّما لأنّها كانت متوتّرة، أشعلت ناتالي سيجارةً.

آه من هذا، أنا لا أطيق دخان السيجارة، وعلاوة على ذلك، فإنّ مادّتها السامة تلتصق بفرائي، بحيث عندما ألعقُ نفسي، تلسع بقاياها لساني.

ولأنني لم أستطع أن أُشير إلى هذا بوضوح لناتالي، اكتفيتُ بأن ابتعدتُ وأخذتُ مكاني في زاوية أخرى من سلّة المنطاد وأنا أنحني فوق الفراغ.

كلّما ارتفعنا أكثر، اتّسع حقل رؤيتنا. توجّهتُ إلى فيثاغورس، وهو لا يزال متكوّراً على نفسه في قاعِ مركبتنا، وسألته:

- إلى أين نذهب الآن؟

- هذه المركبة عبارة عن منطاد وليست مركبة قابلة للتوجيه، والمنطاد يصعد ويهبط ولكنّه لا يستطيع أن يكون قابلاً للتوجيه.

أفترضُ أنّه يمزح، نعم إنّه يمزح من كلّ بدٍّ.

- وهل هذا يعني أنّه لا يمكننا أن نختار المكان الذي نذهب إليه؟ وتُخبرني بذلك الآن فقط!

- نعم، اعذريني، كان عليّ أن أخبركِ بذلك.

بكلّ تأكيد. لو كانت لدي هذه المعلومة، لما ذهبتُ في هذه الرحلة أبداً!

- حقّاً؟ وبالتالي، كيف سنلتفُّ على خطوط الجرذان؟

- علينا أن ننتظر إلى حين أن تدفعنا تيارات هوائية أفقية نحو الوجهة

المناسبة. المشكلة تكمن في أننا لا نعلم ما هي الرياح التي سوف نصادفها ولا ما هو الاتجاه الذي ستهبّ منه. ومن جهةٍ أخرى، ما يمكننا فعله هو أن نكتشف تيارات هوائية ونأخذ موقعنا في أعقابها.

– وكيف سنكتشف هذه التيارات الهوائية؟

– من خلال مراقبة حركة الغيوم والغبار والطيور. باختصار، من خلال كلّ ما هو موجود بمستوى ارتفاعنا ويتحرّك.

– وهل ستجيد القيام بهذا الأمر؟

– ليس أنا، ولكنّ ناتالي على علمٍ بذلك. سيكون من المثالي أن نذهب نحو الشمال لأنّ القطيع البنّي قد احتلّ الجنوب. في الشمال، لا بدّ اننا سوف نجد شعوباً يمكننا إقناعها بالقتال إلى جانبنا.

وقد لاحظتُ أنّه حينما تكون هناك حركات هوائية، تكون هناك غيومٌ على نحوٍ متزايد. غُصنا وسط طبقة سميكة من الأبخرة غير الشفّافة التي لم يعد، هذه المرّة، بوسعنا أن نتخلّص منها. وبالتالي فقدنا كلّ مدى للرؤية. لم نعد نعرف أين كنّا ولا على أيّ ارتفاعٍ نحلّق.

ظللنا نحلّق وسط هذه الأبخرة السميكة لبضع دقائق. حينما تبدّد الضباب أخيراً، رأينا مشهداً جيداً. رأينا غابة شاسعة. بالنسبة إليّ، أنا التي ولدتُ في المدينة وسط العمارات البشرية، سبّبت لي كلّ هذه المساحة الخضراء بعض القلق والارتباك. تمتدّ على مدى البصر فقط خضرةٌ وأشجارٌ وعشبٌ؛ لا رصيف ولا سيارات، ولا عمارات، ولا أضواء الشوارع. لا شيء باللون الرمادي أو الأسود، بل فقط اللون الأخضر والبرتقالي والأحمر لنهاية فصل الخريف.

شعرنا بريحٍ هبّت ودفعتنا أخيراً. تأرجحت سلّة المنطاد وفقدت ناتالي توازنها. سقطت في مقعدها وجاءت قليلاً فوق القطّ السيامي الذي أخذ يموء بتألمٍ وشكوى.

حافظتُ على توازني فوق حرف سلّة المنطاد وبقيتُ أراقب كلّ شيء من الأعلى. لوت الريح شعرات شواربي وموّجت وبر فرائي. واستمتعتُ بذلك الطيران مثل طائرٍ.

اضطربت ناتالي تماماً وانتهت إلى الانحناء فوق حرف سلّة المنطاد لكي تتقيّأ. وبدا لي أنّ هذه هي اللحظة المثالية للشروع في حوارٍ. فتوجّهتُ بحديثي إلى فيثاغورس:

– أودّ أن أتحدّث مع خادمتي؛ هل ستترجم بيننا؟

أشار إليّ، وهو لا يزال ملتجئاً إلى قاع سلّة المنطاد، بأنّه سيحاول فعل ذلك.

– أخبرها بأنني سعيدة بامتلاكها الجرأة على أن تقوم بهذه الرحلة معنا كلينا.

ماء القطّ السيامي وأجابت خادمتي بالمقابل بشيءٍ ما باللغة البشرية. ترجمها لي:

– تقول إنّها تعتبركِ قطّة رائعة.

– اشكرْها وأخبرها بأنّها يجب ألّا تقلق. مهما يكن، سنقوم بالسيطرة على الكوكب حتى نخلف الحضارة البشرية المنهارة.

– إنّها تزعم بأنّكم «أنتم القطط» حتى تستطيعوا أن تخلفوا الحضارة البشرية، تنقصكم ثلاثة مفاهيم أساسية:

1) **الحبّ.**

2) **الفكاهة.**

3) **الفنّ.**

بعد برهةٍ من التفكير، أجبت:

– فيما يخصّ الحبّ، لا بأس، فأنا أُجيد الحبّ. وأنا أمارس الحبّ أكثر منها وأفضل منها بكثير، على ما يبدو لي.

– كلّا، الحبّ الذي تحدّثكِ عنه ليس مجرّد تزاوج بين ذكرٍ وأنثى. إنّه شيءٌ يتطلّب مشاعر، حسب تعبيرها.

– ولكن على العكس مما تقول: نحن منْ نمارس الحبّ بمشاعر، وهم منْ ينخرطون فقط في عملية بهيمية تناسلية!

– ولكن، حسبما تقول هي، الأمر عكس ذلك تماماً. أعتقد أنكّما لا تقصدان نفس الشيء عندما تتحدّثان عن «المشاعر»، فهي تؤكّد أنّ ما تتحدّثُ عنه هو شيءُ رقيقٌ جدّاً وقويّ.

ولكن منْ تعتبرُ نفسها، هذه المرأة! هل تُريدُ أن تعطي دروساً لكي تعلّم شخصاً مثلي ما هو الحبّ الحقيقي؟ إنّ مستوى التبجّح والرضا عن الذات لدى البشر سوف يُفاجئني على الدوام. إنّهم يعتبرون أنفسهم، على الرغم من الانهيار الكبير، على أنّهم الجنس الذي يمثّل المرجعية لكلّ شيء.

واصل فيثاغورس ترجمته:

– تقول إنّه مع الحبّ البشري، ومع التشديد على كلمة الحبّ، تشعرين بما يشعر به الآخر كما لو أنّك هو. هناك شيءٌ من الشفقة في هذا الحبّ: وإذ نتقاسم المشاعر نفسها، نتفاهم بعضنا مع بعض على نحوٍ أفضل.

كان نقاشاً غريباً في ذلك الارتفاع. وعلى الرغم من المساوئ الناجمة عن زمن الترجمة، واصلتُ النقاش في هذا الأمر.

– أمّا بالنسبة إلى الفكاهة، فيبدو لي أنني سبق أن سمعتُ الحديث عن هذا المفهوم البشري، ولكن هل يُمكنها أن تذكّرني ما المقصود به؟

– حسبما تقول، من الصعب شرح ذلك. إنّه شكلٌ من أشكال اختلال التوازن في الذهن يؤدي بالمرء إلى الرغبة في تخفيف الضغط: أيّ أنّه شيءٌ ما يحدث في الدماغ ويؤدي إلى الارتياح، ويتسبّب في الوقت ذاته بتنفّسٍ متقطّع. وهذه الظاهرة لا تزال على نحوٍ نموذجيّ ظاهرةٌ بشرية: وتُدعى «الضحك».

تساءلتُ في نفسي إن لم أكن قد ضحكتُ سابقاً، دون أن أعلم ما الذي كنتُ أفعله. ولأنني لاحظتُ أنّ رفيقيّ في الرحلة كانا في حالةٍ سيّئة بسبب الدوار الذي كانا يعانيان منه في حين كنتُ أنا في أفضل الظروف في العالم، أصبحتُ في منتهى الثقة وواصلتُ:

– أنا أعرفُ فنّ الموسيقى وفنّ الطبخ. أنا أحبّ الفنانين كالاس وفيفالدي وباخ، وأحبّ الكافيار، وهذا أمرٌ لا يُستهانُ به، أليس كذلك؟

– تزعم ناتالي أنّكِ، حينما تتمكّنين حقّاً من فهم ماهية الفنّ، سوف تعيشين نشوةً. ليس مجرّد متعة الحواس فقط، بل نوعٌ من الإلهام الذي لا تعرفينه بعد.

– بالتأكيد لم أعش بعد حالة النشوة الفنيّة...

– حسب ناتالي، هذا لأنّكِ لم تعثري بعد على الفنّ الذي يهزّ روحكِ. ولكن اطمئنّي، ليس هناك الموسيقى والطبخ فحسب، بل هناك أيضاً الرسم والنحت والرقص وكذلك أشكالٌ أخرى من التعبير الفني، مثل فنون صناعة العطور والأزياء والبستنة. وهي تتمنّى أن يأتي يومٌ تلمسين فيه هذا المفهوم لمس اليد، لأنّه، كما تقول، إذا أردتِ أن تخلقي حضارةً سنّورية، تخلف الحضارة البشرية، يجب عليكِ أن تُدركي قدرة الفنّ مهما كان الثمن. إنّ جنساً ما لا يُسيطر فقط عبر القوّة والذكاء، ولكن أيضاً من خلال القدرة على رفع التحدّي والتفوّق على نفسه من أجل إنتاج الجمال.

وفي الحال شغّلت ناتالي هاتفها الذكّي لكي يبثّ موسيقى.

– أعتقدُ أنّكِ تحبّين كثيراً «توكاتا» باخ. لقد طلبتُ منها أن تُسمعكِ شيئاً لنفس المؤلّف الموسيقي، وهو عملٌ ملائم لوضعنا كونه يُسمى «Air»، وهذه الكلمة في أحد معانيها تعني الهواء.

وككلّ مرّة أسمع فيها الموسيقى البشرية، بدت لي في البداية مجرّد أصواتٍ صاخبة، ثمّ، مع الاستمرار في الإصغاء، انتهى بي الأمر بالتعرّف إلى جمل موسيقية، قبل أن أميّز في تكرار الكلمات شكلاً من أشكال التطوّر الذي رسم ما يشبه حكاية صوتية.

مقطوعة «Air» ليوهان سيباستيان باخ. إنّها جميلة. يبدو لي أنّه لا ينبغي أن أنسى هذه اللحظة التي أنا فيها مع خادمتي البشرية ومع ذكري في هذا المنطاد الذي يحلّق فوق العالم، وأنا أصغي إلى هذه الموسيقى المدهشة. لا ينبغي نسيان ذلك.

تنفّستُ بعمق الهواء المنعش للطبقات العليا وتأمّلتُ المنظر الشاسع المنتشر فوقي. شعرتُ بأنني محضُ روحٍ ترى كلّ شيء وتستطيع أن تُنجزَ كلّ شيء.

ولكي تقوم بالبدء بإجراءات هبوطنا، أدارت ناتالي الزرّ الذي يتحكّم بوصول الغاز وخفّضت بذلك من شدّة فوهات النار. نزلنا تدريجياً وببطءٍ شديدٍ. وكلّما نزلنا أكثر، وصلت روائح العشب والدبال والأزهار إلى منخريّ المرتعشين. كان ذلك لذيذاً وسارّاً جدّاً مع مقطوعة «Air» للموسيقي باخ.

وحينما شاهدتُ تلك الغابات الشاسعة والسهول الملوّنة، أدركتُ أنّ حتى غابة بولونيا أو غابة فانسن اللتين اكتشفتهما خلال مغامراتي السابقة لم تكونا سوى غابتين مدينيتين صغيرتين، وأنّ الطبيعة الحقيقية هي ما أتأمّله الآن: الأفق النباتي الممتدّ إلى ما لا نهاية، دون منشآتٍ بشرية.

تحكّمت ناتالي بمنطادنا وضبطت ارتفاعه على نحوٍ مستقرّ. وظلّت ريحٌ أفقية تدفعنا باستمرار بالسرعة المناسبة. حاولت خادمتي أن تشغّل نظام جي بي إس العالمي لتحديد المواقع في جهاز هاتفها الذكّي ومن ثمّ بوصلتها لكي تحدّد موقع تواجدنا.

انحنيتُ ورأيتُ الأرض التي كانت تميد بأكملها تحت سلّة منطادنا المصنوعة من حوضٍ بلاستيكي.

وفي تلك اللحظة، تلقينا زيارة، في شخصِ حمامةٍ رمادية وسوداء. حطّت على حافّة سلّة منطادنا وراحت تراقبنا وهي تدير رأسها يميناً ويساراً، لأنّ تموضع عيني الحيوان الطائر على كلّ جانبٍ من جانبي الجمجمة يرغمه على أن يتناوب في الرؤية بين العين اليمنى والعين اليسرى.

هدَلَتْ، بنبرة حاسمة، كما لو أنّها أرادت أن تقول لنا شيئاً مهمّاً. عرضتُ عليها تواصلاً ذهنياً.

عمتِ صباحاً، أيّتها الحمامة. أنا سعيدةٌ باللقاء معكِ في منطقتكِ الجوّية. نحن نعبر من هنا عبوراً فقط.

بدأ الطائر بالهديل بصوتٍ أقوى، بنبرةٍ فيها شيءٌ من العدوانية، محرّكاً رأسه من الأمام إلى الخلف. شعرتُ بأنّه يجيب عليّ وتخيّلتُ طلبه. ربّما يكون شيئاً من قبيل:

ما الذي تفعله قططٌ وكائناتٌ بشرية في منطقتنا الجوّية؟ لا شيء تفعلونه هنا.

حاولتُ أن أقدّم تفسيراً لوجودنا هنا:

آسفة للإزعاج، ولكن ليس لنا من خيارٍ آخر. نحن نهرب من الجرذان.

لم يبدُ على الحمامة أنّها فهمت رسائلي التخاطرية. هزّت حنجرتها بنبرةٍ

تزايدت عدوانية على نحوٍ متصاعد وهي تهزّ رأسها وترفرف بجناحيها. انتفخت حنجرتها وتقلّصت في إشارة إلى الغضب.

وسرعان ما جاءت حمامات أخرى وحطّت على حرف سلّة المنطاد وهدلت جميعها في جوقةٍ بنفس تلك النبرة العدوانية.

بدت ناتالي أنّها غير مطمئنّة إلى حضور هذه الحمامات الهادلة. مرّة أخرى، تبيّن لي أنّ التواصل بين الأجناس لم يتحقّق بعد. حامت حمامةٌ أخرى فوقنا وطرحت ذرقاً أخضر اللون ولزجاً سقط فوق شعرها.

تُرى هل تحاول أن تُجري تواصلاً كيميائياً؟

لا يهمّ. لا أحبّ أن تلوّثَ شعرةٌ واحدة من شعر خادمتي، وبالتالي، مأخوذةً بردّ فعلٍ حيواني، أخرجتُ مخالبي وأطلقتُ قدمي اليمنى، فنتفتُ ريش الحمامة الأقرب إليّ. انفجر الطائر مثل بالونٍ وسط سحابةٍ من الدم والزغب.

طارت الطيور الأخرى في الحال واستفادت من قدرتها على المناورة في الأجواء لكي تحلّق من حولي وهي تحاول أن تنقرني بمناقيرها الصغيرة والحادّة. سحبتُ من جديد قدمي اليمنى التي انطلقت بسرعةٍ فائقة ونجحتُ في أن أقتل ثلاث حمَامات أخرى من هذه الطيور في حين تعرّضتُ بنفسي إلى وابلٍ من ذرقها النتن والكريه الرائحة.

ما هو الطائر الذي يمكنه أن يكون بهذه الدرجة من الانحراف حتى يعتبر فضلاته سلاحاً؟

حامت حماماتٌ أخرى بالقرب من حافة سلّة المنطاد. فهمتُ استراتيجيتها: أرادت أن تُرغمني على أن أنحني بما فيه الكفاية إلى الأمام لكي تُسقطني أرضاً، ولكن لديّ إحساسٌ ممتاز بالتوازن. وبالتالي قتلتُ اثنتين أخريين منها دفعهما طيشهما إلى البقاء في متناول مخالبي.

– وها قد حصلنا على طيورٍ لكي نتناول لحمها على الغداء.

جاء فيثاغورس أخيراً وانضمّ إليّ على مقعدي، ولكنّه لم يُقاسمني حماستي. أشار إليّ بأن أنظر إلى الجوّ ورأيتُ واحداً من تلك الطيور الملعونة وهو يتشبّث بمخالبه بالغشاء الرقيق للبالون، مثلما يتشبّث نقارُ خشبٍ بجذع شجرةٍ.

كلا، لا تفعلي هذا، أيّتها الحمامة.

غير آبهةٍ باقتراحي، غرزت بكلّ ما أوتيت من قوّة منقارها في نسيج البالون. أصدر هذا صفيراً حادّاً وأطلق هبّةً من الهواء الساخن الكثيف. وقد حضرت قرابة عشر حمامات أخرى وانهمكت في نفس عملية الثقب على غشاء منطادنا.

مؤثُ بصوتٍ قويّ على أمل أن تُخيفها صرخاتي. ولكن هيهات، على العكس تماماً، ازدادت حماسةً واصراراً على ثقب المنطاد، ومناقيرها الحادّة ممدودة إلى الأمام.

بعضها قفزت على النسيج لأنّها افتقرت إلى القوّة، ولكن الأغلبية منها نجحت في غرز مناقيرها وثقب البالون. وبعد ذلك، وبإشارةٍ من الحمامة الأكبر حجماً بينها، راحت جميعها تضرب معاً نفس المكان لكي توسّع الثقب.

زادت ناتالي، القلقة، من قوّة ضغط فوهات النار، ولكن، فات الأوان. هوينا بسرعة وبدأ المنطاد يهبط.

فبدأت خادمتي برمي المقاعد في محاولةٍ لتخفيف الثقل على سلّة المنطاد، ثمّ تخلّصت من كلّ ما هو حولنا، حتى قوارير الغاز. سقطنا نحو الأسفل على نحوٍ متسارع ورأيتُ الأرض تقترب منّا، تحت الزعيق التهكّمي للطيور المنتصرة.

سقطنا.

في نهاية المطاف، السماء لم تُخلَق للقطط.

فضّلتُ أن أقفز على أن أبقى في سلّة المنطاد. كنتُ أعلم أنّ نجاح هبوطي يتعلّق بعدد الدورات، زوجياً أو فردياً، التي أقوم بها قبل أن ألامس الأرض. قفزتُ سابحةً في الهواء بعض الشيء وبدأتُ أعدّ. واحد... اثنان...

أتمنى أن يكون العدد فردياً.

20. لماذا تهبط القطط دائماً على أقدامها؟

ما إن تسقط من علوٍّ مرتفع، خلال جزءٍ من الثانية، تفرد القطط على نحوٍ غريزيٍّ جميع أطرافها الأربعة بأوسع ما يمكنها.

تستفيد بذلك من أوسع سطحٍ رافعٍ يساهم في إبطاء سقوطها حتى لا تتجاوز سرعتها مئة كيلومترٍ في الساعة، على طريقة السناجب الطائرة إلى حدٍّ ما.

جميع أعضاء جسمها تساعدها في سقوطها. ويساعدها ذيلها على اتّخاذ الوضعية المثالية. أثناء الهبوط، تدّلها أذنها الداخلية على الاتجاه الذي يتّخذه مسارها، الأمر الذي يجعلها تأخذ مكانها على نحوٍ مثالي. وتُشير لها شعيرات الاستشعار في شواربها باستمرار إلى المسافة التي تفصلها عن الأرض.

في النهاية، يتلوّى عمودها الفقري بمرونة كبيرة لكي يستقرّ حوضها في محاذاة رأسها. وهذا هو ردّ الفعل الذي يُطلق عليه «حاسّة التوازن».

وقبل ملامسة الأرض تماماً، تمدّ أرجلها لكي توزّع الصدمة على نحوٍ متوازن ومتعادل بين الأطراف الأربعة. في حين يميل ذيلها في هذه الأثناء نحو الاتجاه المعاكس لكي يعمل كثقلٍ موازن.

في نفس لحظة الاصطدام، تتراخى الأطراف لكي تتلقّى الصدمة.

بهذه الطريقة، تستطيع القطط أن تخرج سالمةً من عمليات السقوط من أماكن عالية، في الوقت الذي تتحطّم عظام كلّ الثدييات الأخرى.
موسوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المجلّد الثاني عشر.

21. عالم الأغصان

... خمسة.

كنتُ في وضع غير مناسب، لكنّ سقوطي خُفِّفَ بفضل أغصان وأوراق الشجرة التي سقطتُ فوقها. تدحرجتُ قليلاً بين الأوراق الصفراء وحركتُ أقدامي بعصبية وخبط عشواء وسط النبات، ثمّ استعدتُ توازني على غصنٍ ثخينٍ ونهضتُ دون أدنى خدشٍ ومحافظةً على ماء وجهي.

على كلّ حال، كنتُ قد حسبتُ كلّ شيء.

سقط فيثاغورس على نحوٍ أكثر رعونةً، ولكنّه استطاع هو الآخر أن يتعلّق بالأغصان المرنة.

وما كدتُ أحظى بالوقت الكافي لأراه يستقرّ في مكانه حتى هوى فوقنا، بالترتيب، الحوض البلاستيكي الذي استخدمناه كلّة للمنطاد، ثمّ خادمتي وأخيراً انتشر كلّ غشاء المنطاد فوقنا.

وفي النهاية سمعتُ صوت ناتالي، وهرعتُ بنجاهها: حتى وإن كنتُ أنانية، أحرصُ على أن تبقى خادمتي قادرة على العل معنا.

بمساعدة يديها، تحرّرت من نسيج المنطاد.

رأيتُ شعرها متطايراً وفي جسمها بعض الخدش، ولكنني أدركتُ أنّ النسيج الواسع للمنطاد قد خفّف من سرعة سقولها. وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة جاثمين فوق شجرةٍ، داخل سلّة المنطاد، عنما بدأت هذه بالتمايل.

لم يُتَح لنا سوى الوقت الكافي لننتزع أنفسنا منهفبل أن تنقلب في الفراغ، معلّقةً بالحبال المتشابكة بين الأغصان.

باشرت ناتالي بالنزول على طول جذع الشجرة نل أن تسقط سلّة المنطاد تماماً. وبقدر ما كنّا، فيثاغورس وأنا، رشيقين ونحيفين، كانت هي ثقيلة ومفتقرة إلى المهارة.

فجأةً، بينما كنتُ عند مستوى الوسط بين أورن الشجرة، رأيتُ أذنين مكسوتين بالشعر تظهرُ أمامي، وبعدهما رأساً كرأس جرذٍ.

لحسن الحظ، الكائن الذي اكتشفته لم يكن لديفراءٌ رمادي، بل أصهب، يكاد يكون أحمر اللون، وله ذيلٌ ضخمٌ وذو شعرٍ كفٍ وكث.

إنّه سنجابٌ.

وكأنّه لم يكن قد رأى قط قطّةً من قبل، أو أنّه، علىٰ أيّ حال، لم يرَ قط قطّةً تسقط من السماء لتنضمّ إليه بين أغصان الشجرة وأواقها. لم يبدُ عدوانياً ولا جباناً. وكعادتي، حاولتُ أن أرسل إليه رسالة لطيفةالتخاطر الذهني.

عمتَ صباحاً، أيّها السنجاب. كيف حالك؟ أطرأنا في بيتكَ. أنا سعيدةٌ بهذا اللقاء.

لم يُجب واكتفى بأن رفّ بطرف خطمه، كما لو أنّه يبحث عن شيءٍ محدّد. لبرهةٍ، شعرتُ بالإغراء في أخذ المزيد من الوقت للتواصل معه، ولكن ربّما بسبب التوتّر المرتبط بفرارنا، وبهجوم الحمام، وبسقوطنا وبكلّ هذه السلسلة المتتالية من الكوارث، نفد صبري بعض الشيء. وأنا، كما تعرفونني، حينما ينفد صبري، أميل إلى اختيار الحلول السريعة.

فقتلتهُ. ثمّ، ودون انتظار، أكلته.

السنجاب، همم... كيف لي أن أصفه؟ له رائحة تشبه رائحة الفأرة ولكن بمذاقٍ لذيذٍ يبقى في الفم بنكهة الجوز. وليس لمذاقه أيّ علاقة بالطعم المرّ للحم الجرذ، هل تعلمون؟ في الواقع، لحمه لذيذ، وخاصّة لحم الفخذين.

حينما رآني فيثاغورس أتصرّف، جاء يقاسمني طعامي. استعدنا ثقتنا بأنفسنا: نحن لا نخضع للأحداث فقط، بل أصبحنا الآن نجيد التحكّم بها ونستمتع ببعض فواصلها.

بعد أن استمتعتُ بتناول لحم ذلك السنجاب اللذيذ، قرّرتُ أن أراقب تحت الشجرة وأتقدّم على غصنٍ. لحق بي فيثاغورس، وكذلك فعلت ناتالي التي كانت بكلّ تأكيد، لكونها كائنة بشرية، أقلّ مهارة منّا في النزول من الأشجار. لم يكن نزولها ناجحاً، فقد سقطت المسكينة بين الأوراق قبل أن تصطدم بشدّةٍ بالأرض، مصدرةً أنيناً من شدّة الألم.

بعد ذلك، سلكت الطريق وهي تعرجُ على نحوٍ خفيف، دون أن تتوقّف عن التذمّر بلغتها الخاصّة.

سمعتُ آنذاك صوتاً صاخباً بكلماتٍ متداخلة غير مفهومة «اللعنةتبّاًالقرف»: اعتقدتُ أنّ الأمر يتعلّق بما يُسمّيها فيثاغورس «تعابير غاضبة» يُطلقها البشر.

البشر ضعفاء، ويشتكون طيلة الوقت. على أيّ حال، ليسوا بارعين في القفز برشاقة من أغصان الشجر.

أخذتُ مكاني على قمّة كتف ناتالي كيلا أُتعب نفسي. عضضتُ أذنها، الأمر الذي لا بدّ أنّه جعلها تفهم أنّ عليها أن تسير على نحوٍ أسرع، فليس لدينا المزيد من الوقت لنضيّعه. وهرول فيثاغورس في أعقابنا.

لم تكن مركبتي البشرية في كامل لياقتها بعد سقوطها، ولكنّها نجحت في السير قدماً. كما كانت أمّي تقول: «لا يحتاج البشر إلى أن يكونوا كاملين، يكفيهم أن يكونوا مطيعين وعاملين».

انتابتني رغبة شديدة في التحدّث إلى ناتالي، وبالتالي، مستفيدةً من كوني أقف على كتفها، همستُ في تجويف أذنها:

– أنت تعلمين، يا خادمتي، أنني أكنّ لكِ الكثير من التقدير وأحلم بأن أستطيع ذات يومٍ أن أتناقش معكِ مباشرةً، من دون المرور بأيّ وسيطٍ. أعتقدُ أننا، أنتِ وأنا، نستطيع أن نقوم معاً بأمورٍ رائعة، سوف تُلهم فيما بعد كلّ القطط وكلّ البشر الذين أصبحوا جنسين يتحاوران ولهما نفس الهدف. وهذا الهدف هو بالتأكيد انتقال السلطة من البشر إلى القطط، لكي نستطيع، بفضل معارفكم، أن نحقّق على نحوٍ أكملٍ تفوّقنا ليس فقط عليكم، بل على كلّ الحيوانات الأخرى.

وكردٍّ على ما قلتُه، داعبتني صاحبتي وهي تواصل سيرها وردّدت جملاً سمعتُ بينها كلمة «باستيت». *كم من المهين أن يبلغ سوء التفاهم هذا المستوى. حسناً، لم ألحّ عليها بالحديث. لا ضير، حينما أحتاج إلى أن أعطيها بعض المعلومات سوف أستخدم وسيلة فيثاغورس الذي يُجيد التحاور معها بفضل عينه الثالثة.*

من حولنا، تركت الغابة ذات الآلاف من تلوينات اللون الأخضر مكانها لسهولٍ فسيحةٍ بحقولٍ زراعية متماثلة على مدى النظر. شكّلت تلك الحقول سجادة صفراء متجانسة.

تذكّرتُ أنّ فيثاغورس كان قد حدّثني عن هذا، عن مفهوم الزراعة. ومع ذلك، بدا لي غريباً تجميع كلّ الغذاء في نفس المكان. من جهتي، أفضّل الصيد؛ فهو نشاطٌ عشوائيٌّ أكثر، ولكنّه أيضاً رياضيٌّ أكثر.

امتدّ الطريق إلى ما لا نهاية أمامنا وبحثتُ عن روائح لأجناس غريبة قد تصبح حليفةً لنا في الكفاح ضدّ الجرذان. فاكتشفتُ حيواناً كريه الرائحة غير معروفٍ. إذا كانت السناجب عبارة عن أنواعٍ من الجرذان التي تعيش على الأشجار، فهنا شعرتُ بأنني أكتشف ما يشبه كلاب الغابات. سألتُ

فيثاغورس عنها، فنقل إلى خادمتي البشرية الاتجاه الذي ينبغي اتّخاذه للوصول إلى هذه الرائحة العفنة الغريبة.

وكلّما اقتربنا منها أكثر، شممتُ خلف رائحة الكلب الوحشي، رائحةً أكثر عفونةً ونتانةً، كانت بالتحديد رائحة جسدٍ متعفّن.

سُرنا حتى وصلنا إلى مصدر تلك الرائحة الكريهة لنكتشف ما يقرب من عشرين ذئباً، يشكّل قطيعاً كاملاً، مصلوباً على قطعٍ من الخشب، وموضوعاً على شكل حرف T. كانت أجساد الذئاب مغطّاة بآثار عضّات الجرذان، تنزّ من جراحها دماءٌ متخثّرة على شكل أخاديد بنيّة، والمئات من الذباب تطنّ على جيفها.

شعرتُ بأنّ مَركبتي البشرية تنهار أمام هذا المشهد. نزلتُ عن كتفها قبل أن يُغمى عليها.

قال فيثاغورس بأعلى صوته ما كنتُ أفكّر فيه بصوتٍ خفيضٍ:

- هذه ذئابٌ قادمة من الغابة القريبة. إذا كانت الجرذان قادرة على أن تهاجم هذا العدد الكبير من الذئاب وتتغلّب عليها، فهذا لأنّه لم يعد هناك أيّ كائن من الكائنات التي تفترس الجرذان.

- ولكن كيف استطاعت أن تصبح على هذا القدر من القوّة؟

قال القطّ السيامي:

- تيمورلنك. لا بدّ أنّه هو الذي منحها علاوةً على عددها استراتيجية سياسية وعسكرية متماسكة، إضافة إلى هذا المشهد المؤثّر للغاية بالنسبة لمن حاولوا تحدّيها.

- إذاً ما الذي سنفعله؟

طرحتُ عليه هذا السؤال دون أن أستطيع رفع أبصاري عن تلك الذئاب التي هزمتها كائنات أصغر منها حجماً بكثير.

- لقد بات لزاماً علينا أكثر من أيّ وقتٍ مضى أن نعثر على حلفاء. وحده اتّحاد العديد من الأجناس الحيوانية سيكون كفيلاً بوضع حدٍّ لهؤلاء الغزاة. يقع على عاتقنا نحن أن نوحّد كلّ المعادين للجرذان.

وهو يواصلُ حديثه، هزّ فيثاغورس أذنيه بعصبيّةٍ. وقد لاحظتُ أنّه يعاني من اضطرابٍ كبيرٍ. تابع، قائلاً:

– ما يُقلقني هو أنّها أقامت صلباناً كبيرةً جدّاً من أجل صلب الذئاب. هذا يدلّ على أنّها تُجيد استخدام أصابعها مثل البشر للتحكّم بالأدوات واستعمالها، وتقطيع الخشب وربط الحبال وعقدها.

– وماذا تستنتج من ذلك؟

– أستنتج أنّ تيمورلنك قد أحسن استخدام عينه الثالثة من أجل مراجعة الإنترنت وأنّه يستخدمُ، مثلي تماماً، بعض التقنيات الخاصّة بالبشر. لم نعد نتعامل مع جرذانٍ طبيعية. إنّها جرذانٌ أكثر تطوّراً بكثير، وبالتالي أكثرُ خطورةً من جميع التي واجهناها حتى الآن.

أبقت ناتالي يديها أمام عينيها لئلا تخضع ثانيةً لمنظر كلّ هذه الذئاب المُعذّبة. عدتُ إلى الاستقرار فوق كتفها وأفهمتُها بأنّه قد حان وقت استئناف مسيرنا. أسرعنا الخطى باتجاه الشمس، أي نحو الجنوب.

حينما أحسّ فيثاغورس بأنني أشعر بالقلق بعض الشيء، طلب منّي أن أسترخي وأرتاح. وبعد حديثٍ جانبيٍّ قصير مع ناتالي، شغّلت هذه الأخيرة موسيقى على هاتفها الذكيّ.

– لقد طلبتُ منها أن تُسمعكِ *تنويعات غولدبيرغ*، للموسيقي باخ.

كانت الموسيقى جميلة، ولكن لم يكن ذلك كافياً لإشغال ذهني عن الجرذان.

أردف فيثاغورس، كما لو أنّه استطاع أن يقرأ أفكاري:

– ركّزي جيّداً على الموسيقى. الموسيقى تسمح بطرد الخوف.

– وكيف يمكن ذلك؟

– أفكارنا كيميائية، إنّها مجرّد هرمونات، سوائل تجري في دمنا وتؤثّر على دماغنا. إنّ الخوف من الجرذان ينجم عن الأدرينالين؛ في حين أنّ الاستمتاع بالإصغاء إلى الموسيقى ينجم عن الإندروفين. وبذلك يمكننا أن نعوّض الخوف –الأدرينالين بالفنّ– الإندروفين.

- هل قرأت ذلك في موسوعتكَ، موسوعة العلم النسبيّ والمطلق؟

- الموسوعة لا تفعل سوى وضع كلماتٍ بشرية على حدسٍ طبيعي. أعتقد أننا نعرف كلّ هذا أصلاً في أعماق دواخلنا. ولكن بما أننا نسيناه، فإنّ التعبير عنها يُتيحُ لنا أن نتذكّره من جديد. سوف يكون لدينا على الدوام الخيار بين الانبهار بما هو مرتبطٌ بالموت ونداء الحياة. إنّ عمليات الصلب لم تفد في شيء سوى تشجيعنا على أن نغدو أكثر حساسيةً تجاه الشعور الأوّل. والهدف هو منعنا من التفكير... وتيمورلنك يعتمد على هذه الاستراتيجية: ضرب الأرواح من خلال الإرهاب. وهذا يسمح له بأن يتحكّم بانفعالاتنا. وإذا تحكّمنا بكيميائنا الداخلية، فلن يعود له أيّ سيطرة علينا.

الفنّ للمعالجة من الخوف؟

أصبحت ناتالي تعرجُ على نحوٍ أخفّ من ذي قبل، ولكنّها سارت على نحوٍ أكثر بطئاً بالتدريج، وتنفّست لاهثة على نحوٍ صاخب، وتسارع نبض صدغيها وشريانها السباتي. اعتقدتُ أنّها بدأت تشعرُ بالتعب. ولكي أخفّف عنها وطأة ثقلي، نزلتُ عن كتفها وسرتُ جنباً إلى جنب مع رفيقي السيامي.

- برأيك، أين نتواجد الآن؟

- في جنوب غرب باريس.

- وإلى أين تقترحُ أن نذهب؟

مدّ أذنه نحو دربٍ، شممنا منه الرائحة الطيّبة للسراخس، التي بلغت حتى المكان الذي كنّا فيه.

- لقد بدا لي قبل قليل أنني رأيتُ سكاناً بشريين يمرّون من هنا.

- ألا تعتقد أننا نجازفُ بأن نصادف جرذاناً؟

- سوف تكون هناك دائماً مخاطر للسير في أرضٍ مجهولة. بشكلٍ عام، فإنّ الذهاب من طريقٍ لا يسلكه الآخرون يكون أكثر خطورةً بكثير من السير في الطرق الاعتيادية. هذا هو مبدأ «الضفادع المجنونة» الذي تتحدّث موسوعة ويلز عنه.

- وما هي حكاية الضفادع المجنونة خاصّتك؟

22. متلازمة الضفادع المجنونة

في كلّ سنة، تشهد الضفادع هجرةً تنقلها من مكان عيشها الاعتيادي إلى مكان تناسلها.

بيد أنّه، في بعض الأحيان، يتمّ إنشاء طريق سريع من قبل البشر، الأمر الذي يؤدّي إلى تعديل المسكن الطبيعي للضفادع ويمنعها من أن تسلك الطريق الذي من المفروض أن يقودها إلى مقصدها. لكنّ الضفادع تتحرّك متحفّزةً بغريزتها القطيعية، وتحاول رغم كلّ شيء أن تعبر الطريق وغالباً تُسحَقُ جميعاً تحت عجلات السيارات التي تسير على تلك الطرق السريع.

بطبيعة الحال، الضفادع غير قادرة على أن تفهم أن طريق هجرتها أصبح غير سالكٍ فتُصرّ على أن تسلكه، طالما أنّه الطريق الذي حُدِّد لها من قبل أجدادها.

وبالتالي يمكننا أن نتساءل كيف لم يقتل التحضّر كلّ هذا الجنس الحيواني.

في الواقع، يبدو أنّ نوعاً من الذكاء الجماعي قد حلّ المشكلة.

لقد انتهى الوعي الجماعي لدى الضفادع إلى احتواء هذا الخطر، حيث إنّه في الوقت الذي انطلقت أغلبية الضفادع في الاتجاه المعتاد، سارت أقليّة منها في الاتجاه المعاكس، نحو الجانب الذي كانت تعتبره الجانب الخاطئ. ولأنّ هذه المجموعة الصغيرة المنشقّة، وبدل أن تسلك طريق الأجداد، سلكت طريقاً اعتُبِرَ غير معقولٍ، استطاع كلّ هذا الجنس الحيواني أن ينجو.

موسوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المجلّد الثاني عشر.

23. آفاقٌ جديدة

أنتم تعرفونني، فأنا لستُ من النوع الذي يركن إلى الاستراحة في حين لا يزال هناك طريقٌ ينبغي قطعه. من جديد، جثمتُ على الكتف اليمنى

لناتالي، ولم أكفّ عن حثّها على إسراع الخطى والكفّ عن هذا العرج المُثير للسخرية. رددتُ على مسامعها بانتظام من خلال المواء على أمل أن تفهم شيئاً منّي- أنّ نجاة جماعتنا يتوقّف على سرعتها في المشي.

حينما أظهرت علامات التعب، وضعتها أمام مسؤولياتها من خلال العضّ على شحمة أذنيها بأنيابي. وهذه هي بالضبط الأمور التي تثير غضبي، شخصياً، وتمنحني الرغبة في التقدّم إلى الأمام.

ظلّ فيثاغورس ملتزماً الصمت. كنتُ أعلم أنّه معجَبٌ بالبشر أكثر منّي، وعلى الأرجح لأنّ وصوله إلى الإنترنت يجعله يكنّ لهم بعض الاحترام. ولهذا السبب، يؤلههم. من جهتي، أبدي تحفّظاتٍ أكثر. ففي النهاية لا ينبغي أن ننسى أنّهم حيواناتٌ في خدمتنا.

هيّا، هيّا، لسنا هنا لكي نتنزّه، بل لنتقدّم إلى الأمام، يا خادمتي.

تغيّر المشهد من حولنا، فبعد الغابة والسهل الزراعي، ها نحن نجد أنفسنا محاطين بهضباتٍ صغيرةٍ مغطّاةٍ بأعشابٍ عشوائية. قرّرت ناتالي تلقائياً أن تصعد إلى واحد من تلك المرتفعات الطبيعية. ولأنّه لم يكن لديّ مقترحٌ أفضل، لحقتُ بها.

وسرعان ما شاهدنا عمارات مبنية من قبل البشر. وكلّما اقتربنا منها أكثر، راودني إحساسٌ سيّئ. هذا هو الجانب الرؤيوي في شخصيتي. وربّما هذا النمط من الهاجس هو الذي يمنح الشرعية لمركزي كزعيمة.

قلتُ لفيثاغورس:

- فلنمتنع عن الذهاب إلى هناك.

أمّا هو، فإنّه ذكرٌ. مع أنّه كان يرى المواهب الاصطناعية المطوّرة من قبل عينه الثالثة، فإنّه لم يكن يمتلك الحدس الطبيعي الحادّ الذي يميّزنا نحن الإناث على نحوٍ خاصّ.

ردّ عليّ:

- ليس لدينا الخيار، ولا يمكننا أن نلتفّ على كلّ المباني البشرية، وإلّا لسنا قريبين من العثور على المساعدة.

أعتقد أنّ مبدأه بشأن الضفدع المجنون قد بلغ حدوده.

جالت ناتالي، وقد وصلت إلى أعلى هضبةٍ، بأبصارها على المنطقة المحيطة. من نقطة المراقبة العالية تلك، استطعنا أن نميّز على نحوٍ أفضل بقليلِ المباني من بعيد.

تناقش فيثاغورس وناتالي من خلال الهاتف الذكي وانتهى فيثاغورس إلى أن قال لي:

– هذا قصرُ فيرساي.

– وما هذا؟

– إنّه أكبر وأفخم قصر من قصور الزعماء البشريين في الماضي.

أخرجت ناتالي منظاراً من حقيبتها الظهرية. وشرحت لنا أنّه يمكننا أن نستخدم هذه الآلة لنراقب عن بعد داخل هذه القرية. أخذت وقتها لكي تتفحّص كلّ شيء ثمّ أخرجت من حقيبتها منظاراً أصغر حجماً.

أشار فيثاغورس إلى المنظار، قائلاً:

– هذا منظارٌ للأطفال عثرتْ عليه في شقّةٍ في جزيرة المدينة. أخذتْه لنا. سترين، يمكننا أن نستخدمه نحن أيضاً.

أمسك بالآلة بين قدميه وشدّ عليها بكفّيه لكي يرفعها إلى مستوى عينيه.

نظر لوقتٍ طويل. شعرتُ بأنّه يتوتّر.

– المكان يعجّ بالجرذان.

قلتُ له بمواءٍ ملحّ:

– حان دوري! أنا أيضاً أريدُ أن أرى.

وضعتُ عيني أمام الفتحتين؛ عدّلت خادمتي وضعية العدستين وفجأةً حدثَ شيءٌ مرعب: أصبحتُ أمام قطيعٍ من الجرذان!

توقّف قلبي عن الخفقان. أبعدتُ عيني عن تلك الآلة المرعبة ووجدتُ نفسي مع فيثاغورس وناتالي في مأمنٍ فوق الهضبة.

لقد ذهبتُ فوراً إلى هناك! كيف أمكن ذلك؟!

وضعتُ عينيّ من جديد على النظارتين ووجدتُ نفسي مرّة أخرى محاطةً بالجرذان. دفعتُ الآلة من أمام عيني بسرعةٍ.

– ما هذا؟! ما الذي يحدث؟!

شرح القطّ السيامي:

- لا تقلقي، يا باستيت. هذه خدعة بصرية. تعتقدين أنّكِ قريبة ممّا تشاهدين ولكنّكِ في الحقيقة بعيدة عنه.

ابتلعتُ ريقي. لا شكّ أنّ البشر قد صنعوا بأيديهم المرنة جدّاً بمفاصلها أجهزةً مدهشة علينا نحن القطط أن نعرف أسرارها مهما بلغ الثمن.

وإذ أدركت ناتالي قلقي، داعبت جبيني ودعتني إلى أنظر من جديد بالمنظار. تنفّستُ بعمق وأخذتُ مكاني أمام العدستين بهدوءٍ أكثر.

قرّبت ناتالي الصورة عبر العدسة، الأمر الذي أتاح لي أن أرى لمسافةٍ أبعد وأكثر وضوحاً وسعةً. رأيتُ قصر فيرساي بأكمله. وبهذه الطريقة تساءلتُ إن كان هذا هو ما سمّاه الجرذ الأسير بـ«منزلٍ بشريٍّ كبير»؟ في الواقع، إنّها عمارةٌ ضخمة. قرّبتُ الصورة أكثر عبر العدسة.

بفضل هذا المنظار السحري، اكتشفتُ كلّ شيء بالتفصيل، كما لو أنني أمام العمارة تماماً. رأيتُ بواباتٍ وأسيجةً وتماثيل، وجدراناً مزيّنة بمنحوتات، ولكن بالإضافة إلى كلّ هذا، رأيتُ حشداً من الجرذان كانت تشغل كامل الطابق الأرضي وكذلك باحة القصر.

كانت أوّل معلومة استخلصتُها من هذه المراقبة بالمنظار هي أنّه لم تعد هناك آلاف ولا عشرات الآلاف، بل مئات الآلاف من الجرذان. والمعلومة الثانية هي أنّ الجرذان قد نظّمت صفوفها أحسن تنظيم. في وسط الباحة، ينتصبُ هرمٌ بارتفاع عدّة أمتار مبنيٌّ من أحجار مدوّرة، صوفية اللون. وفي قمّة ذلك الهرم منصّةٌ تشبه شرفة. وعند النظر بدقّة أكثر، تبيّن لي أنّها ليست أحجاراً مدوّرة.

كلا، هذا ليس ممكناً.

كانت جماجم بشرية مكدّسة بعضها فوق بعض! سرت رعشةٌ من الرهبة في عمودي الفقري.

انتفضتُ ووضعتُ عينيّ من جديد على عدستي المنظار. رفعتُ من درجة تكبير الصورة.

لمحتُ في الحال جرذاً صغيراً أبيض اللون، محمولاً من قبل ستّة جرذانٍ

أخرى. أفسح الجميع المجال أمام تقدّمه. تسلّق جبل الجماجم وأخذ مكانه على القمّة ليستقرّ في مقدّمة المنصّة.

لا بدّ أنّه هو.

ها أنت هنا إذاً، يا تيمورلنك.

وجدتُه أصغر حجماً مما كنتُ أتخيّله. كانت عيناه حمراوين، كما لو أنّهما مليئتان بالدم. بل استطعتُ، رغم بعد المسافة، أن أرى عينه الثالثة في جبينه. أوحى كلّ شيء في هيئته بالسلطة. في الواقع، كان جميع الجرذان المحيطة به تخفض آذانها في إشارة على طاعتها وخضوعها له.

صفّر الجرذ الأبيض، وردّت عليه الجرذان صفيراً بنفس النبرة التي أحدثت صريفاً حادّاً مزعجاً. ثم انتصب تيمورلنك ببطءٍ على قائمتيه الخلفيتين وظلّ في هذه الوضعية العمودية كما لو أنّها وضعيته الطبيعية.

صفّر من جديد، بنبرةٍ أعلى، وانتصبت جميع الجرذان على قوائمها الخلفية وهي تصفّر كرجع الصدى لصفيره.

قال فيثاغورس:

– لا ينبغي أن نبقى هنا. نظراً لعددها الكبير، هناك احتمالٌ كبير أن تجول دورياتها في هذه الأنحاء. وإذا ما عثرت علينا، سوف ندفع ثمناً غالياً وسنلقى حتفنا في الحال.

لم أُصغِ إليه، منشغلةً للغاية بالمشهد الذي يجري أمام عيني: هذا الملك الجديد للجرذان، أبيض اللون بعينيه الحمراوين، والمنتصب على قائمتيه الخلفيتين فوق هرم الجماجم البشرية. بدا لي أنّه يُلقي خطاباً. سألتُ فيثاغورس:

– هل رأيتَ الشقّ الذي في جبينه؟ إنّه أصغر من الشقّ الذي في جبينك. هل لديكَ تفسيرٌ لهذا الأمر؟

– أنا لديّ مقبس يو اس بي كلاسيكي، وهو لديه يو اس بي صغير جدّاً. إنّها مقابس حديثة من حجمٍ أصغر بكثير. هيّا، يا باستيت، فلنرحل من هنا سريعاً.

– انتظر، من المدهش أن نرى أخيراً خصومنا بشكلٍ واضحٍ.

– إذا كنّا نراهم، فعلى الأرجح هم أيضاً يروننا.

– نحن بعيدون عنهم. وهم ليس لديهم منظارٌ.

وجّه فيثاغورس طرف ذيله نحو اتجاهٍ. فرأيتُ مجموعةً من قرابة مئة جرذٍ تُسرِعُ نحونا.

حسناً، لمرّة واحدة فقط، اعترفتُ أنّ القطّ السيامي على حقّ. فهرولنا لكي نفرّ من المكان، عندما قطعت علينا مجموعةٌ أخرى من الجرذان الطريق. رفضتُ رفضاً قاطعاً أن نقع أسرى بعد كل ما اضطررنا لفعله لكي نصل إلى هنا!

أسرعنا في الجري ونجحنا في الابتعاد عنها. لجأنا إلى أعلى شجرةٍ لكي نحمي أنفسنا من هجومٍ ليلي.

أمّا ناتالي، فقد آثرت من جهتها أن تبقى تحت الشجرة مستندةً إلى جذعها، لأنّها خافت أن تسقط أثناء نومها. قلتُ في نفسي إذا ما تعرّضت لهجومٍ من قبل الجرذان، ستصرخ الأمر الذي لا بدّ أنّه سيوقظنا ويُتيحُ لنا الهروب والنجاة.

أخيراً، وجدتُ نفسي هادئةً مع رفيقي. ركّزتُ نظرتي على عينيه الزرقاوين:

– همم... يبدو لي أننا نتعاملُ مع ملكٍ للجرذان مرعبٍ حقّاً.

أجاب باختصار:

– أعتقد أننا هالكون لا محالة.

لعقنا بعضنا بعضاً على نحوٍ متبادل لكي نبثّ الطمأنينة في أنفسنا، ثمّ احتككنا بعضنا ببعض وتشابك ذيلانا على شكلِ جديلةٍ لكي نقترب من بعضنا أكثر. لم أُقاسم فيثاغورس تشاؤمه. قلتُ في نفسي إنّه طالما أنا على قيد الحياة، يمكنني أن أتصرّف. وطالما أنا مع هذا القطّ السيامي، يمكننا أن نتأمّل نصراً.

لأنّ فيثاغورس، بالنسبة إليّ، هو رغم كلّ شيء الذكر الأجمل والأذكى من بين كلّ الذكور الذين التقيتهم.

24. فيثاغورس

يشتهر العالم الإغريقي فيثاغورس بنظريته التي تُقيم علاقة بين أضلاع المثلّث القائم حسب المعادلة التالية:

a2 + b2 = c2 (أي أنّ مجموع مربعي طولي ضلعي الزاوية القائمة مساوٍ لمربع طول الوتر). لكن ألمعية هذه الشخصية لا تتوقّف عند هذا الحدّ. فقد سبق له أن ابتكر كلمتي «الفلسفة» و«الرياضيات». كما أنّه هو الذي ابتكر أوّل سلّم موسيقي.

تعود أصول عائلته إلى جزيرة ساموس. كانت والدته، التي اعتقدت أنّها عقيمة ولا تنجب أطفالاً، قد ذهبت لتراجع بيثيا دلفي، وهو عرّافٌ تنبّأ لها بولادة طفلٍ سيحمل جميع الصفات. وهكذا، حينما وُلِد الطفل، أطلقت أمّه عليه اسم «فيثاغورس»، الذي يعني «المُعلَنُ من قبل بيثيا».

ولِدَ فيثاغورس في عام 570 قبل الميلاد. كان وهو لا يزال صغير السنّ جميلاً جدّاً ورياضياً بارعاً. وحينما بلغ السابعة عشرة من عمره، لم يكن عازفاً بارعاً للهارب والفلوت فحسب، بل فاز في العديد من المنافسات في رياضة الملاكمة اليونانية (التي كانت سائدة في ذلك العصر) في الألعاب الأولمبية.

ذات يوم، طلب منه والده، تاجر مجوهرات، أن يسافر إلى مصر لكي يسلّم إلى كهنة معبد ممفيس الخواتم المرصّعة التي كانوا قد طلبوها. استغلّ الفتى هذه الرحلة لكي يطّلع على الأسرار المصرية. والحال أنّه وجد، في الوقت نفسه، أنّ البلاد تتعرّض للهجوم من قبل الجيش الفارسي بقيادة قمبيز الثاني. لقد شاهد الفتى فيثاغورس، عاجزاً لا حول له ولا قوّة، تدمير المعابد والتعذيب العلني للفرعون السابق، وإعدام الكهنة والأرستقراطيين... لم يحظَ فيثاغورس بالوقت سوى ما يكفيه للفرار إلى يهودا، إسرائيل الحالية. هناك، استُقبِلَ من قبل الكهنة العبرانيين وتعلّم الدين اليهودي.

لكنّ يهودا أيضاً تعرّضت لغزو محاربي المملكة البابلية، العراق الحالي، الذين أسروه وأخذوه معهم كعبدٍ. في حبسه التقى، علاوة على الأحبار، مع كهنة الديانة الأورفكية، الذين كانوا قد أُسروا في تراقيا، والكهنة الكلدانيين. وبالتالي تلقّى تعاليم هذين الدينين، ثمّ وبمساعدة الكهنة، نجح في الفرار وانطلق نحو الشرق، نحو الهند، حيث أكمل تعليمه الديني بالهندوسية. وما إن تعلّم جيّداً، عاد إلى دلفي التي عاش فيها قصّة حبّ مع بيثيا الجديدة وتلقّى تعاليم كهنة المعبد.

ولدى العودة إلى بلاده، اكتشف أنّ جزيرته الأمّ سامون قد أصبحت تحت سيطرة طاغية، وهو بوليكراتس. ولذلك آثر أن يُكمل سيره نحو الغرب واستقرّ في كروتون، في جنوب إيطاليا. وقد استطاع أن يُقنع سكان تلك المدينة بأن يدعوه يبني فيها مدرسةً. في مقابل ذلك، عرض عليهم بأن يتكفّل بالإدارة السياسية والاقتصادية للمدينة.

في تلك المدرسة، كان الطلاب يتعلّمون الرياضة كما الطبّ، والهندسة كما الشعر، وعلم الفلك كما الجغرافيا، والسياسة كما الموسيقى. كان انتقاء طلبة جدد في المدرسة صارماً جدّاً. وكان معيار الانتقاء يقوم على أساس الذكاء والبسالة لا غير. كان على كلّ طالبٍ جديدٍ يلتحق بالمدرسة أن يترك كلّ شيء لكي ينضمّ إلى هذه المؤسسة التعليمية. بيد أنّ المدرسة الفيثاغورسية كانت الأولى التي تقبل في حرمها نساءً وغرباء وعبيداً. وكانت هذه المدرسة تضمّ أيضاً مخابر الأبحاث العلمية. وقد قضى فيثاغورس حياته في السعي إلى إقامة جسرٍ بين الروحانية والعلم، جسر بدا له أنّه قد يُقام من خلال الدراسة الباطنية للأرقام. لقد كان شعاره في الحقيقة: «كلّ شيء عبارة عن رقم».

في عام 450، أُصيب أحد نبلاء مدينة كروتون، يُدعى سيلون، بالإحباط من جرّاء فشله في اختبارات الدخول إلى المدرسة الفيثاغورسية، فأقنع السكان بالثورة ضدّ هذه المؤسسة التعليمية. اتّهم الفيثاغورسيين بأنّهم

نخبويون ولا ينشرون معارفهم بين جميع الناس. وزعم أنّ هناك كنزاً مدفوناً في داخل المدرسة. هاجم السكان المدرسة، وحرقوها، وقتلوا التلاميذ والأساتذة الذين حاولوا عبثاً الدفاع عن معلّمهم. قُتِلَ فيثاغورس. كان في الخامسة والثمانين من عمره.

وأُحرقت كلّ كتاباته، ولكنّ فكره ظلّ يحيا عبر تلاميذه الذين شهدوا، من خلال ذاكرتهم، على اكتشافاته ومعارفه. ومن بين أشهر وارثي فلسفة فيثاغورس، نجد الإغريقيين سقراط وأفلاطون، وأيضاً المعماري الروماني فيتروفيوس.

موسوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المجلّد الثاني عشر.

25. برج المياه

كانت أمّي تقول دوماً: «مهما حدث، لا يمكنكِ أن تعالجي الأمور من خلال الشعور بالقلق». ومع ذلك، لم أستطع الامتناع عن الشعور بالخوف وهو يتسلّل بهدوء إلى داخلي.

بعد أن رأيتُ الذئاب المصلوبة والقطيع المكوّن من مئات آلاف الجرذان وأهرام الجماجم البشرية في قصر فيرساي، وزعيمهم بعينيه الحمراوين منتصباً على قائمتيه الخلفيتين، شعرتُ بأنّ الوضع أسوأ بكثير ممّا كنتُ أتصوّر.

وهذا الشعور تأكّد أكثر فأكثر كلّما تقدّمنا في رحلتنا. لقد اكتشفنا في الواقع بلدات، بل قرى كاملة وقد دمّرتها الجرذان، ثمّ أُفرِغَت من سكانها. وهذا يعني أنّ الجرذان لا ترغب في احتلالها، بل الاكتفاء بقتل السكان الذين يعيشون فيها قبل مواصلة تقدّمها.

في غالب الأحيان، كانت الجرذان، للإشارة إلى أفعالها، تترك خلفها روائح البول وأكداساً قاتمة من الفضلات الصغيرة السوداء.

في بعض الأحيان، اكتشفنا كلاباً أو قططاً مصلوبة بطريقة مشابهة لطريقة

صلب الذئاب. كما لو أنّها أرادت أن توصل رسالةً مفادها أنّها ليست مجرّد جرذان عادية.

ساءت حال ناتالي وصارت تسير بصعوبة أكبر تدريجياً؛ واعتقدتُ أنّها بدأت تفقد الأمل، وأنّ الإرهاق بدأ ينال منها.

فجأةً، اكتشفتُ روائح البول التي لا تفوح من الجرذان بل من القطط.

قلتُ لرفيقي:

- هناك، شمّ الرائحة!

وحتى دون أن يكلّف نفسه عناء شرح أيّ شيءٍ لناتالي، هرولنا وتوجّهنا نحو مصدر الروائح حتى وصلنا إلى برجٍ دائريٍّ، الجزء العلوي منه مفتوحٌ على نحوٍ واسعٍ. فاحت من قاعدة هذا المبنى البشري رائحة قوّية جدّاً لبولٍ لذيذٍ ومألوفٍ للقطط.

مؤْتُ باتجاه أعلى المبنى:

- مياو!

وانتظرت.

أجاب أخيراً صوتٌ خفيف وبعيدٌ من أعالي البرج:

- مياو.

بحثنا عن المدخل واكتشفنا باباً معدنياً صدئاً ومغلقاً. حاولت ناتالي، التي انضمّت إلينا أخيراً، أن تفتحه بيديها، ولكنّه كان مقفلاً بقفلٍ ضخمٍ. واكتشفتُ أخيراً باب هرّة في قاعدة ذلك المخرج. وفهمتُ كيف نجحت القطط الموجودة هنا في النجاة: كان يكفيها أن تقتل القوارض التي تحاول المرور من هذا الباب الواحد تلوى الآخر، بينما يتكفّل الهيكل المعدني الدائري للبرج بحمايتها من أيّ نوعٍ آخرٍ من الهجمات. شكّل هذا المكان، بشكله فقط، حماية ممتازة من القطيع البنّي. كان لا بدّ من التصرّف، فتوجّهتُ إلى فيثاغورس بالقول:

- أخبر خادمتي بأنّه عليها أن تنتظرنا في الخارج. ولكن، فلتكن مطمئنّة، إذ حالما نقنع جماعتنا بأن تتبعنا، سوف نعود إليها. وإذا ما استغرق هذا الأمر

وقتاً طويلاً، ليس عليها سوى أن تنام في الكوخ الصغير للحارس الذي رأيته خلف المبنى.

ترجم فيثاغورس ما طلبتُ منه، ووافقت ناتالي على هذه الخطّة، وأخبرتنا في سياق الموضوع أنّ هذا المبنى الذي نقف عنده هو برج مياه.

سألني رفيقي:

- هل ستذهبين إلى هناك أم أذهب أنا أوّلاً؟

- أنا سأذهب.

عبرت الفتحة الدائرية لباب الهرّة. وفي الحال، جاء قطٌّ صغير بورمي، رأسه أسود وفراؤه صوفيّ اللون للقائنا، وشمّنا وحكّ قمّة جمجمته بخاصرتي، وقادنا.

اكتشفتُ سلّماً حلزونياً يلفّ ويصعد إلى الأعلى. أصبحت رائحة بول القطط أكثر قوّة تدريجياً.

عبرتُ درجات السلّم، يتبعني ذكري المفضّل عن قرب.

رائحةُ القطط ذكيّة.

لا بدّ أنّ هناك العديد من القطط في الأعلى.

كان السلّم طويلاً جدّاً. أفضت الدرجة الأعلى منه إلى فسحةٍ مدهشة، فيها ممرٌّ دائريّ يمتدّ في وسطه حوضٌ كبيرٌ من المياه الخضراء مثل مياه مستنقعٍ.

تجمّعت على طول الممرّ عدّة مئاتٍ من القطط. تغطّي نصف سطح الحوض المركزي زنابق الماء حيث تخرج من بينها أحياناً ضفادع صغيرة خضراء اللون وضفادع أخرى سوداء اللون وصاخبة.

قادنا القطّ البورمي الصغير نحو قطعة أثاثٍ فوقها عدّة وسائد تشكّل ما يشبه عرشاً، يعتليه قطٌّ يجلس جلسةً مستقيمة، محاطاً بإناثٍ متمدّدة بشهوانية، مديرةً بطونها نحوه، في إشارةٍ إلى عرض أجسادها. كان مغمض العين، تلعق أنثى ظهره.

بدا ذاك الذكر متميّزاً: كان عارياً تماماً من الفراء، جلده أملس ووردي اللون بالكامل، مثل كائنٍ بشري. استدرتُ نحو فيثاغورس، حائرةً:

– إلى أيّ سلالةٍ من القطط ينتمي هذا؟

– إنّه قطّ سفينكس الفرعوني. أنا بنفسي لم يسبق لي أن رأيتُ قططاً من هذه السلالة. على ما يبدو، هذه القطط هي الأقدم، والأكثر ندرةً، والأكثر ذكاءً.

الأكثر ذكاءً؟

– لا بدّ أنّ لها نقاطٌ ضعفٍ مثل مقاومة البرد. فلكونها بلا فراء لا بدّ أنّ يكون الشتاء قاسياً ومرعباً بالنسبة إليها.

تفضّل القطّ الفرعوني أخيراً بفتح عينيه لكي ينظر إليّ. حدّق فيّ بعينيه الواسعتين الزرقاوين اللتين انعكستا على بشرته الوردية. أذنان ضخمتان عاليتان وواسعتان. عليّ أن أقول إنّه أبهرني. بجلده المجعّد وخطمه المجرّد من الشوارب، جعلني أعتقد أنّه قطٌّ عجوزٌ جدًّا، بيد أنّ رائحته دلّت على أنّه قطٌّ شابّ. وعندما دقّقتُ فيه على نحوٍ أفضل، اكتشفتُ أنّ لهذا القطّ الفرعوني نظرة عميقة بالفعل.

أدار رأسه ومدّ ببطء رقبته، قبل أن يتنهّد تنهيدةً خفيفة، وهو غير مبالٍ كما لو أنّه أراد أن يوحي إلينا بأنّه من الأفضل لنا أن يكون لدينا سببٌ وجيه حتى نُقلق راحته. أشار علينا القطّ البورمي الذي رافقنا بأن نقترب أكثر من القطّ الفرعوني. هزّ هذا الأخير رأسه، قبل أن يرضى بتوجيه السؤال إلينا:

– من أين جئتما؟

أجاب فيثاغورس:

– من باريس، وهي مدينة في الشمال.

هزّ القطّ الفرعوني رأسه، وأضاف:

– كنتُ أعتقد أنّ باريس قد سقطت بأكملها تحت قبضة الجرذان التي استغلّت أنفاق المترو والمجارير للقيام بغزوها.

– كلا، ليس بأكملها. لقد ظلّت جزيرة في وسط النهر وهي لا تزال تقاوم الغزو. ونحن قادمون من تلك الجزيرة بالتحديد.

– ولماذا غادرتما، طالما أنّكما كنتما محميين جيّداً هناك؟

انتصبتُ على قائمتي الخلفيتين لكي أكون أكثر قدرةً على الإقناع، وقلت:

- جزيرتنا محاصرة من قبل آلاف الجرذان. لم تنجح في الدخول إليها، ولكننا أصبحنا محبوسين داخلها.

من جديد هزّ القطّ الفرعوني رأسه في حركةٍ مفهومة (كانت أمّي تقول إنّ هزّ الرأس بحركة من الأعلى إلى الأسفل تعني الموافقة بكلمة «نعم» لأنّها الحركة التي يقوم بها طفلٌ رضيعٌ عندما يريد أن يرضع من ثدي أمّه، بالمقابل، يدير رأسه من اليمين إلى اليسار حينما يرفض الرضاعة من ثدي أمّه. لا أدري إن كان هذا موجوداً في موسوعة العلم النسبي والمُطلق، ولكن وجب عليّ أن أشير بذلك على فيثاغورس).

- وفي هذه الحالة كيف استطعتما، أنتما الاثنين، الفرار من محاصريكم؟

- عبر الأجواء.

للمرّة الأولى، بدت عليه علامات زعزعة لامبالاته، وهو ما تجلّى من خلال رفعه لأحد قوسي حاجبه المجرّد من الشعر.

- هل تجيدان الطيران مثل الطيور؟

- لقد صمّم خدمنا البشريون مركبةً أخفّ من الهواء ترتفع عالياً جدّاً وقادرة على أن تنقل القطط. وبهذه الطريقة استطعنا أن نجتاز الحصار المفروض من قبل الجرذان.

ارتضى أن ينظر إليّ بانتباهٍ أكبر.

- وأين هبطتُما؟

- بالقرب من قصر فيرساي، هناك حيث تجتمع الجرذان كلّها.

تنهّد القطّ الفرعوني بهيئة متعَبة، كما لو أنّ كلّ الحديث لا يهمّه في شيء.

قال فيثاغورس:

- نحن نعرف من يكون زعيمها.

- حقّاً؟ ومنْ يكون؟

- جرذٌ صغير أبيض اللون بعينين حمراوين أصبح متحوّلاً في أعقاب التجارب التي أجراها بشرٌ عليه. أتاحت له هذه التجارب الوصول إلى حواسيب البشر، وبالتالي إلى معارف البشر، الأمر الذي جعله أكثر ثقافةً وعلماً من الجرذان الأخرى.

هذه المرّة، أشار القطّ الفرعوني على الأنثى التي كانت تلعق ظهره بلسانها الطويل الخشن أن تكفّ عن نشاطها. وأفرد ذيله، وهنا لم أستطع الامتناع عن إظهار دهشتي. كان ذيله أملس ووورديّ اللون، شبيهاً بذيل جرذٍ، لولا أنّ في طرفه خصلةً من بضع شعراتٍ فضّية اللون.

أثار فيّ هذا المنظر شعوراً. شعرتُ بتوتّرٍ يجتاحني؛ أردتُ أن أحتويه، ولكنّه كان أشبه بموجةٍ تصعد في شراييني حتى وصلت إلى دماغي وأحدثَت ارتعاشاً في فكّي الأسفل عجزتُ عن السيطرة عليه. شعرتُ بوخزٍ في حلقي، ولكنني أحسستُ في الوقتِ ذاته برغبةٍ في فتح فمي لكي أتنفّس.

كلّا، ليس هذا، ليس الآن.

كبحتُ هذا التوتّر لأطول وقتٍ ممكن، لأنني شعرتُ تماماً بأنّه لا ينبغي الاستسلام. لكنّه بات أقوى منّي، وألهب هذا التوتّر دماغي.

كلا لا ينبغي أن أستسلم! لا ينبغي أن أستسلم في هذه اللحظة بالذات.

ولأنني لم أستطع تمالك نفسي لوقتٍ أطول، تخلّيتُ عن كلّ شيء. استسلمتُ استسلاماً كاملاً. بـدأتُ بإطلاق الريح وبدفع سلسلة من الطقطقات بلساني، وبالسعال والبصق.

كنتُ... أضحك!

نظر إليّ القطّ الفرعوني، متفاجئاً. لا بدّ أنّه اعتقد أنني مريضة. ولكنّه إذ رأى بوضوح أنّ عينيّ لا تبارحان ذيله وخصلته المكوّنة من عشر شعراتٍ طويلة ورمادية فاتحة اللون، فهم بارتباكٍ أنني أسخر منه.

نظر الجميع إليّ في حيرةٍ وارتباك. وحده فيثاغورس أدرك ما حدث لي وأشار عليّ بأن أتوقّف عن ذلك. والحال أنّه، وعلى نحوٍ مدهش، كلّما شعرتُ بانزعاجه واستنكاره أكثر، ازددتُ رغبةً في الضحك. في الحقيقة، كلّما أدركتُ أنّه لا ينبغي أن أواصل ذلك، أصبح أكثر استحالةً أن أتوقّف.

لم أستطع الامتناع عن ذلك.

كان ذلك خطأ الضحك نفسه.

بدا لي واضحاً أنّ التجربة التي عشتُها في تلك اللحظة هي عبارة عن

الدرس الإنساني الثالث بعد الحب والفنّ: تجربة الفكاهة التي تتيح رؤية الهزلية المتأصّلة في بعض الحالات، التي تستجرّ ضحكاً لا يمكن كبته والتحكّم به. والمؤسف في الأمر أنّ هذا يحدث في التوقيت غير المناسب.

سعلتُ وبصقتُ.

سأل القطّ الفرعوني:

- هل يمكنني أن أسألكِ من تعتبرين نفسك؟

- أنا (عانيتُ من صعوبة في نطق موائي كما عانيت في الوقت ذاته من صعوبة في الامتناع عن الضحك) أنا... أنا...

يجب أن أكفّ عن النظر إلى ذيله.

تدخّل فيثاغورس، قائلاً:

- اعذرها. هذا نوعٌ من.. من الحساسية. لا بدّ أنّ هناك غبار طلعٍ أو غباراً عادياً في هذا المكان. من الواضح جدّاً أنّها تعاني من نوبة حساسية.

ردّ الحيوان الأجرد:

- بالتأكيد، ولكن هذه هي المرّة الأولى التي أشهد فيها ردّ فعل كهذا.

- أنا... أنا...

ظللتُ أتلعثم، دون أن أنجح في إطلاق مواءٍ آخر.

هبّ فيثاغورس لنجدتي، في حين واصلتُ السعال بطريقة غريبة.

- تقول إننا بحاجةٍ إلى مساعدتك من أجل كسر الحصار المفروض على جزيرة المدينة في باريس. سوف يكفينا إرسال ما يقرب من مئة قطٍّ لإخراجنا من الحصار المفروض. هل ستساعدنا؟

بدأت أتنفّس بعد ذلك مع تشنّجاتٍ وآثرتُ أن آخذ مكاني خلف القطّ السيامي، متجنّبة النظر إلى هذا الذيل الغريب والمضحك الذي زادت رعشاته المعبّرة عن الاستياء من الطاقة الساخرة.

سأل القطّ الفرعوني بلهجة جافّة:

- ماذا سيحدث إذا رفضتُ مساعدتكم؟

أجاب القطّ السيامي:
- سوف يموت كلّ سكان جزيرتنا.
تدهور الوضع وأصبح حرجاً لأنني بدأتُ أضحك على نحوٍ أكثر قوّةٍ.
يجب أن أتوقّف في الحال. إنّ الفكاهةَ أمرٌ سيّئ وخطير.
ولكنني لم أستطع التوقّف. كان الأمر أقوى منّي.
ماء القطّ الفرعوني:
- إذا كان كلّ ما أخبرتمانا به صحيحاً، يستحقّ الأمر التفكير فيه...
من جديد، قام بتلك الحركة المتوتّرة لذيله الذي ضرب به على الأرض.
قال فيثاغورس بلهجة احتجاجية:
- هل تتردّد في مساعدتنا؟
- ومن عساه لا يتردّد؟ فهذه الجرذان خصمٌ مرعب.
- لا شكّ أنّها أكثر عدداً، ولكنّها أصغر حجماً، ومجرّدة من المخالب القابلة للسحب ومن الأنياب الحادّة.

لفّ القطّ ذو البشرة الوردية والناعمة ذيله بشكلٍ حلزوني، الأمرّ الذي لا بدّ أنّه يعني بالنسبة إليه التركيز في التفكير. ولأنّ ذيله اختفى أخيراً عن أنظاري، استطعتُ أن أتوقّف عن الضحك.

تبعت ذلك برهةٌ من الصمت. وانتهى إلى أن أجاب، قائلاً:

- وعندما سنقوم بتقديم المساعدة إليكم، ما الذي سيحدث لنا بعد ذلك؟ فالجرذان تتكاثر بسرعة. وهي تحبل على نحوٍ أكثر تواتراً منّا، وأنتما تعلمان ذلك.

أجاب فيثاغورس:

- هذا لأننا لا نمارس الحبّ بما فيه الكفاية. لو أنّ جميع القطط تتزاوج أكثر، لازداد عدد صغارنا واستطعنا أن نشكّل سريعاً جيشاً كان سـ...

- الموت أسرع من الحياة.

- تماماً. إذا ما توحّدنا، سيكون بوسعنا أن نمنعها من غزو كلّ شيء.

نحن القطط، نكون أقوياء حينما نكون متّحدين. ولكن، في سبيل تحقيق النصر، علينا أن نتخلّى عن بعض ميولنا الطبيعية، كالفردانية والأنانية.

– في الغد، سوف أبلّغكما بقراري. أمّا الآن، فسوف أقدّم لكما الضيافة. استريحا. سوف يدّلكما دبدوب على المكان الذي يمكنكما أن تقيما فيه لكي تستعيدا قواكما.

أعطى القطّ الفرعوني إشارةً وظهر قطٌّ ضخم مشعر وكستنائي اللون.

أعلن القادم الجديد:

– أنا دبدوب.

علّق فيثاغورس:

– هذا اسم لعبة بشرية، إن لم أكن مخطئاً.

– هكذا كان اسمي لدى أسرة بشرية لديها الكثير من الأطفال. وقد منحني هذا طعم الأجواء العائلية وخلق لديّ وسواس الحرب.

هذا هو السبب الذي من أجله يعتبرنا البشر دمى وذلك من خلال الاختزال في كائنٍ حيٍّ واحدٍ. رافقنا دبدوب في قرية القطط. تقدّم أمامنا بمشيةٍ أوحت بالكثير من القوّة.

ما الفائدة أن يكون القطّ ضخماً إلى هذه الدرجة وسميناً إلى هذا الحدّ وبالتالي على الأرجح قويّاً جدّاً، إذا كان لا يرغب في القتال ويرى نفسه على أنه مجرّد كائن تسلية للأطفال البشريين الأشقياء؟

ليس الأمر أنني أحبّ الحرب على نحوٍ خاصّ، فأنا لستُ مثل ابني الذي يمجّد العنف كتسليةٍ، ولكنني أعلم أنّ أحد قوانين الطبيعة هو أيضاً صدام الأنواع: القطط تأكل الفئران. بل يحدث أحياناً أن تنخرط النباتات في هذا الصراع ويشنّ اللبلاب الحرب على أشجار الزيتون ويخنقها بسيقانه الطويلة.

ثمّ، وفي بعض الأحيان، تكون القطط في منافسة مع كلابٍ أو جرذانٍ. إذاً، الأمر لا يتعلّق برغبة نابعةٍ من القلب، وإنّما على أحدنا أن يدافع عن نفسه، ويقتل كي لا يموت. زعم دبدوب أنّ لديه وسواس الحرب؛ ولكنّ الخوف من الحرب يشبه الخوف من العاصفة: أن تكره شيئاً ما هو جزءٌ

من دورة طبيعية. لأنّه بدون العاصفة لا يكون هناك مطرٌ، وبدون المطر لا يكون هناك نباتٌ، وبدون نباتٍ لا تكون هناك آكلة الأعشاب، وبدون آكلة الأعشاب، لا يكون هناك أكلة اللحوم. إنّ فيثاغورس هو الذي جعلني أفهم هذا المنطق وأنا ممتنّة له بذلك.

في عالمنا، القانون الذي يحكم العلاقات بين الكائنات، أيّاً كانت هذه الكائنات، هو الصدام. وإنّ رفض المرء رؤية ذلك لا يعني أنّه مسالم وإنّما يعني أنّه غير مدركٍ للواقع. وفي النهاية هذا هو رأيي المتواضع. شعاري في الوقت الراهن هو: «خوضوا الحرب أوّلاً، والحبّ سيأتي بعد ذلك، وحينها سننعم بالهدوء أخيراً». بيد أنني، لكوني استُقبِلتُ في مدينة القطط هذه، لم أسمح لنفسي بأن أخوض جدالاً فلسفياً حول هذا الموضوع.

وأنا أتقدّم في الممرّ، رأيتُ مئات القطط، بل ربّما ألف قطٍّ وقطّة، وهي تقيم في أوكارٍ أو حفرٍ بمستوياتٍ مختلفة.

ماء القطّ السيامي:

– هذا هو بالضبط ما كنتُ أتخيّل بأنني سأجده: مدينةُ قططٍ، من دون جرذانٍ، ومن دون بشرٍ.

– ومع ذلك، لا أشعر بأنني فعلاً في موطننا. هناك شيءٌ ما يجعلني غير مرتاحة. كما لو أنّ لكلّ هذه القطط سرّاً ما.

– لا بدّ أنّك دائمة الارتياب، يا باستيت! قد يكون هؤلاء حلفاء محتملين في سبيل إنقاذ جماعتنا. هذا كلّ ما يهمّ في الأمر.

دلّنا دبدوب على تجويفٍ في جدار برج المياه.

– من أجل تأمين الطعام، ليس عليكما سوى أن تجلباه من بحيرة برج المياه. أنصحكما بأن تأكلا ضفادع الطين لا الضفادع العادية، لأنّها ألذّ مذاقاً.

حينما غادر، أطلق فيثاغورس تنهيدة.

– كدتِ أن تفسدي كلّ شيء.

– كان الأمر أقوى منّي! حينما رأيتُ ذيله الوردي، الأملس بشعراته الفضّية، شعرتُ برغبة جامحة لم أستطع أن أكبحها.

– كاد تصرّفكِ هذا يقوّض كلّ فرصنا في النجاح.

– هل تعتقد أنّ القطّ الفرعوني اعتبر ذلك إهانة له؟

– هو لم يفهم ضحكتكِ لأنّه لا يعرف ما هو الضحك، ولكنّه أحسّ بانزعاجكِ، ولا بدّ أنّه قد استنتج من ذلك أنّ هناك سبباً لا يمكن البوح به لتصرّفكِ هذا.

غيّرتُ موضوع الحديث، وقلت:

– من أيّ سلالة، القطّ دبدوب؟

– إنّه من سلالة ماين كون. وقطط سلالة ماين كون هي القطط الأكبر حجماً في العالم. قد يبلغ وزن بعض النماذج منها خمسة عشر كيلوغراماً، ويبلغ طولها إلى حدّ مترٍ وعشرين سنتمتراً. ومن بين القطط المنزلية، هي القطط الأكثر شبهاً لأسلافنا من القطط الفرعونية.

– هذان القطّان يكمّلان بعضهما بعضاً: من جهة، هذا القطّ الفرعوني من سلالة سفينكس الأملس، ومن الجهة الأخرى، هذا القطّ من سلالة ماين كون ذي الشعر الطويل جداً بحيث يخرج في خصلاتٍ من أذنيه!

راقبنا بحيرة برج المياه. رأينا القطط تسير بهدوء على ضفافها.

استأنف فيثاغورس الحديث:

– لا ينبغي الحكم على الكائنات من خلال مظهرها.

– هل تعتقد أنّها سوف تساعدنا؟

– إذا ما رفضت مساعدتنا، سوف تتعرّض هي من كلّ بدٍّ للهجوم بعدنا. لا يمكنها أن تبقى إلى ما لانهاية في برج المياه هذا.

– نحن نعلم ذلك، ولكنّها لا تزال غير مقتنعة بذلك.

– إنّها لا تعرف قواتنا ولا دفاعاتنا.

قلتُ:

– ربّما كان عليّ أن أحدّثها عن صاحبنا هانيبال الذي لا يُقهَر، إذ كان من شأن ذلك أن يطمئنها على انتصارنا المحتمَل.

- برأيي، هي لا تعرف حتى ما هو الأسد.

جعلني هذا الأمر أستغرق في التفكير. كم من المتعب أن تكون الواحدة على صوابٍ دائماً وألا تفهمها العقول الضيّقة المحيطة بها. أعتقدُ أنّه لا تزال هناك الكثير من الجهود التي ينبغي عليّ أن أبذلها حتى أتحمّل عالماً مأهولاً بشكلٍ أساسي بأناسٍ حمقى لا يفكّرون مثلي.

قلتُ كملخّصٍ لكلامي:

- إذاً، نحن نجازف بأن نفشل لأنّها ترفض الحقيقة البديهية، وهو أنّ التحالف هو السبيل الوحيد لخلاصنا جميعاً.

حكّ فيثاغورس أذنه بقائمته الخلفية.

- خلال الحرب العالمية الثانية، عام 1940، لم ترغب الولايات المتّحدة أيضاً في الانضمام إلى الحرب ضدّ الألمان. بل كان هناك بعض البشر مثل جو كينيدي (والد الرئيس جون فيتزجيرالد كينيدي) نشطوا لكي تدعم أمريكا هتلر. أيّد ممثلون مشهورون، ونجومٌ في عالم السياسة، وصحافيون أمريكيون مساندة النازيين. وباسم النزعة المسالمة، دافع مثقّفون يساريون عن عدم تحرّك أمريكا. لقد احتاج الأمر إلى القصف المفاجئ الذي تعرّضت له قاعدتهم البحرية في بيرل هاربر من قبل اليابانيين، حلفاء الألمان، لكي يستيقظ الأمريكيون ويقرّروا الدخول في الحرب؛ لولا ذلك، ربّما ظلّوا على الحياد حتى النهاية.

- لماذا؟

- لكي ينعموا بالهدوء، ولكي يغتنوا من خلال بيع أسلحتهم إلى معسكري الحرب. ولو أنّهم امتنعوا عن التحرّك، لانتهى العالم من كلّ بدٍّ بأن يُحتلّ من قبل النازيين... بما فيه الولايات المتّحدة بالطبع. هناك أمورٌ صغيرة تغيّر الأحداث تغييراً كبيراً.

لم أعرف على نحوٍ دقيق ما الذي قصده بما قاله من كلمات «القصف المفاجئ» و«النازيين» و«هتلر» و«اليابانيين» ولكنني اعتقدتُ أنني فهمتُ الفكرة العامّة ألا وهي أنّ الجبن لا ينفع.

قال فيثاغورس وهو ينتفض ليتخلّص من كلّ الأفكار السلبية:

- هيا لنأكل، فأنا جائع.

استطاع رفيقي السيامي، الذي لا يخشى المياه، أن يصطاد بعض الضفادع المسكينة الأقلّ سرعة منه.

قارنّا بين مذاق الضفادع العادية وضفادع الطين؛ وقد وجدتُ، شخصياً، أن الضفادع من كلا الصنفين تترك في الفم نفس المذاق الكريه للطمي. ولكن لأنّ كلّ تلك المغامرات قد جوعتني، لم أجد صعوبة كبيرة في تناولها. بعد أن انتهينا من تناول طعامنا، قرّرتُ العودة إلى شؤوننا:

- نحتاج إلى وسيلة لكي نُقنعَ بها تلك القطط التي لا تزال متردّدة لتنقلب إلى صفّنا. كانت أمّي تقول: «لكلّ مشكلة حلّ، إنّها فقط مسألة خيال».

- أنا لا أعرف والدتكِ، ولكنني لا أثق بكلّ الذين يعملون من خلال الاستشهاد بمقولات أشخاصٍ آخرين. وهذا بالتحديد لأنّهم لا يملكون ما يكفي من الخيال لابتكار مقولاتهم الخاصّة.

أيهين والدتي؟ أيهينني؟ أيسخر منّي؟

تجاهلتُ ما قاله، وحككتُ بدوري خلف أذني ثمّ بدأتُ ألعق كلّ جسمي. واضعةً قائمتي الخلفية اليسرى فوق رأسي، لعقتُ أسفل بطني. وقد ساعدني ذلك على التركيز في التفكير. فعل فيثاغورس الشيء نفسه بالمحاكاة والتقليد. وبعد تنهيدةٍ، أجابني:

- دعينا ننام وسوف نرى ما الذي سيجيبنا به القطّ الفرعوني غداً.

وفي الحال أغمض عينيه، وبدأ بالشخير.

هكذا هم الذكور دوماً، ينامون دائماً في اللحظة التي نكون فيها بأمسّ الحاجة إليهم.

أما أنا، فكنتُ أعلم أنني لن أستطيع أن أغطّ في النوم طالما لم أجد فكرة مفيدة. فأنا أكره أن أكون موجودة فقط لكي أنتظر وأعلّل نفسي بالتمنّي. كانت أمّي تقول على الدوام: «إذا كانت سعادتكِ مرتبطة بالقرارات التي سوف يتّخذها شخصٌ آخر، أعدّي نفسكِ لتكوني تعيسة».

لا تستبق الأمور، يا سيّد فيثاغورس، كانت أمي على حقّ في قولها هذا، تماماً مثلما أنا على حقٍّ في تذكّر ذلك!

كانت تلك العبارة قويّة وقد فتحت ذهني حتى يومنا هذا. لا ينبغي أن أخضع لخيارات الآخرين، أبداً. وفي كلّ الأحوال، عليّ أن أتدبّر أمري لكي أمارس تأثيراً على منْ يتّخذ القرار. لا أنتظر شيئاً من الحظّ أو من عطف الآخرين. عليهم هم أن يخشوا خياراتي.

غطّ فيثاغورس على نحوٍ أعمق في النوم. رأيته يحلم، لأنّ عينيه كانتا تتحرّكان تحت الجلد الرقيق لجفونه. وكانت تشنّجاتٍ خفيفة تسري في ذيله.

لا بدّ أنّه يحلم بي.

انتظرتُ إلى أن نام الجميع (لكثرة عيشها عند البشر، نسيَت أغلبية القطط أنّها حيوانات ليلية، وأصبحت تنام في الليل). حينما سمعتُ شخير المئات من القطط المجتمعة في برج المياه، تقدّمتُ بخطوات خفيفة وقصيرة وخرجتُ من وكري.

ذهبتُ إلى مخدع القطّ الفرعوني.

وجدته نائماً على عرشه، وعند أقدامه إناثٌ مغمضة العيون أيضاً. عاينتُها وتبيّن لي أنّها جميعاً أقلّ جمالاً منّي.

اقتربتُ من القطّ الفرعوني وأيقظته من خلال لعق داخل أذنيه. (أعترف بهذه الحقيقة: أحبّ أن أفعل بالآخرين ما لا أحبّ أن يُفعَل بي). فتح واحدة من عينيه الزرقاوين. وهنا، أخرجتُ ورقتي الرابحة، التقنية اللازمة لإغراء الذكور المتردّدين، التي اخترعتها بنفسي. استدرتُ، وهززتُ حوضي قليلاً ورفعتُ تدريجيّاً ذيلي لكي أكشف له مؤخّرتي. أعرف أنّ غددي تفوح بشتى أنواع الفيرومونات الجنسية المثيرة التي تدلّ على أنني في مزاجٍ رائق. أحسستُ أنني زهرة تنثر غبار الطلع خاصتها لكي تُغري نحلةً.

وعلى الرغم من ذلك، بدا متردّداً، الأمر الذي أكّد انطباعي الأوّل: رغم أنّ القطط الفرعونية تشتهر بأنّها الأقدم والأكثر ذكاءً من جميع القطط، إلا أنّ هذا ينقلب ضدّها لأنّه يمنعها أيضاً من اتّخاذ القرارات السريعة.

لمستُ خطمه بطرف خطمي وقلتُ له في همسٍ عذبٍ:

- تعال أيّها الذكر الوردي الجميل.

تردّد في شنّ الحرب كما تردّد في ممارسة الحبّ.

قلتُ:

– هيا، أنا أعلم أنّك راغبٌ في ذلك.

استخدمتُ حينئذٍ استراتيجيتي الجديدة في الإغراء. لمسته بضربةٍ خفيفة من قائمتي على خطمه وغرزتُ مخلب سبابتي في منخره الوردي. سالت قطرةُ دمٍ حمراء اللون على الجلد الوردي في تناسقٍ لوني.

أبدى دهشته.

ثم أخفضتُ أذنيّ في إشارة على الاعتذار والخضوع له. مخلبٌ ومن ثمّ مداعبة: لا شيء يضاهي هذا من أجل إقلاق راحته، ومن ثمّ من أجل التحكّم به. ونجحت مكيدتي الصغيرة: ارتضى أخيراً أن يشمّني عن قربٍ أكثر، قبل أن يشير إليّ بأن ألحق به، وذلك على الأرجح لكي يبتعد عن إناثه المعتادات.

صعدنا إلى الحرف الخارجي لبرج المياه، وهناك، وعلى ضوء القمر الذي كان بدراً منيراً، قرّر أن يعتلي فوقي. أنا أفضّل أن أكون واضحة: لقد تصرّفتُ باستراتيجية، ووجدتُ هذا القطّ على نحوٍ خاصّ مقرفاً، ولكن إذا كان لا بدّ لخلاص جماعتنا أن يمرّ من هنا، فأنا جاهزة لأن أبذل التضحية بجسدي. هذا هو الجانب الدبلوماسي المتفاني في شخصيتي.

وسط دهشتي الكبيرة، حينما ولجني، شعرتُ أنّ قضيبه رفيعٌ جدّاً وخال من الأشواك الصغيرة التي للذكور الآخرين من القطط (وذلك لكي، كما أخبرتكم سابقاً، تجرف السائل المنوي للقطّ الذي سبقه في سفاد الأنثى).

قضيبٌ أملس لجسدٍ أملس، عضوٌ ذكري مثل... قطعة هليون صغيرة.

كنتُ على وشك أن أنفجر ضاحكةً من جديد، ولكنني تمالكتُ نفسي، مدركةً الأهمية الاستراتيجية لهذه اللحظة. ركّزتُ تفكيري. ولكي أحافظ على جدّيتي، فكّرتُ في تيمورلنك. ولكن الأفكار المشوّشة تدافعت في ذهني. تخيّلتُ لو أنّه، بدل عضوه الذكري، ولجني بذيله الرفيع مثل ذيل الجرذان، والمزّين ببضع شعراتٍ في طرفه. بدأت هذه الرؤية تثير لديّ انطباعاً غير مريحٍ، سرعان ما تعزّز برغبةٍ جامحةٍ في أن أنفجر ضاحكةً.

كان عليّ أن أحافظ على جدّيتي. تبيّن لي أنّ الحبّ والفكاهة مفهومان متعارضان. فإمّا أن نضحك أو أن نستمتع.

وفي حين استمرّ فعل ممارسة الجنس على نحوٍ غير مريح، بدأتُ أستغرق في أحلام اليقظة وقرّرتُ أن أجرّب تجربة التنويم المغناطيسي الارتدادي التي حدّثني عنها فيثاغورس لأزور واحدةً من حيواتي التسع السابقة. ومثلما شرح لي التجربة، تخيّلتُ ممرّاً فيه تسعة أبواب مرقّمة ومزوّدة بباب هرّة.

عبرتُ باب الهرّة الأوّل: رأيتُ قطّاً ذكراً مألوفاً من قطط الشوارع، على الأرجح عاش في القرن الأخير ولا بدّ أنّ يكون أنا. ثمّ فتحتُ باباً آخر، واكتشفتُ أنّني قطّة صغيرة في منزلٍ. وخلف بابٍ آخر، كنتُ قطّاً وحشياً في جبلٍ. ثمّ وجدتُ نفسي فهداً وسط الأدغال. وأخيراً، وخلف الباب الأخير، وجدتُ نفسي وقد وقعتُ في مصر القديمة.

كنتُ أرتدي قلادة مثلّثة الشكل، مرصّعة بأحجار كريمة زرقاء تتدلّى على صدري. ومن حولي، تحتشد جموعٌ من البشر متنكّرين في هيئة قططٍ، يسجدون وهم يردّدون اسمي.

- باستيت! باستيت! باستيت!

لم أهتمّ بندائهم ولا حتى بمواءٍ، مكتفيةً بالتأمّل فيهم من الأعلى. ثمّ رقص الجميع على أنغام موسيقى إيقاعية صاخبة. اختلط ذكورٌ وإناثٌ من البشر مع ذكورٍ وإناثٍ من القطط، سعداء ومبتهجين للغاية بالسجود لي وعبادتي.

- باستيت! باستيت! باستيت!

كان شعوراً استثنائياً رائعاً، ولكنّه لسوء الحظّ لم يدم طويلاً. ما كاد القطّ الفرعوني يقذف في أحشائي حتى أفهمني بأنّه يرغب في التوقّف هنا ولا يريد أن يتبع ذلك بنزاءٍ ثانٍ.

آه من هؤلاء الذكور! يا لهم من أنانيين! لم يهتمّ بمتعتي على الإطلاق. لم يفكّر إلّا بمتعته هو. فكّرتُ في أن أضربه من جديد، ولكنّني تذكّرتُ أنني أقوم بكلّ هذا لكي أحافظ على جماعتي، لا لكي أرتاح وأستلذّ.

فأخفيتُ خيبة أملي، ودون أن ألحّ عليه أكثر، عدتُ أدراجي إلى الوكر

المخصَّص لنا. أيقظتُ فيثاغورس وأشرتُ له إلى أنني راغبة فيه. وفي الحال، ودون أن يلبّي رغبتي، سألني:

- أين كنتِ؟

- هناك حيث استطعتُ أن أميل كفّة الميزان لمصلحتنا.

- هل قابلتِ القطّ الفرعوني؟ لا تقولي لي إنّكِ تسافدتِ مع هذا المخلوق!

- هل تغار؟

وبدل أن يجيبني، ارتدت أذناه نحو الخلف. صُدمتُ وشعرتُ بالإهانة، فأردفت:

- الغيرة ليست شعوراً للقطط، إنّها شعورٌ للبشر. أنا لستُ ملكاً لأحد. هذا أمرٌ لا يُصدّق! لكثرة ما خالطتَ البشرَ، أصبحت محبّاً للتملّك مثلهم!

- ولكن في النهاية، أنتِ وأنا، نسافر معاً، ونعيش معاً، ونفعل كلّ شيء معاً!

- وبالتالي، هل هذا يعني بالضرورة أن تستأثر بي؟ لماذا عليّ أن أحصر نفسي بك في حين أنني أحبّ بوضوح التجديد والتنويع؟ أنت ذكري الأساسي، ولكنني أرى على نحوٍ أبعد وأنا قادرة على أن أدير حياتي الجنسية ليس وفق رغبتي فقط، وإنّما في سبيل المصالح العامّة المشتركة أيضاً.

- ولكن، هذا القطّ الفرعوني... قبيح! إنّه بلا شعر وجلده مليءٌ بالتجاعيد، إنّه بشعٌ وفظيع!

- وهل تعتقد نفسك جميلاً؟

انطلق ردّي دون تفكيرٍ. وبدا واضحاً أنّه أزعج فيثاغورس. هبطت أذناه أكثر من ذي قبل. واهتزّ ذيله في حركات عصبية خفيفة.

- أنا... أنا أعتقدُ أنني على أيّ حال أجمل منه، هذا مؤكّد!

لقد قضي الأمر، وحوّل المسألة إلى قضية شخصية. بالطبع كان محقّاً، إذ بالفعل كان فيثاغورس جذّاباً والقطّ الفرعوني منفراً.

ولأنّ خير دفاعٍ هو الهجوم، رددتُ عليه:

- إذاً، أنا على صواب: أنت تغار مثل إنسانٍ بدائيٍّ يعتقد أنّ الإناث عبارة عن دمى يمتلكها!

وإذ شعرتُ بأنّه مندهشٌ لهذه المقاربة، أردفتُ وأنا أغالي في توبيخه:

- اسمعني، أيّها الحيوان البدائي والمتعجرف: الكائنات لم تُخلق لتكون ملكاً لأحد، ناهيك عنّا نحن القطط الإناث، لقد خلقنا لنحيا بحرّية!

ثمّ أضفتُ، بلينٍ ورقّة:

- أنت محظوظ، فأنا لا أحقد عليك بسبب غيرتك. هيّا، مارس الحبّ معي، لا بدّ أن هذا سيريحك.

ولكي أختم الجدال، أبرزتُ له حوضي. وهنا، هل تتصوّرون ماذا فعل؟ رفض النزاء! قلتُ محتجّةً:

- ولكن منْ تعتبر نفسك، يا فيثاغورس؟ هل تعتقد نفسك الوحيد الفريد الذي لا يعوّض؟ هل تعتقد لأنّ اسمك هو اسم إنسانٍ مشهور، تساويه في المكانة؟ أنت لست سوى قطٍّ! وعلاوة على ذلك، قطٌّ سيامي! كلا، هذا ليس موقفاً عنصرياً، ولكن مع ذلك يجب أن نوضّح الأمور ونضعها في نصابها. ما أفعله، أفعله من أجل مصلحة الجميع! «الغاية تبرّر الوسيلة»، أنت منْ علّمتني هذه المقولة!

لم يردّ عليّ، وأظهر لي هيئته كقطٍّ صغيرٍ مستاء، وأدار لي ظهره وتظاهر بأنّه ذاهبٌ لينام من جديد في ركنه. حسناً، فليكن، لم ألحّ عليه أكثر.

منهكةً من واجب الانشغال بحساسيات كلّ هؤلاء الذكور، ذهبتُ بدوري إلى النوم. وفي اللحظة التي أغمضتُ فيها جفوني، عبرت فكرةٌ ذهني.

إذا كنتُ قد ضحكتُ، فهذا يعني أنني قد فهمتُ ما هي ***الفكاهة****. وبالتالي لقد حصلتُ على واحدة من المعارف الثلاث التي زعمت ناتالي أنّها ضرورية من أجل تأسيس نظامٍ عالميٍّ جديد.*

لم يبق أمامي سوى أن أتقن ***الفنّ*** *و****الحبّ****.*

تمنّيتُ لو أنّ فيثاغورس يكفّ عن الاستياء والعبوس بسبب هذا الموقف الأخير، ففي نهاية المطاف سيكون عليّ أن أبني مجمّعي المثالي معه هو. بل يبدو لي في بعض الأحيان أنّ هذا الحبّ الذي أكنّه له يقترب من **الحبّ العظيم** الذي ذكرته ناتالي...

26. تاريخ الحياة الجنسية

تعود أقدم الرسومات الإيروتيكية إلى عصور ما قبل التاريخ. وهي عبارة عن رسوم منقوشة من قبل الإنسان الذي سكن الكهوف قبل خمسة وثلاثين ألف سنة. ويمكن أن نشاهد في تلك الرسومات رجالاً يمارسون الجنس مع نساءٍ، ولكن أيضاً مع رجالٍ آخرين، بل ومع عنزٍ وخرافٍ.

عند المصريين القدماء، حظيت النساء بالحقّ في اختيار شريكهنّ، كما أُبيحَت ممارسة الجنس مع الحيوانات أيضاً، بل إنّ المؤرّخ الإغريقي هيرودوتس كتب أنّه قد رأى، خلال احتفالٍ ديني، كاهنةً تمارس الجنس مع كبشٍ أمام أتباعها. كما كان سفاح المحارم مباحاً داخل العائلة الملكية، وذلك بهدف الحفاظ على نقاء السلالة. في المقابل، كان على السكان الامتناع عن إقامة العلاقات الجنسية خلال الأيام الاثنين والسبعين التي تعقب موت الفرعون.

في اليونان القديمة، ساد الاعتقاد أنّ الفائدة الوحيدة من إقامة العلاقات الجنسية مع النساء هي إنجاب الأطفال. وانحصرت الحياة الجنسية الاختيارية فقط بالعلاقات بين الرجال. وعندما تزوّج الإسكندر الأكبر ابنة داريوس، قبّل، أمام حشد المشاهدين، فم اثنين من جنرالاته كانا معروفين على أنّهما عشيقاه.

في الثقافة الإغريقية، يُعتَقَدُ بالإضافة إلى ذلك أنّ امتلاك المرء لعضوٍ ذكريٍّ صغير هو علامة على الذكاء، في حين أنّ العضو الذكري الكبير يدلّ على الغباء. ولهذا السبب نرى أن معظم التماثيل المنحوتة تمثّل رجالاً عراة لهم عضوٌ ذكريٌّ في غاية الصغر.

في روما، كانت ممارسة الجنس ممنوعة خلال النهار، ومسموحة فقط خلال الليل، عندما تُخفى الأجساد العارية بالظلام. كانت دور الدعارة محدّدة بوضوحٍ، وكان على المومسات أن يضعن، أثناء خروجهنّ إلى الشارع، شعراً مستعاراً أشقر، لأنّ الشعر الأشقر، مثله مثل

العيون الزرقاء، كان يشير إلى السكان من الأصول البربرية في الشمال (وخاصة الجرمانيين) الذين يُنظَرُ إليهم على أنّهم أناسٌ أفظاظ منحطون. وهذا الشقار هو ما كان يتيح التميز بين المومسات والنساء الشريفات اللواتي كنّ جميعاً سمراوات.

في العصور الوسطى، في أوروبا وأغلب البلدان، كان الدين ينظّم الحياة الجنسية.

بالنسبة إلى الديانة المسيحية في ذلك العصر، لم يكن للعلاقات الجنسية من هدفٍ سوى الإنجاب والتكاثر. ولم تكن العلاقات الجنسية مسموحة إلّا بعد الزواج، في وضعية المبشّر (حيث يأخذ الرجل مكانه قبالة المرأة) في أيام الإثنين والثلاثاء والخميس والسبت. وكانت ممارسة الجنس بطريقة الكلاب البشرية (حيث يأخذ الرجل مكانه خلف المرأة)، قبل الزواج، أو في أيام الأربعاء أو الجمعة أو الأحد، تُعتبَر إثماً من شأنه أن يؤدّي إلى حدّ الطرد من الكنيسة.

وبالمثل، كانت العلاقات الجنسية محرّمة خلال الأيام الأربعين التي تسبق الأعياد الدينية الكبرى (عيد الفصح، عيد العنصرة، عيد الميلاد). كما كان من الممنوع الاقتران في الأوقات التي تكون فيها المرأة في الحيض، أو حاملاً، وخلال الأيام الأربعين التي تلي الولادة الجديدة. ولتفادي سوء السلوك وعمليات التزاوج في الخفاء، حذّر القساوسة السكان وزعموا أنّ مثل هذه الممارسات تُزيد مخاطر الإجهاض والنزيف المميت أثناء الولادة وولادات جديدة معاقة أو مشوّهة.

مع بداية القرن الثاني عشر، بدأت «حمامات تعريق» تظهر في المدن: وهي عبارة عن حمامات عامّة بلدية، وسرعان ما أدّى تواجد كلّ هذه الأجساد العارية وجهاً لوجه في مكانٍ حارّ إلى حدوث حالات تقارب. بيد أنّ انتشار الأمراض الجنسية المعدية –وخاصّة داء السفلس– الذي نُقِل من أمريكا عبر أوائل الغزاة الإسبان – أدى إلى تحمّس الدين الكاثوليكي في التحرّك ضدّ هذه الحمامات: فقد أرغم البابا الملوك على

إغلاق حمامات التعريق وتعهّد القساوسة بالحفاظ على العفّة، في حين كان من المحظور عليهم، حتى ذلك الوقت، أن يتزوّجوا. كما تمّ منع ممارسة العادة السرّية والجنس الفموي واللواط ليس فقط من قبل البابا، بل أيضاً من قبل القضاة، وبالتالي يُعاقَبُ عليها المرء بعقوبة السجن أو بعقوبات جسدية.

وعدّت المثلية الجنسية انحرافاً وشذوذاً (وقد كتب القديس توما الأكويني في القرن الثاني عشر أنّ المثلية الجنسية أسوأ من أكل لحوم البشر)، وأصبحت عقوبة من يمارسها الموت (في إيطاليا، أُدين ليوناردو دا فينشي بهذه الطريقة، ولم يُنقَذ في اللحظة الأخيرة إلّا بفضل تدخّل بعض أصدقاء والده). ثمّ عُدّت المثلية الجنسية مرضاً يجب القيام بمعالجته. وحتى في عام 1952، أُرغِمَ العالم الإنكليزي آلان تورنغ، مخترع أوّل حاسوب، على أن يتعالج من مثليته الجنسية بالعلاج الهرموني؛ ولكنّه آثر أن ينتحر بتناول تفّاحة مسمومةٍ بمادة الزرنيخ.

وكان لا بدّ من الانتظار حتى عام 1960 لكي يتمّ التطرّق إلى المتعة الجنسية التي لا تهدف إلى الإنجاب والتسامح معها في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وفي هذه الفترة ذاتها، تم السماح بالقبلة على الفم في الأماكن العامّة في الوقت الذي راحت فيه فكرة إقامة علاقات جنسية قبل الزواج تفرض نفسها على نحوٍ متزايد.

في فرنسا، لم يتمّ التصويت على قانون منع تجريم الزنا إلّا في الحادي عشر من شهر يوليو / تموز 1975.

إلا أنّه، وعلى الرغم من هذا التطور، ظلّت الحياة الجنسية من المحظورات ومنذ الشروع في نشر أعمال العالمين الأمريكيين ماستر وجونسون حول هذا الموضوع بدأ الناس يعتبرون أنّ الحياة الجنسية هي موضوعٌ للدراسة مثل سواها من المواضيع.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

الفصل الثاني

العين الثالثة

27. خيار القطّ سفينكس الفرعوني:

لا أعلم ما الذي تفعلونه، أنتم، في الصباح حينما تستيقظون من النوم، أمّا أنا، فما أن رفعتُ جفوني، وأنا راغبة في أن أنام من جديد، جاهدتُ لكي لا أفعل ذلك، وأطلقتُ أوّل تنهيدة.

ثمّ لخّصتُ الأحداث التي وقعت لي في الليلة السابقة.

البارحة خفتُ، ضحكتُ، أكلتُ بعض ضفادع الطين، ومارستُ الجنس مع القطّ سفينكس الفرعوني.

بعد تنهيدة ثانية، وضعتُ قائمة بالأهداف التي ينبغي عليّ تحقيقها في النهار.

يجب أن نركّز على القرار الذي اتّخذه هذا القطّ الفرعوني.

وحينئذٍ، أدركتُ أين أكون، وعرفتُ الوقت على نحوٍ تقريبي، وحالة الطقس في الخارج.

أخيراً، وكمرحلة أخيرة، ذكّرتُ نفسي منْ أنا بالفعل.

أنا التي سوف تحكم عمّا قريب العالم وتُطوّره لكي يصبح أفضل.

على نحوٍ استثنائي، ونظراً لضخامة المهمّة، أطلقتُ تنهيدة ثالثة منحتني المزيد من الرغبة في العودة إلى النوم، ولكنني لم أستسلم لهذه النزوة، ونجحتُ في النهوض.

ألقيتُ التحية على الكون وأعلنتُ له أنني قادمة.

تمطّيتُ ولعقتُ جسمي، لأنّ شعار أمّي، كما تعلمون، كان على الدوام: «المستقبل سيكون للذين يلعقون أنفسهم باكراً».

أعشقُ لعق نفسي. سوف توافقونني الرأي بأنّ أفضل ما نفعله من أجل تجنّب مجابهة المشاكل بشكلٍ مباشر، هو أن نلعق أنفسنا. علاوة على ذلك، هذا دليلٌ على أنني على ذوقٍ رفيع. وأنهيتُ عمليات اغتسالي بوضع قائمتي اليسرى خلف رقبتي لكي أنظّف بالفعل كلّ مكانٍ من جسمي. وفقط في تلك اللحظة، لاحظتُ أنّ القطّ السيامي قد أدار لي ظهره بشكلٍ جليٍّ.

– هيه! فيثاغورس، في النهاية، لن تبقى تحقد عليّ إلى الأبد بسبب ما حصل البارحة.

لم يكلّف نفسه حتى عناء الردّ عليّ وخرج يهرول في الممرّ الواسع حول البحيرة الخضراء.

إنّه يزدريني!

– كفّ عن تعجرفك. لا يمكنك أن تتجاهلني بعد كلّ ما مررنا به معاً من محن.

سار دون حتى أن يلتفت إليّ وهزّ ذيله كما لو أنّه يريد أن يقول: «يمكنكِ أن تتكلّمي كما تريدين، لا يهمّني أمركِ».

وبذلك سرنا دون أن نتفوّه بكلمة واحدة إلى أن وصلنا إلى وكر القطّ الفرعوني، الذي كان يعتلي عرشه كما رأيناه في الليلة الماضية، محاطاً بحاشيته من الإناث. فاحت رائحة الهرمونات قويّة جدّاً إلى درجة أنّها لسعت عيني. تناول القطّ الفرعوني عصفوراً دوريّاً لا بدّ أن سوء الحظّ جعله يقترب لكي يشرب من مياه الخزّان. ورغم تميّزه، فإنّه كان يأكل بطريقة صاخبة جدّاً وقذرة. تطايرت ريشٌ صغيرة حول شفتيه.

انضمّت إلينا قططٌ عديدة لكي تحضر مقابلتنا. وأخيراً أشار علينا القطّ الفرعوني بأن نقترب، وتحدّث إلينا، وفمه مليءٌ بلحم العصفور.

قال كديباجةٍ لقراره:

– لقد عاينتُ كلّ جوانب طلبكم.

ثمّ ترك لحظة طويلة تمرّ وهو يواصل خلالها التهام العصفور.
قلتُ بنفاد صبر:
- وهل يمكننا أن نعرف القرار الذي اتّخذته؟
تنفّس بعمق، ثمّ أجاب مع تنهيدةٍ:
- إذا ما لخّصت الموقف، وإذا كان ما تقولينه صحيحاً، عزيزتي باستيت، فهذا يعني أنّ هناك، من جهة، بضع مئاتٍ من القطط والبشر محتجزين في الجزيرة، محاصرين وجائعين؛ ومن جهة أخرى، هناك مئات الآلاف من الجرذان، متّحدة حول زعيمٍ ذكي، أهذا هو الواقع بالفعل؟
- نعم، ولكن...
- بالنسبة إلينا، عددنا بالضبط هو تسعمئة وواحد وثلاثون قطّاً. وبالتالي، بالتأكيد يمكننا أن نساعدكم، ولكنّ السؤال الحقيقي الذي عليّ أن أطرحه على نفسي هو: ما الذي سنكسبه من ذلك؟ وفي الوقت ذاته، عليكم أنتم أيضاً أن تطرحوا على نفسكم السؤال: إذا ما حققتم الانتصار، هل سيكون لهذا تأثيرٌ حقيقي على المدى الطويل على مصيركم؟
لفّ ذيله، وذلك على الأرجح لكي يرى إن كنتُ لا أزال مأخوذة بنوبة من الفكاهة. والغريب في الأمر أنّ هذا لم يحرّك فيّ أيّ شيء. أردف، قائلاً:
- لن تكون لمساعدتنا سوى آثار مؤقّتة. سوف نضحّي بالعديد من الحيوات فقط من أجل فترة قصيرة من الراحة قبل أن يحدث ما هو محتومٌ ولا مفرّ منه.
- وما معنى هذا؟
- أُنظري، يا باستيت، علينا أن نكون واقعيين: حتى إذا انتصرنا على الجرذان، سوف تعود وتنتصر علينا في النهاية.
بإشارة خفيفة من رأسه، تقدّمتْ قطط الصفوف الأولى.
- بصفتي قائداً للقطيع، من واجبي أن أتنبّأ بالمستقبل وأن أحمي جماعتي من المخاطر المستقبلية.
- ولكن...
- أنا آسف. إذا ما نظرتُ إلى الأمور على حقيقتها، علي أن أقول

صراحةً إنني لا أؤمن بمستقبلٍ «لنا نحن القطط»، وإنّما أؤمن بمستقبلٍ «لها هي الجرذان».

– ومع ذلك، سوف تكون مواجهتها أفضل من...

– سيكون ذلك عبثاً. حتى إذا افترضنا أننا سوف نكسب معركة، فلن ننتصر عليها في المعارك التالية. لن نستطيع أن نكسب الحرب ضدّ الجرذان، يا باستيت. لأنّ عددنا ليس كبيراً.

بدأتُ أُخرِج وأسحب مخالبي بطريقة تلقائية، الأمر الذي دلّ على أنني في حالة انزعاجٍ شديدٍ.

سيثير غضبي.

أنا لا أعرف كيف يكون موقفكم أنتم، أمّا أنا فلا أستطيع أن أتحمّل ألّا يتّفق الآخرون معي في الرأي.

– وما معنى هذا؟

قال القطّ الفرعوني بحزم:

– هذا يعني أننا لن نساعدكم.

قال فيثاغورس:

– حسناً، لا بأس، تعالي يا باستيت، سنغادر. لم يعد لدينا المزيد من الوقت لنضيّعه هنا.

أصبحت جميع القطط من حولنا مصدراً للتهديد والخطر، وقد سدّت بعضها أمامنا الطريق لمنعنا من الفرار عبر الدرج الوحيد المتعرّج. توقّف القطّ سفينكس عن تناول الطعام ودفع باحتقارٍ العصفور الذي كان قد مزّقه. راح يراقبنا وهو يلعب بذيله الوردي الذي ينتهي بثلاث شعرات فضّية. لم يعد منظره يُضحكني. فالفكاهة تتوقّف بشكلٍ ما على السياق الذي تأتي فيه.

أجاب:

– وفي المقابل، إذا ما فهمت الأمر على نحوٍ صحيح، فإنّ مقاومة جماعتكما تضايق ملك الجرذان وتثير غضبه.

أفرد القطّ الفرعوني ذيله الوردي وبدأ ينقر بطرفه على حرف عرشه.

– وإذا ما سلّمناكما لتيمورلنك هذا، ربّما يصبح ممتناً لنا ويرى فينا متعاونين محتَمَلين.

قلتُ بذهول:

– لا أعتقد أنّك تفكّر في تسليمنا إلى العدو، أليس كذلك؟

– يجب أن تفهميني: أنا أُعطي الأولوية لمصلحتنا. أنا أقود قطيعي. وأنتما تقودان قطيعكما. ليس هناك أيّ شيء شخصي في الموضوع، على الأرجح كنتما ستفعلان نفس الشيء لو كنتما في مكاني.

– إنّ فكرة أن أخون أبناء جنسي لم تخطر على بالي قطّ! هذا أمرٌ غير أخلاقي.

– لماذا تحّدثينني عن «الأخلاق»؟ هذا المفهوم، مفهومٌ بشري. عند القطط، ليس هناك من مبدأ سوى السعي إلى النجاة. والحال أنني أعتقد أنّ فرص نجاتنا ستكون أفضل بكثير إذا ما سلّمتكما إلى أعدائكما الجرذان.

أمعنتُ النظر في القطط الموجودة وسط الحشد قطّاً تلو الآخر. استطعتُ التعرّف على السلالات الأخرى التي علّمني فيثاغورس كيفية التعرّف عليها والتي حفظتُ أسماءها بدقّة: القطّ التيبتي، القطّ الحبشي، القطّ البورمي، قطّ شارتروه، قط ديفون ريكس، القطّ الياباني القصير الذيل، القطّ البريطاني القصير الشعر، القطّ الجاواني، القطّ النرويجي، القطّ الفارسي، القطّ الإسكتلندي المطوي الأذن...

كانت جميعها شاردة النظر.

كم هي مثيرة للشفقة!

إذا ما ظلّ الذكور يخيّبون أملي، سأبدأ بمعاشرة بعض الإناث.

لقد سبق لي أن فعلتُ ذلك، ويمكنني أن أخبركم بذلك، الأحاسيس تكون مختلفة، ولكنّها مثيرة للاهتمام. إنهّا تمارس مداعبات تمهيدية أطول وقتاً، في حين أنّ الذكور مستعجلون دائماً ولا يجيدون بالفعل تهيئة الإناث.

بيد أنّ الآن ليس وقتاً مناسباً للتفكير في الحياة الجنسية. اقترب منّا دبدوب وأشار علينا أن نلحق به.

ماء القطّ الفرعوني من عرشه:

– اعلما أنّه ليس هناك أي جانب شخصي في هذا الخيار. هل تُريدان أن تعرفا عمق الدافع الذي حثّني على هذا القرار؟ يمكنني أن أعترف بذلك: نحن نخاف.

قال فيثاغورس، محتجّاً:

– أنتم لستم مجرّد جبناء، بل أنتم متعاونون مع العدو. أجيبكم بما قاله ونستون تشرشل حينما وقّع الوزير تشامبرلين اتفاقيات ميونخ التي منحت تشيكوسلوفاكيا للنازيين: «لقد أردتم أن تتجنّبوا الحرب فاخترتم العار، وفي نهاية المطاف لحق بكم العار ولم يحل ذلك دون خوضكم الحرب!»

لم يفهم أحدٌ إلى ماذا يشير ولا حتى ما معنى هذه الجملة، ولكن شعر الجميع بأنّ هذه إهانة رهيبة بالنسبة إلى القطّ السيامي. لم يظهر على القطّ الفرعوني الكثير من التأثّر:

– لقد عرفتُ قطّاً من سلالة الأنغورا ينام طيلة الوقت. اسمه بالضبط ونستون. حينما يستيقظ، لم يكن يفكّر إلّا في تناول الطعام. إذا كان صاحبكم ونستون يشبه ونستون الذي عرفتُه، فهو ليس شجاعاً جدّاً.

لقد تبيّن لي أنّ انطباعي الأوّل السلبي عن هذا القطّ الفرعوني كان صحيحاً. وهو علاوة على ذلك جاهل. وقد أرغمني هذا الأمر على أن أعيدَ النظر في حكمي على جنسنا. وسوف يبدو لي أنّ جميع القطط ليست محترمة ومناسبة للتعامل معها.

وقبل أن تبدر منّا أدنى حركة للفرار، أخذتنا فرقة من قرابة عشرين قطّاً من القطط الأكبر حجماً والأكثر ضخامةً منّا ضغطت علينا عن قرب لكي ترغمنا على النزول عبر السلالم والتقدّم إلى الأمام.

وسمعنا حينئذٍ صوت زئيرٍ قويّ. لم يكن صوت زئير هانيبال، بل أزيزُ العاصفة. أضاء نورٌ أبيض اللون لبرهةٍ الثقوب المفتوحة في سطح الخزّان، ثمّ بدأ المطر بالهطول. بدأت الضفادع العادية وضفادع الطين بالنقيق فرحاً. وتغطّت مياه البحيرة بالبقع الصغيرة التي أحدثتها قطرات المطر، وعاد القطّ الفرعوني إلى ملاذه، إلا أنّ القطط واصلت دفعنا نحو السلّم الحلزوني.

يريدون أن نخرج بينما المطر يهطل!

أنا أعلم أنه سبق لي أن أخبرتكم بأنني كنتُ أكره المطر، ولكن ما لم أخبركم به بعد هو أنني أكرهه كثيراً إلى حدّ أنني أستطيع أن أتخلّى عن خصلات ضخمة من وبري لمجرّد فكرة أن يبتلّ جسمي. خفتُ كثيراً من أنّ إخبار القطّ الفرعوني بهذه الميزة لدي لن يجرّ شفقته عليّ. اعتقدتُ أنّه لم يعد يهتمّ بأمري قط.

ومن جرّاء هذا، في المرّة القادمة التي سوف ألتقي فيها قطّاً فرعونياً، لن أكون غير واثقة به فحسب، بل سوف أمتنع عن الاستجابة لرغبته في مضاجعتي، حتى لو ألحّ عليّ في طلب ذلك.

28. قطط سفينكس الفرعونية

قطط سفينكس الفرعونية حيوانات مدهشة، وقبل كلّ شيء بمظهرها، إذ إنّ انعدام الفراء يجعلها قططاً «عارية».

علاوة على ذلك، هي ليست وليدة عمليات تهجين السلالات: جلدها الخالي من الوبر لا يعود إلى طفرة جينية أو إلى رغبة بشرية. كانت قطط سفينكس الفرعونية هكذا على الدوام، وقد تمّ العثور على أشكالٍ منها في النقوش والمنحوتات المصرية والأزتيكية التي تعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

لكنّ سلالة سفينكس مالت، مع مرور الزمن، نحو الندرة. وقد ظهرت من جديد رسمياً إثر شحنة قادمة من كندا، جلبها أحد مربّي الحيوانات الفرنسيين إلى باريس في عام 1983. وقد قدّم هذا الصنف في معرض القطط في جناح بالتارد ووضع بذلك معيار هذا الصنف الذي سمّي «سفينكس».

رأس القطّ سفينكس مثلّث الشكل، وعظام خدّيه بارزة، وجمجمته مسطّحة، وأذناه عاليتان جدّاً وعريضتان جدّاً؟ وعيناه مدوّرتان. له بطنٌ سمين، وذيلٌ رفيع يُقارَنُ غالباً بمجسّ الأخطبوط.

جلده أكثر سماكةً بكثير من جلد القطط الأخرى، الأمر الذي يمنح سفينكس ملمساً مثل ملمس «قشرة الخوخ»، وليس من النادر أن تكون بشرة الحيوان ذات تجاعيدٍ. يتعرّق القطّ سفينكس كثيراً ومن كلّ جسمه، بخلاف القطط الأخرى التي لا تتعرّق إلّا من باطن أقدامها. وبشرته شبه العارية من الشعر تجعله حساساً حيال ضربات الشمس. قطط سفينكس الفرعونية لا تحبّ العزلة وهي أكثر اجتماعية بكثير من القطط الأخرى. ووسط مجموعة مكوّنة من العديد من السلالات، تتولّى قطط سفينكس الفرعونية الزعامة غالباً بشكلٍ طبيعي. ولأنّ ذكاءها فائق، لا تجد صعوبة أبداً في فرض نفسها.

قطط سفينكس الفرعونية حنونة جدّاً مع البشر. في حين تكتفي غالبية القطط بالجلوس على ركبتي البشر، تعتلي قطط سفينكس أكتافهم لتحكّ بهم رأسها بل ولتقوم بلعقهم. ليس لدى قطط سفينكس أيّ سلوك عدواني. وفي حين أنّ غالبية القطط تتميّز باستقلاليتها، تُبدي قطط سفينكس وفاءً كبيراً لأشخاصٍ محدّدين.

هناك ميزةٌ أخرى لقطط سفينكس ألا وهي شهيّتها المفتوحة. في الواقع، بغياب الفراء الواقي، تحتاج إلى أن تأكل الكثير من الطعام لكي تقوم بتدفئة نفسها وتكدّس الحريرات، وخاصّة في فصل الشتاء.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

29. أسرى القطط

كنّا جميعاً نعاني في قرارة أنفسنا من شيءٍ يسبّب لنا قلقاً بالغاً. كانت أمّي تخاف المكانس الكهربائية، وفيليكس يخاف العناكب، وفيثاغورس يعاني من وسواس الكلاب والنزاعات.

من جهتي، ما لا أُطيقه هو، كما أخبرتكم سابقاً، الماء وحماقة المعاصرين لي. وهنا، تعرّضتُ لهذين الأمرين في آنٍ واحدٍ. كلّ قطرة ماء تعبر فرائي

تحرق جلدي. لقد كرهتُ هذا الماء مثلما كرهتُ أبناء جنسي من القطط التي نوت أن تسلّمني للجرذان...

ها نحن الآن وقد أصبحنا خارج برج المياه الصغير. سرنا باتجاه قصر فيرساي، عرين القطيع البنّي بزعامة تيمورلنك، محاطين بما يقرب من عشرين قطّاً ضخماً، ولسخرية القدر، بمنزلة حرّاسٍ.

واصلت العاصفة تخطيط السماء ببروقها وهزّ الأرض بدويّ رعودها. أصبحت كلّ الطبيعة معلّقة بين العاصفة التي غطّت الأرض والسماء، وسادها الصمت وغابت عنها الحياة. لم تعد هناك عصافير، ولم يعد هناك أيّ صخبٍ للحيوانات. جعل كلّ وميضٍ حدقتي عينيّ تتقلّصان وتنكمشان.

ما الذي جاء بي إلى هنا؟

ربّما كان عليّ أن أُصغي إلى نصيحة أمّي التي ردّدت على الدوام: «فكّري، قبل أن تفعلي أيّ شيءٍ، يا باستيت. عندما يراودكِ حدسٌ، لا تتردّدي للحظةٍ في فعل عكسه تماماً، فغالباً ما يكون هذا هو الخيار الأفضل».

توقّف هطول المطر على نحوٍ مفاجئ. توقّفتُ لأنتفض وأتخلّص من البلل، لكنّ قطّاً أرغمني على أن أواصل السير. وحالما زال الإضراب الناجم عن العاصفة، أصبحتُ أشعر على نحوٍ أفضل بالحركات والذبذبات المحيطة بنا. استشعرت شعرات شواربي وجود شخصٍ ما يلحق بنا.

حاولتُ أن أتعرّف عليه. شعرتُ برائحة عفونةٍ تدغدغ منخاريّ. إنّها رائحة عرق ناتالي!

تبّاً، كنتُ قد نسيتُ هذه المرأة!

كانت الكائنة البشرية التي تنتظرنا في الخارج قد رأتنا حينما خرجنا، فلحقت بنا. سألتُ، خلسةً، فيثاغورس:

– هل لا تزال على اتصالٍ لاسلكي مع خادمتي؟

– منْ تعتبرينني، يا باستيت؟ لقد أطلعتها على كلّ ما حدث.

– إنّها ليست بعيدة عنّا.

– أعلم.

– لماذا لم تطلب منها أن تقوم بتحريرنا؟

– لقد فعلتُ ذلك، ولكنّها أجابت بأنّها تفضّل الانتظار إلى اللحظة المناسبة لكي يكون تصرّفها فعّالاً على أفضل وجهٍ ممكن.

– واعتماداً على ماذا تعتبر لحظة ما هي الأفضل؟

أتمنّى ألّا تتأخّر في التدخّل. إذا ما تدخّلت بعد أن نصبح داخل قصر فيرساي، سيصعب علينا التمكّن من الخروج منه والنجاة.

عيل صبري، فسألتُ فيثاغورس:

– ماذا تنتظر؟

– إنّها تخشى القطّ ماين كون.

هذا أمرٌ لا يُصدّق! خادمتي تخاف القطط الآن. إن عشنا، سنرى ونسمع الكثير.

– تقول إنّ عددها كبيرٌ جدّاً. وهي تنوي مهاجمتها بمخالبها.

– ولكن... ولكن... ولكنّها عاشت معنا، وكنّا محاطين بالقطط في الجزيرة.

– تقول إنّ تلك القطط كانت لطيفة... وليست مثل هذه القطط، الخطيرة جدّاً.

– أخبرها بأن تهاجم في الحال، لكي تثير الفوضى وسط حرّاسنا، وتحرّرنا منهم. **هذا أمرٌ.**

كنّا نمشي في مسالك، ونسير وسط الغابة، عندما قال لي فيثاغورس، على نحوٍ مفاجئ:

– كوني مستعدّة، سيكون الهجوم وشيكاً. ستجازف بكلّ شيء من أجل النجاة.

ظهرت خادمتي في تلك اللحظة، وهي تلوّح بمصباحٍ مضاء. لعب عنصر المفاجأة والذُعر الغريزي الذي أحدثه الضوء لمصلحتنا. استفدنا أنا وفيثاغورس من هذا الإلهاء لكي نهرب من حرّاسنا، واستدرنا إلى الوراء وانطلقنا نركض بأقصى ما استطعنا.

ولكي تتخيّلوا المشهد: على نفس الطريق، كانت ناتالي تركض، والغصن

المشتعل في يدها، وفي إثرها فيثاغورس، ثمّ أنا، ويلحق بنا القطّ دبدوب، القطُّ النرويجي الضخم، ومعه ما يقرب من عشرين قطّاً على شاكلته.

لم أكن لأصدّق أنّ قطيعاً من القطط سوف يلاحقني ذات يوم!

كسب أعداؤنا الأرض. فراودت ذهن خادمتي فكرةٌ لم أوافق شخصياً عليها. فحينما رأت أننا قد وصلنا إلى نهرٍ، ألقت بنفسها فيه. وفي الحال، قفز فيثاغورس أيضاً إلى المياه وبدأ يسبح ليتشبّث بظهرها.

أوه كلا، ليس هذا!

كان المطارِدون على وشك الإمساك بي. ماذا كنتم ستفعلون لو كنتم في مكاني؟ كززتُ على أسناني وأغمضتُ عيني. فعصفت بذهني حينئذٍ ذكرى مؤلمة سبق لي أن حدّثتكم عنها، وعلى الأرجح هي أسوأ ذكريات صباي: تلك المرّة التي أرادت فيها خادمتي أن تحمّمني.

حينذاك حاولتُ عبثاً أن أدافع عن نفسي، فلأنّها توقّعت ردّ فعلي، أمسكت بي بقفازات خاصّة بالمطبخ، سميكة جدّاً بحيث لم أستطع أن أمزّقها لا بمخالبي ولا بأسناني. وقد غمرتني بالكامل بالماء باستخدام رشّاش الحمام، بعد أن كان شعري قد تلوّثَ بالقار وأصبح ثقيلاً. لم تكن المسكينة تعلم أن القطط لا تحتاج إلى أن تُغسَل، طالما أننا ننظّف أنفسنا باستمرار باستخدام لساننا.

فقدتُ كلّ كرامتي. ولكنّها لم تكتفِ بهذه الإهانة الأولى، إذ إنّها غطّتني لاحقاً برغوة الصابون. ووجدتُ نفسي غارقة في فقاعات الصابون وفي مأزقٍ أشدّ بكثير. وكخاتمة لهذا التعذيب، شطفتني بالماء البارد.

لا أتمنّى ذلك لكم، بل لا أتمنّى هذه التجربة المهينة لأحدٍ، حتى ولا لألدّ أعدائي.

جفّفتني بعد ذلك بمنشفة فاترة، ثمّ بمجفّف شعر. ولأنتقم من نفسي، تبوّلتُ في سريرها، ثمّ تغوّطتُ في حذائها، ومزّقتُ بأسناني وسادتها لأُبعثر ريشها.

بسبب هذه الصدمة، تردّدتُ في القفز إلى النهر.

ماء فيثاغورس من بعيد:

- تعالي بسرعة!

اقترب القطّان ماي كون والنرويجي. فأقدمتُ على ما لا يمكن تصوّره: أغمضتُ عيني، واستنشقتُ جرعةً كبيرة من الهواء وألقيتُ بنفسي في النهر.

هناك لحظات في حياة المرء يتمنّى لو أنّه ينساها. وتلك اللحظة من حياتي هي من هذه اللحظات التي أتمنّى أن أنساها. غطستُ أوّلاً في الماء البارد. تبلّلت قوائمي، وتبلّل بطني، وتبلّل ذقني. يا للهول. حرّكتُ أطرافي في كلّ الاتجاهات لكي أتجنّب الغرق.

كان هذا ردّ فعلٍ جيداً، فمن جرّاء ذلك، حتى وإن كنتُ عند فتح فمي قد شربتُ القليل من الماء وسعلت، نجحتُ مع ذلك في استنشاق بعض الهواء الدافئ المنعش.

كم كان هذا الإحساس بالبلل والبرد مزعجاً وغير لائقٍ بي! أزعجت كتلةٌ باردة ومبلّلة جسدي. ولكثرة تحريك الماء، اكتشفتُ أنّه طالما لا أتوقّف عن الحركة، يمكنني أن أُبقي رأسي على السطح.

حاولتُ أن ألحق بخادمتي، حينما سمعتُ خلفي صوت «ارتطامٍ» قويّ بالمياه. كان القطّ ماين كون الذي، بدوره، ألقى بنفسه في الماء وسبح لكي يلحق بي. وعلى العكس منّي، لم يبدُ عليه أنه قط يخشى المواد السائلة. لحقتْ به قططٌ ضخمةٌ أخرى، ولكنّها ظلّت بعيدةً خلفه. أمّا القطّ دبدوب فقد سبح هو الآخر في مسعى للإمساك بي. بيد أنّ الكتلة الكثيفة لشعره أعاقته.

جرفَنا تيارُ النهر جميعاً. سبحت ناتالي، وفيثاغورس جاثمٌ على كتفيها، سباحة صدرٍ منتظمة مثل ضفدعٍ من الضفادع التي أكلناها في الليلة الماضية. وخلفهما، كنتُ أبتكرُ سباحةً خاصّة بي.

اكتشفتُ بذلك أنني أتقدّم إلى الأمام على نحوٍ أسرع حينما أحرّك قائمتيّ الأماميتين في نفس الوقت الذي أحرّك فيه قائمتي الخلفيتين. أمّا بالنسبة إلى ذيلي، الذي أبقيته حتى تلك اللحظة فوق الماء، أصبح يُفيدني كدفّة للتوجيه.

بعد الغيوم في المنطاد، اكتشفتُ عنصراً جديداً: الماء. وهما مكانان لم أفكّر قطّ في الذهاب إليهما.

في نهاية المطاف، تبيّن لي أنّ السباحة ليست مخيفة ومعقّدة مثلما كنتُ أخشاها.

إذا لم تكونوا قد سبحتم من قبل، فسوف أشرح لكم الأمر: بعد تجاوز اللحظة الأولى من الذعر الخالص، يجب أن يتنفّس المرء، ويمدّ رقبته لكي يُخرِج رأسه تماماً فوق سطح الماء ويشهق ويزفر بقوّة على نحوٍ متناغم مع تحريك قوائمه.

اعتدتُ على هذه الوضعية وقلتُ في نفسي إنني في طريقي للتغلّب على هذه الفوبيا التي أعاني منها، حينما تلقيّتُ، على نحوٍ مباغت، ضربةً على ذيلي. لقد نجح دبدوب في اللحاق بي. اقترب قطّان آخران خلفه منّي على نحوٍ خطير.

أوه كلا، لا أريد خوض معركة بحرية مع القطط!

كنتُ مشغولة للغاية بالسباحة الأمر الذي منعني من الردّ على ضرباته واكتفيتُ بمحاولة أن أُعميه من خلال رشّه بالماء باستخدام ذيلي. لكنّ هذه الحركة أبطأت من تقدّمي ورأيتُ ناتالي وفيثاغورس يبتعدان عنّي.

اقترب القطّ ماين كون.

فجأةً، وقع حدثٌ غير متوقّع: ظهرت أمامنا، في الماء، دوّامة. راح لولبٌ مائي يدور لكي يغوص في مخروطٍ معتم.

في البداية، لم أُعر سوى القليل من الانتباه لهذه الظاهرة. ولكن كلّما اقتربتُ أكثر من الدوّامة، وجدتُ نفسي أُجذَب أكثر، ثمّ أُمتَصُّ.

عبثاً حاولتُ أن أقاوم، فقد غصتُ هذه المرّة في الهاوية المائية، ومررتُ تحت الأمواج.

وخلال هذه الثواني القليلة يكتشف المرء في النهاية أنّه إذا كان يخشى شيئاً ما، فذلك ربّما لأنّه يعلم في قرارة نفسه أنّ هذا الشيء مُضرٌّ له بشكلٍ أساسي.

لا أحبّ الماء. ولدي أسبابي لكي لا أحبّه. وقد أخطأتُ في الاعتقاد أنني أستطيع التصالح مع هذا العنصر. دخلت المادة السائلة والباردة إلى رئتيّ. قاومتُ ولكنني عرفتُ أنّ هذا لم يعد يجدي نفعاً.

كلّما غصتُ في مياه النهر أكثر، دخلت مياه النهر إلى جوفي أكثر.

حسناً، ها قد حانت ساعتي الأخيرة إذاً. لا بدّ أنني سأموت في هذه اللحظة إذاً.

لا أدري إن سبق لكم إن متّم، ولكن هذه تجربة حقّاً يصعب وصفها.

ارتأى لي جسدي الشفّاف وهو يصعدُ نحو نفقٍ من الضوء الذي بدا عالياً في السماء. كان والداي هناك وينتظرانني.

– صباح الخير، يا أمّاه (لم يكن لأبي قط أهمية كبيرة في حياتي).

ومع ذلك ردّ عليّ أبي:

– هل تريدين البقاء معنا أم تريدين العودة إلى الأرض؟

– هل لي الخيار في ذلك؟

– لدينا على الدوام الخيار. اسألي نفسكِ فقط إن كانت حياتكِ هناك قد انتهت أم لا تزال لديكِ أمورٌ ينبغي القيام بها هناك.

– حسناً... لا تزال هناك بعض الأمور في هذه الحياة يهمّني أمرها: جماعتي في جزيرة المدينة، وفيثاغورس، وأنجيلو، وحتى خادمتي البشرية.

قالت أمّي في همسٍ خفيفٍ ينمّ عن موافقتها على موقفي:

– آه، من الجيّد أن تفكّري في أمر من تحبّين. ولكن هل عددهم قليل أم كثير؟

– لم أعد أعرف بدقّة.

– فكّري في الأمر: هل ستكونين مستعدّة للعودة إلى هناك للقائهم؟

– نعم.

– نحن نتحدّث عن مصير روحكِ. فكّري جيّداً في ردّكِ. هل تريدين أن تقولي «نعم ربّما» أو «نعم بكلّ تأكيد»؟

– أنا متعبة، يا أمّاه. ألا تستطيعين أن تُقرّري نيابةً عنّي، وأنتِ التي تعرفين دائماً ما الذي يجب فعله؟

– الحياة والموت لا يمكن لهما أن يكونا إلّا خيارين شخصيين. حدّدي خياركِ، ثمّ اتّخذي قراركِ دون تذمّر.

30. القَدَرية

كلمة «القَدَرية» مشتقّة من كلمة **fatum** التي تعني القَدَر المكتوب مسبقاً.

حسب العقيدة القَدَرية، لا جدوى من تبنّي خيارات طالما أنّه في كلّ الأحوال كلّ ما يحدث لنا هو سيناريو مكتوب مسبقاً، وبالتالي فالخطوات مثبّتة من قبل نظامٍ أسمى - سواء كان هذا النظام هو الطبيعة، أو الآلهة، أو حتى قوانين التارِيخ.

انطلاقاً من هذه القناعة، أي الإيمان بالقضاء والقدر، لا يمكن اعتبار أي تجربة أو محنة على أنّها سلبية، وإنّما هي عبارة فقط عن تجربة من بين تجارب أخرى نعيشها كعنصر من عناصر هذا السيناريو المكتوب.

وإذا كان المرء قَدَرياً، أي مؤمناً بالقضاء والقدر، فهو يستسلم أيضاً لمبدأ الظلم، ليرى فيه فقط تسلسلاً ضرورياً للأحداث التي يعيشها كلّ شخص سواء كانت مريحة أو مزعجة.

وبالتالي لا جدوى من التذمّر والشكوى.

ولا جدوى من المقاومة.

يجب القبول بالعالم كما هو عليه، من دون رغبة في محاولة تغييره. يجب تحمّل العذاب والمحن والشقاء التي ليست سوى اختبارات لشخصيتنا وطبيعتنا.

في بحثه حول القَدَرية، كتب شيشرون: «إذا كان مقدراً لك التعافي من هذا المرض، فإنك سوف تتعافى سواء استدعيت الطبيب أم لا؛ وبالمثل، إذا كان قدرك ألا تتعافى، فأنت لن تتعافى سواء استدعيت الطبيب أم لا».

من بين الأساتذة الهنود الستّة للبوذية، كان مكهالي جوسالا، المولود في عام 484 قبل الميلاد، يُدافع عن القَدَرية وهي في البوذية «نياتيفادا». وكان يؤكّد أنّه «ليس للأفعال أيّ أثر، سواء كانت جيّدة أو سيئة، وأنّ أيّ ممارسة دينية أو عبادة لا تغيّران أيّ شيء. وفي كلّ الأحوال سوف نبلغ

جميعاً الخلاص بطريقة تلقائية حالما يستنفد مجرى الوجود». بيد أنّ هذا القول يتعارض وغوتاما بوذا الذي كان يؤمن، من جهته، بأنّ لخياراتنا تأثيراً مباشراً على «الكارما» خاصّتنا.

القدرية تتعارض في هذه الحالة مع الإرادة الحرّة، كون الأولى تعتبر الإنسان غير مسؤولٍ، في حين تُرغمه الثانية على التفكير بأدقّ نتائج أفعاله.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

31. عندما كسرتُ قشرة البيضة

فتحتُ عيني.

إذاً لا أزال على قيد الحياة!

هكذا اكتشفتُ أنّ بوسع المرء أن يغرق ويتحدّث مع أسلافه الموتى و... يُبعثُ حيّاً. جعلني هذا أفكّر في ما قاله لي فيثاغورس عن القطط التي لديها تسع حيوات. اعتقدتُ أنني فقدتُ الآن واحدة من حيواتي. أتمنى ألا أبدأ بالحياة الأخيرة.

الفكرة الثانية التي راودت ذهني بعد أن فتحتُ عيني هي أنّ هناك شيئاً ما ثقيلاً ومزعجاً داخل جسمي. شعرتُ بالاختناق. بحثتُ عن الطاقة الضرورية لطرد ما يُنغص عليّ، وأخيراً تقيّأتُ كميةً من الماء الممزوج بالبصاق الدموي. سعلتُ لكي ألفظ كلّ ما دخل إلى جوفي من النهر.

طرد الهواءُ الماءَ. نظّفتُ رئتيّ مما دخل إليهما. وأدركتُ في الوقت نفسه أنني كنتُ على الضفّة المقابلة للضفة التي ألقيتُ منها بنفسي إلى النهر. كان المنظرُ مختلفاً. لقد وقعتُ على ما يشبه شاطئاً صغيراً من الرمل الأسود.

أبعد من الضفّة بقليل، رأيتُ جسماً ممدّداً. وقفتُ على قوائمي، ثمّ اقتربتُ بحذر وجسمي بأكمله لا يزال لزجاً.

تبيّن لي أنّه القطّ دبدوب، راقداً على بعد بضعة أمتارٍ منّي. تقدّمت، وأنا

جاهزة لقتاله، ولكن حينما أصبحتُ بالقرب منه، اكتشفتُ أنّه جثّة هامدة وأنّ فمه المفتوح ينزُّ لعاباً لونه بلون الصوف.

لم يعد يتنفّس. وقد انتهز الذباب الفرصة لكي يطنّ من حوله. حاولتُ أن أفهم لماذا مات هو ولم أمت أنا. وقد وجدتُ تفسيراً تقنياً لذلك: لقد أثقل عليه شعره الطويل وجعله يغرق عميقاً، في حين أُغمي عليّ فقط، وظلّ جسمي طافحاً على سطح الماء قبل أن يوقفه لسانٌ بريّ على ضفّة النهر.

أو ربّما... ربّما هو الآخر قد رأى أسلافه وفضّل أن يبقى معهم.

ازداد طنين الحشرات وحطّ الكثير منها على عينيه. لم أستطع الامتناع عن رؤية رمزية في ذلك: هذه هي خاتمة من يعترضني أو يعارض مشاريعي: يصبح جسده منفوخاً بالماء، وفمه فاغراً، ويغزو الذباب عينيه.

أتذكّر قولاً بشرياً مأثوراً ذكره فيثاغورس لي ذات يوم: «إذا ما قام أحدهم بإيذائِك، لا تتعب نفسك بالانتقام منه؛ اجلس على حافة النهر وانتظر. وذات يوم سوف ترى جثّته منجرفةً مع التيار».

لم اضطرّ للانتظار طويلاً. مهما يكن، لقد ارتحت لعدم اضطراري إلى الانخراط في مبارزةٍ ضدّه. شعرتُ بأنّ رعشة باردة قد سرت في جسمي حينما راودتني فكرة أنني كنتُ سأموت لو أنني اخترتُ البقاء مع روح أجدادي.

وأدركتُ أيضاً أنني من الآن فصاعداً وحيدة. لم يعد معي لا فيثاغورس، ولا ناتالي، وإنّما أنا وحدي، مبلّلة، منهكة وضائعة في أرضٍ أجهل حتى موقعها.

بدأتُ بفعل ما هو أكثر أهميةً: انتفضتُ. لا أدري كيف تنتفضون، أنتم، أمّا أنا فأقوم بحركة دائرية تبدأ من رقبتي وتمتدّ حتى ذيلي لكي أحقّق أقصى درجة من التجفيف. ثمّ أمضيتُ وقتاً طويلاً في لعق جسمي حتى أزيل كلّ قطرة من ماء النهر المقزّز.

أخيراً، حينما استعدتُ كرامتي كقطّة، تساءلتُ عن الاتجاه الذي ينبغي أن أسلكه. ولأنني لم أستطع السير مع مجرى النهر بعكس التيار، خشية من خطر مصادفة القطط الأخرى، قررتُ أن أنطلق نحو الجنوب.

مشيتُ. بعد كلّ ما شاهدته ضمن فريقٍ، كان شعوراً غريباً أن أجد نفسي

هكذا وحيدةً وسط الطبيعة. وأخيراً لم أعد وحيدةً تماماً: فقد ظهرت أفعى، فغيّرتُ طريقي ليقع خطمي في شبكة عنكبوتٍ.

كنتُ قد نسيتُ أنّ البرّية مليئة بكلّ هذه المخلوقات. هذه البيئة المختلفة تماماً عن بيئة المدن البشرية بدت لي فجأةً بكلّ وحشيتها. كانت تنتشر في كلّ مكان حشراتٌ تلسع، وأشواكٌ تسلخ، وأنواعٌ من الفطر السامّ.

جعتُ وعطشتُ. عدتُ إلى التفكير في مشروع توسيع ذهني لكي أتواصل مع كلّ ما يعيش حولي. بدا لي أنّ هذه هي الوسيلة الوحيدة للنجاة وسط هذه البيئة العدائية. حاولتُ أن أنخرط في مجرى هذه الطاقة الحيوية، ولكن خطرت في ذهني أفكارٌ لم أستطع التحكّم بها.

فيثاغورس.

إنّه لأمرٌ غريب ولكن، في تلك اللحظة، وربّما لأنّه كان بعيداً عني، وجدتُ فيثاغورس... رائعاً. خاصّةً بالمقارنة مع سفينكس الجاهل المجرّد من الوبر وحتى مع ماين كون الجاهل الغزير الوبر. أمّا فيثاغورس، فكان جسمه مشعراً كما ينبغي دون زيادة أو نقصان.

وكلّما فكّرتُ في فيثاغورس أكثر، وجدته أكثر جاذبيةً. إنّه ذكري «أنا». على أيّ حال، حتى إذا كان غاضباً منّي بعض الشيء، سوف يعود إليّ. فمنْ يستطيع أن يقاوم جاذبيتي الطبيعية الساحرة؟

نحن الإناث، نعلم ذلك: هكذا هم الذكور. إذا ما امتلكناهم مرّة واحدة، يمكننا أن نمتلكهم مرّة أخرى حينما نشاء. والذكور لا يدركون أننا نحن الإناث منْ نختار شركاءَنا، ونحن من نتحكّم بموقف الزوج. وفقط بعد ذلك، نمنحهم الوهم بأنّهم هم السادة وذلك لاستمالة رجولتهم.

لا يمتلكني فيثاغورس، وإنّما أنا أمتلكه. وسوف أكون وفيّة له من جديد... إلى أن أرى منْ هو أفضل منه.

وأنا أمشي، فكّرتُ من جديد في مفهوم الجمال. ربّما لا أعرف دائماً من هو جميل، ولكنني أعرف من الآن فصاعداً منْ هو قبيح: لقد أصبح القطّ سفينكس الفرعوني مضرب مثلٍ بالنسبة إليّ في مسألة قُبح القطط.

أنا جائعة. أنا جائعة. أنا جائعة. وخادمتي ليست هنا لتقدّم لي الطعام!

في انتظار ذلك، عليّ أن أجد ما أسدُّ به جوعي. وجدتُ الكثير من القواقع، ولكنني لا أحبّ لا ملمسها ولا مذاقها.

بدأ بطني يُقرقر، وبدأت اختلاجات خفيفة تسري في لساني. لقد أنهكتني السباحة في النهر.

تناول الطعام. يجب أن أتناول طعاماً.

لمحتُ في الأعلى عشّ طائرٍ مليئاً ببيضٍ أبيض اللون. أحبّ البيض كثيراً. فاستفدتُ من رشاقتي الطبيعية لأتسلّق جذع الشجرة، وأبلغ فروع الشجرة وأوراقها وأصل إلى الطعام الشهيّ والمفضّل لدي. هأنذي أخيراً أقف أمام وجبة غدائي، على طرف غصنٍ. ثقبتُ أحد قواقع البيض بمخلبي الأيمن، وأبعدتُ القشور ودسستُ خطمي في المادة الصفراء اللذيذة.

بدأ لساني يلعقها. يا لها من لذّة ومتعة!

كان في البيضة الثانية جنينٌ قضمته بتلذّذ: بالنسبة إلى شخصٍ جائعٍ، يكون هذا الطعام المليء بالبروتين بالفعل لذيذاً ومقرمشاً في آنٍ واحد. ولكنني انزعجتُ لأنني لم أكن أعلم أي جنسٍ من الطيورِ أتناول. وعندما أكلتُ البيضة الثالثة، تلقيّتُ جوابي. حدّقت فيّ أمّ تلك الفراخ. بدا أنّها صقرٌ، أقصد أنثى صقرٍ.

انقضّت صاحبة العشّ عليّ وشعرتُ بمخالبها تنغرز في جلدي وكذلك رأس منقارها المعقوف. رددتُ عليها بسحب مخالبي ودفعها بضربة محكمة من كفّي. دخلنا في عراكٍ على الغصن الذي وقفتُ عليه في توازنٍ غير مستقرّ.

وقد أكّد هذا على ما كنتُ مقتنعة به على الدوام: الطبيعة هي الحرب. والدليل على ذلك هو أنّ اللقاء مع حيوانٍ بريّ يبدأ غالباً بمواجهة.

صفعني خصمي بجناحيه الطويلين ومنعني من تركيز هجماتي. في لحظةٍ ما، أفقدتني ضربةُ جناحٍ توازني وأسقطتني من الشجرة. درتُ ثلاث دورات (أفٌ، هذا رقمٌ فردي) وسقطتُ برشاقةٍ على الأرض.

لم ينكسر شيءٌ من عظامي، إذاً كلّ شيء على ما يُرام.

فقدتُ رغبتي في القتال. لقد شبعت وهذا هو المهمّ في الأمر. فقرّرتُ أن أواصل طريقي في محاولةٍ للعثور على رفيقيّ في الرحلة.

لكنّ أنثى الصقر لم ترغب في ترك الأمور تسير بنفس الطريقة. لقد غضبت منّي بسبب قتلي لثلاثة فراخ من فراخها الأربعة. قطعت عليّ الطريق وتقدّمتْ، مهدّدةً، وهي تمدّ منقارها إلى الأمام. أفردت جناحيها لكي يظهرا أوسع وأكبر.

تراجعت، وتعثّرت، ثمّ تراجعتُ أكثر.

ثمّ، فجأةً، حدثَ شيءٌ غير متوقّع. قفزت ثلاثة جرذان من بين السراخس لكي تنقضّ على أنثى الصقر. لم أكن قد رأيتها حتّى، لا بدّ أنّها من دوريات الحراسة.

بقدر ما يكون الطير الجارح قويّاً في السماء، بقدر ما يفتقر إلى المهارة على الأرض اليابسة.

حاولتْ أن تحلّق عالياً من جديد، لكن أحد الجرذان الثلاثة قفز على ظهرها وغرز أسنانه في رقبتها، بينما أمسك الجرذان الآخران بجناحيها. أدارت أنثى الصقر رأسها في محاولة لنقرِ أحدها برأس منقارها، لكنّها لم تنجح في الوصول إليه.

منحني هذا المشهد مادّة للتفكير. في النهاية، أنا أيضاً أمٌّ لم يبق لديها سوى طفلٍ وحيدٍ بعد أن قُتِلَ الآخرون، في الظروف الفظيعة التي تعرفونها من قبل – لقد أغرق خطيب خادمتي كلّ صغاري، عدا أنجيلو.

وبالتالي، قلتُ في نفسي إنّه ينبغي عليّ أن أساعد هذه الأمّ، حتى لو لم يكن هناك أيّ شيء أكسبه من ذلك. وأنا أعلم أنّ هذه فكرة متولّدة مباشرة من التأثير السلبي ذي النزعة الإنسانية لدى فيثاغورس. لقد سبق له أن حدّثني عن هذا الشعور: «الشفقة». وهو يعني ألّا نكون لامبالين حيال آلام الآخرين.

اقتربتُ من مكان الاعتداء واتّخذتُ الوضعية التي أُثير بها أقصى درجات الخوف: حدّبتُ ظهري، وأخرجتُ مخالبي، وفتحتُ فمي واسعاً لكي أكشّر عن أنيابي. وقد أثمرت حركتي التضليلية هذه وحقّقت نتيجةً. رأتني الجرذان الثلاثة، فتركت فريستها وانقضّت عليّ مكشّرة عن أنيابها.

لقد ولّى الزمان الذي كان فيه ظهورُ قطّةٍ يجعل الجرذان تفرّ تلقائياً. ولكنني لستُ من النوع الذي يستسلم لثلاثة جرذان صغيرة لا تساوي شيئاً وخرجتْ من مكانٍ مجهول: كان هانيبال قد علّمني الشاكوندو. أطلقتُ زئيراً تبيّن أنّه، وإن لم يكن زئير أسدٍ، قد أثّر بما فيه الكفاية لكي يوقف الجرذان التي هاجمتني. لم نصل بعد إلى الصرخة القاتلة، ولكننا وصلنا على الأقلّ إلى الصرخة الكابحة.

فانتهزتُ لحظة التردّد تلك، ووثبتُ على الجرذ الأقرب إليّ وغرزتُ مخالبي في عينيه، وفقأتهما مثل حبتي عنبٍ ناضجتين.

هذا الأسلوب هو أسلوبي أنا، شاء من شاء وأبى من أبى.

ثمّ، وقبل أن يتسنى للجرذ الثاني الوقت ليصيبني بأنيابه، مزّقتُ حلقه بالطرف الحادّ من أوّل مخلبٍ من مخالب كفي الأيمن، المخلب الأطول والأكثر حدّةً، وهو مخلبي الشهير الذي أستخدمه كسيفٍ.

أدرك الجرذ الثالث والأخير أنّه من الأفضل له ألّا يقترب منّي، فاختار أن يقاتلني بأسلوبٍ مختلفٍ: استخدم ذيله مثل سوطٍ، وراح يلفّ هذا الذيل الطويل جدّاً ويفرده إلى الأمام وهو يجلدني به. أحسستُ في الحال بألمٍ في خدّي، ولكن لحسن الحظّ حماني فرائي من ضرباته.

ضرب بذيله على الأرض لكي يؤثّر عليّ. في دروس الشاكوندو، لم نكن قد درسنا بعد درس الذيل -السوط في مواجهة المخلب- السيف، ولذلك اضطررتُ إلى أن أرتجل في مواجهته.

اختبأتُ خلف شُجيرةٍ، متظاهرة بالخوف، وحينما أطلق الجرذ حبله الوردي، تركته يلتفُّ على غصنٍ. خلال الوقت الذي انشغل فيه بتحرير ذيله، غرزتُ أظفري الحادّ في ذقنه وانتقلتُ إلى المنطقة الرخوة بين فكّيه حتى دغدغتُ سقف حلقه، وعبرتُ من خلاله وثقبتُ دماغه. تخلّى عن القتال في الحال، ثمّ أسلم الروح.

سترى، أجدادك من الجرذان ينتظرونك في الأعلى.

ثمّ استدرتُ نحو أنثى الصقر الجريحة، طريحة الأرض. كان أحد جناحيها ينزف دماً. وبدل أن تحاول الطيران، تقدّمت نحوي. خشيتُ أن

ترغب في مهاجمتي من جديد. وقد سبق أن تأكّدتُ من أنّ العرفان بالجميل ليس الشعور الأمثل توزيعاً في العالم.

مؤثُ:

- صباح الخير.

بالتأكيد لم تفهم أنثى الصقر عليّ، لكنّها نظرت إليّ بالتناوب بكلّ عينٍ من عينيها الموضوعتين على جانبي جمجمتها. نطقت شيئاً ما بلغتها التي بدا رنينها بالنسبة إليّ مثل تغريدٍ صارخ.

أردتُ التواصل معها ذهنياً وأوصلَ إليها تخاطرياً الرسالة التالية:

أنا أيضاً أمّ، وأنا أفهم ردّ فعلكِ. لقد تركتُ لكِ البيضة الأخيرة لكي تستطيعي المحافظة على نسلكِ.

رفعت أنثى الصقر رقبتها واستمرّت في إدارة رأسها لكي تنظر إليّ بالتناوب بين عينيها.

تُرى هل فهمتني؟

وسط الشكّ، قرّرتُ، حذرةً، ألا أتأخّر في البقاء وأن أستأنف السير في طريقي. ليس لديّ وقتٌ لأضيّعه إذا ما أردتُ العثور على رفيقيّ في الرحلة.

سرتُ على طول الضفّة بحثاً عن آثار الخطوات على الطين. فكّرتُ وأنا أتقدّم في مسيرتي.

بهذه الطريقة، أستطيع أن أتعاطف مع كائنٍ من جنسٍ ليس نفس جنسي بل أشعر بشيءٍ من الافتخار بإنقاذي لأحد أفراد هذا الجنس. هذه تجربتي الأولى مع الشفقة النشطة.

أعرف تماماً أنّ شيئاً ما قد تغيّر داخلي. لقد أدركتُ منذ تلك اللحظة أنّه، إذا أردتُ التواصل مع الطبيعة، عليّ أن أحبّ كلّ مخلوقاتها، حتى وإن لم تكن تلك المخلوقات مفيدة على نحوٍ مباشر بالنسبة إليّ.

أو بالأحرى، لكي أقول ذلك على نحوٍ أبسط، أعتقدُ أنّه ينبغي عليّ أن أحبّ الآخرين لا لشيء سوى أن أستطيع التواصل معهم بطريقة أفضل. والحال أنني حتى الآن لم أحبّ قط شيئاً ولا أحداً سوى نفسي. ولا حتى

أنجيلو. ولا حتى فيثاغورس. ولا حتى ناتالي. ولا حتى أمّي. لم أنظر إليهم إلا كأفراد قادرين على تعظيم متعتي الخاصّة. ومن جرّاء هذا التفكير، لم أكن أبالي بما يشعرون به.

لقد عذّبتُ فيثاغورس من خلال تذكيره الدائم بأنّ لا حقوق له عليّ. وعذّبتُ أنجيلو من خلال عدم تكريس ما يكفي من الوقت له. وعذّبتُ ناتالي بكوني لم أكن الحيوان اللطيف الأليف القريب من الدمية التي تمنّت أن تملكها.

حتى القطط والبشر الذين وثقوا بي ولحقوا بي إلى جزيرة المدينة يعانون الآن الجوع بسببي. في الحقيقة، أنا الأنانية والجاحدة.

وكلّما فكّرتُ في هذا الأمر أكثر، شعرتُ على نحوٍ أكبر بهذا الشعور الجديد، ألا وهو الشفقة. من جرّاء ذلك، تغيّر تصوّري لما يحيط بي: حتى الثعابين والرخويات والنمل والفراشات والذباب والبعوض أصبحت تبدو لي شيئاً مختلفاً عن الكائنات الغريبة التي لي الخيار في تناولها أو توفيرها.

وكما لو أنّ السماء أرادت أن تهنّئني على هذا الإدراك، أضاء شعاعٌ من الشمس فجأةً بقعةً من الأرض، الأمر الذي ساعد في إظهار آثار خطوات جديدة تشبه كثيراً آثار حذاءٍ إلى جانب آثار أقدام قطٍّ.

إنّهما في هذه الأنحاء!

بفضل وجبتي المنعشة المكوّنة من بيض أنثى الصقر، وجدتُ في نفسي الطاقة الكافية لكي أهرول متابعةً هذا الأثر. وبعد وقتٍ طويلٍ من الجري، افترقت آثار الأقدام البشرية عن آثار قوائم القطّ.

لا بدّ أنّهما غادرا في اتجاهين مختلفين لكي يبحثا عني بطريقة أجدى.

قرّرتُ أن أقتفي آثار قوائم القطّ. فأحسستُ حينئذٍ بضجيجٍ خلفي. استدرتُ وأصغيتُ. كان أحدهم يلحق بي.

هل يمكن أن يكون أحد الجرذان قد نجا؟

سرتُ بسرعةٍ أكبر. شعرتُ بأنّ منْ يلحق بي يقترب منّي. استدرتُ ورأيتهُ.

القطّ النرويجي! إنّ القدرة التي يمتلكها منْ يريدون التسبّب بالمشاكل لكم قدرة خارقة في العثور عليكم.

حدّبتُ ظهري متأهّبةً للقتال، وهو أيضاً فعل نفس الشيء. نفشتُ شعري، وهو أيضاً فعل نفس الشيء. كان حجمه ضعف حجمي. كانت هذه الحقبة صعبة بما فيه الكفاية أصلاً وفيها الكثير من الأعداء لئلا اضطرّ علاوة على ذلك لقتال قططٍ.

قفز القطّ النرويجي، وعضّ بقوّة كتفي وسحقني بوزنه. لم أستطع إرغامه على أن يُرخي قبضته عنّي. حصرني القطّ ذو الشعر الرمادي والأبيض بين قوائمه. وفي تلك اللحظة بالذات، رأيتُه «هو».

فيثاغورس. مؤتُ بكلّ ما أوتيتُ من قوّة:

– ساعدني!

ولكنّ القطّ السيامي ظلّ واقفاً في مكانه، كما لو أنّه تجمّد. آه كلّا، هذه ليست اللحظة المناسبة للنضال من أجل اللاعنف! صرختُ بأعلى صوتي:

– النجدة! يا فيثاغورس! افعل شيئاً!

أخذ القطّ الضخم الرمادي والأبيض مكانه فوقي بحيث كاد يخنقني ولم أعد قادرة على التحرّك.

صرختُ أخيراً:

– اهجم!

لكنّ القطّ السيامي واصل مراقبتنا، وهو في حيرةٍ: هل يقف مكتوف الأيدي أم يُقاتل؟

إنّها لحظة تغيير الذهنية، يا فيثاغورس. تأقلم مع هذا الوضع. افعل ذلك حبّاً بي.

كان عليّ أن أعثر على الكلمات المناسبة لكي أقنعه.

– لقد اتّهمت القطّ سفينكس بأنّه جبان. أثبت أنّك أشجع منه!

وأخيراً عقد القطّ السيامي العزم على أن ينقضّ على القطّ الذي يهاجمني والذي يبلغ ضعف حجمه. تلقّى ضربة من الكف، ولكنني استغللتُ انشغاله بذلك لأعضّه. وأصبحت المعركة أكثر توازناً بعد أن أصبح اثنان يواجهان قطّاً واحداً.

لم يضرب فيثاغورس بطريقة فعّالة جدّاً، ولكنّه تصرّف بكلّ جدّية وإخلاص ونجح في التشبّث برأس القطّ النرويجي، فأعماه مؤقّتاً.

انتهزتُ تلك الفرصة لأضربه على أسفل بطنه، الأمر الذي أفقده تركيزه للحظةٍ.

انهلنا على القطّ الضخم بضرباتٍ من قوائمنا، إلى درجة جعلناه يشارف على النفوق.

قلت:

- اقضِ عليه!

هنا أيضاً، تردّد فيثاغورس.

ألححتُ عليه:

- إذا كان قادراً على اللحاق بي لمسافةٍ بعيدة جدّاً، فهذا لأنّه خبيرٌ بارع في تقفي الأثر. لا نستطيع المجازفة بتركه يخبر قططاً أخرى. لا أحدّثك حتى عن القطّ الثالث الذي قفز إلى النهر - والذي قد يكون قريباً جدّاً من هنا، هو الآخر. يجب قتله، يا فيثاغورس.

قال القطّ السيامي، مستنكراً:

- أقتلُ قطّاً؟ لم يسبق لي قط أن فعلتُ هذا. هذا... أخٌ لنا.

- أخٌ أراد أن يسلّمنا إلى مخالب ألدّ أعدائنا.

- كان ينفّذ أوامر سفينكس ليس إلّا.

- إن لم نقم بتحييده ومنعه من الأذى، سوف تكون حيواتنا نحن في خطرٍ على نحوٍ مباشر.

تبّاً. لن أضطرّ إلى فعل ذلك بنفسي!

وإذ رأيتُ أنني لا أستطيع الاعتماد على رفيقي، العاطفيّ جدّاً بكلّ تأكيد، تكفّلتُ بدحر هذا التهديد بنفسي. أنا أقول لكم بنفسي إنني براغماتية. كان لديّ الكثير من المشاريع الكبيرة التي لم أشأ أن أشهد انهيارها بسبب قطٍّ من أبناء جنسي لديه مشاعر وأحاسيس.

قتلتُ ذاك القطّ الذي أراد قتلي. نظر فيثاغورس إلى مكانٍ آخر، كما لو أنّ عدم رؤية المشهد يعفيه من التواطؤ في الجريمة.

- لقد أحسنت صنعاً في التدخّل، إذ خشيتُ أن تدعني أُقتَل من قبل هذا القطّ النرويجي باسم مبادئك السلمية.

أجاب وهو يشيح ببصره على نحوٍ ظاهر عمّا تبقى من عدوّنا.

- أنا... أنا أعتقد أنّه من الأفضل لنا أن ننضمّ إلى ناتالي.

اتّصل مع ناتالي التي لم تتوانَ في الانضمام إلينا. ضمّتني بحرارة بين ذراعيها وغمرتني بالمداعبات وهي تردّد اسمي:

- باستيت! أوه، باستيت... باستيت.

تفوّهت بجمل عديدة بلغتها البشرية التي عبّرت، حسب تصوّري، عن سعادتها برؤيتي.

المسكينة، لا بدّ أنّها قد أوشكت على الموت قلقاً عليّ. بدا لي ما أظهرته من تأثّر منذ ذلك الحين واضحاً وصريحاً ألا وهو الشفقة. لعقت خدّها بلساني الخشن لكي أُظهِر لها أنني أنا أيضاً سعيدة بلقائها من جديد.

أمّا فيثاغورس، فقد بقي في الخلف، وعلى الأرجح بسبب خجله من عدم مساعدته لي بشكلٍ أسرع، وعدم امتلاكه الشجاعة في القضاء على خصمنا المهاجِم. ولكنني لم أنزعج منه. فقد كان قتاله ضدّ قطٍّ آخر بحدّ ذاته تحوّلاً كبيراً بالنسبة إليه.

لقد أنقذ حياتي.

ولأنّ كلّ هذا الذي جرى أتعبني بعض الشيء، تسلّقتُ على كتف خادمتي. مؤتُ لكي أُخبرها بأننا قد أضعنا الكثير من الوقت وأنّه ينبغي علينا أن نعثر على مساعدة لجماعتنا.

سرنا نحو الجنوب بمحاذاة ضفّة النهر وصادفنا فيلّا مهجورة أوينا إليها. تنقّلت ناتالي بين غرف الفيلّا ووجدت بعض المعلّبات وقدّمت لنا شيئاً ما، أسماه فيثاغورس فاصولياء باللحم، ثمّ نامت.

ولأننا بقينا وحدنا، فيثاغورس وأنا، سألته، وأنا محرَجَة بعض الشيء:

- هل لا تزال منزعجاً منّي بسبب «الحادثة» مع القطّ الفرعوني؟

قال، كاذباً:

- كلا.

حسناً، لا بدّ أن أجد شيئاً آخر لكي أُريحه.

- ذات مرّة، قرأتَ لي مقطعاً من موسوعة العلم النسبي والمطلق، عنوانه

«التعاون -المعاملة بالمثل- التسامح»، والذي كان يشرح أنّ الأسلوب الأجدى للتعامل مع الآخرين هو طرح التعاون بشكلٍ منهجي: إذا تعامل الآخر بطريقة مخيّبة للآمال، يجب التعامل معه بالمثل، ثمّ بعد ذلك مسامحته وعرض التعاون عليه من جديد. وبالتالي، يا فيثاغورس، أقترحُ عليك أن تسامح ومن ثمّ نستأنف التعاون.

قلتُ هذا وأنا أعرف تمام المعرفة أنّني لم أفعل أيّ شيء يستوجب المسامحة، ولكنني آثرتُ أن أتحدّث معه بلغةٍ يكون قادراً على استيعابها.

بدا متردّداً، فدبّ في الحماس وارتميتُ عليه وأرغمته على أن يمارس الحبّ معي كما لو أنني أنا الذكر. هناك بعض اللحظات، ينبغي علينا نحن الإناث أن نأخذ زمام المبادرة، وإلا قد نضطرّ إلى الانتظار طويلاً.

خضع لي واستسلم وأطاعني وبدا أنّه أحبّ أن أسيطر عليه وأتمكّن منه.

في الواقع، يتظاهر بأنّه صعب المِراس، ولكنّه ليس سوى مستسلمٍ سلبي.

لقد نلنا، نحن الاثنين، لذةً كبيرة وعلى نحوٍ متزامن تقريباً. كان هناك تفصيلٌ صغيرٌ وحيد مزعجٌ: في ذروة النشوة، راودتني فكرةٌ مشوّشة. تراءى لي الوجه الأملس للقطّ الفرعوني بعينيه الزرقاوين وأذنيه الواسعتين والعاليتين الورديتين اللتين كانتا شفّافتين تقريباً.

لماذا نتخيّل الذين يسيئون معاملتنا بدل الذين يحبّوننا؟ هذا أحد أكبر أسرار تفكير القطط. على أيّ حال، من جهتي، عليّ أن أعترف بأنّ الذكور الذين يُثيرونني هم الذين يتمنّعون عليّ.

حسناً، أعلم أنّ هذا ليس أمراً أخلاقياً كثيراً ولا مثيراً للتعاطف، ولكن الاعتراف به يُريحني قليلاً من هذا الانحراف في تفكيري. ثمّ، وليكن هذا سرّاً بيننا، وعليكم أن تعترفوا به، أنتم أيضاً مثلي، أليس كذلك؟

بالطبع لا أستطيع أن أصارح فيثاغورس بهذا. فهو ذكر، وأنتم تعرفون الذكور، إنّهم بدائيون. ما الذي قد يفهمه ذكرٌ من التفكير المعقّد لأنثى؟ فما بالكم بأنثى تتغيّر بسرعة مثلي!

نمنا وكلٌّ منّا يشعر بأنّ الأمور قد عادت إلى نصابها.

بيد أنني خفتُ من نفسي قليلاً. فقد أقلقني شعور الشفقة الجديد هذا. إذ لا ينبغي عليّ أيضاً أن أغدو لطيفة للغاية، وإلاّ فسوف أكون معرّضة لخطر أن أصبح مسالمةً مثل فيثاغورس، ثمّ أصبح متساهلة ومتراخية بدافع الكسل والخوف، إلى حدّ لا يعود أحدٌ، في النهاية، يحترمني.

32. التعاون -المعاملة بالمثل- التسامح

في عام 1979، نظّم روبرت أكسلرود، أستاذ العلوم السياسية الأمريكي، مسابقة بين بعض برامج الحاسوب المصمّمة لعمليات اتّخاذ القرار وفق الاستراتيجيات المختلفة.

تلقّى روبرت أكسلرود أربعة عشر برنامجاً مرسلاً من قبل زملائه الجامعيين (علماء رياضيات، فيزيائيين، علماء نفسيين، إلخ). كان كلّ برنامج ينصّ على قوانين سلوك، والهدف هو جمع أقصى عدد من النقاط. بعض البرامج كانت «شريرة» وكان قانونها يقوم على استغلال المرء لجيرانه بأسرع ما يمكن، والاستيلاء بالقوة أو بالحيلة على نقاطهم، دون إبداء أي تعاون على الإطلاق. وكانت برامج أخرى «لطيفة» أو تحاول أن تتدبّر أمرها وحدها، محتفظة فقط بنقاطها ومتجنّبة أيّ اتصالٍ مع تلك التي من المحتمل أن تقوم بسرقتها. وكان بعضها «متقلّبة المزاج»، تخون أو تتعاون بشكلٍ عشوائي.

اعتُرِض كلّ برنامجٍ مئتي مرّة من قبل المنافسين الآخرين.

وكان برنامج أناتول رابابورت هو الفائز الأكبر.

كان برنامجه يعمل وفق ثلاث قواعد بسيطة:

1) التعاون.

2) المعاملة بالمثل.

3) العفو.

أثناء اللقاء مع برنامجٍ آخر، كان يقترح في اللحظة الأولى إقامة

التحالف، التعاون. ثمّ كان يطبّق قاعدة المعاملة بالمثل: «الأخذ والعطاء». كانت تلك استراتيجية الذاكرة القصيرة: إذا ساعدَ الآخرُ، ساعدناه، وإذا اعتدى الآخرُ، لا بدّ من الاعتداء عليه في المقابل. كان هذا البرنامج قد لُخّص في العبارة التالية: «عقابٌ فوري، ولكن عفو غير مشروط».

خسر برنامج التعاون -المعاملة بالمثل- العفو في البداية أمام البرامج العدوانية، ولكنّه فاز في النهاية وأصبح أخيراً ناقلاً للعدوى، بقدر ما كان يتقدّم. في الواقع، حينما تبين أنّه أكثر فاعليةً في جمع النقاط، غيّرت البرامج الأخرى موقفها، من خلال الامتثال لموقفه. ودون أن يعرفا ذلك، وجد العالمان رابابورت وإكسلرود تفسيراً للمقولة الشهيرة «أحبّوا بعضكم بعضاً».

هذا لمصلحتكم على المدى الطويل.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

33. طقسٌ سيّئ

كانت أمّي تقول دائماً: «أيّاً يكن ما تفعلينه، تعرف الطبيعة المحيطة بكِ ذلك وسوف تُكافئكِ أو تُعاقبكِ على ما فعلتِه».

بصراحة، هذه عبارة جميلة جدّاً، ولكنني لا أؤمن بها. أنا أعتقد أنّ ما يفعله المرء يفعله لنفسه، وأنّ من مصلحة المرء ألا ينتظر أيّ شيء بالمقابل تحت طائلة أن يُصاب بخيبة الأمل أو الإحباط، وهما شعوران غير مرضيين على الإطلاق من وجهة نظري.

إذاً وفي حين كنتُ، في الأمس، فائقة الكرم بفضل فهمي الجديد للشفقة، فإنني الآن لستُ فخورة بذلك وأبقى كعادتي متواضعة وبسيطة.

استأنفنا السير في طريقنا منذ الصباح الباكر حتى نستفيد من الحرارة. وحتى إذا كنتُ، مثلما أخبرتكم بذلك، لا أنتظر أيّ شكرٍ من أيِّ كائن على تصرّفي البطولي، إلا أنني شعرتُ بأنّ الطبيعة أكثر اتّصالاً بي من ذي قبل

منذ حادثة أنثى الصقر. بدا لي أنّ كلّ هذه الأشجار الكبيرة والسراخس المنخفضة تشكرني على إبقائي على بيضتها الأخيرة ومساعدتي لها على النجاة حينما تعرّضت للهجوم.

إنّها تعرف. إنّها تعرف بكلّ تأكيد ما حدث.

سرنا في طرقٍ وعرة ودروبٍ متعرّجة ومسالك غزتها الأعشاب والحشائش. في لحظة ما، توقّفنا لكي نراقب من بعيد مشهداً: كانت عائلة ثعالب تستمتع بشعاعٍ من الشمس لكي تدفّئ فراءها. انحنت الأم لكي تلعق صغارها.

لم أرغب لا في قتالها ولا في الفرار منها. ففي النهاية، تشكّل الثعالب نوعاً وسطاً بين الذئاب والقطط، ولديها ميزة بسيطة تمنحني الرغبة فقط في... كيف يمكنني قول ذلك؟ في الإعجاب بها.

ثمّ فكّرتُ من جديد في ناتالي.

أغلبية الحيوانات كاملة الأوصاف بحيث لا تحتاج إلى التطوّر. كهذه الثعالب على سبيل المثال. ولكنّ الأمر مختلفٌ بالنسبة إلى البشر: لأنّ البشر غير كاملين وهم يعلمون ذلك لاشعورياً، لم يكفّوا عن السعي إلى التحسّن والتطوّر، ولذلك ذهبوا بعيداً جدّاً، وبسرعة كبيرة. وهكذا اكتشفوا النار، ولكن اكتشفوا أيضاً الثالوث الشهير الذي يشغل ذهني في هذه الأيام الأخيرة: الفكاهة والفنّ والحبّ. لقد نجحوا لأنّهم كانوا يتحرّكون بدافع حاجة ملحّة إلى البحث الدائم والمستمرّ وعدم الاكتفاء بما كانوا يمتلكون.

ربّما أدركت ناتالي، وهي أعزّ البشر عندي، أنني أفكّر فيها، فجاءت تداعب أسفل رقبتي بيدها اليمنى.

تابعي، أنا أحبّ هذا كثيراً.

سرنا طيلة الفترة الصباحية إلى حين أصبحت الشمس في كبد السماء.

– هل أنت بخير، يا فيثاغورس؟

طرحتُ عليه السؤال وأنا على كتف خادمتي.

لم يُجب وواصل الهرولة، فأردفت:

– لقد اكتشفتُ اكتشافاً من خلال إنقاذي لأنثى الصقر، لقد اكتشفتُ الشفقة.

لم يبدُ رفيقي قط متأثّراً بما قلت.

– سيكون أمراً حسناً أن تكتشفي اكتشافاً ليس حول ضرورة مساعدة الآخرين فقط، بل وحول احترامهم قبل كلّ شيء. البشر يسمّون هذا: «التهذيب».

هل يقصدني؟

– ما الذي ترمي إليه؟

– أجدكِ غير مهذّبة معي بعض الشيء.

– لقد سبق لي أن عرفتُ مبدأ التهذيب هذا، وأعتبره مبدأً ذاتياً.

– وماذا لو أننا بدأنا بالقول بعضنا لبعض «صباح الخير» في الصباح، و«إلى اللقاء» في المساء؟ أو «من فضلك» و« شكراً»؟

نزلتُ عن كتف خادمتي واقتربتُ منه. حككتُ رأسي بجذعه وأنا أمشي بجانبه.

– أنت تعلم، يا فيثاغورس، أننا أصلاً نقول كلّ هذا لبعضنا بطريقتنا كقطط.

– ولكن هذا ليس منهجياً. ثمّ إنّكِ تفتقرين إلى آداب السلوك: تتناولين الطعام بطريقة تلوّثين نفسكِ به، ويؤسفني أن أقول لكِ هذا، يا باستيت. تبتلعين الطعام سريعاً جدّاً، وتُصدرين أصواتاً صاخبة ودون أن تمضغي الطعام جيّداً.

– أنت منْ تقول لي هذا؟! حسناً، طالما أننا نتحدّث عن التهذيب واللباقة، دعني أذكّرك بأنّك ما إن تنتهي من تناول الطعام حتى تبدأ بالتجشؤ، هل هذا من التهذيب في شيء؟

– بالنسبة إلى قطٍّ، نعم. هذا أمرٌ طبيعي: هذا ليس سوى الهواء المنبعث من جرّاء تناول الطعام.

واصلنا النقاش حول ضرورة تهذيبٍ ذي نمطٍ إنساني في عالم القطط.

– هل تعتقد أنّه سينبغي علينا أن نقول لبعضنا «هنيئاً» قبل البدء بتناول الطعام؟

- نعم، بالتأكيد. هذا يعني: «أن تُفتَح مسالك جهازك الهضمي جيّداً». ثمّ ينبغي أيضاً أن نسأل: «كيف حالك؟»

- ماذا يعني هذا؟

- «كيف تسير عملية الهضم عندك؟» وتعني بالمعنى الحرفي: «كيف حال جسمكِ، هل لديكِ أمعاء مرتاحة أم إنّكِ تعانين من الإمساك؟»

- وهل هذا من التهذيب أيضاً؟

- أعتقد ذلك، طالما أنّ البشر يتخاطبون بهذه الطريقة. آه نعم، وأيضاً عندما يعطس أحدهم، يجب أن يُقال: «يرحمكم الله».

لكثرة ما انشغلنا بالحديث عن التهذيب، بدا لنا الطريق أقصر طولاً. وبدت خادمتي البشرية مرتاحة لكوني لم أعد على كتفها. وبعد مضي لحظةٍ، ظهرت أمامنا بعض المنازل.

اختبأنا خلف بعض الشجيرات لكي نراقبها. ناولتني ناتالي المنظار.

وضعتُ عينيّ أمام فتحتي المنظار، ورأيتُ من جديد ما يحدثُ في البعيد كما لو أنني قريبةٌ جدّاً منه.

لمحتُ ما يقرب من عشرة مساكن كانت تشكّل قرية صغيرة. لم أرَ فيها بشراً، ولا قططاً، ولا جرذاناً.

- أهي قرية مهجورة؟

قال فيثاغورس وهو يستنشق الهواء:

- أشمّ رائحة كلابٍ.

شممتُ بدوري وبالفعل شعرتُ بروائح كلابٍ.

تقدّمنا بحذر. وكلّما اقتربنا من المنازل، أرسل إليّ أنفي معلوماتٍ جديدة. حسب رأيي، كان هناك قطيعٌ من الكلاب يقرب عدد أفراده المئة. وقد أكملت آثار أقدامٍ على الأرض هذه المعلومات، وكشفت لنا أنّ بعض الكلاب تعرج.

- ماذا نفعل؟

أجابني فيثاغورس متغلّباً على مخاوفه:

- هيّا بنا.

- لقد فترت همّتي في الحقيقة بعض الشيء من جراء تجاربنا السابقة. سوف تلاحظ أننا نعاني من صعوبات كلّما دخلنا إلى مناطق حضرية مأهولة بقبائل من الحيوانات الغريبة. إذا كان حتى القطط أرادت أن تسلّمنا إلى العدو، فهناك احتمالات قوية أن تفعل الكلاب نفس الشيء. لا يمكننا أن نعلم إلى أيّ درجة تخاف الجرذان.

توقّف القطّ السيامي وهزّ رأسه بعنف، كما لو أنّه أراد أن يرجّ دماغه في جمجمته.

- ربّما لديّ خطّة.

- فقط ربّما؟

- *أنا* لديّ خطّة. ولكنني أفضّل أن أكشفها لكِ في اللحظة الأخيرة. ثقي بي. يجب أن نستخدم مزايانا التي تشكّل نقاط قوّتنا. مقابل الكلاب، لدينا ميزة الرؤية الليلية. ولذلك أقترحُ عليكِ أن نقوم بغزوة ليلية.

- لا أدري. ينتابني إحساسٌ سيّئ. أعتقد أنّه سيكون من الأفضل لنا أن نواصل السير في طريقنا لإيجاد حلفاء موثوقين أكثر.

لم يكلّف نفسه حتى عناء الاهتمام بملاحظتي.

بالطبع يكفي أن تأتي الفكرة من أنثى حتى يعتبر السيّد «القطّ السيامي الذي يعرف كلّ شيء» أنّها فكرة سيّئة. أضاف:

- من الصعب أن يكون هذا أسوأ من الطريقة التي عاملتنا بها قطط سفينكس.

استسلمتُ لوجهة نظره أخيراً، وقلت:

- ممتاز. ولكننا سنذهب إلى هناك وحدنا، أنت وأنا. تفوح من ناتالي رائحة قويّة وهي تثير الكثير من الصخب، كما أنّها لا ترى في الظلام. سوف يُكشَفُ أمرنا في الحال إن ذهبتْ معنا.

تناقش فيثاغورس مع خادمتي. وتبيّن لي أنّه كلّما أحدّق في عيني خادمتي البشرية أكثر، أنجح أكثر في فكّ لغز شخصيتها. مثل جميع البشر، هي لا تعرف حقّاً الكلاب، وتعتبرها حيوانات بسيطة مطيعة وودودة، وبالتالي تعتبرها حلفاء تلقائيين. لقد نسيت أنّ انهيار الحضارة البشرية أرغم الكلاب

على التفكير في أحوالها. لقد اضطرّت لمواجهة الجرذان وتحرّرت بالتأكيد من وصاية الإنسان.

انتظرنا إلى أن غابت الشمس وخيّم الظلام الحالك على كلّ شيء، ثمّ انطلقنا، فيثاغورس وأنا، في غارةٍ على قرية الكلاب هذه. ومع تزايد اقترابنا من القرية، انتابني خوفٌ شديد. سرنا في جادة واسعة تمرّ من وسط القرية وعلى جانبيها بيوتٌ قديمة من الخشب.

وجدنا الكلاب هناك ورأيناها بوضوح، تستلقي بعضها على الأرض، نائمة في الشارع.

فاحت رائحة كريهة لبولٍ غير بول القطط في الأجواء. وإذا كان بول القطط يفوح برائحة العشب الطازج، فإنّ بول الكلاب يفوح برائحة الخشب العفن. إنّه شعورٌ مزعجٌ للغاية. أحسستُ أنني في أرضٍ تفوح برائحةٍ تؤكّد لي أنني غريبة وأنّه سيكون من الأفضل لي أن أغادرها.

ومع ذلك واصلنا، فيثاغورس وأنا، تقدّمنا بخطوات خفيفة وصامتة حتى وصلنا إلى ما بدا لنا أنّه وسط القرية. كانت في الشارع كميات من الروث المقزّز.

لم أفهم قط كيف يمكن لنوعٍ من الأنواع أن يكون مجرّداً من الحشمة والحياء إلى حدّ أن لا يكلّف نفسه عناء إخفاء فضلاته. نحن القطط، نتمتّع باللطف والحساسية لكي نختبئ حتى نتبرّز، ثمّ نطمر برازنا، في حين يبدو أنّ الكلاب قد تخلّت على الأقلّ عن الحشمة والنظافة.

تفحّصتُ الفضلات، وتبيّن لي أنّها جديدة.

هذه الكلاب وصلت إلى هنا البارحة.

كانت الروائح والأبخرة المنبعثة من تلك النفايات تملأ الجوّ بالروائح النتنة وتجذب أسراب الذباب التي تبعث طنيناً مزعجاً.

جعلني صخبٌ حادّ أقفز من مكاني، وقد اكتشفتُ مصدره: أثناء نومه، بعث كلبٌ نفخةً من الغازات من بطنه، أثارت جهازي الشمّي بعد أن حرّكت جهازي السمعي. ثمّ أطلق الحيوان ذو الخدين المتدليين سلسلة من الغازات الخفيفة الثانوية الأقلّ شدّة في صوتها ورائحتها.

شعرتُ من جديد برغبة جامحة في الضحك. أدرك فيثاغورس سريعاً الخطر، فدفعني بقسوةٍ إلى زاويةٍ.

- كفّي عن هذا في الحال! سوف تتسبّبين في كشف أمرنا!

ترك واقع أنّ الضحك ممنوعٌ عليّ هنا تأثيراً معاكساً: ازدادت رغبتي في الضحك بشدّة. بيد أنني استطعتُ أن أتمالك نفسي.

قلتُ له بلهجة فيها شيءٌ من الأسف:

- ماذا يحدث لي؟ لكوني قطّة، لا يُفترَضُ بي أن أجيد الضحك!

- نستطيع أن نضحك، كلّ ما في الأمر أننا لم نفعل ذلك حتى الآن لأننا معتادون على أن نأخذ كلّ شيء على محمل الجدّ. هذا يُبرهن على أنّكِ، من الآن فصاعداً، لم تعودي مجرّد قطّة فحسب.

- ما الذي تقصده بهذا الكلام؟

- أعتقدُ أنّكِ تتوجّهين نحو الأنسنة على نحوٍ متسارع.

كان على حقٍّ في ملاحظته. أنا فخورةٌ بتصرفاتي الإنسانية، ولذلك لا أقمعها أو بالأحرى لا أُحسنُ قمعها. لحسن الحظّ لم توقظ ضحكتي المكبوتة أحداً. أعتقد أنّ نوم الكلاب أعمق من نوم القطط.

كانت الكلاب تشخر من حولنا. ومن جرّاء ذلك، استرخيتُ وارتحتُ قليلاً، وتابعنا تقدّمنا في قرية الكلاب وبدا لي أنني أستطيع أن أتناقش براحةٍ أكبر مع صديقي.

- هل يمكنك أن تحدّثني قليلاً عن تاريخ الكلاب؟

- في الأصل، للكلاب والذئاب سلفٌ مشترك، لا بدّ أنّه يشبه الذئب أكثر من الكلب. ومن خلال الاحتكاك مع البشر، منذ أكثر من خمسة عشر ألف سنة، بدأ شكل الكلاب يتغيّر.

- بالنسبة إلينا نحن القطط، الأمر أكثر حداثة إذا ما كنتُ أتذكّرُ جيّداً. منذ عشرة آلاف سنة، هل هذا صحيح؟

- لا بدّ أنّ هذا الفارق الذي يقرب خمسة آلاف سنة هو الذي خلق هذا الاختلاف في العلاقة التي تقيمها الكلاب مع البشر: صلتها مع البشر أقدم

من صلتنا بهم. فضلاً عن ذلك، خلال هذه المدّة من الزمن، اختار البشر الكلاب، وجعلوها تتكاثر لكي يحصلوا على حيوانات من السهل تدجينها وتحويلها إلى حيوانات أليفة. ونتيجةً لذلك، لم تعد الكلاب مخلوقات متأقلمة مع الطبيعة، وإنّما أصبحتُ تولَد فقط لتعيش مع البشر.

من جديد، سمعتُ صخباً حادّاً. استغلّ فيثاغورس ذلك لكي يوضّح ما عرضه:

– على سبيل المثال، هذا البولدوغ الفرنسي لديه جهازٌ هضمي قصيرٌ للغاية...

– من أين يصدرُ هذا الصوت غير المُستساغ؟

– لا يمكنه أبداً أن يمتنع عن إصدار هذا الصوت. وستكون حياته أقصر من حياة أسلافه البريين.

أصدر كلبٌ آخر، كان هو الآخر نائماً، صوتاً يكاد يكون مماثلاً للصوت الذي سبقه، وهذه المرّة على يميني.

أوضح رفيقي بنبرة العالم بالأمور، والذي ظلّ نهماً في عرض معارفه:

– إذا كان البولدوغ الفرنسي يضرط بصوتٍ منخفضٍ جدّاً، فإنّ هذا الكلب الألماني القصير الوبر يفعل ذلك بنغمة العلامة الموسيقية (فا) العالية.

وأشار إلى كلبٍ آخر كان نائماً.

– أمّا ذاك الكلب، فهو بكيني. له خطمٌ قصيرٌ جدّاً، ولذلك يشخر.

وأبعد من ذلك المكان، رأيتُ كلباً آخر نائماً بطريقة تبدو غريبة: كان منبطحاً فوق كتلة بطنه وحتى قوائمه لا تلامس الأرض.

– هل هذا أيضاً تأقلمٌ مع الإنسان؟

– في الواقع، بعض الكلاب أصبحت بدينة لأنّها لا تصطاد، ولا تركض بما فيه الكفاية، وتمضي أيامها بلا حراكٍ وهي تتناول الطعام. وفي النهاية، تصبح على هذه الحالة التي نراها.

من جديد، راودتني رغبة خفيفة في الضحك. ولكن، هذه المرّة لم أستطع أن أحتويها. وكانت النتيجة مباشرة: فتح كلبٌ عينيه. اقترب منّا. كان خطمه رفيعاً وجسده الأسود بالكامل رشيقاً.

أوضح لي فيثاغورس:

- هذا كلب دوبرمان.

زمجر واقترب منّا. وسرعان ما ظهرت لنا قرابة عشرة كلابٍ أخرى جميعها أكبر حجماً من سابقها من كلّ حدبٍ وصوب. اقتربت تدريجياً مكشّرة عن أنيابها.

- والآن، ما هي خطّتك، يا فيثاغورس؟

- اهربي!

خلال الثواني التي تلت، وجدنا، أنا والقطّ السيامي، أنفسنا ونحن نهرول بأقصى سرعة في الجادة الرئيسية للقرية، ويلحق بنا الدوبرمان والكلاب الأخرى وهي تنبح بغضبٍ جنوني. وفي النهاية، علقنا في طريقٍ مسدودٍ، فلم يعد بوسعنا التقدّم. حاصرتنا الكلاب جميعها.

فكان عليّ أنا مرّة أخرى أن أرتجل التصرّف وأُنقِذَنا من هذا الموقف الحرج. لنكن منهجيين، ولنطرح الأسئلة المناسبة:

ما الذي يميّزنا عن الكلاب؟ نحن نستطيع أن نرى في العتمة، بكلّ تأكيد. وماذا غير ذلك؟

نحن نجيد تسلّق الأشجار! دعوتُ رفيقي، وأنا أشيرُ إلى شجرة كستناء:

- اصعد إلى الشجرة!

لم أحتج إلى تكرار ذلك. بفضل مخالبنا، تشبّثنا بلحاء الشجرة الطري ونحن نشعر بأنّ أنياباً قاطعة لا تعرف الرحمة تطقطق على مقربةٍ من ذيلينا.

إلا أنّ بعض الكلاب نجحت في تسلّق جذع الشجرة قليلاً. صعدنا إلى الأغصان الأكثر علوّاً في الشجرة، وبالتالي الأكثر رقّة، لكي نكون بمنأى عن الهجوم.

أمّا في أسفل الشجرة فازداد النباح غضباً وشدّةً على نحوٍ متزايد. ذكّرني هذا الموقف بالذي تعرّضنا له ذات مرّة وأُنقذنا بفضل عمود مصباح الشارع.

الحياة تُعيدُ نفسها، وحده العلوّ الذي نقف عليه يختلف.

انحنى فيثاغورس نحوي، وهمس:

– مع ذلك، هل يمكنكِ أن تشرحي لي لماذا نمتِ مع القطّ الفرعوني سفينكس.

كذبتُ وقلتُ:

– لأنّه جميل.

الأمر لا يحتاج حتى إلى أن أكلّف نفسي عناء أن أشرح له بأنّ الأفراد لم يخلقوا لكي يمتلكوا بعضهم بعضاً، وبأنّهم خلقوا ليكونوا أحراراً... حتى إذا كانوا أزواجاً. سيكون عليّ أنّ أعلّم هذا لابني أنجيلو حتى لا يُزعج رفيقاته في المستقبل.

في الأسفل، ظلّ ضجيج النباح يتزايد باطّراد. أصبحت حياتنا متعلّقة بصلابة الأغصان الرفيعة التي نجثم عليهامكتبة سُر مَن قرأ

– وهل كان ذلك ممتعاً؟

في نهاية المطاف، إذا ما كرهني، سيكون غيابي أقلّ صعوبة بالنسبة إليه. قلتُ:

– حينما لا يكون هناك أيّ شعر، يكون الأمر مختلفاً. في البداية، يكون ذلك مفاجئاً، ثم نعتاد على ذلك.

ابتلع ريقه، ثمّ قال:

– حقّاً؟ وهل استمتعتِ معه أكثر من استمتاعكِ معي؟

– ربّما لو أنّك تحلق شعرك، سيصبح جسمك في الواقع أكثر... نعومةً. أنت الذي ترغب كثيراً في أن تتأنسن، اعترف بأنّ الذكور من البشر حينما يحلقون ذقونهم يصبحون أكثر نظافةً.

ورغم اكتشافي للشفقة، فإنّه، في تلك اللحظة، ولأسباب غامضة، عاودتني الرغبة في التصرّف بلؤم. لطالما اعتبرتُ أنّه من الأفضل للمرء أن يكون جلّاداً على أن يكون ضحية، وفيثاغورس أزعجني وأغضبني بغيرته شبه البشرية، وبالتالي، وعلى الرغم من اللحظة الحرجة التي كنّا نمرّ بها، أراحني أن أصبّ جام غضبي عليه وساعدني ذلك في أن أهوّن على نفسي الوضع الحرج الذي كنّا فيه. استأنف حديثه، وقد بدا واضحاً أنّه تأثّر بكلامي:

– لم يسبق لكِ قط أن وثقتِ بي تماماً، أليس كذلك، يا باستيت؟ لماذا؟ هل لأنني مختلفٌ عن الآخرين بوجود عيني الثالثة، هل هذا هو السبب فعلاً؟

حاولتُ أن أفكّر بموقفٍ نبيلٍ رغم ضجيج النُباح المدوّي في أسفل الشجرة.

– بدل التفوّه بهذه التُرّهات، أجبني: برأيكَ كمْ من الوقت يمكننا أن نصمد على هذه الأغصان؟

– يومٌ واحد في الحدّ الأقصى. بعد انقضاء هذه المدّة، مع التعب الذي سيصيبنا، سيكون هناك خطر أن ننام ونفقد ردود فعلنا المتوازنة.

ارتعدتُ. أرعبتني كلّ تلك الكلاب الغاضبة في الأسفل.

قلتُ:

– سنكون قد خضنا مغامرات استثنائية معاً. من المؤسف أننا لم ننجح في إنقاذ أصدقائنا في جزيرة المدينة.

بحث هو أيضاً عن موضوعٍ للحديث عنه لإيجاد تسليةٍ.

– أعتقد أننا نُعرّف بمشاريعنا الشخصية.

– أنت محقٌّ، يا فيثاغورس. بالنسبة إليّ، مشروعي هو التواصل، أمّا أنت، فمشروعك هو المعرفة.

– مشروع أسميرالدا هو أن تكون أمّاً ناجحة.

– ومشروع فولفغانغ هو التلذّذ بالأطعمة الشهيّة.

– ومشروع هانيبال هو أن يُعتبَر قطّاً عاديّاً.

– ومشروع تيمورلنك هو غزو العالم وتثبيت حكم الجرذان.

– ومشروع القط سفينكس هو أن يكون آمناً في برج الماء خاصّته.

– ومشروع ناتالي هو أن تعيد بناء العالم قبل الانهيار.

– وباتريسيا هي الأخرى تريد أن تتواصل مع أشكالٍ أخرى من الحياة.

– ومشروع أنجيلو هو التنفيس عن الغضب من خلال ممارسة العنف.

وفي اللحظة التي لفظتُ فيها هذه الكلمات الأخيرة، فكّرتُ بالتحديد في صغيري أنجيلو. ربّما سأكون بالفعل أمّاً غير صالحة حتى النهاية. سأموت حتى دون أن أقول له إنني كنتُ أحبّه. في الواقع، لم أقل لأيّ كائن إنني

أحببته، وذلك لسببٍ وجيهٍ وهو أنّ فكرة الحبّ لم تتوضّح لي قط حتى تلك اللحظة. ولكنّ اكتشاف الشفقة جعلني أفكّر في سدّ هذه الفجوة.

حرصتُ على ألا أُخبر فيثاغورس بذلك (لأنّه كان من شأن ذلك أن يسعده كثيراً ولأنني كنتُ أرى حتى تلك اللحظة أنّه لا يستحقّ ذلك)، ولكنني قلتُ في نفسي إنّه سيكون عليّ أن أتساهل قليلاً، من ناحية المشاعر.

ربمّا تكون للبشر، وحسب القليل الذي رأيتُ منهم (بفضل ناتالي وخطيبها السابق، توماس الخسيس)، حياة جنسية بائسة، ولكن لديهم هذه النزعة الغريبة في أن يكونوا طافحين بالمشاعر. ويتجلّى هذا في طرائق الحديث والمداعبة والنظر بعضهم إلى بعض بحيث أنا بنفسي، كقطّة، أحسّ بقوّتها بكلّ حواسي. تتوسّع حدقة عيونهم وتبتسم أفواههم ولا يعودون يرفعون عيونهم بعضهم عن بعض أبداً.

أمّا نحن القطط، فلا نفعل هذا أبداً.

في بعض الأحيان، يقعون في هذه الحالة ولا يمارسون الحبّ حتى. ويبدو أنّ هذا يُشبع رغباتهم رغم كلّ شيء.

علاوة على أننا نحن القطط نعتقد أننا أكثر ذكاءً منهم، في حين قد نكون، في نهاية المطاف، مخطئين وأنّ البشر هم الذين يمكنهم أن يعطوا دروساً لنا. دروساً حول الشفقة، وحول سبل إظهار المرء حبّه للآخرين.

حسناً، أنا أهذي لأنني خائفة.

مرّ الوقت، ولم تتعب الكلاب. بالمقابل، أنا التي تعبت. خشيتُ أن أنام وأسقط بين أشداقها التي يسيل منها اللعاب. فأرغمتُ نفسي على ألا أعود أسمع نباحها الهستيري. ومرّة أخرى راودني هذا الإحساس بالشفقة، وهذه المرّة حيال فيثاغورس، هو الوحيد الذي أبقاني يقظةً.

هل أحبّه؟

آه كلا! لم يعد ينقصني سوى أن أقع في حبّ هذا القطّ السيامي المغرور.

34. سكاننا الصغار

عرض عالم الأحياء الأمريكي ريتشارد دوكينز، مؤلّف كتاب الجين

الأناني، نظرية مبتكرة: الفيروسات أو البكتيريات أو الطفيليات أو الديدان الطفيلية التي تعيش داخل أجسامنا تؤثّر على سلوكياتنا دون أن نُدركَ ذلك. هذه الجسيمات الدقيقة، المختبئة في أعماقنا أو في خلايا جسمنا، لديها مشاريع لنا، نستجيب لها رغماً عنّا. ومن جرّاء ذلك، إذا كنّا نقوم في بعض الأحيان بأفعال غير مفهومة، فذلك لأنّ هؤلاء السكان غير المرئيين يعتزمون استخدامنا لكي ينتشروا على نحوٍ أوسع.

لقد اكتشف دوكينز، على سبيل المثال، أنّ المرضى المصابين بالزُهري –وتسبّبه بكتيريا– لديهم رغبة أشدّ في إقامة العلاقات الجنسية ممّا لدى الأشخاص الأصحّاء. وقد استنتج من ذلك أنّ البكتيريا المسبّبة للزُهري كان لديها مشروعٌ في أن تنتشر على أوسع نطاقٍ ممكن، الأمر الذي يشجّعه تعدد العلاقات الجنسية لحاملي هذه البكتيريا.

عند النمل، تسيطر المتورقة الكبدية، وهي دودة دقيقة يتناولها النمل عرضياً، على دماغها. أوّل ما تدخل المتورقة الكبدية إلى جسم النمل توقظ النملة المستضيفة لها في الليل وتحوّلها إلى زومبي، إلى درجة أنّها تقف على قمّة الأعشاب بانتظار أن تُلتَهَم من قبل الخراف. بفضل هذا، تستطيع المتورقة أن تواصل تطوّرها في الجهاز الهضمي للماشية، وتتكاثر بذلك.

في حالة القطط، سيكون الضيف غير المرغوب فيه الذي يسعى إلى الانتشار والتفشيّ هو داء المقوّسات. في الحقيقة يحمل القطّ هذا الطفيلي (المقوّسة الغوندية) الذي يطرحه مع برازه وبوله. وكان ياروسلاف فليجر، الاختصاصي في علم الطفيليات، قد أثبت أنّ لدى الجرذان نفورٌ طبيعي من رائحة بول القطط، ولكن ما إن تبتلع طفيلي المقوّسة الغوندية، تصبح على العكس من ذلك منجذبة بشدّة إلى هذه الرائحة، الأمر الذي سمح للقطط بأن تصطاد الجرذان المصابة بسهولة أكبر بكثير قبل أن تأكلها، وبالتالي تسهل عملية تكاثر هذا الطفيلي.

أما فيما يتعلّق بالبشر، من المعروف أنّ طفيلي داء المقوّسات هو

طفيلي لا يُظهر أي عرض ظاهرٍ، ولكن يمكنه أن يشكّل خطراً على المرأة الحامل، بما أنّه قد يؤدّي إلى اضطرابٍ في نموّ جنينها. وحتى الآن ليس هناك أيّ لقاحٍ مضادٍ لطفيلي داء المقوّسات ولا أيّ دواء للمعالجة منه.

بيد أنّ دراساتٍ أخرى للبروفيسور فليجر أثبتت أنّ هذا الطفيلي كان يغيّر أيضاً سلوك مستضيفيه من البشر. تماماً مثل الجرذان، سيكتشف البشر المصابون بطفيلي داء المقوّسات (ويُعتقَد أنّ هذه هي حال أكثر من 30% من البشر) أنّ حساسيتهم الشمّية قد تغيّرت: يجدون أنّ رائحة بول القطط ممتعة، وينجذبون إليها بشكلٍ غير طبيعي ويجدون صعوبةً في الامتناع عن مداعبتها.

كما أنّ هناك تأثيرٌ آخر غريب ألا وهو أنّ المصابين بطفيلي داء المقوّسات يميلون أكثر إلى المجازفة.

هذا ما اكتشفه البروفيسور فليجر، عام 2002، خلال إجرائه دراسة حول سلوك الشخص أثناء قيادته للسيارة: اكتشف أنّ الأشخاص المصابين بطفيلي داء المقوّسات يقودون السيارة بسرعة أكبر وعدد الذين يتعرّضون لحوادث السير بينهم أكبر بثلاثة أضعاف من عدد الأشخاص الأصحّاء.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

35. وكرٌ فوق شجرة

تمرُّ علينا أيامٌ نقول لأنفسنا خلالها إنّه من الأفضل لنا أن نبقى نائمين. إلا أنني، في ذلك الصباح، لم أكن نائمة بالفعل، وإنّما معلّقة في حالة من التوازن الهشّ في أعلى غصنٍ من شجرة.

سوف توافقونني الرأي على أنّه ليس المكان المثالي للراحة. هذا ناهيكم عن أنّه، تحتنا، كان لا يزال قطيع الكلاب ينبح بلا هوادة.

مؤثٌ:

- هيا، إلى النوم! هيّا إلى الوجار!

أطلق فيثاغورس تنهيدةً.

- وفّري لعابكِ، نحتاج إلى الحفاظ على كلّ طاقتنا لكي نصمد لأطول وقتٍ ممكن. تنفّسي بشكلٍ كافٍ حتى لا تُصابي بتشنّجات.

ارتفعت نبرة النباح أكثر. وأنا أحاول أن أحافظ على توازني فوق غصن شجرة الكستناء، سألتُ:

- ألا تتعب هذه الكلاب من النباح؟

- إنّها تتناوب على الحراسة. أُنظري جيّداً، إنّها ليست نفس الكلاب التي كانت هنا، البارحة مساءً.

- ماذا كان عسى الإنسان الذي يحمل نفس اسمك أن يفعل في هذا الوضع الذي نحن فيه الآن؟

- هل تقصدين إن كان الفيلسوف فيثاغورس جاثماً على أعلى غصن الشجرة لكي يفلت من كلابٍ تريد أن تمزّقه إلى أشلاء؟ حسناً، أعتقد أنّه كان سيطلب النجدة.

أحسستُ فجأةً أنّ شيئاً ما يتفتّقُ في ذهني.

- ولكن لماذا لا تتّصل مع ناتالي؟

نحن غبّيان. أنا غبيّة. ربّما الخوف والفزع منعنا من التفكير بصفاء ذهن. لم نفكّر قطّ في البشر. كنّا قد نسينا، نحن الاثنين، مرّة أخرى خادمتي. خلال اللحظات التي تلت، تحادث فيثاغورس مع ناتالي، ثمّ التفت نحوي، مطمئناً.

- كانت تنتظر نداءنا وقلقة بشأننا. إنّها في طريقها إلينا الآن.

في الحقيقة، رأيتُ كائنتنا البشرية المفضّلة وهي تتقدّم في الشارع الذي أضاءه أخيراً ضوءُ الشمس المشرقة في الصباح. كانت طلّتها رائعة. وإذ تفاجأت الكلاب بهذا الشبح المنتصب على قدمين، أوقفت صخبها وجاءت بعضها تشمّها وهي تهزّ ذيلها. بدت خادمتي مهيبةً بشعرها الأسود، واقتربت من شجرة الكستناء بمشيتها الرشيقة. شممتُ من بعيد رائحتها الطيّبة. أوحى كلّ شيء في سلوكها بالاحترام. كم كانت جميلة.

تردّدت الكلاب، المتفاجئة بظهورها، ثمّ ابتعدت عن طريقها. كانت سنواتٌ من الخنوع عند أصحابها قد ولّدت عند الكلاب سلوكاً من الخضوع التلقائي.

صرخت ناتالي منفعلة وهي تُشير عليّ أن أنزل من الشجرة:

- باستيت!

قفزتُ من الشجرة واستقبلتني بين ذراعيها المفتوحتين. فعل فيثاغورس الشيء ذاته. التزمنا الحذر، فبقينا جاثمين على كتفيها.

توقّف النباح والهمهمات تماماً. تحدّثت ناتالي بلغتها إلى الكلاب.

«منبطحاً - هيا منبطحاً!»

أعتقد أنّها فهمت نبرات صوتها وانفعالاتها، حتى وإن لم تُدرك معنى الكلمات التي تفوّهت بها.

تكلّمت وتفوّهت بكلمات أخرى. أصغت إليها الكلاب بانتباه، وهزّت ذيولها بطريقة استفهامية. سألتُ فيثاغورس:

- ماذا تقول لها؟

- أعتقد أنّها تحاول أن تعرف زعيم القطيع.

- وهل تعتقد أنّها ستفهم ما تُريده؟

- لكثرة عيشها بجانب البشر، تفهم الكثير من الكلاب لغتهم بطريقتها الخاصّة. بل يبدو أنّ بعض الكلاب تستطيع أن تفهم أكثر من مئتين وخمسين كلمة من اللغة البشرية.

بعد أنّ خفّ خوفي من الكلاب، راقبتها على نحوٍ أفضل. لاحظتُ أنّ الكلاب تختلفُ في أحجامها وأوزانها، مثلما تتباين في طول أذنابها وألوان فرائها. كما لاحظتُ أنّها تحمل بعض العلامات على خطومها، افترضتُ أنّها من آثار معاركها في مواجهة أنياب الجرذان. وكانت بعض الكلاب قد فقدت إحدى قوائمها.

وأخيراً، تقدّم كلبٌ ذو فراءٍ طويل باللونين الأبيض والأسود. ابتعد الجميع من أمامه لإفساح الطريق له. همستُ باتجاه فيثاغورس:

- من أيّ سلالة هذا الكلب؟

- هذا من سلالة بوردر كولي. إنّه كلبٌ من أصولٍ إسكتلندية استُخدِم في السابق حارساً لقطعان الماشية. إنّه يُعتبَر (على الأقلّ وفق المعايير البشرية) الكلب الأكثرُ ذكاءً، ويفهم أكثر من سواه معاني الكلمات كما أنّه الأسهل استجابةً للترويض وخاصّة في عروض السيرك.

وقف البوردر كولي على مسافة قصيرة من خادمتي. زمّ شفتيه، في إشارةٍ إلى هجومٍ محتَمَلٍ.

راقبته حسب معاييري. كان ذيله مضموماً تحت بطنه لكي يحمي نفسه، وأذناه منتصبتين إلى الأمام لكي يستشعر بهما أدنى حركة. عندنا نحن القطط، هذان التصرفّان يعنيان أننا في أمانٍ، أمّا عند الكلاب، فتعنيان أنّها جاهزة للهجوم.

جثت ناتالي على ركبتيها ومدّت يدها، وكفّها مدارٌ نحو الأعلى. لقد شرحت لي أمّي ذلك من قبل: «هذه حركة ترحيب. حينما يمدّ البشر أيديهم إلى الأمام، وهي مرفوعة وراحتها مُدارة نحو الأسفل، هذا يعني سعيهم إلى إقامة علاقة أو إشارة إلى أنّهم هم المسيطرون».

تردّد البوردر بولي للحظةٍ، ثمّ أرخى ذيله وأخفض أذنيه. وغيّرت كلّ الكلاب سلوكها تماماً منذ تلك اللحظة. حتى إن أحد تلك الكلاب جلب ليس كيساً جديداً تماماً من الأطعمة الخاصّة بالكلاب. شممتُها وعرفتُ أنّها أطعمة معدّة من لحم الدجاج وأعشاب بروفانس المجفّفة. وبينما كنتُ أتناول تلك الوجبات الخفيفة، جاء أحد الكلاب، وحينما اكتشف جرحي الناجم عن مشاجرتي مع أنثى الصقر، راح يلعقه. في البداية، توجّستُ وتراجعتُ إلى الوراء.

همس فيثاغورس:

- دعيه يفعل ذلك، فلعابُ الكلب معقِّمٌ.

واصل البوردر كولي وناتالي التحاور بطريقتهما وبدا أنّ الكلب قد فهم ما تريده ناتالي، إذ إنّه، بعد برهةٍ، بدأ ينبحُ بنبرةٍ مختلفة وراح يهرول نحو وسط القرية. تحمّس من تلقائه، ولهث مُخرِجاً لسانه الطويل الوردي ونبح بصوتٍ منخفضٍ. بدا متلهفاً.

قال فيثاغورس:

- يُريدُ أن نسير في إثره.

فغادرنا قرية الكلاب بعد أن عبرنا صفّاً مزدوجاً من الكلاب المنبهرة بنا. بدأت الكلاب كلّها تنبح، كما لو أنّها تودّعنا.

- في النهاية، كانت الكلاب أكثر ودّية نحونا من القطط، يجب أن أعترف بذلك. ربّما أسأتُ الحكم عليها.

- هناك حكمة بشرية تقول: «وحدهم الأغبياء لا يغيّرون رأيهم». حسناً فعلتِ بمراجعة أحكامكِ المسبقة بشأن الكلاب، يا باستيت.

في اللحظة التي غادرنا فيها رفاقنا الكلاب، حاولتُ أن أنبحَ بالفكرة التالية: *أنتم كلاب ولكن رغم ذلك أحترمكم*. نبحت بعض الكلاب بالمقابل، وذلك بكلّ تأكيد للإشارة إلى نفس الفكرة.

سرنا مع الدليل الوحيد وهو البوردر كولي. جعله شيءٌ ما لطيفاً بالنسبة إليّ، ولكنني لم أنجح في معرفة هذا الشيء. بعد مرور وقتٍ قصير، وصلنا إلى المكان الذي أراد أن يقودنا إليه. رأينا المكان محاطاً بسياجٍ من الأسلاك المعدنية الشائكة، تتخلّله أبراجٌ صغيرة. وخلف ذلك السياج، لمحنا سكاناً. فاحت رائحة أقدامٍ بشرية.

بعد قصر فيرساي، القصر المأهول بالجرذان، وبرج المياه المأهول بالقطط، وقرية الكلاب، ها هي مجموعةٌ من المنازل المأهولة بـ... البشر.

نبح البوردر بولي وهو يهزّ رأسه. تحدّثت ناتالي إلى فيثاغورس الذي شرح لي:

- لقد تعرّفتْ على المكان. تقول إنّ هذه جامعة أورسيه، التي تضمّ العلماء الأكثر خبرةً في مجال العلوم.

- ممتاز. لقد ضقتُ ذرعاً بمصادفة كائنات لا تفكّر.

وفي نفس اللحظة التي تفوّهتُ فيها بهذه الكلمات، قلتُ في نفسي إنني جائرة. في الواقع، قابلتُ مؤخّراً الكثير من الحيوانات الذكية بشكلٍ ملحوظٍ، بدءاً بهذا الكلب الذي قادنا إلى هنا.

36. ذكاء الحيوانات

حسب المعايير البشرية، الحيوانات الأكثر ذكاءً تأتي وفق الترتيب التالي:

1. الشمبانزي. يجيد الشمبانزي استخدام الأدوات، مثل استخدام عصا للبحث عن حشراتٍ في لحاء شجرةٍ. بل يُجيد صنع أدواتٍ، والتواصل بلغة الإشارة. كما يُجيدُ ربط رسومٍ بأشخاصٍ أو أشياء. ويُجيدُ الشمبانزي الانتظام في مجموعةٍ ما يشبه قبيلةً. ويلجأ شمبانزي البونوبو إلى الحياة الجنسية لتخفيف التوتّرات مع الآخرين.

2. الدلفين. يتمتّع الدلفين بحياةٍ اجتماعية، ويستطيع أن يضع استراتيجية مع دلافين أخرى لمحاصرة سربٍ من الأسماك بالطريقة الأكثر فاعليةً. وهو يحب اللعب واللهو. ويستخدمُ لغةً معقّدة جدّاً يستطيعُ من خلالها تسمية كلّ فردٍ بشكلٍ خاصّ، حسبما يعتبر الآخر أرقى أو أدنى منه. يستطيع أن يفهم مفاهيم مثل «اللمس»، «داخل»، «خارج»، «يسار»، «يمين». كما يُمكنه أن يبتكرَ ألعابه الخاصّة ويُعلّمها للبشر.

3. الخنزير. يطوّر الخنزير قدراته الاجتماعية بسهولة. إنّه يعرف ما هي المرآة ولديه وعيٌ بذاته كفرد. يتعلّم بسرعة ويصحّح أخطاءه. يُجيد ابتكار الألعاب ويرتاح بممارستها. ويستطيع الانتظام ضمن مجموعة. يحبّ عائلته ويحميها، ويُربّي صغاره. ويمكنه أن يُمسك بفتحة أنفه بغصنٍ ويستخدمه كأداة، لكي يمارس على سبيل المثال دور رافعةٍ.

4. الفيل. الفيل حيوانٌ قادرٌ على تطوير قدراته الاجتماعية، وهو مندمجٌ في مجتمعٍ تراتبيٍّ حول أنثى مسنّة مُهيمنة. الفيل حيوانٌ غير أناني ومن صفاته الإيثار، ويمكنه أن يساعد الأكثر ضعفاً. كما يمكنه أن يتعرّف على نفسه في المرآة وأن يستخدم غصناً كأداةٍ. وتُقيم مجموعة الفيلة شعائر معقّدة حينما يموتُ أحد أفرادها.

5. الغراب. في الفترة التي يكون الغرابُ فيها فتياً يعيش ضمن مجموعةٍ من أبناء جنسه من نفس السنّ. ويشغل كلّ غرابٍ من المجموعة مركزاً محدّداً فيها. وحينما يصل إلى سنّ البلوغ، يستقرّ الغراب في حياةٍ زوجية ويكوّن أسرة. وهو يُجيد العدّ حتى ثمانية. يمكنهُ الوصول إلى طعامٍ بعيد المنال من خلال إيجاد الحلّ لسلسلة من الصعوبات. يستطيع التعرّف على نفسه في مرآةٍ. يمكنه أن يُمسك بمنقاره حجرة صغيرة لتكسير بيضةٍ.

6. الأخطبوط. إنّه حيوانٌ مقدام، ومحبٌّ لمعرفة كلّ شيء، ويتعلّم بسرعة، ويجدُ حلولاً لمعالجة مشاكله، ويضع خططاً للصيد. وهو يُجيد استخدام الأدوات، بل يذهب إلى حدّ معالجة جوز الهند لصناعة خوَذ واقية. وهو الحيوان الأكثر سرعةً في العثور على مخرجٍ إذا ما دخل في متاهةٍ.

7. الجرذ. يتمتّع الجرذ بذاكرةٍ استثنائية تسمح له بأن يسلك أفضل الطرق والوسائل لعبور الممرات الخطرة. ويُجيد العيش في مجموعةٍ تكون في بعض الأحيان كبيرة جدّاً وينتظم في تراتبية يحترم فيها رؤساءه ويُسيطر على مرؤوسيه. ولدى المجموعة طقوسُ الوضع في الحجر الصحي حينما يبتلع أحد أفرادها أطعمة مجهولة، وذلك تجنّباً للإصابة بالعدوى. ويمكنه استخلاص الدروس والعبر من نجاحاته وإخفاقاته السابقة.

8. القطّ. يتمتّع القطّ بقدرة كبيرة على التعلّم. وهو يُجيد العيش منفرداً أو في جماعةٍ. وهو شغوفٌ بكلّ جديد، ومحبٌّ للعب. ولديه نشاطٌ حلمي ثريّ جدّاً، يُلهم الباحثين لكي يفهموا آليات الحلم. إنّه حيوانٌ يُجيد التأقلم مع كلّ الأوضاع الجديدة.

9. الكلب. يتمتّع الكلب بذكاءٍ عاطفي يسمح له بأن يشعر تماماً بما يشعر به أصحابُه. إنّه وفيّ ويجيد نسج علاقة متميّزة مع البشر. لديه القدرة على إظهار حبّه لصاحبه البشري بطرائق متعددة.

10. النمل. حتى إذا كان النمل لا يتمتّع بذكاءٍ من نمطٍ «بشري»، فإنّه

في قمّة التعايش المجتمعي، لكونه قادراً على بناء مدنٍ لأكثر من خمسين مليون فردٍ يعملون بانسجامٍ عالٍ (على سبيل المثال، نمل الغابات الأحمر الذي يوجد في الغابات الأوروبية). يُجيد النمل الزراعة (فهو يدفع بمحاصيل الفطر إلى جحره)، والحرب، وتربية (حشرات المن التي يستخرج منها المن). وهو يعرف فنّ العمارة (فهو يبني مدن هرمية مزوّدة بمنافذ لدخول الشمس وبنظام تهويةٍ فعّال).

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

37. جامعة أورسيه

ألقت ناتالي حصاة باتجاه سياج الأسلاك الشائكة. وقد أسفر هذا عن صدور صوتٍ وانبعاث شراراتٍ.

قالت للقطّ السيامي الذي ترجم لي مباشرةً:

– هذا ما كنتُ أتوّقعه تماماً، إنّها حواجز مكهربة بتوترٍ عالٍ.

– وما معنى هذا؟

– هذا يعني أنّه إذا ما لمسنا هذه الأسلاك، سوف نتلقى شحنة من الطاقة تقتلنا في الحال.

اقتربنا ووجدنا السياج وقد علقت به جثث المئات من الجرذان السوداء المتفحّمة، التي تعلّمت على حسابها أنّ هناك تقنية لمقاومة غزوها.

وأخيراً وجدنا وسيلة ضدّ الجرذان تبدو فعّالة...

عثرت ناتالي على المدخل الرئيسي. كان عبارة عن بابٍ سميكٍ له مصراعان من الخشب. وقد بدا أنّ كلّ هذا قد أُضيف إلى المكان حديثاً، وعلى الأرجح بعد الانهيار الكبير.

في اللحظة التي وصلنا فيها إلى الباب الرئيسي، ظهر في قمّة مرصد الحراسة كائنٌ بشري وأطلق رشقة من الطلقات عند قدمي خادمتي. توقفنا

على الفور في مكاننا. نبح البوردر كولي في إشارةٍ إلى وداعنا وانصرف وهو يهزّ ذيله، فرحاً بإنجاز ما اعتبره مهمّته ككلب.

دار حوارٌ بين خادمتي والرجل الذي يقف على برج المراقبة. تحدّثا بلغة البشر وبالتالي لم أفهم منهما شيئاً (تُغضبني كلّ هذه الطقطقات التي تصدر من الأفواه والتي لا أفهم معناها). ولكن لا بدّ أنّها قدّمت حججاً مقنعة إذ فُتِح الباب أخيراً على كائنٍ بشريٍّ يرتدي بزّةً غريبة فضّية اللون، جعلته يبدو ضخماً.

كانت خوذة كروية الشكل تحيط برأسه ولباسٌ فضفاضٌ يغطّي كلّ جسمه. ويحمل حقيبة في يده.

شرح فيثاغورس لي:

– هذه بزّة رائد الفضاء: هذا ما يسمح لهم بالذهاب إلى القمر. أعتقد أنّ هذا اللباس يُسمى البزّة الفضائية.

– لماذا يرتدي هذا اللباس؟

– هذا اللباس يمنع تسرّب الهواء إلى الجسم وبالتالي منع الميكروبات من الدخول إليه.

لوّح الرجل ذو البزّة الفضائية بشيءٍ يشبه مضرباً. وبعد أن فحص ناتالي بتلك الأداة التي أطلقت ومضاتٍ ورنّات متقطّعة، باشر بفحصٍ دقيقٍ لفرائي وفراء فيثاغورس. ثمّ رفع القليل من لعابي بعصا صغيرة، وغرزني بمحقنٍ ليسحب من دمي وأشار علينا أن ننتظر. فتح حقيبته، وأخرج منها عدّة أجهزة. أجرى مختلف التحاليل باستخدام أنابيب الاختبار. ثمّ حقننا بمادّةٍ بدت قويّة جدّاً.

شرح القطّ السيامي:

– هذا معقِّم. إنّه يقتل البكتيريات.

رشّ الرجل على أجسامنا مسحوقاً أصفر اللون.

– أمّا هذا المسحوق، فهو لقتل القمل أو البراغيث، الناقلة للطاعون.

وفي النهاية، أشار الرجل ذو البزّة الفضائية بإبهامه إلى زميله الواقف فوق برج الحراسة، الذي أدار مفاتيح الأبواب.

حملتنا ناتالي كلينا على كتفيها لكي تُظهر أننا لا ننفصل عن بعضنا. دخلنا إلى جامعة أورسيه.

في الواقع، كانت الجامعة أكبر من قرية، وأشبه ببلدة صغيرةٍ مكوّنة من بيوت ذات طرزٍ مختلفة. كانت أشجارٌ كثيرة تمنح هذا المكان مظهر حديقة كبيرةٍ يتناثر فيها سكانٌ. بدا كلّ شيءٍ فيها سليماً، كما لو أنّه لا أزمة ولا طاعون ولا حرب في هذه البلدة. لاحظنا أنّ البشر المتجوّلين في المكان يوحّدهم ارتداء بلوزات بيضاء.

جرى الحديث بين خادمتي والرجل ذي البزّة الفضائية (الذي نزع خوذته) وهما يمشيان جنباً إلى جنب.

ترجم فيثاغورس لي حديثهما:

– هذه هي جامعة أورسيه، وهي جامعة مرموقة جدّاً. هنا تطوّرت التقنيات الأكثر تقدّماً في العديد من المجالات العلمية. أثناء الانهيار الكبير، تحصّن فيها الأساتذة والطلبة واتّخذوها ملاذاً لهم. وقد فعلوا كلّ ما بوسعهم لكي يحموا أنفسهم من أخطار العالم الخارجي.

سألتُ، وأنا مرتابة:

– وهل سيوافقون على دخولنا إليها؟

– إذا ما حرصنا جيّداً على عدم تعريض أمنهم للخطر وعدم إثارة البلبلة في مجمّعهم، سوف يستضيفوننا بينهم.

– ألن يكونوا... ألا توجدُ كلمة تعبّر عن الذين يخافون كلّ شيء؟

– «مذعورون».

هذه كلمة جميلة أخرى من المفردات التي يمكنني إضافتها إلى مجموعتي من الكلمات.

قال فيثاغورس، ساخراً:

– في هذه الحالة، علينا أن نقبل بأنّ أكثر المذعورين ينجون عندما يموت المتفائلون.

متفائل. نعم، أعرف هذه الكلمة. كانت أمّي تقول إنّ: «المتفائلين هم أناسٌ لديهم معلومات خاطئة». كان لديها حسّ الصياغة.

اقتِدْنا نحو مبنى له مظهر أكثر قدماً، جدرانه مصبوغة باللون الوردي الفاتح. صعدنا درجاً من الرخام لنصل إلى بابٍ أسود.

اكتشفتُ غرفةً مليئة بالشاشات والأجهزة. وفي وسطها، طاولة مكتبٍ يجلس إلى رأسها رجلٌ مسنٌّ له شعرٌ أبيض وطويل، ويضع نظارات ضخمة، عدساتها سميكة. كان هو أيضاً يرتدي بلوزة بيضاء، تظهر أقلامٌ عديدة في جيب صدريته؛ وربّما هذه علامة على جدارته.

رأيتُ ندبة تتوسّط جبينه، تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ أثر جرحٍ ناجمٍ عن أنياب جرذٍ.

تحدّث الرجل ذو الشعر الأبيض مع الرجل الذي استقبلنا، ثمّ أشار على ناتالي أن تجلس في الأريكة الكبيرة أمامه.

من جديد تحادث البشر وهم يصدرون من أفواههم أصواتاً وطقطقاتٍ بألسنتهم. ترجم لي فيثاغورس:

- هذا الرجل يُدعى فيليب سارفاتي وهو مدير الجامعة. حينما تحوّل الوضع إلى حربٍ أهلية، أقام الطلاب وأساتذة الجامعة في هذا المكان، وتسلّحوا وردّوا هجمات المجموعات العنيفة. وكمكانٍ مخصّصٍ للتعليم، أصبحت الجامعة هدفاً مفضّلاً للمتعصبين الدينيين، لا سيما أنّ للنساء هنا الحقّ في تلقّي التعليم على قدم المساواة مع الرجال. لقد تعرّض سكان أورسيه إلى الكثير من الخسائر خلال الانهيار الكبير، ولكنّهم تعلّموا الدفاع عن أنفسهم. بعد أن نجوا من الإرهاب ومن الأوبئة، بنوا هذا الجدار العالي من الأسلاك الشائكة في سبيل إبعاد الجرذان، وبنوا أبراج مراقبةٍ مزوّدة بأسلحة رشّاشة لكي يحموا أنفسهم من المتعصّبين الدينيين. وقد انقطعوا بالكامل عن أيّ اتصالٍ مع العالم الخارجي، وأقاموا نظاماً للبروتوكول ليتجنّبوا مخاطر نقل العدوى. ثمّ عندما بدأت الجرذان بالهجوم، عمد سكان أورسيه إلى كهربة الأسلاك الشائكة. وجاءت جرذانٌ كثيرة واحترقت بهذه الأسلاك. وقد تزايدت أعداد الجرذان التي ماتت على هذا السياج، كما لو أنّها أرادت التأكّد من أنّه لا يزال فعّالاً.

أبهرتني كلّ هذه المعلومات.

قلتُ:

– أعتقدُ حقّاً أننا قد وصلنا إلى المكان المناسب.

تابع فيثاغورس:

– هنا، كلّ شيء مصمّم لكي يسير بأدنى حدٍّ من الدعم الخارجي، في نظامٍ إيكولوجي مغلق. إنّه يشبه إلى حدٍّ ما النظام الذي أردنا إقامته في جزيرة البجع ثمّ في جزيرة المدينة، ولكن بطريقة أفضل تنظيماً. للبشر محاصيلهم الخاصّة من الفاكهة والخضراوات. قبل الانهيار الكبير، كان هناك على الدوام ثلاثون ألف طالبٍ وعشرون أستاذاً جامعياً وألف باحثٍ يعملون في اثنين وثمانين مخبراً، وكلّ هذا على مساحة مئتي هكتارٍ.

لا أعلم تماماً كم تعادل هذه المساحة، ولكنني شعرتُ بأنّها أوسع بكثير من كلّ ما كنتُ أتصوّره.

– من هنا تخرّج اثنان من الحائزين على جائزة نوبل في الفيزياء وأربعة من الحائزين على ميدالية فيلدز، وهي تُمنح للبشر الذين قاموا بأبحاثٍ علمية. وهذا يعني أنّ هؤلاء البشر بالفعل أذكياء جدّاً.

أطلقتُ تنهيدة رضا وارتياح. يا لها من متعة أن أجد نفسي مع الأكثر حذقاً من نوعهم. على الأرجح سوف يفهمونني على نحوٍ أسهل.

تحاورت ناتالي أيضاً مع الرجل ذي الشعر الأبيض الطويل. هزّا رأسيهما بالتناوب لكي يشيرا إلى أنّهما متّفقان في الرأي. تمنّيت ألا تنسى ناتالي أن تشرح له أننا نحتاج إلى المساعدة لإنقاذ أبناء جلدتنا. سلّمني فيثاغورس بياناً بما جرى بينهما من حديث في الوقت المناسب.

أشار المدعو فيليب إلى أنّ الأورسيين لا يرغبون في الوقت الحالي في الخروج من منطقتهم الآمنة. وهم يعتقدون أنّه لا يزال هناك الكثير من الأعمال التي يجب إنجازها في هذا المكان الاستراتيجي للتقليل من المخاطر الخارجية المحدقة. ولتوضيح ما قاله، أمسك الرجل ذو الشعر الأبيض بجهاز تحكّمٍ وأشعل شاشةً وراح يعلّق على ما يظهر عليها. ترجم لي فيثاغورس ما قاله:

– يمكننا أن نرى على خارطة العالم هذه مكان تواجد كلّ الجماعات البشرية التي نجت من الطاعون. ومن مجموع ثمانية مليارات من البشر

قبل اندلاع الأزمة، لم يبقَ الآن، حسب رأيه، سوى ما لا يزيد عن مليارٍ واحدٍ من الناجين. وقد تعرّضت العواصم الكبيرة على نحوٍ خاصّ لأكبر الأضرار بسبب الكثافة السكانية فيها واختلاط الأفراد الذين فاقموا التوتّرات المجتمعية ونشروا الأوبئة. وفي مقابل ذلك، لم يتعرّض البشر المقيمون في البلدات والمناطق المعزولة إلّا إلى القليل من غزوات الجرذان. ولجأ بعض البشر أيضاً إلى الجزر أو إلى أعالي الجبال، الأمر الذي أتاح لهم تجنّب ما هو أسوأ.

واصل فيليب حديثه:

– بيد أنّه حتى وإن لم يعد البشرُ السادةَ المطلقين للكوكب، فإنّه طالما هناك كهرباء وإنترنت (بفضل محطّات توليد الطاقة النووية المؤتمتة بالكامل التي لا تزال تعمل)، فسوف يستطيعون أن ينجوا ويحافظوا على معارفهم. وكلية أورسيه عازمة على أن تلعب دور الملاذ هذا جيّداً وأن تنشر المعرفة، ليس في فرنسا فقط، بل وفي العالم أجمع أيضاً.

عرض الرجل ذو الشعر الأبيض صوراً لمبانٍ أكثر مهابةً.

ترجم لي فيثاغورس تتمّة حديثه:

– تُقيم جامعة أورسيه علاقات متميّزة مع جامعة نيويورك. هناك، أنتج البشر من سكان جزيرة مانهاتن مبيداً للجرذان فعّالاً. وبذلك استطاعوا أن يتخلّصوا من كلّ جرذان مانهاتن التي غدت بدورها ملجأً.

هل سمعتُ بشكلٍ صحيح؟ مبيدٌ للجرذان فعّالٌ!

– إذا كانوا قد وجدوا حلّاً، لماذا لا يقدّمون هذا الحلّ لنا أيضاً؟

– بعض المواد الداخلة في تركيبة مبيد الجرذان هذا لا توجد، لسوء الحظّ، إلّا هناك، ولم تعد هناك طائرات لتنقل إلينا تلك المواد. لقد انطلقت سفينة من نيويورك، وعلى متنها هذه المواد النفيسة، ولكنّها لم تصل قط. إمّا أنّها قد غرقت، أو تعرّض من كانوا على متنها للهجوم أثناء نزولهم على البرّ.

لقد استخلصتُ هذه المعلومة الجديدة المُبهرة.

إذاً، هناك علاج، وهذا هو بالضبط ما لم نصل إليه بعد.

– وانطلقت سفنٌ أخرى بعد تلك السفينة التي فشلت في مهمتها. وإذا ما نجحت في الوصول إلى مقصدها، فسوف يمكننا التخلّص من الجرذان.

– غير أنّه يجب ألا تغرق وألا يتمّ اعتراض طريقها...

– لا تكوني سلبية، يا باستيت.

استمرّ البشريان في الحديث، وترجم لي فيثاغورس حديثهما:

– من أجل إعادة بناء عالم المستقبل، لدى الأورسيين ورقة رابحة: مركز معلوماتية يخزّن أقصى ما يمكن من المعلومات، ويريدُ المدير أن يقودنا إليه.

قادنا فيليب نحو مبنى نصف كروي، رماديّ فاتح.

في داخل المبنى، وجدنا خزائن ضخمة مليئة بمصابيح صغيرة تومض. وفي صندوقٍ زجاجي، رأيتُ طاولة عليها العديد من الشاشات ولوحات مفاتيح، يجلس أمامها رجلٌ يُدير ظهره لنا. التفت. كان هو الآخر يرتدي بلوزةً بيضاء. شعره بنّي، وعيناه سوداوان، وشفتاه سميكتان، ونظاراته زرقاء.

وكعادتهم، صافح البشر بعضهم بعضاً بأكفّهم (بنفس الطريقة التي نفرك بها بعضنا خطوم بعض لكي نلقي التحية بعضنا على بعض)، ثمّ بدأوا بالتحدّث. باشر فيليب بالحديث وشرح:

– هذا المكان يُسمى دماغ الجامعة. أمّا بالنسبة إلى هذا الرجل، فهو البروفيسور رومان ويلز، الذي يُدعى «حارس الذاكرة». في الواقع، طوّر رومان هنا مشروعاً شخصيّاً طموحاً: جمع كلّ معارف الإنسانية لكي يحميها من الضياع.

بدا الرجل ذو النظارات الزرقاء خجولاً، إذ لم يستطع النظر إلى عيني خادمتي وهو يتحدّث معها. بل بدا منبهراً بها إلى درجة التلعثم في الكلام. شعرتُ بأنّ شيئاً ما يحدث بينهما. نحن القطط نشعر تماماً بالطاقة التي تمرّ بين الذكور والإناث، أيّاً كان جنسهم.

وبعد ذلك بقليل، عرّف فيليب بهذا الرجل الشاب:

– رومان هو الذي صمّم نظام الحماية الكهربائي حول حرم الجامعة.

ولكنّه أيضاً الشخص الأكثر إبداعاً بين باحثي جامعتنا. إنّه مهووسٌ بحفظ المعارف. ويعتبر أنّ كلّ ما لا يُحفَظ في كتابٍ أو في ذاكرةٍ يُنسى وأنّ كلّ ما يُنسى يُعتَبَر كأنّه لم يكن موجوداً قط.

أحببتُ هذه الفكرة. واصل فيثاغورس ترجمة الحديث، مضيفاً بعض التعليقات عليه من عنده:

– ولهذا السبب أصبح موسوعياً. هل تريدين أن تعرفي الأكثر إدهاشاً؟ إنّه هو من ينشر موسوعة (م. ع. ن. م) على الإنترنت.

– وما هي موسوعة (م. ع. ن. م)؟

– موسوعة العلم النسبي والمطلق. لعلمكِ، الموقع المعلوماتي الذي أحدّثكِ عنه غالباً، هو الموقع الذي يحتوي على معلومات كثيرة في التاريخ وعلم الأحياء والفيزياء وعلم النفس.

– كيف يمكنُ لشخصٍ واحدٍ فقط أن يتكفّل بشيءٍ على هذا القدر من الأهمية؟

– أعتقد أنّ رومان هو سليل واضع المفاهيم. وهذا ليس كلّ شيء، فعلاوة على موسوعة (م. ع. ن. م)، جمع رومان موسوعات أخرى، مثل: أونيفيرساليس، وبريتانيكا (الموسوعة البريطانية)، وديدرو، ومختارات من عدّة ملايين من النصوص المنشورة في ويكيبيديا، وأضاف إليها مئات الآلاف من الأفلام وأسطوانات الموسيقى، والكتب من كلّ العصور وكلّ البلدان. وقد سمّى كلّ هذا موسوعة (م. ع. ن. م. ش)، والحرف «ش» يعني «شاملة». إنّها خزينة لكلّ ما يعتبره الأكثر أهمية والأكثر كمالاً في المعرفة الإنسانية.

عشقتُ هذه الفكرة. زاد فيثاغورس في الترجمة:

– يزعم أنّه جمع هذه الموسوعة في جهازٍ نقّالٍ وحيدٍ يمكنه حمله في اليد.

– في يدِ كائنٍ بشري؟ هل يمكننا أن نرى ذاكرة (م. ع. ن. م. ش) المحمولة هذه؟

– لقد طرحت عليه ناتالي للتوّ هذا السؤال بالضبط.

تردّد ويلز، كما لو أنّه أراد الإجابة بالرفض. بيد أنّه، ولكونه أحسّ بدفقةٍ من المشاعر القويّة تجاه هذه الأنثى البشرية، تجاهل مبادئه.

فتح باب خزانة حديدية وأخرج منها فلاشة اليو إس بي ليست أكبر حجماً من لساني. كانت الفلاشة بلونٍ أزرق غامق، ومزيّنةً بنجمة بيضاء. شعرتُ بخيبة أمل، فلم أستطع منع نفسي من السؤال:

– أهذا هو كلّ علم البشر؟

استمع فيثاغورس إلى ما قاله حارس الذاكرة ثمّ شرح لي:

– يشير رومان إلى أنّ هذه الفلاشة هي عبارة عن إنجازٍ في تصغير حجم قطعة التخزين الذي نجحوا في تحقيقه بشكلٍ حصري في هذه الجامعة. فهذه الفلاشة تحتوي على 1 زيتابايت من المعلومات.

– وما هو زيتا؟

– وحدة قياس. إذا كنتِ تتذكّرين جيّداً ما ذكرته لكِ بشأن فلاشة اليو إس بي: 1 ميغا يحتوي على 1 مليون بايت، و1 جيغا يحتوي على 1 مليار بايت. وبالتالي، 1 زيتا، هو... مليار جيغا. وبالتالي مليار مليار بايت.

إذاً، إنّه كثيرٌ –كثيرٌ– كثير.

– يقول إنّ الفلاشة محمية بهيكلٍ من التيتانيوم الذي يجعلها صلبةً جدّاً، ومصفّحةً، وعازلةً، قادرة على مقاومة الرصاص والماء والضغط، بل مقاومة أيضاً للإشعاعات والتسرّبات الناجمة عن تفجيرٍ نووي.

لم يترك الرجلُ ذو النظارات الزرقاء الجهاز النفيس لوقتٍ طويل بين يدي ناتالي، وأعاده سريعاً إلى الخزانة الحديدية التي أغلق أقفالها في الحال.

خرجنا من المكان. فاحت رائحة طيّبة من الجامعة، وزالت تلك الروائح الكريهة المنبعثة من العفونة أو الجثث أو الأخشاب المحترقة التي كانت تنبعث من قرية الكلاب. في هذا المكان الجديد، فاحت بدل ذلك رائحة الصنوبر والخزامى. اجتذبت الشجيرات المزهرة المنتشرة في كلّ مكان النحل، ولم يكن هناك أيّ أثر للذباب.

كان البشر الموجودون مبتسمين، وشبه هادئين، كما لو أنّهم يجهلون الأهوال المرعبة التي تجري خارج أسوارهم.

لقد أقاموا فردوسهم، وهو عبارة عن حديقة محاطة بجدارٍ، حتى وإن كان هذا الجدار عبارة عن أسلاك شائكة مكهربة.

اكتشفتُ أشجاراً مثمرة تعرّفتُ عليها من خلال عبيرها فقط: أشجار ليمون وكمثرى وكرز وتين. كما اكتشفتُ كرومَ عنبٍ، وحقولاً مليئة بالطماطم أو الباذنجان.

ومن ثمّ وجدنا أنفسنا في مطعم الجامعة لتناول وجبة الغداء. كنّا فقط نحن القطّين وخادمتي التي جلست أمام رومان ويلز.

استمع فيثاغورس إلى حديثهما وترجمه لي:

- يتحدّث رومان عن جدّه، البروفيسور إدمون ويلز. كان عالماً بيولوجياً مختصّاً بدراسة النمل. ولكونه مصاباً بوسواس فقدان الذاكرة، كان يدوّن كلّ ما يكتشف، بدايةً على الورق، ثمّ في كتابٍ، ثمّ في سجلٍّ حاسوبي. هذا السجلّ أصبح الميراث العائلي وتناقله أحفاده بثلاثة أجيال، مضيفين في كلّ مرّة لمستهم الشخصية. وهكذا قرّر رومان ويلز، الذي تلقّى تعليماً وتأهيلاً كفيزيائي وخبير معلوماتية، أن يبتكر علماً جديداً، ألا وهو علم الموسوعات، الذي يسمّيه «الإنسيكلوبيدولوجيا». وقدّ علّم طلاب جامعة أورسيه كيفية تخزين أكبر كمية ممكنة من المعلومات في أصغر مساحة. عندما بدأت الحرب الأهلية، أدرك في الحال الخطر وسرّع مهمّته، خشية أن يفقد البشر ذاكرتهم. ومن هنا جاءت موسوعته (م. ع. ن. م. ش).

- بعبارة أخرى، طالما بقيت فلاشة اليو إس بي هذه في حوزتهم، فلن تضيع المعرفة التي راكمها البشر منذ آلاف السنين.

- سوف يكفي أن توصَل هذه الفلاشة بحاسوبٍ حتى تستطيع البشرية أن تتذكّر كلّ ما اكتشفته سابقاً.

- البشرية *humanité*، من البشر، هذا يعني... كيف يمكننا أن نقول؟ ما هي الكلمة اللاتينية التي تُستخدم للدلالة على «القطط»؟

- أصل الكلمة هو «*felis* - *القطّ*».

- إذاً، مقابل humanité التي تعني البشرية، سوف تصبح الكلمة «félicité» أي (القططية) هل هذا صحيح؟

أدهش اكتشافي فيثاغورس.

- «*félicité*»؟ من الغريب أن تخترعي هذه الكلمة تحديداً، لأنّ لها معنى آخر بالنسبة إلى البشر: إنّها تعني الرفاهية التامّة.

أطمح إلى إقامة الحضارة القططية في العالم.

- إنّهما يتحدّثان عن مليارٍ من البشر الناجين حالياً، ولكن برأيك، بكم يُقدّر عدد القطط؟

- حسب آخر تقديرٍ وجدته على الإنترنت، يبلغ عددنا خمسمئة مليون قطّ وقطّة، وقد تمّ توزيعنا على ما يقرب أربعمئة وخمسين مليوناً من القطط المنزلية مقابل خمسين مليوناً من القطط البرّية.

- إذاً، يجري السباق من أجل التفوّق والسيادة بين مليارٍ من البشر وخمسمئة مليونٍ من القطط وكم من الجرذان؟

- قبل نشوب الأزمة، كان يُعتَقَد أنّ عددها يبلغ قُرابةَ 30 ملياراً؛ ولكن منذ أن فقد البشر السيطرة، لا بدّ أنّ هذا العدد قد تضاعف.

هذه الإجابة جعلتني أقدّر حجم التهديد المحدق بنا. البشرية والقططية في تناقصٍ مستمرّ، مقابل «الجرذية» التي تشهد حالةً من الانفجار السكاني.

كدتُ أندم على طرح هذا السؤال. وحاولتُ أن أجد سريعاً موضوعاً آخر للحديث فيه كي لا أعود أفكّر بتلك الإجابة. راقبتُ الكائنين البشريين اللذين كانا يتكلّمان بالقرب منّا. كان الرجل لا يزال خجولاً، وكانت خادمتي لا تزال مرتابةً، ولكنّهما على الأقلّ تحاورا. سألتُ فيثاغورس:

- هل تعتقد أنّ هذين الكائنين البشريين سوف يمارسان نزاءً؟

- أتمزحين؟ إنّ عرض الزواج عند البشر مسألة طويلة جدّاً ومعقّدة جدّاً؛ قد تستمرّ هذه المسألة عدّة أيام، بل عدّة أسابيع أو أشهرٍ قبل أن يجرؤ الذكر على الإفصاح عن رغبته وقبل أن توافق الأنثى على مبادلته الرغبة.

اعتقدتُ أنّ زميلي يبالغ. إذ لطالما أراد أن يبهرني من خلال تقديم صورة هزلية عن سمات العالم البشري.

- وحسب رأيك، هل يستطيع البروفيسور رومان ويلز هذا أن ينجح؟

- بكلّ تأكيد.

- وكيف سيُقنعها؟

- من خلال المناقشة معها. تكمن الصعوبة، كما ترين، في انعدام الرغبة في ممارسة الجنس. هذا هو الأمر المعقّد، بل والمتناقض: ما إن تحسّ الأنثى برغبة الرجل، تخمد رغبتها وتبعده عنها.

- هذا ضربٌ من الغباء.

- ولكنّه ضروري. إنّها لا تُريد أن تظهر كأنثى سهلة المنال تسلّم نفسها لأوّل قادمٍ إليها.

هؤلاء البشر بالفعل معقّدون جدّاً. الآن أفهم لماذا يستغرق تكاثرهم الكثير من الوقت.

أضاف رفيقي، كخبيرٍ ضليعٍ في تكاثر البشر:

- هذا يُطمئن الذكر أيضاً، الذي يعتبر أنّ الأنثى كلّما كانت أصعب منالاً، كانت أكثر فضيلةً.

حككتُ أذني بقدمي اليمنى.

- آه حقّاً؟ وكيف يتصرّفون مع شهواتهم الجنسية؟

أجابني فيثاغورس، هامساً:

- لديهم أفلام إباحية...

- ماذا؟ ما هذه؟

- بشرٌ من الذكور والإناث يصوّرون أنفسهم وهم يقيمون علاقات جنسية؛ وحينما يُشاهد البشر الآخرون هذه الأفلام يُثيرهم الأمر كما لو أنّه يحدث في الواقع.

- مستحيل!

- أجل، لأنّهم يملكون في دماغهم «خلايا عصبية عاكسة»، تجعل ما يحدث على الشاشة يؤثّر فيهم كما لو أنّهم يعيشون ذلك بالفعل.

إذاً، هل يشعرون بإثارة الآخرين كما شعرتُ أنا بألم كائنٍ آخر من خلال الشفقة؟

قلتُ في نفسي إنّه بكلّ تأكيد لن أفهم الأخلاق البشرية. لن يخطر ببالي

أبداً أن أُثير نفسي جنسياً من خلال مشاهدة قططٍ أخرى تمارس الجنس، وعلاوة على ذلك في فيلمٍ.

في نفس الوقت، قلتُ في نفسي إنّ القدرة على ممارسة الجنس من دون شريك هي في النهاية شكلٌ من أشكال الاستقلال الذاتي. ثمّ، إذا كانت الحدود ليست سوى خيالٍ، فهذا يفتح أمامي آفاقاً جديدة.

لبرهةٍ من الوقت، حسدتُ البشر.

بعد تناول الغداء، أرانا المدير فيليب الغرفة الطلابية التي استقبلتنا في حرم الجامعة. جلست خادمتي فيها، وأمضينا ما تبقّى من النهار في اكتشاف هذا المكان الاستثنائي المحمي من تداعيات الانهيار الكبير.

نادراً ما شاهدنا مبانيَ تتكوّن من أكثر من طابقين وبالتالي لم تكن تتجاوز علوّ الأشجار. كانت الطبيعة تمتزج على نحوٍ متناغمٍ مع الجامعة. رأيتُ فيها للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً جماعة من البشر البالغين الذين يبتسمون ويدندنون بالغناء ويبدون سعداء. أعتقدُ أنّني نسيتُ فكرة أنّ بوسعهم هم أيضاً أن يكونوا هادئين وفرحين. بالنسبة إليّ، لم يكن البشر سوى حيوانات تولّد ضغطاً نفسياً دائماً.

رأيتُ أزواجاً يقبّلون بعضهم بعضاً ويتعانقون أو يتدحرجون وسط الأعشاب (لم يكونوا جميعاً خجلين مثل ناتالي ورومان)، كما رأيتُ أطفالاً يلعبون بالكرة، وأشخاصاً مسنّين يضحكون مثلما حدث لي مؤخّراً.

وأخيراً وجدتُ عالماً بشرياً إيجابياً.

بدا كأنّهم قد نَسوا الجرذان والطاعون والانهيار الكبير. يعيشون في فرحة وجودهم معاً، محاطين بأناسٍ يفكّرون مثلهم. بينما غفت ناتالي، شعرتُ بأنّ شيئاً ما قد تغيّر على نحوٍ خفيف في رائحة عرقها.

بعد تناول العشاء، نمنا. حينما استلقت ناتالي على السرير، كعادتي رحتُ أدوس على بطنها ومخالبي نصف ممدودة لكي أساعدها على هضم وجبتها ثمّ جلستُ على صدرها ورحتُ أخرخر بشدّة 24 هرتزاً.

راقبتها وأدركتُ أنّها قد انسلّت سريعاً إلى منطقة الأحلام، لأنّ عينيها تحرّكتا تحت جفونها. وأصبح تنفّسها أكثر سعةً وأكثر شهوانيةً أيضاً.

تُرى ألا تحلمُ بأنّها تُمارس الحبّ مع رومان؟ بيد أنّه، إذا ما فهمتُ على نحوٍ صحيحٍ ما قاله فيثاغورس، إذا ما طلب رومان منها أن تحوّل هذا الحلم إلى حقيقة، سوف تردّ في هذه المرحلة برفضٍ قاطع.

أغمضتُ بدوري عينيّ. وحلمتُ بعالمٍ لم تعد للقطط فيه أيّ عقدة أمام البشر الذين يعتبرون أنفسهم حتى الآن أسيادَ العالم.

38. القطط الآكلة للبشر في منطقة تسافو الكينية

ثمّة أوقاتٌ يتبيّن فيها أنّ ذكاء الإنسان عاجزٌ عن التفوّق على ذاكرة السنوريات.

على سبيل المثال، في هذه القصّة الغريبة التي جرت في عام 1898 في كينيا في منطقة تسافو، بين مومباسا ونيروبي. في تلك المنطقة، كان فريقٌ من المهندسين البريطانيين يقود عمالاً يتكوّنون بشكلٍ رئيسي من الهنود والأفريقيين لبناء جسرٍ فوق نهرٍ بنفس الاسم، تسافو، بهدف مدّ سكّة حديدية فوقه. ذات صباح، وجدوا أنّ إحدى الخيم قد مُزِّقت، وأنّ عاملين قد اختفيا. كانت هناك آثار دماءٍ وآثار أقدام قطّين كبيرين. أظهرت آثار الأقدام أنّ الزائرين كانا من حجمٍ ووزنٍ غير طبيعيين، حتى إنّهما أكبر حجماً ووزناً من الأسود. حاول البريطانيون أن يوقدوا نيران حماية حول الخيم، ولكن في الأيام التالية، اختفى عمالٌ آخرون، ودائماً مع وجود آثار أقدام تلك السنوريات العملاقة. وكأنّ الحيوانين المفترسين كانا يأتيان ويأخذان ما يريدان من متجرٍ للحم البشري. بعد تجربة النيران، جرّب المسؤولون حماية خيم الاستراحة بجدرانٍ من الحصائر. ولكن لم يكن ذلك كافياً أيضاً، ومن جديد غاب عاملان عن الاجتماع الصباحي لأنهما كانا قد فُقِدا.

وبالكاد مضت عدّة أيام، حتى ارتفع عدد الضحايا إلى ثلاثين عاملاً، ورغم تسيير دوريات حراسة، وإيقاد النيران، وإقامة الجدران المبنية من الحصائر، لم يبدُ أن هناك أيّ شيء قادر على إيقاف آكلي البشر. ساهمت

الصحف المحلية في إثارة الذعر بين صفوف العمال الذين رفضوا استئناف العمل طالما لم يتمّ إنقاذهم من هذا التهديد القاتل.

جيء بصيادٍ شهيرٍ للحيوانات البرية. نصب كميناً للمهاجمين، وفي صبيحة اليوم التالي... لم يُعثَر إلّا على ثيابه الملطّخة بالدم. يبدو أنّ هذين القاتلين، فضلاً عن حجمهما الضخم، كانا ينجحان دون صعوبة في إحباط كلّ الحيل والخدع البشرية. ولم يكفّ عدد ضحاياهما عن التزايد ليلة بعد أخرى. لقد وصل عدد المختفين إلى ستين ضحيّة دون أن ينجح أيّ شيء في إيقافهما.

تمّرد العمال، ثمّ أضربوا عن العمل. اعتبروا أنّ هذين الحيوانين البريين ليسا من الأسود، وإنّما من العفاريت، لأنّ المكان يُعتبر منحوساً ومصاباً باللعنة (تسافو تعني في اللغة السواحلية «مكان المذبحة»). فاستدعت الشركة البريطانية الجيش. فوضِعَ جنودٌ في قفصٍ ونُصِبَ فخٌّ كبير، بينما انتظر الرماة قدوم المُهاجمَين. ظهر الحيوانان البرّيان، ونجحا في الالتفاف على الفخّ وتحطيم القفص، وفرّ الجنود، مذعورين. ومن جديد اعتُبِر عاملان في عداد المفقودين. تزايدت حالات الفرار من الخدمة، وخلال الأسابيع التالية، تزايدت أعداد الضحايا، وتجاوزت مئة ضحية، ثمّ 120 ضحية، ومئة وثلاثين ضحية، ومئة وأربعين ضحية.

وفي النهاية، كان اللفتنانت كولونيل جون هنري باترسون، من الشركة البريطانية الإمبراطورية في شرق أفريقيا، هو الذي نجح في قتل أحد الأسدين اللذين هاجمهما في جنح الليل في غرفته الخاصّة. ثمّ اقتفى باترسون آثار الأقدام لكي يعثر على آكل البشر الثاني. وقد ظهر هذا الأخير من مكمنه وسط الأدغال وأرغم الضابط على تسلّق شجرة اضطرّ لأن يُطلق منها خمس رصاصاتٍ لكي يقضي على الأسد القاتل.

بعد إجراء الفحص على جثّة الحيوانين المفترسين، تبيّن أنّهما لم يكونا أسدين بالمعنى الحرفي للكلمة (على سبيل المثال، لم تكن لهما لبدة من الشعر حول العنق)، بل قطّان ضخمان جدّاً، حيث يصل طول

كلّ منهما إلى مترين وستين سنتمتراً، بينما يصل ارتفاع كتف كلّ منهما إلى مترٍ وعشرين سنتمتراً. اكتُشِفَ لاحقاً الوكر الذي كانا يستخدمانه مخزناً للطعام وقد تراكمت فيه جثث البشر. قدّم الضابط باترسون جثّتي الحيوانين البريين العملاقين للرئيس الأمريكي تيودور روزفلت (الذي كان يعشق الصيد وكان قد انبهر بهذه الحكاية)، وقد قام الرئيس الأمريكي بدوره بإهداء هاتين الجثّتين إلى المتحف الميداني للتاريخ الطبيعي في شيكاغو، حيث لا يزال يمكن رؤيتهما هناك حتى الآن.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

39. خروج الليل

جافاني النوم. كنتُ في انتظار أن أغفو، عندما سمعتُ فجأةً ضجيجاً. رفعتُ أجفاني قليلاً.

ليس أن فيثاغورس لم ينم قط، بل خرج من الغرفة بخطواتٍ صامتة. انتظرتُ إلى أن ابتعد قليلاً لكي ألحق به عن بعد.

تُرى هل أصابه الأرق؟

هرول القطّ السيامي مسرعاً. استنتجتُ من تصرّفه أنّه لا يرغب في أن يُكشَف في رحلته هذه: سار بمحاذاة الجدران، واختبأ للحظاتٍ، قبل أن يستأنف طريقه.

ماذا تخفي عنّي، يا فيثاغورس؟

دخل إلى مبنى أبيض اللون، مكعّب الشكل. *لا بدّ أنّه رأى شيئاً ما أو أنّه يعرف شيئاً ما أنا أجهله*. سلك درجاً ونزل إلى قبوٍ. وتوقّف هناك.

عيل صبري ولم أعد قادرة على الانتظار لوقتٍ أطول، فلحقتُ به ورأيتُ في القبو شبه المظلم بعض الأقفاص، يقاربُ عددها عشرة أقفاص مليئة بحيوانات.

استدار فيثاغورس نحوي وماءَ:

– هنا في هذا المكان حدث «ذلك».

– ماذا تقصد بـ «ذلك»؟

– هذا «مأوى الحيواناتِ الأليفة». هنا ولدتُ وعشتُ.

– ما معنى مأوى الحيوانات الأليفة؟

– إنّه المكان الذي يودع فيه البشرُ الحيوانات التي تُستخدَم في التجارب العلمية.

قفز فيثاغورس إلى خزانة عالية. لحقتُ به وبفضل رؤيتي الليلية الممتازة، استطعتُ أن أتبيّن التفاصيل.

كانت الأقفاص تحتوي على قططٍ وجرذانٍ، ولكن فيها أيضاً قرودٌ وأرانب وكلاب وخنازير. اقتربتُ من قفصٍ ورأيتُ شيئاً لا يُصدّق.

– ولكنّها جميعاً...

قاطعني فيثاغورس.

– نعم، يا باستيت، هنا في هذا المكان بالتحديد أُجريت عليّ التجارب العلمية، وتمّ ثقب جمجمتي لكي أستطيع أن أوصل دماغي بحواسيبهم.

فجأةً اشتعل ضوء المصباح السقفي. ظهر المدير ذو الشعر الأبيض، فيليب، وسدّد مسدّساً نحونا.

صوّب السلاح بالتناوب عليّ ثمّ نحو فيثاغورس. تردّد، وأطلق تنهيدة طويلة، ثمّ ضبّ المسدّس في جيبه وأخرج السمّاعة – المترجِمة خاصّة ناتالي. تواصل بهذه الطريقة مع فيثاغورس، الذي ترجم لي ترجمةً فورية:

– يقول إنّه قد تعرّف عليّ في الحال، وأنني كنتُ أوّل قطٍّ تجري له عملية جراحية. وعندما رأى بفضل الكاميرات التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء أنني آتي إلى المختبر، لحق بنا. جلس فيليب وهو لا يزال يلهث.

استأنف حديثه، وترجم فيثاغورس لي حديثه:

– بعد أن أجروا لي العملية الجراحية، واصلوا تجهيز الحيوانات القابلة للاتصال مع الحواسيب: جهّزوا قططاً أخرى بعينٍ ثالثة، ولكن جهّزوا أيضاً بعض القردة والجرذان والأرانب والخنازير والكلاب، وجهّزوا حصاناً أيضاً.

هزّ رأسه.

– لكن التجربة سارت بشكلٍ سيّئ وانقلبت عكساً. لقد أدّى اكتشاف المعارف البشرية إلى حدوث اضطراباتٍ لدى الحيوانات.

– هل جُنّت الحيوانات؟

– لم تعد تُطيق وضعها كحيوانات مخبرية. في المرحلة الأولى، بدأت تُظهر المزيد من العدوانية. بل نجحت بعض الحيوانات في الفرار من هنا. ولكنّ العلماء نجحوا الآن في ضمان أمن المنطقة، وأصبحت للأقفاص قضبانٌ معدنية وأقفالٌ أكثر متانةً.

حينما سمعتنا نتكلّم، ثارت ثائرة الحيوانات المحبوسة في الأقفاص وبدأت تصرخ. ربّما فهمت بعض الحيوانات ما قلناه.

– هل يمكن أن يكون تيمورلنك أحد هؤلاء الفارّين؟

ترجم فيثاغورس وهزّ فيليب رأسه موافقاً.

في هذه الحالة، لقد انطلق كلّ شيء من هنا. مأوى حيواناتٍ أجريت فيه تجارب غير عادية على الحيوانات.

استوعبتُ كلّ هذه المعلومات، ولكنني لم أجرؤ بعد على التعبير عن الفكرة التي راودت ذهني. ثمّ فجأةً، ودون أن أتحكّم بذلك، خرجت الكلمات مواءً من فمي، رغماً عنّي تقريباً.

– هل يمكنني الحصول على عينٍ ثالثة؟

– أتمنّى أنّك تمزحين.

– كلا. أنا جادّة للغاية. اسأل فيليب إن كان بوسعه أن يفتح في جمجمتي أيضاً ثقباً لكي يركّب لي قابساً إلكترونياً.

انتصبت أذنا فيثاغورس دهشةً.

– هل أنتِ متأكّدة؟ ولكن هذه التجربة فريدة من نوعها، وأفضّل أن أحذّركِ من الخضوع لها.

– نعم، أريد أن أكون مثلك وأصل إلى كلّ معارف البشر. ثمّ ربّما يمكننا أن نوصل بين عقلينا مباشرةً باستخدام وصلة يو إس بي ونفهم بعضنا بعضاً على نحوٍ أفضل.

طرح فيثاغورس طلبي على الرجل المسنّ ذي البلوزة البيضاء. بعد نقاشٍ مطوّلٍ بينهما، حدّق فيّ فيليب سارفاتي وتنهّد بطريقة بدت أنّها تدلّ على موافقته.

– يوافق على أن يقوم بذلك، ولكنّه يريد أن يتأكّد من أنّكِ لن تعاتبيه عندما تستطيعين التعبير عن رأيكِ.

منْ يعتبرني! هل يعتبرني كائناً متقلّب الآراء؟ ليس لأنني قطّة وأنثى أستطيع التأقلم مع هذا النوع من السلوك. أنا أعرف ما أريد. وحينما أطلب شيئاً ما، أنا مستعدّة لتحمّل كلّ نتائجه.

مؤثُ، بنبرةٍ حاسمة:

– **أريدُ عيني الثالثة!**

أُجريت العملية بعد ظهيرة اليوم التالي.

قام فيليب بدور الجرّاح الرئيسي، وساعده رومان وناتالي، اللذان، ولكونهما يعرفانني، حرصا على التدخّل مباشرةً في تركيب هذا العضو الاصطناعي.

طلب فيليب سارفاتي منهما أن يراقبا الأجهزة وأن يعطياه الأدوات اللازمة في اللحظة التي يطلبها. بدا أنّه يعرف تمام المعرفة كلّ حركة ينبغي القيام بها، كما لو أنّه سبق أن أجرى هذه العملية الجراحية عشرات المرات.

قاموا بربطي إلى لوحٍ من الفلين، وحصروا رأسي في دعامة بلاستيكية. استخدم رومان مجزّاً صغيراً لحلاقة شعر جبيني في المنطقة التي سيتمّ إجراء العملية الجراحية فيها. دسّ فيليب أنبوباً في فمي، وغرز في الطبقة الرقيقة من جلد قدمي إبرة معدنية كبيرة. أوجعني ذلك قليلاً.

شعرتُ بتوتّرٍ شديدٍ.

وأخيراً سأحصل على عينٍ ثالثة!!!

همس *فيثاغورس في أذني:*

– اهدئي.

من الغريب أنّ لهذه الجملة باستمرار مفعولاً عكسياً لما هو مطلوب.

شعرتُ بردِّ فعلٍ خارجٍ عن سيطرتي في أذني اليمنى: فقد ارتعشت بحركاتٍ ارتجاجية، في حين ارتجفت قائمتي الأمامية اليمنى.

لامس فيثاغورس خطمي بخطمه ولعق جبيني:

– لدى البشر كلمة لوصف هذا التوتّر قبل اللحظات المهمّة، يسمّونه «رهبة».

حرّك فيليب قارورة لفحت رائحتها الحادّة والكحولية منخاري بقوّة.

– لا أعاني من رهبةٍ.

مرّة أخرى، كشف جسمي أنني أكذب من خلال رعشةٍ خفيفة.

داعبتني ناتالي بوضع إصبع تحت ذقني وتمريره بعكس اتجاه الوبر. عرفتُ أنّها تقوم بهذه الحركة لكي تريحني وتهدّئني، لكنني بقيتُ قلقة. تشوّقتُ لأن أعيش تجربة فتح عقلي.

قال القطّ السيامي:

– لا تخافي.

بدأ يُثير غضبي بهذه الجمل الجوفاء التي تُعطي نتائج عكسية. لم أكن قد فكّرتُ في الخوف، والآن أثار في داخلي فكرة وجود خطرٍ...

كانت جملة «لا تخافي» أكثر تأثيراً حتى من كلمة «اهدئي» إلى درجة أنّها خلقت ذعراً حقيقياً في داخلي.

أعدّ فيليب، المزوّد بقفازاتٍ مطاطية، العديد من الأجهزة التي بدت أنّها مخصّصة للقصّ والقطع والثقب.

حسنٌ، عليّ أن أتذكّر أنّ فيثاغورس قد سبق له أن خضع لهذه العملية الجراحية، وأنّه ليس سوى ذكرٍ رهيف الشعور.

ضغط على المحقن، فتدفّق سائلٌ وردي اللون في أنبوبٍ شفّافٍ يدخل في قدمي.

كلّ شيء على ما يُرام. سيسير الأمر سيراً حسناً. كلّ هذا سيكون مزعجاً بعض الشيء فقط في البداية، ولكنّه سوف ينجح، وستتغيّر حياتي نحو الأفضل بعد ذلك.

شعرتُ بأنني بيدقٌ مهمّ في البحث العلمي من خلال موافقتي على

أن أجرّب بنفسي تقنية لم يتمّ التحكّم بها تماماً بعد. حتى وإن جئتُ بعد فيثاغورس، فأنا رائدة في هذا المجال. كنتُ متشوّقة لإجراء هذه التجربة وفخورة بنفسي. فبفضلها، سوف أفهم على نحوٍ أفضل العالم المحيط بي، وأستطيع التحدّث مع خادمتي.

أنا مثل القطّة فيليست في كبسولتها الفضائية.

يكمن الفارق في أنّ التجربة، في حالتي أنا، سوف تكون حاسمة. تمنّيتُ أن أغيب عن الوعي تدريجيّاً، ولكن يبدو أن الجرعة المخدّرة لم تكن كافية أو أنّ فيليب تصرّف قبل الأوان، لأنني رأيتُ وسمعتُ وأحسستُ بالمثقب الذي اقترب من جبيني.

في اللحظة التي لامس فيها المعدنُ جلدي، ارتعش كلّ شيء في جمجمتي. فاحت رائحة عظمٍ محروق، وراودتني الرغبة في أن أصيح ولكنني ضغطتُ على فكّي لأمتنع عن ذلك.

أنا لا أخاف. أنا قطّة رائدة.

ثمّ، كما كانت أمّي تقول: «لا فائدة كبيرة دون مخاطرة كبيرة».

فعلت المادة المخدّرة فعلها، وغبتُ عن الوعي.

40. هؤلاء العلماء الذين يجرون التجارب على أنفسهم

منْ يكون عالماً لا يعني بالضرورة أن يكون حذراً أو متبصّراً. لقد قام بعض العلماء، في سعيهم إلى إيجاد فئران تجارب على شجاعة كافية أو عديمة الحسّ بالألم، بإجراء تجاربهم على أنفسهم. ونورد هنا بعض الأمثلة. هذا ليس لذوي القلوب الضعيفة!

في عام 1672، أراد عالم الفيزياء الإنكليزي إسحاق نيوتن، الشهير باكتشافه لقانون الجاذبية العامة، أن يعرف كيف تعمل العين البشرية. ولهذا الغرض، غرز إبرةً رفيعةً من الخشب تحت مقلة عينه حتى وصلت إلى خلف المحجر. ثمّ راح يحرّكها في اتجاهات عديدة، ولاحظ أنّ هذا يؤدّي إلى ظهور حلقات ملوّنة.

في عام 1800، أراد عالم الفيزياء الألماني يوهان فيلهلم ريتر، الذي اكتشف الأشعة فوق البنفسجية، أن يفهم تأثير الكهرباء على الجسم. وللتحقّق من ذلك، أوصل الكهرباء بلسانه وأعلن أنّه قد أحسّ بطعمٍ حامضٍ؛ ثمّ أوصل الكهرباء بعينيه ولاحظ أنّ ذلك يُحدثُ غماماً ملوّناً؛ ثمّ جرّب الأمر نفسه على عضوه الذكري فشعر بمتعةٍ كافية لأن تجعله يقول إنّه يرغب في «الزواج من بطاريته الكهربائية». لم يكفّ عن مضاعفة شدّة ومدّة التيار الكهربائي لتنمية تجاربه، إلى حدّ الإحساس بنوباتٍ من الصداع النصفي وحالاتٍ من الغثيان وبشللٍ في أطرافه. مات وهو في الثالثة والثلاثين من عمره.

نحو عام 1802، بينما تسبّب وباء الحمّى الصفراء بموت 5000 شخصٍ في فيلادلفيا في عام 1793، أراد الأمريكي ستابينز فيرث، الذي كان طالباً في كلية الطب، أن يُبرهِن على أنّ هذا المرض ليس معدياً. ولإثبات ذلك، لم يكتفِ فقط بفتحِ شقوقٍ في ذراعه وصبّ قيء مريضٍ بالحمّى الصفراء فيها، بل استنشق القيء وشربه أيضاً. وقد أثبتت تجربته أنّه كان على صوابٍ، لأنّه نجا، وبعد مرور ثمانين عاماً، اكتشف العلماء أنّ هذا المرض نُقِل من خلال البعوض.

في عام 1921، أجرى الطبيب الجرّاح الأمريكي إيفان أونيل كان عملية جراحية لنفسه واستأصل زائدته الدودية: فقد خدّر نفسه تخديراً موضعياً، ثمّ فتح بطنه بمبضعٍ أمام مساعديه المحملقين بذهول. خرجت أمعاؤه وبدأت بعض الممرضات يُصبن بالذعر، إلا أنّه أعاد بنفسه أحشاءه إلى مكانها، وأجرى العملية الجراحية بهدوء، بل نجح في تهدئة وطمأنة المشاهدين القلقين. وقد أصبح الطبيب كان شهيراً بإنجاز هذه الجراحة الذاتية. وفي عام 1932، وبينما كان في الحادية والسبعين من عمره، قرّر أن يُعيد التجربة ذاتها وأن يُجري لنفسه عملية جراحية لفتقٍ أربي. هذه المرّة، كانت العملية أكثر دقّة بكثير من سابقتها وكانت تشي بمخاطر أكثر. خلال التدخّل الجراحي، نجح حتى في المزاح مع الممرّضات.

مات بعد ثلاثة أشهرٍ من إجراء تلك العملية من جرّاء إصابته بالتهابٍ رئوي.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

41. ثقبٌ في الجمجمة

شعرتُ بوخزٍ أليم في جمجمتي.

حينما استفقتُ من تأثير المخدّر، أحسستُ أنّ جرذاً ضخماً قد عضّ جبيني.

شعرتُ بالألم في جمجمتي.

وكلّما تلاشى تأثير المخدّر أكثر، شعرتُ بألمٍ أشدّ ينتشر حتى نهايات مخالب قائمتي الخلفيتين. شعرتُ كأنّ حمماً بركانيةً تغلي وتسري في عروقي.

ما الذي جعلني أرغب في القيام بهذا الشيء؟

أرغب دائماً القيام بأشياء غريبة لا لزوم لها تخلق لي مشاكل أنا بغنى عنها. هذه أنا.

ربّما حان الوقت لأن أترك قيادي لعقلي ولا أنجرّ وراء نزعات لا عقلانية.

اقترب منّي فيثاغورس وهمس:

– هل أنتِ بخير؟

– كلا.

– ربّما كان عليّ أن أحذّركِ وأخبركِ بأنّ هذه العملية تسبّب ألماً. ولكنني أردتُ أن نتشارك هذه التجربة.

كانت الضمادة تحكّ جبيني وتُزعجني، فحاولتُ أن أنزعها بمخالبي. لكنّ فيثاغورس نهاني عن ذلك:

– كلا، لا ينبغي أن تفعلي هذا.

– لا أُطيق أن يلتصق جسمٌ غريب بجلدي.

فنظرتُ إلى نفسي في المرآة. ورأيتُ منظري مرعباً، إذ كان رومان قد

حلق مساحة واسعة من الشعر المحيط بمنطقة العملية! كانت جمجمتي قد أصبحت في نصفها شبيهةً بجمجمة سفينكس!

بضربة خاطفة، نزعتٌ الضمادة وأرعبني ما رأيتُ. كان بين عينيّ ثقبٌ مربّع الشكل تماماً، أصغر حجماً من ثقب جبين فيثاغورس، لأنّه كان عبارة عن قابس يو إس بي دقيق.

كانت حواف الثقب مليئة بالندبات والقيح. دهن رومان الجرح بمرهمٍ، ووضع عليه ضمادةً نظيفة وناولني حبوباً ابتلعتُها دون نقاش.

نظرت ناتالي إليّ وداعبتني وغمغمت بكلماتٍ بشريةٍ على الأرجح أثنت عليّ بها، لأنني سمعتُ اسمي يتردّد عدّة مرّات.

وانطلاقاً من تلك اللحظة، بدأت فترة نقاهتي. كنتُ متشوّقة بنفاد صبرٍ لاختبار قدرات هذه العين الثالثة المؤلمة جدّاً. مرّت الساعات، ثمّ انقضى يومٌ، ثمّ انقضت عدّة أيام.

سرعان ما استطعتُ أن أتناول عصيدةً، ثمّ تمكّنتُ من الوقوف على قوائمي الأربعة وأخيراً أصبح بوسعي أن أسير عليها. وأصبح الألم الحادّ في جبيني في النهاية قابلاً للتحمّل دون أن أتناول الأقراص المسكّنة للألم.

بعد يومٍ آخر من الراحة، لا بدّ أنني سأكون قد شفيتُ تماماً.

تنزّهتُ في حرم الجامعة وعلى جمجمتي ضمادةٌ. عشقتُ تلك القرية.

في بعض الأحيان، داعب البشر المرتدون للبلوزات البيضاء ذقني (لا بدّ أنّ ناتالي قد أخبرتهم بأنني أحبّ هذه الحركة) لكي يهنّئوني. في الحالة الطبيعية، كنتُ سأردّ على ذلك بحكّ جمجمتي لكي أغمرهم برائحتي، ولكن مع هذا الجرح أصبحت تلك المنطقة حسّاسة جدّاً بحيث لم أعد أفكّر مجرّد تفكيرٍ في القيام بتلك الحركة المعتادة.

ومن ثمّ حلّ أخيراً اليوم العظيم. يوم اختبار فعالية عيني الثالثة.

جرت التجربة في مكتب المدير فيليب سارفاتي. جلستُ مثل إنسانٍ في أريكة مفصّلة على حجمي. وإذا ما عانيتُ من تشنّجات، سيتمّ تثبيتي على المقعد بأربطة.

اقتربت يد فيليب. أمسك بالقابس الذكر لكي يُدخله في القابس الأنثى الذي في جبيني.

حاول فيثاغورس أن يطمئنني:

– سترين، هذا ليس مؤلماً.

هذا أمرٌ غريب، ولكن ذكّرتني تلك اللحظة بالمرّة الأولى التي مارستُ فيها الحبّ. أحسستُ أنّ شيئاً خارجياً يدخل فيّ. في البداية، كنتُ مرعوبة، ثمّ بعد ذلك، عندما تغلّبتُ على قلقي، استطعتُ أن أدرك أنّ هذا لم يكن سوى إحساسٍ مختلفٍ عن الأحاسيس التي شعرتُ بها حتى هذه اللحظة.

قام الرجل ذو الشعر الطويل الأبيض بعد ذلك بتوصيل قابس الشريط بالحاسوب وبدأ بالنقر على لوحة المفاتيح.

نصحني القطّ السيامي:

– أغمضي عينيكِ.

استجبتُ لنصيحته. لم يحدث في البداية أيّ شيء غير طبيعي: رأيتُ فقط ضوءاً أحمر عبر جلد جفوني. ثمّ ظهر فجأةً مستطيلٌ أبيض اللون في كامل حقل رؤيتي. في الوسط، ظهرت كلمة مكتوبة عرفتُ من خلالها أنّها الأبجدية البشرية.

يا للمفاجأة، فتحتُ عينيّ فوراً.

وضع فيليب ضمادتين على عينيّ ليرغمني على أن أبقيهما مغمضتين.

بقيتُ أمام الصفحة البيضاء. سمعتُ صوت فيثاغورس.

– هذا شعار محرّك البحث. النظام توقّف مبدئياً على «غوغل» لأنّه الأكثر انتشاراً. يجب أن تعثري الآن على السهم الصغير الأسود.

– أنا أراه الآن.

– ممتاز. اعلمي أننا نستطيع أن نتابع ما ترينه بفضل شاشة مراقبة خارجية.

– ما الذي عليّ فعله؟

– من خلال تفكيركِ، حاولي أن تحرّكيه من الأسفل إلى الأعلى.

ركّزتُ تفكيري وحاولت مرّات عديدة أن أفعل ذلك، لكنّ السهم لم يتحرّك من مكانه.

اقترح فيثاغورس عليّ:

– حرّكي عينيكِ خلف جفونكِ كما لو أنّكِ تتابعين السهم.

لقد نجح الأمر. وأخيراً، انزلق المستطيل نحو اليسار حسب رغبتي.

صرخ فيثاغورس مبتهجاً:

– أحسنتِ! لقد أجريتِ مسحاً أفقياً رائعاً. حاولي الآن أن تفعلي الشيء نفسه من الأسفل نحو الأعلى.

ما إن عرفتُ أنّ هذا ممكنٌ، حتى أصبح التحرّك أكثر سهولةً. لاحظتُ أنّه في بعض اللحظات عندما يمرّ السهم فوق بعض مناطق الشاشة يتحوّل شكله إلى يدٍ بشرية صغيرة مع إصبعٍ ممدودة.

قال مرشدي:

– حسناً، الآن سأريكِ كيف أتصرّف.

أظهَرَ في حقل رؤيتي سهماً ثانياً أحمر اللون هذه المرّة.

– أمّا هذا السهم، فهو أنا. أنا موصولٌ إلى نفس الحاسوب الذي أنتِ موصولةٌ إليه. أُنظري إلى ما أفعله.

فانتقل السهم الأحمر مباشرةً إلى برنامجٍ مكتوبٍ عليه «HUMAN / TRANSLATOR–CAT».

ظهر أمامي إطاران. في الإطار العلوي، رُسِم رأس قطّة. وفي الإطار السفلي، رُسِم رأسُ إنسانٍ.

اقترحَ عليّ:

– هيّا، موئي.

وحين مؤتُ، اكتشفتُ أنّ الخطّ يتموّج بنفس الإيقاع الذي يتموّج به موائي. وفي الأسفل، تحرّك خطّ الإطار الثاني هو الآخر. ثمّ سمعتُ صوتَ مواءٍ مباشرةً في جمجمتي.

– صباح الخير، يا باستيت، هذه أنا، أنا ناتالي.

هل يمكن حقّاً أن تكون هذه هي؟

- نعم، يا باستيت، هذه أنا، أنا ناتالي.

هل «سمعتْ» تفكيري؟

متأثّرةً، بدأتُ أتلعثم:

- ص... صباح الخير...

أدركتُ أنني أعيش لحظةً تاريخيةً في حياتي.

أنا أتحدّث مع كائنة بشرية كما لو أنني أتحدّث مع قطّة. وهي تفهم عليّ تماماً بالمقابل، كما لو أنني كائن بشري.

انتابني إحساسٌ جديد (لا بدّ أنّه إحساس النشوة التي يشعر بها كلّ رائدٍ أو مخترعٍ أمام تجربة ناجحة).

أنا أتحاور مع خادمتي البشرية!

قالت لي بلطفٍ وهدوء:

- منذ اللحظة التي اجتمعنا فيها، اعتقدتُ أنّه سيكون من المثير أن تستخدمي للمرّة الأولى عينكِ الثالثة للتحدّث معي...

هل ترفع الكلفة بيننا وتخاطبني بصيغة المفرد؟ حسناً، يجب أن أتغلّب على انفعالي وأن أجيب عليها بشيءٍ ما لخلق حديثٍ بيننا:

- أنا منبهرة جدّاً، يبدو لي كأنّكِ تموئين مثل قطّةً في ذهني مباشرةً، يا ناتالي.

- أنا بنفسي متأثّرة، يا باستيت، إذ يبدو لي كأنّكِ تتكلّمين مثل كائن بشري.

واصلت الحديث معي وهي تناديني باسمي بلا كلفة. لم أشأ أن تُبالغ في رفع الكلفة بيننا، فهي في نهاية المطاف ليست «سوى» خادمتي.

- هذا حلمٌ قديمٌ وقد تحقّق. لا يمكنكِ أن تعرفي عدد المرّات التي جلبتِ لي وجبتي على نحوٍ متأخّرٍ وأغلقتِ عليّ الباب حيث كنتُ أتمنّى لو أستطيع التواصل معكِ لكي أعطيكِ توجيهاتي على نحوٍ أوضح.

- أنا سعيدةٌ بأن تمتلكي الشجاعة في أن تركّبي هذه **العين الثالثة**. لا بدّ أنّ هذا غير مريحٍ بعض الشيء، أليس كذلك؟

– أتساءل كيف استطعتُ أن أعيش من دونها. كانت تنقصني حاسّة من الحواس. لقد انفتح بابٌ في ذهني.

– باستيت، عليّ أن أخبركِ بأنّه منذ أن عرفتكِ على نحوٍ أفضلٍ في الفترة الأخيرة، اكتشفتُكِ وأنتِ تثيرين إعجابي كثيراً.

– وأنا عليّ أن أعترف لكِ، يا ناتالي، بأنني بدأتُ أُعجَبُ بكِ منذ أن عشنا هذه المغامرات معاً. بالنسبة إليّ، لستِ كأيّ كائن بشري عادي، وإنّما أنتِ أنثى استثنائية.

– لم يعد لدينا المزيد من الوقت لنضيّعه. يجب أن تتعافي بسرعة، لكي نذهب ونساعد رفاقنا في جزيرة المدينة.

– ما الذي تفكّرين فيه؟

– ليست لديّ حلولٌ جاهزة، ولكنّ ربّما يمكنكِ أنتِ، بفضل عينكِ الثالثة، أن تجدي طريقة لإنقاذنا. يجب قبل كلّ شيء أن تجرّبي كلّ إمكانات جهاز التفكير الجديد خاصّتكِ.

سأل كائنٌ بشريٌّ آخر:

– كيف تسير الأمور، يا ناتالي؟

– على نحوٍ ممتازٍ، يا رومان. أتحدّث بطريقة مباشرة مع باستيت وهي تفهم ما أقوله.

تبيّن لي أنّه حينما يتحدّث بشرٌ آخرون، تتمّ ترجمة حديثهم إلى مواءٍ على نحوٍ تلقائي وتصلني الترجمة بطريقة مفهومةٍ تماماً. استأنفت خادمتي الكلام.

– هل هناك أشياء ترغبين في تعلّمها، يا باستيت؟

– لقد أخبرتِني بأنّه حتى نكون نحن القطط بمستوى البشر علينا أن نجمع ثلاثة مفاهيم ألا وهي الفكاهة والحبّ والفنّ، أليس كذلك؟

– هذا صحيح. في الحقيقة، بالنسبة إليّ هذه هي المفاهيم التي تميّز البشر عن الحيوانات الأخرى.

– حسناً، أعتقدُ أنني قد فهمتُ الفكاهة، ويبدو لي أنني حقّقتُ تقدّماً في مفهوم الحبّ، وبالتالي، أريدُ الآن أن أفهم الفنّ على نحوٍ أفضل.

انطلاقاً من الحاسوب، أظهرت ناتالي في ذهني بعض اللوحات والمعزوفات الموسيقية والأفلام.

أكّدت لي أنّ هذه من روائع الثقافة البشرية. بيد أنّ شيئاً منها لم يلامسني فعلياً.

ظلّ ما يعجبني هو ما كنتُ أعرفه سابقاً: كالاس وفيفالدي وعلى نحوٍ خاصّ يوهان سيباستيان باخ.

قالت خادمتي وهي محبَطَة بعض الشيء من عدم انجذابي إلى الحداثة:

- يجب أن أجد وسيلةً للتأثير عليكِ.

فكّرت قليلاً، ثمّ أظهرتْ فجأةً صورةً أخرى.

- ماذا ترين؟

- دائرة زرقاء على خلفية سوداء.

- هذا هو بالضبط. هذا عملٌ يُدعى بيغ بلو.

- أهذه لوحة؟

- في الحقيقة، هذه صورة للكوكب الذي نعيش عليه، الأرض.

حينما علمتُ ما هذه الكرة، شعرتُ باضطرابٍ. علّقت ناتالي، قائلةً:

- كما ترين، ما يبدو مجرّد صورة يمكنه أن يأخذ بعداً مختلفاً حينما نفهم مدلولاته وأبعاده. هذا هو الفن.

كلّما أمعنتُ النظر إلى هذه الصورة، أحدثت لدي إحساساً لم تكن له أيّ علاقة بالخوف أو بالغضب أو بالرغبة الجنسية أو الضحك. كان إحساساً مختلفاً تماماً. أيكون هذا هو الإحساس الفنّي؟ مؤتُ، منبهرةً:

- هذا جميل...

- هذا كوكبنا. برأيي، هذا هو الأجمل من كلّ الأعمال الفنيّة. أنا سعيدةٌ بأن أستطيع أن أقدّمه لكِ أخيراً.

أحسستُ فجأةً بأنني أكثر قوّة من ذي قبل. بدا لي أنّ قدرة الفن هي لتغذية التفكير بغية توسيع آفاقه. لقد امتلكتُ بفضل هذا العرض الاستثنائي تصوّراً

شاملاً لكوكبي، كما لو أنني استطعتُ التحليق فوقه. أنا كائنٌ صغيرٌ جدّاً على هذه الكرة الزرقاء الضخمة التي تطوف في الكون.

ترنّحتُ. في الحقيقة، أنا مجرّد كائنٍ صغير جدّاً وجاهل في كونٍ مدهشٍ ومعقّدٍ للغاية.

كم هو ضروريٌّ في بعض الأحيان استخدام التكنولوجيا الأكثر تطوّراً من أجل الوصول إلى مستوياتٍ أخرى من الوعي.

42. عملية الهريرة الصوتية

لقد استُخدِمتِ الحيوانات غالباً من قبل الجيوش، سواء كانت الأحصنة التي استخدمها اليونانيون في نشر الأغصان والأعشاب المشتعلة بقصد إيقاد الحرائق في منازل الأعداء، أو الحمام الزاجل لنقل رسائل سرّية أثناء الحرب العالمية الأولى، أو الكلاب المدرّبة التي كان دورها كشف المواد المتفجّرة خلال الحرب العالمية الثانية، وحتى الدلافين المدرّبة لوضع القنابل على بواخر العدو... ولكن قلّ من يعلم أنّ القطط أيضاً استُخدِمَت لأغراض عسكرية.

في عام 1961، في أوجِ الحرب الباردة، وافق ريتشارد هيلمز، مدير وكالة المخابرات المركزية سي آي إيه على مبادرة مبتكرة سمّيت «Acoustic Kitty»، التي يمكن أن نترجمها بعبارة «الهريرة الصوتية». أُجريت عملية جراحية لقطٍّ، بحيث تمّ زرع لاقط صوتي دقيق جدّاً في قنال أذنه، ومُدَّ هوائيٌّ صغير على طول عموده الفقري وصولاً إلى ذيله، ورُكِّبَت بطارية في بطنه.

وكان الهدف هو إرسال القطّ إلى السفارة الروسية بهدف التجسّس على المحادثات الداخلية التي تجري في السفارة.

وإذا كان القطّ قد نجا من عملية تحويله إلى جاسوسٍ محترف، فقد أظهرت الاختبارات أنّ هذا الحيوان يخرج عن السيطرة حينما يجوع.

ولذلك قام الأطبّاء البيطريون التابعون لوكالة سي آي ايه بإجراء

عملية جراحية لدماغ القطّ من أجل استئصال المنطقة المسؤولة عن الشهية. وقد نتج عن ذلك برنامجُ ترويضٍ كامل من المفترض به أنّ يحوّل «الهريرة الصوتية» إلى قطٍّ مطيع.

وقد كّلفت هذه العملية 10 ملايين دولار.

وقد تكفّل بهذه المهمّة بوب بايلي، الذي يُعدّ أفضل مروّض للحيوانات في عصره (وقد تكفّل أيضاً بأمر الدلافين التي كانت وكالة سي آي إيه تستخدمها). وقد شرح بعد ذلك: «لقد روّضنا القطّ ودرّبناه على أن يستمع إلى المحادثات بين البشر».

بعد خمسة أعوام من العمل والتجارب، وضِع الهرّ المزوّد بالتقنية الفائقة في حديقة قريبة من السفارة الروسية في واشنطن. ولكن ما إن أُطلِقَ، بدا الهرّ الصوتي مشوّشاً ومخطئاً لاتجاهه: بدل أن يدخل إلى السفارة، راح يتنزّه على الطريق حيث دهسته في الحال سيارة أجرة.

المسافة الكلية التي قطعها: 300 مترٍ.

حسب الوثائق المحفوظة التي رُفِعَت السرية عنها في عام 2001، لم يستسلم علماء وكالة سي آي إيه قط. وقد قاموا بمحاولات وتجارب عديدة أخرى انتهت جميعاً بالفشل. ولم يكفّوا عن ذلك إلاّ في عام 1967، حينما تمّ رصد 20 مليون دولار لعملية لم تحقّق أيّ نجاحٍ، ولذلك تخلّوا في النهاية عن القيام بهذه المحاولات.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

43. مشكلة صغيرة

إنّ إدراك حقيقة العالم المحيط بك هو تجربة مزعزعة للاستقرار. لستُ متأكّدة من أنّكم ستتحمّلونها. ولذلك من الأفضل خوض هذه التجربة والسير فيها على مراحل. من جهتي، عليّ الاعتراف بأنّه بعد فتح عيني الثالثة،

اكتشفتُ أنني لم أكن أعرف شيئاً. يمكنني الآن أن أقدّر مدى جهلي وسعة المعطيات التي عليّ أن أفهمها لكي أُدرك من أنا وأين وفي أيّ عصرٍ أعيش.

أشعر بأنني كنتُ عمياء وبأنني وضعتُ تدريجياً أمام الضوء. كنتُ أعيشُ في الوهم والأكاذيب التي أرويها بنفسي، وفي النهاية أصدّقُها.

لم أكن أعرف أيّ شيء.

وهأنذي بدأتُ أرى الواقع وأفهمه. هذا مؤلمٌ بعض الشيء ولكنّه أيضاً مشوّقٌ ومبهج.

بصراحة، لو عُرِضَ عليكم أن تُجرى عليكم تجربة تجعلكم أكثر ذكاءً، لا تتردّدوا، ووافقوا على ذلك، فالأمرُ يستحقُّ هذا العناء. بالنسبة إليّ، لستُ نادمة فعلاً على خضوعي لتلك العملية.

خلال الساعات التي تلت أوّل اتصالٍ لي بالحاسوب، لم أكتشف على أيّ كوكبٍ أعيش فحسب، بل أدركتُ أيضاً مع أيّ كائن بشري رائع أمضيتُ حياتي.

أمّا ناتالي، فكلّما تحاورنا أكثر، تبيّن لي أنّها أنثى في غاية الحساسية والرقّة. وكانت روحها متشعّبة للغاية بحيثُ كنتُ أقول في نفسي، في بعض اللحظات، إنّه إذا كانت نظرية فيثاغورس حول تناسخ الأرواح صحيحة، هناك فرص قويّة بأن تتحوّل إلى قطّة في حياتها المقبلة.

كيف تصفون ما تعلّمتُه بفضل عيني الثالثة؟

كنتُ مقتنعة قناعة راسخة بأنّ العالم قد بدأ في عصر ولادتي. حسناً، لكم أن تتخيّلوا أنّ هذا خطأ وأنّ كلّ شيء قد بدأ قبل ذلك بكثير. لم أكن قد أصبحتُ هريرةً بعد عندما كانت أمورٌ كثيرة قد أُنجِزَت بالفعل. بالنسبة إلى القطط، بالنسبة إلى البشر، ولكن حتى بالنسبة إلى أنواعٍ أخرى، مثل الديناصورات التي انقرضت منذ زمنٍ طويل.

لاحظتُ أنّ العالم المحيط بي أكثر قدماً ممّا كنتُ أعتقد. كما أنّه أوسع من كلّ ما كنتُ أتخيّله: فهو يضمّ جبالاً ومحيطاتٍ وشطآناً وصحارى حارّة، وجليداً على مدى البصر في القطب الشمالي.

هل كنتُم تعلمون أنّ ثمّة أماكن حارّة جدّاً بحيث لا يكون فيها أيّ أثرٍ للنبات أو الرطوبة؟ وثمّة أماكنُ أخرى باردة جدّاً بحيث يتجمّد كلّ شيءٍ فيها فوراً.

لكن هذا ليس كلّ شيء: بفضل الإنترنت، اكتشفتُ أنّ الكرة الأرضية ليست الكوكب الوحيد في الكون، بل هناك كواكب عديدة!

كلّ اكتشافٍ أكتشفه هو بالنسبة إليّ نهمٌ، ويصبح عقلي متعطّشاً لمعلوماتٍ جديدة.

فهمتُ الفرحة التي عاشها فيثاغورس معي. كنتُ أعيشُ في عالمٍ منبسطٍ ذي بعدين؛ وانتقلتُ إلى عالمٍ واضحٍ ثلاثي الأبعاد. كان موطني محدوداً في الزمان والمكان، والآن أصبح فضاءً بلا حدود يضرب جذروه في أزمنة سحيقة.

ماذا تقولون بعد في اكتشافاتي؟

تعلّمتُ أنّه كانت هناك، في السابق، قططٌ ضخمةٌ تُرهِبُ البشر. وقد وجدتُ على نحوٍ خاصّ في موسوعة العلم النسبي والمطلق كلّ أنواع الطرائف المثيرة. على سبيل المثال، قصّة «آكلي البشر في منطقة تسافو».

كما وجدتُ اكتشافات صغيرة أخرى في موسوعة العلم النسبي والمطلق: هناك أمراض خاصّة بالقطط، على سبيل المثال «متلازمة توم وجيري»، حيث يُصاب الشخص -وهو قطٌّ- بتشنّجاتٍ إذا ما سمِعَ ضجيج أكياس رقائق البطاطس أو ضجيج النقر على لوحة مفاتيح الحاسوب أو صوت النقر على فأرته. وأيضاً «متلازمة ناطحات السحاب»، التي تصيبُ بعض القطط التي تعيشُ في الطوابق العالية جدّاً والتي نراها تقفز في الفراغ دون سببٍ. وأخيراً، هناك المتلازمة التي تُرعبني أكثر من سواها، وهي «متلازمة باندورا»، حيث يبدأ القطّ بالتبوّل بانتظام خارج صندوقه الخاصّ بالتبوّل والتغوّط.

ولكن لا بأس، بما أنّ رواية كلّ ما يُذهلني سوف تستغرق الكثير من الوقت، دعونا نعود إلى خادمتي. بمساعدةٍ من البروفيسور رومان ويلز، لم تكفّ ناتالي عن العمل على تحسين التفاعل بين البشر والقطط لكي تصبح

الحواراتُ بيننا سلسة وفورية تماماً. وبفضل عملهما، لم تعد، في تواصلنا، تلك اللحظة الوجيزة من التأخير التي كانت سابقاً.

أتكلّم فتفهم عليّ فوراً، وتتكلّم هي فأفهم عليها فوراً.

كانت الكُرة الصغيرة المغطاة بوجهٍ مضادٍ للصوت والمركّبة على قابس يو إس بي خاصّتي المثبّت على جبيني تسمح لي، تماماً مثل فيثاغورس، أن أتحادث عن بعد ودون أسلاكٍ وأن أسمع مباشرةً جملها مترجمَةً إلى مواءٍ في رأسي. وكلّما تحدّثتُ مع ناتالي أكثر، شعرتُ بأنني كنتُ جاحدة وناكرة للمعروف. ربّما لأنني كنتُ أحقدُ عليها بسبب تواطؤها في قتل صغاري، لم أحبّها فعلاً في السابق. كنتُ مخطئة.

أمّا هي، فكانت تحبّني حبّاً جمّاً. وكلّما تحاورتُ معها أكثر، أظهرت لي بوضوح محبّتها الصادقة. وقد أدركتُ أنّها لم تفعل شيئاً سوى التصرّف مثل بقية البشر (وأنّها، على سبيل المثال، لم تكن تعي حجم الألم الذي تسبّبت به لي من جراء قتلها لصغاري. بنفس الطريقة التي كانت تحبّ بها فيليكس ولم تتصوّر بأنّ استئصال خصيته، دون أن تسأله عن رأيه في ذلك، قد يؤثّر عليه!)

مع خادمتي، تكلّمنا من جديد عن المفاهيم الثلاثة التي وضعتني في تحدّي اكتشافها: الحبّ والفكاهة والفنّ.

بالنسبة إلى الحبّ، أدركتُ أنّه في صيغته البشرية، يحتوي على بعدٍ مجرّدٍ غير جنسيّ (وبالتالي هذا غريبٌ للقطط) لم أكن قد اختبرته. بالنسبة إلى ناتالي، على سبيل المثال يُمكن للأنثى أن تحبّ ذكراً دون أن تمارس معه الجنس (الأمر الذي بدا لي تافهاً). وأنا التي كنتُ أعتقد أننا نحن القطط عاطفيات وأنّهم، هم البشر، يرغبون فقط في إشباع رغبات حيوانية... أمّا بالنسبة إلى الفكاهة، فقد حثّتني على أن أعتاد على الضحك من كلّ المواقف التي تبدو محرجة. أخيراً، وفيما يخصّ الفن، بعد صورة الكوكب من الفضاء، أرتني بعض صور السُدم التي بدت لي هي الأخرى كأعمال فنية رائعة.

تحدّثتُ لها عن اكتشافي للشفقة وهي أخبرتني أنّ هذا الشعور ليس منتظماً عند البشر. لم يشعر بعض أبناء جنسها بأيّ شفقة على الآخرين، فضلاً عن أنّ بعض البشر قساةٌ دون سببٍ ويستلذون برؤية الآخرين يتألّمون.

حدّثتني ناتالي أيضاً عن مبدأ الصداقة. قالت لي إننا الآن ونحن نستطيع أن نتناقش على قدم المساواة يمكننا أن نصبح صديقتين. قلتُ لها إنني أفضّل حالياً ألا نستعجل الأمور كثيراً وإنني سوف أستمرّ في اعتبارها «خادمتي المفضّلة». ضحكتْ وقالت لي إنّ الصداقة قد تأخذ وقتاً لكي تُبنى، وإنّها سوف تراعي المراحل الضرورية. نبّهتُها إلى أنّه لا ينبغي عليها أن تيأس وبأنني على الأرجح سأنتهي ذات يومٍ إلى أن أمنحها صداقتي ولكن هذا يبدو لي الآن سابقاً لأوانه بعض الشيء.

أخذت نقاشاتنا، ناتالي وأنا، في بعض اللحظات منعطفاً يمكنني أن أصفه، الآن بعد أن عرفتُ معنى الكلمة، بمنعطفٍ «نفساني». سألتها لماذا لا تُقيم علاقات جنسية مع رومان وهنا أيضاً انفجرتْ ضاحكةً -أتصوّر لكي تكسب وقتاً- وأجابتني بأنّ الأمر عند البشر أكثر تعقيداً ممّا هو عند القطط.

سألتها عن هذا الموضوع، وحدّثتني عن ماضيها. قالت إنّها كانت تحبّ والدها كثيراً، ومنذ أن مات، تشتاق إليه كثيراً. وعندما تمضي وقتاً مع رجلٍ، لا تستطيع الامتناع عن البحث فيه عن أبٍ بديلٍ، ولكنّها لا تجدُ أبداً شخصاً طيّباً مثله.

قلتُ لها إنني، من جهتي، لا أعرف حتى منْ هو أبي وإنني لا أبالي بهذا الأمر.

مرّة أخرى جعلها جوابي تبتسم.

قالت لي إنّها خجولة وحذِرة، وإنّها تعتقد إذا كانت صداقة حقيقية تستغرق وقتاً، فإنّ حبّاً حقيقياً يتطلّب وقتاً أكثر. اعترفت بأنّها وجدت رومان لطيفاً جدّاً، ولكنّها أضافت أنّها ليست مستعجلة وأنّها تنتظر لترى كيف ستتطوّر علاقتهما بشكلٍ طبيعي.

نصحتُها بأن تعرض مفاتن جسدها لكي تثير الذكور وأجابتني بأنّ البشر ممنوعون عن ذلك بدافع ما يسمّونه «الحشمة»، والحشمة نوعٌ من المنع الذي لا يُجيز للأنثى أن تُظهِرَ رغبتها في ممارسة الحبّ مع ذكرٍ.

ثمّ حان دوري لكي أسخر. قلتُ في نفسي إنّ الإناث البشرية اللواتي وافقن على هذه الفكرة، خدعن أنفسهنّ.

– إذاً، أنتنّ تكتفين بانتظار أن يعبّر شريككنّ عن رغبته، دون اتّخاذ أيّ مبادرة للإغراء؟

حدّثتني عن الوضع العامّ للإناث البشرية اللواتي يجدن أنّ من واجبهنّ الاعتناء بالأطفال والعناية بشؤونهنّ المنزلية وإعداد وجبات الطعام وعلاوة على ذلك العمل خارج المنزل. روت لي ناتالي أنّ في بعض البلدان يتمّ بيع الفتيات الصغار إلى مسنّين أثرياء أو إرغامهنّ على الزواج رغماً عن إرادتهنّ.

وفي بلدانٍ أخرى، ليس لديهنّ الحقّ في الذهاب إلى المدرسة، وعليهنّ البقاء محتجزات في البيت لا يمكنهنّ السفر إلا بإذنٍ من أزواجهنّ، بل ولا يستطعن الخروج من البيت إلّا بعد أن يتغطّين بأنسجةٍ تُخفي جسدهنّ.

غريبٌ كم تبدو لي البشرية عالماً متناقضاً يتجاور فيه الذكاء الأكبر مع الغباء المزري الأكبر. يبدو لنا في بعض الأحيان كأنّ البشر يستخدمون قدراتهم ضدّ أنفسهم. أو على الأقلّ ضد إناثهم.

ذات مساء، بينما كنّا نفكّر، ناتالي وأنا، في حركة نسوية جديدة ذات طابعٍ قططي قد تمنح القليل من قيم القطط للجنس البشري، حدثت ظاهرةٌ غريبة. ظهرت رسالة أمام عينيّ مكتوبة بالأبجدية البشرية:

«**الله أقوى من العلم**».

ثمّ رأيتُ أرقاماً تتسلسل أمامي:

«5... 4... 3... 2... 1...»

وانطفأت الشاشة تماماً. فتحتُ عينيّ. ذُعرتْ ناتالي. سألتُ:

– أهذا عطلٌ بسيط؟

أجابني القطّ السيامي:

– كلا، هذا ليس عطلاً بسيطاً. هذا عطلٌ كبيرٌ عالمي. انقطعت شبكة الإنترنت!

غادرت خادمتي في الحال وجرى بشرٌ آخرون في كلّ الاتجاهات. في جامعة أورسيه، بدا جميع العلماء فزعين. بعد الاستفسار عن الوضع، عاد فيثاغورس نحوي منخفض الذيل.

– لقد تمّ استهدافنا بفايروس أطلقه متطرفون دينيون، يُدعى «**الله أقوى من العلم**». يريدون أن يستغلّوا الضعف البشري العالمي لكي يفرضوا شرائعهم على آخر الناجين. إنّهم يعارضون معارضةً شديدة العلم والتقدّم، ويفضّلون أن يعيش البشر محرومين من الحرية وخاضعين لسلطة رجال دينٍ يُفترَض أنّهم يخضعون هم أنفسهم لسلطة كيانٍ إلهي ابتدعوه لكي يُشرعنوا جميع أفعالهم دون أن يضطرّوا لتبريرها.

– والإنترنت يضايقهم في تنفيذ مشاريعهم؟

– إنّ التواصل والتعلّم يجعلان من الصعب التلاعب بعقول الناس. ولذلك خرّب المتطرفون الدينيون الإنترنت ودمّروه بفعل فايروسٍ.

وبينما كنتُ أفكّر بفداحة هذه الكارثة وأحاول أن أخمّن نتائجها، حلّت كارثةٌ ثانية. دوّى صوتُ انفجارٍ قادمٌ من قاعة الحواسيب. وتضاعف الذعر أكثر بيننا جميعاً. ظلّ فيثاغورس هو المطّلع على الأمور عن كثب، وشرح لي:

– وسط الارتباك الذي أحدثه العطل العالمي، قام رجلٌ موجودٌ في الجامعة بتفجير كلّ نظام المعلومات في جامعة أورسيه ثمّ لاذ بالفرار.

اتّجهنا نحو المنطقة المنكوبة وصادفنا في الطريق رومان ويلز وهو يركض في نفس الاتجاه. توقّف، مذهولاً، أمام الصندوق المعدني، وفتحه وأفرغه.

قال فيثاغورس:

– هذا ما كنتُ أخشاه.

– اشرح لي، من فضلك.

– أعتقد أنّ أحدهم قد استغلّ الارتباك العامّ لكي يسرق فلاشة اليو إس بي التي تحتوي على موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة (م.ع.ن.م.ش).

بدا رومان ويلز منهاراً. لحقت به ناتالي. سمعتُ حديثهما.

– هذه كارثة حقيقية! لقد اعتنق مساعدي الدين مؤخّراً. كنتُ أسمعه يؤدّي صلواته وهو ينحني على الأرض ويتوجّه إلى المشرق. لم أستطع أن أتخيّل قط أنّه سيذهب إلى حدّ أن يسرق منّا ذاكرتنا!

سألت ناتالي:

- ولكن لماذا فعل هذا؟

- لكي يحتكر المتديّنون وحدهم المعرفة. ثمّ إن في الموسوعة كراريس تدريبية خاصّة بصناعة أسلحة، بعضها شديدة التدمير. هذا الجزء من العلم هو ما يهمّ المتديّنين.

انضمّ إلينا فيليب، وقال:

- أعتقد أنني أعرف أين يتواجد كريستوف الآن.

أجاب رومان، وفي عينيه بصيص أملٍ:

- أخبرنا بذلك، بسرعة.

- لقد اكتشف بعض مستكشفينا في جهة الجنوب مصنعاً كيميائياً للمنتوجات الصناعية الخاصّة بالتنظيف حيث يتجمّع المتطرّفون، في منجى من الجرذان. وهو يبتعد من هنا مسافة عشرة كيلومترات، ليس بعيداً عن سجن فلوري ميروجي.

تصرّف رومان مباشرةً:

- يجب علينا الذهاب إلى هناك في الحال!

- لن نصل قبل كريستوف.

- إذاً، سوف نتصرّف حالما نصل إلى المكان. في النهاية، يا فيليب، هل لدينا خيارٌ آخر؟ لا يمكن أن نترك المخزن الوحيد للمعارف بين أيدي المتديّنين! إذا ما تركناهم يفعلون ما يريدون، سوف يسود التطرّف ما تبقّى من البشرية وسوف نعود إلى عصور الظلام. منْ سيرافقني؟

التفت رومان نحو بقية الرجال المرتدين للبلوزات البيضاء.

- أكرّر سؤال: منْ **سيرافقني؟**

أسبل الجميع عيونهم.

- لا أحد؟

أجاب أحدهم:

- أنا آسف، يا رومان. المتطرّفون متسلّحون ببنادق الكلاشينكوف، وهذه مهمّة انتحارية.

- حسناً، سوف نتسلّح، نحن أيضاً.

– هناك بينهم الكثير من المجرمين الفارّين من السجن القريب الذين وجدوا في التعصّب الديني مخرجاً لهم. إنّهم ليسوا أولاد المذبح، ولا بدّ أنّه سبق لهم أن قتلوا عدداً كبيراً من الناس. هم لديهم خبرة في القتال، وليس نحن. علينا أن نكون واقعيين، لن نتغلّب أبداً على هؤلاء البلطجية.

– الذكاء إلى جانبنا.

– ليس للذكاء أيّ جدوى حينما يتعلّق الأمر بإيقاف الرصاص. إنّ من شأن أسلحة بدائية بكميات كبيرة أن تنتصر على فرقة صغيرة من المثقّفين الأذكياء، مهما كانت الخطط جيّدة.

همستُ في أذن فيثاغورس:

– إنّهم خائفون، أليس كذلك؟

– نعم، أنا أيضاً أشعر بذلك.

كان رومان فزِعاً.

إلا أنني، وأنتم تعرفونني، لستُ من النمط الذي يستسلم بسهولة، فتدخّلتُ في الأمر. طلبتُ من ناتالي أن تترجم ما سأقوله لأبناء جنسها:

– بما أنّه لا بدّ من فعل شيءٍ ما وبما أنّه لا أحد يُريد المجازفة بذلك، أنا سأفعل ذلك. أنا، باستيت، القطّة، أنا مستعدّة لأن أساعدكم في استعادة الموسوعة الشاملة، ولكن بشرطٍ واحدٍ ألا وهو أن يأتي رومان بعد ذلك ويركّب نظاماً للحماية مكوّناً من الأسلاك الشائكة المكهربة حول جزيرة المدينة.

لم يؤدِّ مقترحي إلى إثارة الحماسة التي كنتُ أتوقّعها. بادر المدير فيليب سارفاتي إلى الكلام:

– أنتِ لستِ إلّا قطّة...

– بالضبط! لا يتوقّعون أن تذهب قطّة بسيطة لشنّ حربٍ صليبية. أنا أفضل جاسوسة لأنني أستطيع أن أتحرّك وأتصرّف بمنتهى السرّية وسط الظلام. في هذه الحالة حيث لا يستطيع كائنٌ بشري أن يمرّ، يمكن لقطّة صغيرة أن تنجح.

بدا الجميع منقسمين فيما يتعلّق باقتراحي، ولكن لأنّه لم يكن هناك أيّ اقتراحٍ آخر، انتهى رومان إلى الردّ على اقتراحي:

– أوافق على اقتراحكِ، يا باستيت. إن جئتِ معي لاستعادة الموسوعة الشاملة، سوف أساعدكِ في حماية جزيرتكِ.

لم يرغب فيثاغورس في الانضمام إلى فرقتنا الخاصّة؛ ولكي يبرّر موقفه، اختلق ذريعة ألا وهي إن متُّ أنا، سيكون عليه أن يبحث عن حلولٍ لجماعتنا التي يحدق بها الخطر.

كان خائفاً.

فانطلقنا، فقط أنا ورومان، بدرّاجة هوائية. اختبأتُ في حقيبته الظهرية، مع مختلف الأدوات والمعدات التي قد تساعدنا في مهمّتنا. سرنا في دروبٍ ضيّقة متعرّجة في البراري. صعدنا بعض التلال وعبرنا بعض المناطق الأكثر تشجيراً. وأخيراً، توقّف رومان وأسند دراجته الهوائية إلى شجرةٍ.

قال في السمّاعة الأذنية المُتَرجِمة:

– هذا هو المكان.

أخرج منظاره.

– إنّه بالفعل مصنعٌ كيميائيٌّ للمنتوجات الصناعية الخاصّة بالتنظيف.

رأيتُ مبنى ذا سقفٍ متموّجٍ تخرج منه مدخنةٌ كبيرة. ولوحة مكتوبة تشير إلى اسم المكان.

– لماذا يُقيم المتطرّفون الدينيون في هذا المكان بالتحديد؟

– لأنّهم يجدون في هذا المصنع وسيلةً للدفاع عن أنفسهم في مواجهة الجرذان. أُنظري.

أراني بإشارةٍ من إصبعه حفرةً تحيط بالمصنع، مليئة بسائلٍ مائلٍ إلى اللون الأخضر.

شرح رومان لي:

– هذا ليس ماءً، إنّه حمض كلور الماء. هذه المادّة لديها القدرة على إذابة كلّ ما يدخل فيها.

وعندما دقّقتُ على نحوٍ أفضل، رأيتُ المئات من الهياكل العظمية للجرذان على ضفاف الحفرة المليئة بالسائل. سرت رعشةٌ رهيبة في جسدي.

– كيف يدخلون إلى هذا المصنع ويخرجون منه؟

- أتصوّر أنّهم يقيمون نظاماً لجسرٍ متحرّكٍ فوق الحفرة، مثل القصور المحصّنة في العصور الوسطى.

عاين رومان المكان بانتباهٍ ودقّة. وبعد مضي بضع دقائق، اقترح، قائلاً:

- دعينا لا نهاجم الآن، فلننتظر حتى هبوط الليل. سوف يمكننا الدخول إلى المصنع والتصرّف بسرّية تامّة.

تحسّس منظاره.

قلتُ له:

- أنا سعيدةٌ للغاية بموافقتك على أن تنقذ رفاقنا في جزيرة المدينة.

- انتبهي، يا باستيت. يجب أن تدركي أنني لا أستطيع أن أضمن أيّ شيء: حتى بوجود الأسلاك الشائكة المكهربة، سوف تفرض مشكلة التموين نفسها. يجب أن نجد ليس وسيلة للدفاع فقط، وإنّما أن نجد أيضاً حلاّ لتأمين المؤونة أو طريقاً للفرار.

راقبتُ جيّداً هذا الرجل ذا النظارات الزرقاء. كانت لديه القدرة على التنبؤ بالصعوبات التي لم أكن قد أدركتُها حتى تلك اللحظة.

- حلٌّ لمسألة الفرار؟ ما الذي تفكّر به؟

- أنتِ، يا باستيت، نجحتِ في مغادرة جزيرة المدينة، كيف فعلتِ ذلك؟

- لقد غادرنا باستخدام منطادٍ.

- باستخدام ماذا؟

- كما تعلم، هذا البالون الضخم المليء بالهواء الساخن، يُدعى منطاداً، أليس كذلك؟ فهو في النهاية تقنية بشرية، حسب ما يبدو لي.

ابتسم.

- هذه فكرة عبقرية. لم تكن لتخطر في بالي قط.

- ولكننا لم نكن سوى ثلاثة أفراد: كائن بشري، وهو ناتالي في هذه الحالة، وقطّان. هناك، لا بدّ أنّ المئات من القطط بالإضافة إلى عشرات البشر قد ظلّوا هناك ويجب نقلهم.

زمّ رومان ويلز فمه في إشارة إلى تفكيرٍ عميق.

- حسناً، في هذه الحالة لا بدّ من صنع منطادٍ أكبر حجماً، مزوّدٍ بنظامٍ

للتوجيه أكثر دقّة. هذا الشيء موجود وهو يُدعى منطاداً ذا محرّك أو سفينة هوائية. في فترةٍ من الفترات، كان هناك بعض هذه المناطيد التي استطاعت أن تنقل العشرات بل المئات من المسافرين إلى مسافات بعيدة جدّاً.

– هل تعتقد أنّه سيكون بوسعنا أن نصنع منطاداً لإجلاء البشر والقطط من جزيرة المدينة؟

– ولمَ لا؟ هناك مخططات لطريقة بناء المناطيد في الموسوعة الشاملة. سوف نعود إلى جامعة أورسيه لكي نجمع المواد الضرورية: غاز الهليوم والألياف الاصطناعية. كما أننا ستتمكّن من بناء سلّة للمنطاد من الألياف الزجاجية.

أطلق تنهيدةً، ثم تابع حديثه:

– ولكننا نعود دائماً إلى نفس المشكلة: علينا أوّلاً أن نستعيد الموسوعة الشاملة.

وأخيراً هبط الليل. بعزيمةٍ لا تلين، حثثتُ رومان على الانتقال إلى التحرّك العملي.

– أنا سأذهب إلى هناك. لن يكون عليك سوى أن تلقي بي من فوق الحفرة. سوف أنزل بالطريقة الصحيحة وفي المكان الصحيح.

– كلا، لن تستطيعي التعرّف على كريستوف كما لن تتمكّني من العثور على الموسوعة الشاملة إذا ما كان قد أعطاها لأحدهم. يجب أن نذهب إلى هناك معاً. ولكن لا تقلقي يا باستيت، لقد تحسّبتُ لكلّ شيء. لقد جلبتُ معي نظارات ذات أشعة تحت الحمراء تسمح لي بالرؤية في الظلام مثل قطٍّ.

أخرج آلة غريبة من حقيبته الظهرية.

– وكيف ستعرف إلى أين تذهب.

غمزني بعينه.

– لقد تخيّلتُ مسبقاً أنّه يمكن لهذا الخلل أن يحدث. لذلك وضعتُ جهازاً إرشادياً في فلاشة اليو إس بي. وهو يعمل على شبكة الاتصال واي فاي، ولكن أيضاً بالبلوتوث. لم تعد شبكة الاتصال تعمل لأنّها مرتبطة

بالإنترنت ولكنّ البلوتوث مستقلّ. وهذا يعني أننا ستتمكّن من كشف مكانه عندما نصل إلى بعد عشرات الأمتار منه.

– ولعبور هذا الخندق، ما الذي تخطّط له؟

– القفز بالزانة. وهذا يشتمل على استخدام عصا طويلة لكي نقفز بها إلى الأعلى ولمسافة معيّنة.

– لا يبدو لي أنّ هذه الطريقة مضمونة تماماً.

– لا تقلقي، يا باستيت، لقد مارستُ هذه الرياضة في المدرسة الثانوية.

وجد غصناً طويلاً جرّده من الأوراق والأغصان الفرعية الرفيعة ليصنع منه زانةً. وما إن اكتملت هذه التحضيرات، تقدّمنا حتى وصلنا إلى حافة الخندق. من حسن حظّنا، لم تكن هناك دوريات حراسة.

أثارت الرائحة النفّاذة لحمض كلور الماء المنبعثة من الحفرة خطمي. حبستُ أنفاسي. اختبأتُ في الحقيبة الظهرية.

اندفع رومان ويلز، وغرز رأس زانته في الأرض، ثمّ قفز فوق الخندق. اندفعنا فوق السائل الأخضر الذي كانت أبخرةٌ تنبعثُ منه.

أتمنى أن ينجح هذا.

حطّ رومان برشاقة على الحافة الأخرى للخندق. سعلتُ سعالاً خفيفاً بسبب انبعاثات الحمض، ولكنّه أشار عليّ أن ألتزم الصمت.

بلعتُ ريقي وأفهمته أننا نستطيع مواصلة التقدّم، وأنني سألتزم الصمت.

كان المدخل مسدوداً بساترٍ من أكياس الرمل، ولكن لحسن الحظّ، بغياب البشر، استطعنا أن نعبر هذا الحاجز.

على الجانب الآخر، وجدنا آلات ضخمة مع أنابيب تمتدّ حتى السقف. على الأرض وفي الممرّات، رأيتُ أيضاً المئات من الرجال الملتحين يرقدون على الأرض، نائمين. كانوا يشخرون بصوتٍ واحدٍ تقريباً.

كانت تفوح من المتطرفين الدينيين رائحة العرق والقذارة أشدّ مما تفوح من العلماء.

أشعرُ بأنّ الحرب لا تُلهم النظافة الجسدية مثلما يُلهمها العلم.

أنا أعلم أنني مهووسة بعض الشيء، لكنّ النظافة هي المعيار الأوّل الذي أحكم من خلاله على الآخرين.

تقدّمنا بصمت. كانت هناك أسلحة في كلّ مكانٍ تقريباً: بنادق وسكاكين وسيوفٌ ورماحٌ. أخرج رومان هاتفه الذكيّ لكي يكشف عن إشارة جهاز الإرشاد في فلاشة الموسوعة الشاملة.

فاتّجه نحو نقطةٍ محدّدة كانت تفوح منها أيضاً رائحة العرق بقوّة. كان الشخص عبارة عن كتلة من الشحوم بلحية طويلةٍ سوداء.

كان يرتدي العديد من القلائد الذهبية. في طرفِ واحدةٍ من تلك القلائد، تعرّفتُ على فلاشة اليو إس بي الزرقاء الغامقة ذات النجمة والتي تحتوي على الموسوعة الشاملة.

اقترب منه رومان ببطءٍ شديد، في حين قمتُ بالحراسة والمراقبة، وانحنى بحذرٍ شديدٍ لكي ينزع بصمت القلادة من عنق صاحبها البدين. حبس أنفاسه كي لا يتعرّض لخطر كشف أمره.

بكثيرٍ من الحذر، استعاد الموسوعيٌّ الأداة النفيسة، ولكن، عندما تراجع، داس على ذنبي. لا أدري كيف الأمر بالنسبة إليكم، أمّا أنا، فإذا كان هناك شيءٌ أكرهه، فهو أن يدوس أحدهم على ذنبي.

ولأنّ البشر يعدمون هذا الذيل، لا يدركون بالتأكيد ما نشعر به، نحن القطط، في هذه الحالة. الأمر بسيطٌ جدّاً، لا نعود نفكّر، ولا نعود نتحكّم بأنفسنا. على أي حال، رغم الحذر الأقصى المطلوب في هذه اللحظة، أنا شخصياً، لا أستطيع أن أتمالك نفسي.

كان الألم شديداً جدّاً إلى درجة أنني أطلقتُ صيحةً قويّة.

44. ثورة آيات الله في إيران

في عام 1941، اعتلى الشاه محمد رضا بهلوي عرش إيران الذي تركه والده شاغراً. ما كاد يصل إلى العرش حتى شرع في العمل على وضع برنامجٍ لتحديث البلاد: قام ببناء المدارس والجامعات، وأطلق سياسةً

للتطوير الصناعي، وأنشأ الموانئ لاستقبال ناقلات النفط. وسمح للنساء بتلقي التعليم في المدارس.

في عام 1976، أُعلنت «الثورة البيضاء». ألغى الشاه النظام الزراعي الذي كان يحابي كبار ملاك الأراضي لكي يُعيد توزيع هذه الأراضي على صغار الفلاحين. وجد الملالي الذين كانوا يملكون أراضي شاسعة أنّ وارداتهم قد انخفضت ونظّموا صفوفهم لإسقاط النظام القائم.

بموازاة ذلك، كانت إحدى نتائج سياسة التحديث هذه ظهور طبقة برجوازية متعلّمة اعتقدت أنّه يجب تسريع عملية دمقرطة البلاد لكي تسير عملية التطوير على نحوٍ أسرع.

فوجد الشاه نفسه واقعاً بين نارين: رجال الدين الذين يتحكّمون بالعناصر الأقلّ تعليماً والأكثر فقراً، والطلبة المتلهّفين إلى تطوير البلاد لكي تصبح أكثر ليبراليةً مثل الأمم الأوروبية.

بعد النجاة من عدّة هجمات، حاول الشاه الاحتفاظ بالسلطة عبر سياسة أكثر صرامةً نفذّها جهاز الشرطة الخاصّ به.

في عام 1978، نزل الطلاب إلى الشارع. في عام 1979، سقطت حكومة الشاه وغادرت إلى المنفى، واستولى آية الله الخميني، البالغ سبعة وسبعين عاماً آنذاك، على السلطة ونصّب نفسه «المرشد الأعلى».

تحوّلت إيران، التي كانت تتهيّأ للانتقال تدريجياً من نظامٍ ملكي إلى نظامٍ يسترشد بالديمقراطية، إلى بلدٍ ثيوقراطي (أي دولة تُحكَم من قبل رجال الدين) بدون معارضة، وبدون حرية الصحافة، ويُحكَم من قبل شرطة دينية مطلقة الصلاحيات والسلطات. وأصبح المذهب الشيعي دين الدولة.

تعرّضت الطوائف الدينية المسلمة السنّية، وسواها من الأديان إلى الاضطهاد أو بكلّ بساطة قُمِعَت (كالبهائيين مثلاً). وتقلّصت الحريات الفردية. ولم يعد من حقّ النساء أن يكشفن عن شعرهنّ أو أيّ جزءٍ من

جسدهنّ عدا وجوههنّ. وتمّ حظر التنزّه على شخصين من جنسين مختلفين، إلا إذا كانا متزوّجين. وفي حال الإقدام على تصرّفٍ يُعتبرُ غير لائقٍ، تكون العقوبات التي تنتظر المخالفين عقوبات جسدية قد تصل إلى حدّ الإعدام العلني.

أسفرت الإدارة الاجتماعية والاقتصادية السيئة والفساد عن الاستياء الشعبي واحتجاجات من لدن الشباب ولكنّها قُمعت بطريقة أكثر عنفاً من عهد الشاه. على سبيل المثال، أسفر قمع المظاهرات السلمية التي خرجت في يونيو / حزيران 2009 عن مقتل 150 شخصاً واعتقال الآلاف. ومع انهيار البلاد اقتصادياً بشكلٍ تدريجي، اضطرّت في عام 1980 لأن تجابه جارتها العراق في حربٍ أوقعت أكثر من مليون ونصف مليون قتيل.

ومع ذلك، استطاع رجال الدين الاحتفاظ بالسلطة واستثمروا في برنامجٍ نوويٍّ وفي حروبٍ خارجية اندلعت على نحوٍ خاصّ في لبنان واليمن وسوريا.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

45. إنقاذ الذاكرة

ضاقت حدقتا عينيّ.

أضاء المصباح السقفي فجأةً، الأمر الذي أعمى، للوهلة الأولى، رومان الذي كان لا يزال يضع نظارته ذات الأشعة تحت الحمراء. بيد أنّ الموسوعي لم يستسلم للإلهاء طويلاً، فتدارك الأمر وهرع نحو المخرج وهو يشدّ بيده على غنيمته النفيسة.

ركضتُ خلفه. دوّت صرخات الإنذار على نحوٍ متواقت في أماكن عديدة من المصنع. كما سُمع أصوات تفجيراتٍ أيضاً، وأزّت طلقات بالقرب من أذنيّ. استفاد رومان من جميع الآلات المعدنية الضخمة ليختبئ وراءها، ويقفز، ويركض في مسارٍ متعرّجٍ.

استيقظ جميع الملتحين وبدأوا بإطلاق صرخات عدوانية ضدّنا. استفدنا من الفوضى العارمة لكي نفلت من مطاردينا.

يا له من شعورٍ غريبٍ أن أرى كلّ هؤلاء البشر الذين لا يعرفونني شخصياً ومع ذلك يعقدون العزم على القضاء عليّ! بدا الأمر بعض الشيء كما لو أنّهم لم يُدركوا أنني كنتُ في مستوى من الوعي الرفيع وأنّ هؤلاء المساكين كانوا يعتبرونني مجرّد حيوانٍ بسيط، مطيعٍ لصاحبي.

كما لو أنني كلبٌ.

ولكن لم يتسنّ لي الوقت لأشرح لهم الفرق بين الكلاب والقطط، وكلّ ما لمستهُ هو أنّها أرادت أن تراني ميّتة وهذا ما أزعجني للغاية.

ركضتُ بسرعة فائقة بحيث تجاوزت قدماي الخلفيتان قدميّ الأماميتين لكي أبتعد عنهم لأطول مسافة.

إنّه نوعٌ من اللحظة الدقيقة والحسّاسة التي لا أتمنى أن تعيشوها. لحسن الحظّ كان الملتحون الذين يلاحقون رومان أكثر عدداً من الذين كانوا يلاحقونني (في الواقع كان عدد الذين يلاحقونه يبلغ ما يقرب من مئة شخص، في حين لاحقني شخصان فقط). أسرعتُ في الجري وأكثرتُ من التعرّجات الحادّة لإرباكهم. ومنذ تلك اللحظة، عرفتُ أنّ غريزتي في البقاء هي التي تقود خطواتي.

قفزتُ فوق مختلف المنحدرات والمرتفعات، وفي إثري الكائن البشري الضخم الذي كان يعلّق فلاشة اليو إس بي في رقبته، والذي لا بدّ أنّه كان زعيمهم.

صاح بصوتٍ حادٍّ ورقيقٍ على نحوٍ مدهش، مقارنةً بجسمه البدين. اعتقدتُ أنّه كان يُطالب بتعزيزاتٍ. عند كلّ ضربة سيفٍ يحاول أن يطعنني بها، كانت رائحة عرق جسمه تهيّج منخاري.

لم تكن تلك اللحظة هي المناسبة لإظهار حساسيتي.

تجنّبتُ ضربة سيفٍ، ثمّ تجنّبتُ ضربةً ثانية، ولكن الثالثة لامست أذني وهذا أفقدني توازني، فانزلقت. ثمّ استعدتُ توازني على السور بفضل أحد مخالبي التي غرزته في الوقت المناسب في الخشب.

رفع الرجل سيفه ليضرب من جديد. كنتُ على وشك السقوط في حوضٍ كبيرٍ يتصاعد منه دخانٌ مليءٍ بسائلٍ أسودٍ تعلو سطحه فقاعات وتفوح منه رائحة حامضة ونفاذة.

هتف صوتٌ في دماغي:

- اقفزي!

كان رومان هو منْ يمرُّ تحتي مباشرةً. أطلقتُ عناني، ولامستُ حوض الدبس الأسود وتلقّفتني يدٌ.

أحسنتَ، يا رومان.

ظهر مهاجمون جدد، وأرغمونا على الشروع في الجري. شعرتُ بأنّ جسمي يسير على نحوٍ أسرع من دماغي. ونَبَضَ الدمّ قويّاً في حلقي.

دخلنا، رومان وأنا، في غرفةٍ، نجح رومان في إغلاق بابها المعدني السميك. وضع أمامه طاولةً، ولكن الرصاصات انهمرت على الباب، تبعها وقوع انفجارٍ.

خرجنا عبر النافذة وصعدنا سلّماً خارجياً لنصل إلى السطح، شبه المنبسط، الذي أتاح لنا أن نجري.

لا أعرف بالنسبة إليكم، ولكنني شخصيّاً أكره هذا الوضع، الذي يسوده الضجيج والعدوانية والتهديدات... كلّ هذا الاضطراب يضرّ بصفائي وهدوئي.

لم تتوقّف الصرخات والطلقات. ظلّ ما يقرب من عشرة ملتحين يلاحقوننا. حتى زعيمهم البدين جدّاً كان يركض سريعاً جدّاً للإمساك بنا. حينما وصلنا إلى حرف السطح، تهيّأت للقفز إلى الأرض، لكنّ رومان تردّد.

فضغطتُ على منطقة ركبتيه لكي أخلّ بتوازنه. لا بدّ أنّ هذا الصبيّ كان محظوظاً لأنّ كدساً من الصناديق خفّف صدمة سقوطه في الأسفل. أمّا بالنسبة إليّ، فقد هبطتُ بفضل إلهامي الطبيعي على قائمتيّ الأماميتين ومن ثمّ الخلفيتين.

نهض رومان قبلي وانطلق نحو الحفرة المحيطة بالمصنع. أمسك بعصا الزانة التي كانت قد أتاحت لنا القفز إلى الطرف المقابل، لم يكن لديّ سوى

الوقت اللازم للقفز على حقيبته الظهرية والتمسّك بها (وغرز مخالبي فيها لكي أتشبّث بها جيّداً) حتى ألقى بنفسه من فوق حمض كلور الماء.

خلال الثواني التي تلت، انخفض الجسر المتحرّك الذي كان رومان قد توقّع وجوده، وظهرت مجموعةٌ من الملتحين في سيارةٍ جميع مصابيحها مضاءة.

لكنّ رومان وصل إلى درّاجته وبدأ الانطلاق بها. ولكي يسير على نحوٍ أسرع، سلك الطريق المعبّد. صرختُ فيه:

- هذه فكرة سيّئة! من الأفضل أن تسلك الطرق الترابية التي لن تتمكّن سيارتهم من ملاحقتنا فيها.

ولكنّه لم يُصغِ إلى اقتراحي. من المؤسف أنّ البشر لا يفعلون دائماً إلا ما في ذهنهم في حين أنّهم غالباً ما يكونون على خطأ وأكون أنا على صوابٍ.

في الواقع، وكما توقّعتُ، ظهرت سيارة مطاردينا وسارت باتجاهنا. عبثاً حاول رومان أن يسير على نحوٍ أسرع، إذ لا يحتاج المرء إلى أن يكون إنساناً حتى يعلم أنّ السيارة أسرع من الدرّاجة الهوائية.

قلتُ له لكي أشجّعه:

- أسرع!

ضغط على الدوّاسات على نحوٍ أسرع وأجهد نفسه.

- هيا، أسرع!

اقتربت المجموعة أكثر. لم أستطع الامتناع عن التعبير عن مرارتي وحسرتي:

- ها قد تبيّن أنّه كان عليك الإصغاء إلى نصيحتي، سنعرّض أنفسنا للدهس.

كانت السيارة تقترب، وكنّا على وشك أن نقع في أيدي المطاردين، عندما انفجر فجأةً أحد إطاراتها.

لقد أطلق أحدهم النار.

انقلبت سيارة الملتحين على نفسها عدّة مرّات ثمّ استقرّت مقلوبةً على سطحها، في حين ظلّت العجلات تدور في الفراغ محدثةً أزيزاً.

ولدى بحثي عن مصدر إطلاق الرصاص، رأيتُ ناتالي تُخرج رأسها من سيارةٍ أخرى. صرخت فينا:

- اصعدا!

لم يدعها رومان تكرّر نداءها، وأنا كذلك. تركنا الدرّاجة الهوائية على قارعة الطريق واندسسنا في مقصورة الركّاب في السيارة. أقلعنا بسرعةٍ جنونية حتى دون أن نتأكّد إن كان أعداؤنا قد نجوا من تدهور سيارتهم.

كان فيثاغورس موجوداً على مقعد الراكب الأمامي بجانب ناتالي. سألته:

- ماذا تفعل هنا؟

- أنا من نصحتُ ناتالي بأن نلحق بكم بالسيارة حتى نتدخّل في حال دعت الضرورة إلى عملية إجلاء عاجلة.

إنّه من الجنون أن يحتاج هذا القطّ دائماً إلى أن يُظهِرَ نفسه بأنّه أصل كلّ ما يحدث على نحوٍ جيّدٍ. لم أشأ أن أعارضه، ولكن في الوقت نفسه استبدّت بي رغبة شديدة في أن أردّ عليه بأنّه، من دوني، لما كانت هذه المهمّة قد وجِدَت أصلاً، ولما استعدنا فلاشة اليو إس بي، وبالتالي لما كانت هناك فرصة لكي يلعب دور البطولة من خلال مجيئه لإنقاذنا. احتفظتُ بكلّ هذا لنفسي؛ إذ لم يكن الوقت مناسباً بالفعل لتوضيح كهذا.

دوّت أصواتٌ انفجاراتٍ. رأينا أضواء ثلاث سيارات أخرى تتوجّه بأقصى سرعة باتجاهنا.

إذاً، لن ننجو من الملتحين أبداً...

ضغطت ناتالي على دعّاسة الوقود حتى الأخير. قال لها رومان:

- أطفئي أنوار السيارة وضعي النظارات ذات الأشعة تحت الحمراء. انعطفي عبر طريقٍ فرعي.

امتثلت ناتالي لتعليمات رومان، ووضعت نظاراتها التي تسمح للبشر بالرؤية في الظلام، وأطفأت جميع الأضواء في السيارة كي لا تُكشَف. وفي صريرٍ حادٍّ من العجلات، انعطفت ودخلت في طريقٍ فرعي متقاطعٍ مع الطريق الرئيسي.

سرنا لبضعة كيلومترات أخرى وسرعان ما أصبحنا وحدنا.

أعلنت ناتالي:
– أعتقد أننا أضعناهم هذه المرّة بالفعل.
توقّفنا عن السير.
قال رومان:
– لقد وصلتِ في الوقت المناسب تماماً.
أخذ ناتالي بين ذراعيه وتعانقا بحرارة.
سألته:
– هل استعدت الموسوعة الشاملة؟
أفرج رومان عن ابتسامة واسعة وأفرد ببطءٍ أصابع يده ليكشف عن فلاشة اليو إس بي الثمينة ذات سعة واحد زيتا.
قالت:
– يجب أن ننسخ عنها نسخة إضافية بأسرع وقت.
– كلا، سيكون من شأن ذلك المجازفة بأن تقع مخطّطات صنع الأسلحة الموجودة فيها في أيدي الملتحين مرّة أخرى. على العكس من ذلك، يجب أن نحمي جيّداً هذه النسخة الوحيدة.
وفي هذه اللحظة بالذات، تدخّلتُ في الحديث.
– أعتقدُ أنّه سيكون من الأفضل أن أكون أنا من تحمل فلاشة اليو إس بي هذه حول عنقي. في حال وقوع مشاكل جديدة بين البشر، أستطيع دائماً الفرار. من الأصعب بكثير إلقاء القبض على قطّة تقفز في كلّ مكان، وتُجيد التسلّل في الممرّات الضيّقة وتتسلّق الأشجار.
سأل رومان، باندهاش:
– تُريدين أن نسلّمكِ ما هو على الأرجح آخر وعاءٍ لأغلبية معارف البشر؟
فكّرت ناتالي سريعاً، قبل أن تُصرّح:
– باستيت على حقّ. إذا ما ألقى المتطرّفون القبض علينا، سوف يقومون بتفتيشنا؛ ولكنّهم لن يفكّروا في تفتيش طوق قطّةٍ. سوف تتحوّل فلاشة اليو إس بي إلى مجرّد قلادة بسيطة.

بعد تردّدٍ، وافق رومان على أن يسلّمني ما يعتبره أغلى كنوزه. وقد حرص فقط على أن يُزيل صورة النجمة البيضاء باستخدام سكينة جيب كي لا يعود من الممكن التعرّف عليها. ورسمت ناتالي باستخدام أحمر الشفاه خاصّتها قلباً صغيراً للتمويه.

صنعتُ قلادة بوساطة رباطٍ ووضعت الفلاشة حول رقبتي.

أصبحتُ فخورةً بنفسي أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

بهذه الطريقة، أصبحتُ، أنا، باستيت، أحمل كلّ معارف البشرية على صدري.

قالت خادمتي وهي تقود السيارة على طريقٍ جانبي:

– لم يعد لدينا المزيد من الوقت لنضيّعه، إذ من الممكن أن يأتي متطرّفون آخرون. علينا الآن أن نعود إلى الطريق الذي يؤدّي إلى جامعة أورسيه.

سرنا حتى طلوع الشمس. لكنّ أحد إطارات السيارة انفجر فجأةً، ثمّ انفجر الإطار الثاني، وأخيراً الإطارات الأربعة. ضربت ناتالي بقوّة بقدمها على دوّاسة الفرامل. انزلقت عربتنا وتعرّجت قبل أن تتوقّف في مكانها.

نزلنا واكتشفنا أنّ الأرض مزروعة بالمسامير.

صاح رومان:

– هذا فخٌّ!

سحبت ناتالي في الحال البندقية التي كانت تحملها معها ومسحت المنطقة المحيطة بنا بحثاً عمّن يُحتمل أن يكونوا قد وضعوا هذه المسامير. وسرعان ما رأينا عيوناً ثاقبة بين الأجمة. ولكن بينما كنّا نخشى ظهور ملتحين جدد، تبيّن لنا أنّ المسؤولين عن هذه الأحبولة من نوعٍ مختلفٍ تماماً. كانوا أناساً وجوههم مجرّدة من الشعر وبشرتهم وردية وعيونهم زرقاء.

تفوّهوا بكلماتٍ لم نستطع، لا أنا ولا البشر، أن نفهمها.

كانت كلماتهم تصدرُ صوتاً يشبه «سغروييي، سغروييي».

خنازيرٌ!

إنّها العشرات من الخنازير التي تقدّمت نحونا، مهدّدةً.

أرادت ناتالي أن تطلق النار عليها لكنّ بندقيتها لم تعمل.

قال فيثاغورس كما لو أنّه خبيرٌ في هذا المجال:

- حدث استعصاءٌ فيها.

اقتربت الخنازير بنظرات عدائية. كان عددها كبيراً جدّاً بحيث لم تكن هناك أيّ فرصة للفرار.

كنتُ أتهيّأ لمقاتلتها حينما لمحتُ ببغاءً أبيض الريش، له عرفٌ على قمّة جمجمته يبرز منه ريشٌ أصفر.

حلّق فوقنا ونطق بلغةٍ بشريةٍ، ثمّ بلغة القطط، الكلمات التالية:

- لا تحاولوا إبداء أيّ مقاومة واتبعونا.

لا أحبُّ أن يُملى عليّ ما يجب أن أقوم به. والأنكى من ذلك عندما يصدر الأمر من طائرٍ بسيط. لكنّ العدد الكبير للخنازير المحيطة بنا أرغمني على أن ألتزم الهدوء.

برفقة الخنازير، تابعنا، أنا ورفاقي، الاتجاه الذي حدده لنا الطائر المدهش الذي يتحدّث بثلاث لغات.

سرنا وحطّ الببغاء على كتف ناتالي. التقطتُ الحديث بين الطائر وخادمتي بفضل سمّاعاتها.

-... أنا ببغاء من فصيلة الكوكاتو، وإذا كنتم تجهلون ذلك، فنحن الكوكاتو الأكثر ذكاءً من بين جميع الطيور. نحن لدينا كفاءة التحدّث بلغات عديدة ومن أجناس مختلفة. علاوة على ذلك، أمتلك ميزةً تجعلني فريداً: لقد رُبّيتُ في مدجنةٍ خاصّة بالببغاوات الناطقة، وكنتُ الأفضل من بين الجميع. لا أجيد اللغة البشرية فحسب، بل أيضاً لغة العديد من الحيوانات الأخرى.

نفخ الطائر الأبيض الثرثار بافتخارٍ حوصلته.

- لقد سمّاني سيّدي باسم شامبليون، في إشارة إلى ذلك الكائن البشري الذي كان يُجيد ترجمة اللغات القديمة التي لا يفهمها الآخرون. ومن مصلحتكم أن تكنّوا لي الاحترام، لأنّكم سوف تحتاجون إليّ.

قاطعته:

- وكيف أمكنك أن تتحدّث بلغة القطط أيضاً؟

أدار عرفه وجذعه نحوي كما لو أنّ هذا السؤال يستدعي جواباً واضحاً. ماءَ بلهجةٍ خاصّة بالقطط الفارسية:

- أنا موهوبٌ عبقري، أجيد التحدّث عملياً بكلّ اللغات، كما أخبرتكم قبل قليل!

أضاءتنا الشمس المشرقة. وصلنا إلى أمام مبنى شبيهٍ بمصنع المنتوجات الكيميائية، ولكن هذه المرّة كان المبنى أعلى وأوسع وأحدث من المصنع السابق بعشرة أضعاف. سألتُ ناتالي:

- ما هذا المكان؟ أهو قصرٌ؟ جامعةٌ؟ مصنعٌ؟ سجنٌ؟

تفحّصت خادمتي المبنى بانتباهٍ ودقّة، ثم قالت:

- هذا مجمّع للصناعات الزراعية - الغذائية، وعلى نحوٍ أكثر تحديداً، مخصّص في جانبٍ منه لتربية الماشية، وفي جانبٍ آخر لذبحها في سبيل الحصول على اللحوم المحضّرة.

لدى اقترابي أكثر، رأيتُ على الواجهة كلمة بشرية وصورة يظهر فيها خنزيرٌ ينتصب على قائمتيه الخلفيتين، تخرج نقانقٌ من بطنه المفتوح ليقدّمها على طبقٍ من فضّة وهو يُفرِجُ عن ابتسامةٍ واسعة.

- فسّري لي، يا ناتالي: هل التربية تعني أن الخنازير تولدُ وتكبرُ هنا؟

- في الواقع، في هذا المصنع، تتكاثر وتنمو. أمّا «الذبح» فيعني قتلها.

- وهنا، هذه الكلمة البشرية، ماذا تعني؟

- هذا اسم ماركة منتوجاتهم: سوسيسونو. وتحته، شعارهم: «سوسيسونو، الخنزير اللذيذ ذو المذاق الأشهى».

- هل تعرفينهم؟

- نعم، إعلاناتهم تُعرَض غالباً على التلفزيون. وفي أحد أشهر إعلاناتهم، يلعب أطفالٌ في حقلٍ ثمّ يتنزّهون مع ذويهم ويستمتعون بتناول الجانبون أو اللحوم المحفوظة أو النقانق. وتمتلك شركة سوسيسونو أيضاً سلسلة للتوزيع مخصّصة في مجال اللحوم المحفوظة، كما لديها فروعٌ أخرى في مجال الدجاج المقلي أو اللحم البقري المفروم. كما أنّهم يصنعون الهوت دوغ الذي يباع في المطاعم الواقعة على الطرق السريعة.

أشارت إلى بناية أخرى مزيّنة بنفس الشعار ولكن بطريقة كتابة مختلفة. فتذكّرتُ أنني قد تناولتُ أنا بنفسي، سابقاً، أقراصاً من النقانق. وقد قدّمتها لي ناتالي آنذاك في نهاية الوجبة في حين أنّها التهمت هي بنفسها كميّة منها بشراهة. وقد وجدتُها لذيذة جدّاً (كانت مالحة ودسمة في آنٍ واحدٍ)، حتى وإن شعرتُ حينها بنكهةٍ غير طبيعية خفيفة. أعتقدُ أنّ ما أعجبني حينذاك هو أنّها كانت أحد الأطعمة البشرية النادرة التي لها مذاق الدم... الشبيه، علاوة على ذلك، تماماً بمذاق دم البشر.

ماءَ الببغاء، متوجّهاً إليّ:

– أنتِ أيضاً لديكِ عينٌ ثالثة، أليس كذلك؟

أجفلني السؤال.

– لماذا تقول «أنتِ أيضاً»؟

أصدر الببغاء طقطقات خفيفة بمنقاره الضخم، ونصّب عرفه وقال وهو ينطق الكلمات بوضوحٍ مفرطٍ لكي يتأكّد من أنّ كلامه مفهومٌ جيّداً:

– لأنّ الذي سيُقابلكِ الآن لديه، هو الآخر، شقٌّ مماثل في نفس المكان.

46. العين الثالثة

في النصوص الهندية القديمة، يُفترَض أنّ لكلّ كائن بشري تسعة «أبواب»، وهي كما في هذه القائمة:

– العينان لرؤية النور.

– المنخران لشمّ الروائح.

– الأذنان لسماع الأصوات.

– الفم لإدخال الطاقة.

– الإحليل لطرح البول.

– الشرج لطرح الفضلات.

ويجب أن يُضاف إليها بابٌ عاشر:

- «العين الثالثة» الموجودة على الجبين بين العينين الأصليين.

هذا الباب العاشر يقدّم معلومات حول المكان والزمان، مختلفة عن التي تقدّمها العينان.

المصريون يسمّون هذه العين الثالثة: «عين حورس».

في اليوغا، والأسرار الهندية، العين الثالثة مرتبطة بالشاكرا السادسة. وفي أيامنا هذه، تتمثّل هذه العين بنقطة حمراء على الجبين تقع بالضبط بين العينين، فوق الحاجبين بقليل.

يُعتقَد أنّ الإنترنت بالنسبة إلى العين الثالثة وصل إلى الغرب في القرن السادس قبل الميلاد. بفضل الفيلسوف اليوناني فيثاغورس، الذي ادّعى أنّ دراسة الرياضيات توقظ هذه الغدّة النائمة وتسمح بالوصول إلى العوالم غير المرئية.

في الطبيعة، نجد هذه العين الثالثة عند بعض الثعابين. وقد تخيّلت ثقافات عديدة أنّ العين الثالثة عند البشر قد تكون عبارة عن بقايا هذه الحاسة البدائية الضامرة: الغدّة الصنوبرية. هذا العضو الذي يقع تماماً في مركز جمجمتنا له حجم حبّة بازلاء وشكل حبّة صنوبر. وقد استطاع العلماء مؤخّراً أن يكتشفوا داخل هذه الغدّة بلورات سداسية الشكل تشبه كثيراً البلورات الموجودة في أذننا الداخلية.

وللغدّة الصنوبرية نشاطٌ ليس معروفاً تماماً حتى الآن. ما يُعرَف عنها الآن، هو أنّها تتلقّى دفقاً دموياً مرتفعاً بشكلٍ غير طبيعي بالمقارنة مع حجمها وأنّها حسّاسة للحقول الكهرومغناطيسية.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

47. شعب الخنازير

قال شامبليون وهو يحلّق فوقنا:

- كما ترون، الأمر ليس كما تعتقدون أبداً.

هزّ ببغاء الكوكاتو وتابع:

– الخنازير حيوانات لطيفة تستحقّ تقديراً أكبر. وخاصّة هذه الخنازير التي تعيش هنا. إنّها بالفعل متطوّرة جدّاً.

سحبنا خاطفونا من الخنازير إلى داخل المبنى بفناطيسها الرطبة وهي تُطلق أصواتاً «سغروييي، سغروييي».

اكتشفنا داخل المذبح. وجدناه عبارة عن صالة لا تزال قضبانٌ مثبّتة في سقفها تتدلّى منها خطافات صدئة. وفي الأسفل، العديد من الأدوات ذات عجلات، والسجاد وسكاكين قاطعة كبيرة، وهي الأخرى غزاها الصدأ. وحول هذه المعدّات التي لا تزال تفوح منها رائحة الموت والدم، تقف المئات من الخنازير ذات البشرة الوردية، والعيون الزرقاء والشعر الأشقر.

اقتُدنا إلى أن وصلنا إلى منصّة مشكّلة من صناديق مكدّسة بعضها فوق بعض. وفي قمّة الكدس، انتصبت أريكة من الجلد يتربّع عليها خنزيرٌ أكثر نحافةً بكثير من الخنازير الأخرى، ويعتمر ما يشبه غطاء رأسٍ.

غمغمت ناتالي:

– إنّه تاجٌ من الورق المقوّى، مثل التيجان التي تُرافق كعكة الملك.

– وما معنى هذا؟

أوجزتْ خادمتي:

– هذا يعني أنّه يعرف ما الذي يعنيه هذا الرمز وأنّه يعتبرُ نفسه ملكاً. ثمّ إنّ أريكته تشبه عرشاً. إنّه يعرف الرموز البشرية للسلطة.

لاحظتُ أنّ جميع الخنازير الحاضرة، لحظة وصولنا إلى المكان، تجمّعت لكي تأخذ مكانها أسفل المنصّة. وقد أُرغمنا على أن نقف، نحن أيضاً، هناك. ومن خلال مراقبته عن كثب، رأيتُ تحت الورق المقوّى الذي يعتمره فوق جمجمته شقّاً صغيراً. لاحظ فيثاغورس أيضاً ذلك، وهمس لي:

– إذاً، لا بدّ أنّه هو... الخنزير الهارب من مختبر أورسيه...

سمعه الببغاء وأجابه:

– في الواقع، كان على اتّصالٍ مع العلماء الذين سمحوا له بالاتصال

مع الحواسيب البشرية. ذات يوم، وصل إلى مذبح سوسيسونو وحرّر كلّ الخنازير. ومن ثمّ نقل إليها معارفه. وفي أعقاب هذه الأحداث أصبح ملكها.

راح الببغاء وحطّ على كتف الملك ذي البشرة الوردية. خنخن هذا الأخير وهزّ الطائر رأسه بارتيابٍ ثمّ طار باتجاهنا وحطّ قبالتنا.

- اسمه أرتور وهو يحرص على أن يُعلمكم بأننا سنجري لكم محاكمةً. إذا ما توجّهتم إليه بكلامكم، يجب أن تخاطبوه بعبارة «صاحب الجلالة». هذه علامة احترامٍ من أصلٍ بشري يتمسّك بها.

انحنيتُ نحو ناتالي وسألتها:

- ما معنى محاكمة؟

- بشرٌ يجتمعون لكي يقرّروا، في نزاعٍ، من هو المحقّ ومن هو المخطئ. وفي النهاية، يتمّ الحكم على الطرف الذي اعتُبِرَ مخطئاً.

- حقّاً؟ وهل يحتاج الأمر إلى الكثير من الناس للقيام بهذا الأمر؟ أنا أعرف من هو المحقّ ومن هو المخطئ دون أن أحتاج إلى جمع أحدٍ.

- لنقل أنّ الهدف، خلال محاكمةٍ، هو أن يصبح الحكم قاطعاً وغير قابلٍ للطعن.

لاحظتُ أنّ الخنازير، وبإشارةٍ من قدم الملك أرتور، قد تحرّكت من مكانها. على يميننا، جلس اثنا عشر خنزيراً على كراسٍ.

شرحت لي ناتالي:

- إنّهم المحلّفون.

وأشارت علينا خنازير أخرى، من خلال دفعنا، بأن علينا أن نجلس على المقعد الطولي على اليسار. وأخيراً، نهض ملك الخنازير وطلب التزام الصمت. حينما بدأ بالخنخنة، خنخنت جميع الخنازير الحاضرة، مصدرةً ضجيجاً من كلمة «سغروييي» مصمّاً للآذان. سألتُ الببغاء:

- ماذا يقول؟

- يقول إننا سنجري محاكمة الكائنين البشريين الجديدين اللذين تمّ أسرهما.

لاحظتُ أنّ لكنته الفارسية تكون أكثر وضوحاً عندما يكون قلقاً.

- وماذا عنّا، نحن القطّين؟

- حتى الآن، لم يبتّ جلالته في أمركما.

شعرتُ بالارتياح. لم تلهمني هذه المحاكمة بحضور كلّ هذه الخنازير المصطفّة على جانبٍ أيّ شيءٍ يستحقّ الذكر. تحدّث ملك الخنازير من جديد ووافقت الخنازير كلّها على رأيه مخنخنةً. ترجم شامبليون حديثه:

- يقول إنّه سبق لهم أن أسروا بعض البشر فيما مضى، وأنّ هؤلاء الأخيرين قد تمتّعوا، هم أيضاً، بالحقّ في محاكمة عادلة. إلا أنّهم لم يُجيدوا إقناع هيئة المحلّفين.

رفع أرتور قدمه وحمل خنزيران أطباقاً عليها أجراسٌ فضّية رفعوها. رأيتُ رأسين بشريين في فمهما حبّة طماطم، وفي منخريهما فصوص ثومٍ، وعلى أذنيهما تنسدلُ باقة بقدونسٍ.

واصل أرتور خطابه وترجم الببغاء كلامه حرفياً:

- يقول جلالته إنّ هذين الكائنين البشريين قد أُدينا باختبار ما أذاقاه للآخرين.

وافقت الخنازير على حكمه بالتصفيق بقوائمها الأمامية.

تحدّث أرتور من جديد، وترجم شامبليون حديثه.

- يقول جلالته إنّه لا يؤيّد، مثل البشر، إدانة منهجية واحدة لجميع الأفراد من نفس النوع. بل يجب النظر إلى كلّ حالة على حدة. وبما أنّ جلالته يعتقد أنّ من حقّ كلّ فردٍ أن يحظى بالعدالة، سوف يكون بوسع الكائنين البشريين الجديدين الأسيرين أن يشرحا موقفهما وأن يدافعا عن نفسيهما شخصياً. وإذا ما استطاعا أن يكونا مقنعين، سوف تُصانُ حياتهما. وإلّا فسوف يُقتلان.

ثمّ أعطى الملك أرتور إشارة من قدمه ليعطي الأمر ببدء المحاكمة.

تقدّم خنزيرٌ شابّ رشيقٌ للغاية نحو مجموعتنا؛ وأصدر أصواتاً أكثر حدّة من صوت الملك.

ترجم شامبليون:

- أمّا هو، فيُدعى بادينتر، وسيكون محامي الدفاع. والذي يقف في مواجهته، هو المدّعي العام سان جوست.

سأل فيثاغورس باندهاش:

- لهم أسماءٌ بشرية؟

- بالطبع. لقد علّمنا جلالته التاريخ.

نهض أرتور. بدأت المحاكمة. تحدّث المدّعي العام، سان جوست، أوّلاً، وترجم شامبليون حديثه ترجمةً فورية.

- قبل كلّ شيء، السادة المحلّفون الأعزّاء، أودّ أن أذكّركم أين نحن الآن: نحن في مذبح. وكانت هذه الخطاطيف المعلّقة بالسقف تُستخدَم في تعليقنا من قوائمنا الخلفية، ورأسنا نحو الأسفل. وكنّا ننتظرُ في هذه الوضعية غير المريحة إلى أن يأتي كائنٌ بشري ويذبحنا لكي يؤخذَ دمنا في أحواضٍ، ثمّ يُصنَع منه النقانق.

عرض المدّعي العام صوراً وكيساً للنقانق المغلّفة بورق الحفظ كأدلّة إثبات على حديثه.

- ثمّ يقوم البشر بسلخ جلدنا ونحن لا نزال أحياء، ليستخدموه في صنع القفازات، والحقائب، وحافظات النقود. أمّا شعرنا، فاستخدموه في صناعة الفراشي والمكانس.

جلب أحد معاونيه حقيبةً كبيرةً أخرج منها الأدلّة. دبّ الصخب من جديد في القاعة وبين المحلّفين. وضعت بعض الخنازير قدمها أمام عينيها كي لا ترى هذا المشهد.

لم يكن سان جوست مستاءً من التأثير الذي أحدثه هذا المشهد، وعلّق بهدوء:

- كان البشر يُخرجون أمعاءنا، ويغسلونها بالصابون وينظّفونها، ثمّ يحشونها بلحم عضلاتنا المفرومة ليصنعوا منها النقانق. وكانوا يطبخون من أفخاذنا وجبة الجانبون المملّح. وكان يخرج من هذا المعمل أكثر من مئة وعشرين صنفاً من المنتوجات: نقانق، سجق، إلخ. كانوا يأكلون حتى أقفاصنا الصدرية في وجبة تُسمى «أضلاع الخنزير»، وقوائمنا في وجبة تُدعى «المقادم» أو آذاننا المشوية. كانوا يعتبرون ما يحضّرونه من لحومنا وجبات شهيّة ولذيذة.

قدّم المّدعي العام المزيد من الصور الموجودة في قوائم الطعام في المطاعم، ومن جديد أظهر الحضور تأثّراً جماعياً من خلال خنخنات الاستياء والاستهجان.

- ولكن، أيّها السيّدات والسادة المحلّفون، كان الأسوأ يحدث قبل القتل. حالما نولَد، نُفصَل عن أمّهاتنا، اللواتي تُخلعُ أنيابهنّ مسبقاً من قبل البشر لمنعهنّ من القيام بقتل أطفالهن. في الحقيقة، كانت الخنزيرات، بحكمتها، تشعر بما كان يجري هنا، ولذلك يحاولن تجنيب ذريّتهنّ الآلام التي تنتظرها.

صمت المدّعي العام لبعض الوقت لكي تؤثّر كلماته أعمق الأثر في الحضور. ثم أردف:

- لا بدّ أنّكم سوف تسألونني: أية آلام؟ سوف أصفها لكم. قبل كلّ شيء، تُحصَرُ أجسادنا في أقفاص معدنية ضيّقة جدّاً بحيث تلامس جوانبنا، وتُثبّتُ ورؤوسنا بين قضيبين معدنيين، وتُدسُّ فناطسنا على الدوام في الطعام. لماذا؟ لكي يرغمونا على أن نسمن سريعاً. تخيّلوا كيف يمكن أن تكون حياةٌ كاملة تقضيها بلا حراكٍ وهدفها الوحيد هو أن تسمن أكثر لكي تنتج لحماً أكثر دسماً وطراوةً. كان هدف البشر هو تحقيق أكبر مردودٍ. بعباراتٍ أخرى، كان هدفهم إرغامنا على النمو إلى أقصى حدٍّ ممكن لدرجة السُمنة وبأسرع وقتٍ ممكن.

سكت المدّعي العامّ سان جوست من جديد حتى يعي كلّ واحدٍ خطورة الوقائع التي يكشفها، ثمّ استأنف مرافعته:

- أتطلّع الآن إلى أن أقدّم لكم الشاهد الأوّل الذي أدعوه للمثول على المنصّة.

في هذه اللحظة، دخل من جهة اليمين خنزيرٌ برّيٌ ذو شعرٍ رمادي.

- ها هو خنزيرٌ برّي عاش في غابة فونتينبلو. هذا هو الخنزير الذي كنّا سنشبهه لو لم يقم البشر بتدجيننا. هذا الخنزير البرّي يذكّرنا بأنّه كان بوسعنا أنا نكون حيوانات حرّة وطليقة، تترعرع في الهواء الطلق، وفق إيقاعها الطبيعي، وتتنزّه وسط الطبيعة لكي تتغذّى وتموت في النهاية بكرامة بسبب

الشيخوخة. اروِ لنا كيف كانت حياتكم، عزيزي الشاهد الأوّل. أعتقد أنّ هذا سوف يهمّ المحلّفين.

– حسناً إذن، في الواقع أنا خنزيرٌ برّي، وكما ترون، لا أزال أحتفظ بفرائي الواقي. عليّ أن أعترف لكم بأنني في المرّة الأولى التي رأيت فيها خنزيراً مدجّناً، صُدمتُ للغاية. لقد وجدتُ من المشين أن يكون جلد الخنزير عارياً هكذا وورديّ اللون ومجرّداً من أيّ شعرة. بالنسبة إليّ، يجب أن يكون لأيّ كائنٍ من فصيلة الخنزيريات فراءٌ، بل وفراءٌ كثيف. حتى ولو كان ذلك ليحتمي من البرد والمطر.

علت صيحات التأييد بين الحضور.

قال أحد الخنازير من بين الحضور، بسخرية:

– في مزارع تربية الخنازير، لم نكن مدمنين فعلاً على متابعة النشرة الجوية.

استعدتُ في تفكيري القطّ سفينكس الذي يشبه، لأسبابٍ مختلفة، هذه الخنازير ذات البشرة الوردية والعيون الزرقاء.

واصل سان جوست الذي لم يشأ أن يجازف بالإلهاء عن القضية:

– تابع، عزيزي الخنزير البرّي.

– بكلّ تأكيد، لدى وصولي للمرّة الأولى إلى هذا المكان، ذُهِلتُ لاكتشاف هذا المذبح ولما يُنتَجُ فيه. حتى وإن كانت هناك أخطارٌ في الغابة، كنتُ حرّاً، وكانت لدي عائلة، وأرضٌ أدافع عنها. كان من واجبي أن أكون قويّاً وذكيّاً. ولا أدين في بقائي واستمراريتي إلا لردود أفعالي وروحي القتالية. أُدين في نجاتي وبقائي على قيد الحياة لخياراتي الخاصّة، في حين أنّكم، أنتم الخنازير التي خالفكم الحظّ في الولادة هنا، فقد حُكِم عليكم دون أن تستطيعوا فعل أيّ شيء للهروب من قدركم المحتوم. العنصر الآخر الذي هزّني لدى اكتشافي هذا المكان هو غياب الأشجار وانعدام الضوء الطبيعي. في الواقع، أنتم الخنازير، عشتم باستمرار تحت الأضواء الاصطناعية المائلة للزرقة والتي تؤذي العيون.

أوضح المدّعي العامّ سان جوست:

- مصابيح النيون! وكان البشر بتشغيلها يسرّعون دورة النهار والليل لكي يخدعوا أدمغتنا ويجعلونا نكبر على نحوٍ أسرع. والآن دعنا ننتقل إلى موضوعنا: ما رأيكَ بالمتّهمين، عزيزي الشاهد؟

- بسبب هذه الاكتشافات، أعتبرُ جازماً أنّ كلّ البشر يستحقون الموت بسبب كلّ الأذى الذي ألحقوه بكم. وبالتالي، أنا أحثّ المحلّفين على التصويت لمصلحة الحكم عليهم بالموت.

حاز الاقتراح على الموافقة العامّة بين حشد الخنازير التي في القاعة، وصفّقت بعض الخنازير مرّة أخرى. ودوّت عبارات التشجيع بكلمة «سغروييي».

كان الشاهد التالي ثوراً أسود اللون. من جديد، ترجم شامبليون حديث الشاهد الجديد:

- لقد جعلني البشر أولَد وقاموا بتربيتي بغرضٍ وحيد ألا وهو أن أسلّيهم في عرضٍ للموت كانوا يسمّونه مصارعة الثيران. ويُقدّم هذا العرض في حلبةٍ واسعةٍ مع مدرّجات بوسعها أن تتّسع لعدّة آلاف من المشاهدين الذين كانوا يدفعون أموالاً لقاء مشاهدة هذا العرض. كان الجوّ جوّ عيدٍ سعيد، يطعن خلالها المصارع رماحاً في ظهر الثيران، وهو يلقى التشجيع من لدن البشر الذين يصفّقون له ويهنّئونه. ونحن ليس أمامنا عملياً أيّ فرصة للفوز في هذه المصارعة. ويمكن لاحتضارنا أن يستمرّ لساعات.

سأل المدّعي العام:

- ولكنّك، أنت هنا الآن. كيف نجوت؟

- لقد صارعتُ ببراعةٍ فائقة بحيث وافق البشر على إعفائي من القتل مكافأةً على بسالتي. من النادر جدّاً أن يتمّ العفو عن ثورٍ، ولكن هذا ما حصل معي، أنا. لقد حظيتُ إذاً بالفرصة الاستثنائية لكي أتمكنّ من أن أشيخ بهدوء. أنا الوحيد الذي حظيتُ، حسب علمي، بهذه المعاملة التفضيلية. ولكنني رأيتُ الكثير من أبناء جنسي وهم يموتون وسمعتُ، وأنا في قفصي، أصوات تصفيق حشود البشر المتحمّسين والمبتهجين الذين كانوا يحضرون مشهد احتضارهم. بعد ذلك، عرفتُ ما الذي فعلوه بالذكور الآخرين الذين انهزموا

في المصارعة: لقد قطعوا آذانهم وأذنابهم، التي قُدّمت كجائزة للقاتل، في حين بيع جسدهم للمطاعم في محيط الحلبة لكي تُقدم لحومهم أطباقاً لذيذة للزبائن. لم تكن هناك أيّ مراسم دفن لائقة لهم، ومن ثمّ كان القاتل يُحمل على الأكتاف كمنتصرٍ وبطل.

هبّت موجة جديدة من الغضب في القاعة. لم يستطع المحلّفون أنفسهم إخفاء اشمئزازهم.

ثمّ استدعى سان جوست إوزّة لتقديم شهادتها.

– من خلال كلّ ما سمعته، أعتقد رغم ذلك أننا، نحن الإوزّ، كنّا نخضع لأسوأ أنواع التعذيب، لأنّه كان العذاب الأطول مدّةً. في الواقع لم يكن البشر قد اعتادوا على احتجازنا في مكانٍ هو الأضيق على الإطلاق فحسب، بل إطعامنا بالقوّة إلى حدّ التخمة لكي تصبح أكبادنا ضخمة، وتُصاب بالسرطان، ويعتبرونها طبقاً فاخراً.

عند هذه الإشارة، بدأت خنزيرةٌ من بين هيئة المحلّفين بالتقيؤ. وأُجليت من القاعة سريعاً. من جديد، دوّت صيحات «سغروييي» في القاعة، وتعالت أصوات الاعتراض.

استدرتُ نحو فيثاغورس، وهمست:

– قطعةٌ من أعضاء الجسم يجهدون أنفسهم لجعلها تُصابُ بالمرض لكي يصنعوا منها طبقاً من الطعام؟ أشعر بأنّ هذه الإوزّة تُبالغ. حتى وإن كان بعض البشر قساة، لا يمكن أن يكونوا منحرفين إلى هذه الدرجة.

ثمّ، استدعى سان جوست شاهداً جديداً، اكتشفتُ أنّه... أنا. تقدّمتُ، متردّدة، ووقفتُ في المكان الذي سمّاه شامبليون المنصّة.

أشار سان جوست إليّ بظلفه.

– أنتِ قطّة ونحن نعلم أنّكم، أنتم القطط، الحيوانات التي تلقى أفضل معاملة من قبل البشر. وبالتالي، ما رأيكِ بشهادات الاتّهام هذه؟

– أتريد الحقيقة، يا صاحب الجلالة؟ حسناً، أعتقد أنّ هناك الكثير من المبالغة في ما سمعناه قبل قليل. في ظلّ هذا الجوّ المشحون، استسلم

بعضٌ لحماستهم لكي يلقوا باللوم على البشر الذين في وضعية دونية. أنا لا أصدّق لا حكايات مصارعة الثيران هذه، ولا حكايات هذه الإوزّات التي يتمّ إطعامها لكي تصبح أكبادها ضخمة.

ترجم شامبليون أقوالي ترجمةً فورية. ضجّت قاعة المحكمة بالسخط والغضب.

تدخّل سان جوست:

- هل أنتِ عمياء؟ ألا ترين الأذى الذي يلحقونه بالمحيطين بهم؟

- لقد آوتنا بيوتهم وحمتنا من المطر، وحمتنا مدافئهم من البرد، وأتاحت لنا أطعمتهم الخاصّة أن نتغذّى دون أن نضطرّ للقيام بالصيد. ثمّ إنّ هناك حليبهم الفاتر في الصباح، ومداعباتهم، و...

قاطعني سان جوست:

- هل تعتقدين أنّ هناك الكثير من المبالغة في ما سمعناه اليوم؟ حسناً، طالما أنّكِ أرغمتِني على ذلك، سوف أسمح لكِ بأنّ تقيّمي الوضع على نحوٍ أفضل بأرقامٍ واضحة ودقيقة. كان عدد البشر 8 مليارات، وكانوا يقتلون، فقط لاستهلاكهم اللحم، 70 ملياراً من الحيوانات كلّ عام! 70 ملياراً!

بدا لي أن هذه الأرقام ضخمة، لكنّ فيثاغورس أشار إلي بإشارةٍ من رأسه بأنّ هذه الأرقام صحيحة.

نظرتُ بفضولٍ غريب إلى الطبق الفضي الذي يتربّع الرأسان البشريان عليه.

- أتفهّم تماماً رغبتكم في أن تُذيقوهما ما أذاقاكم من عذاب...

ففي نهاية المطاف، كنتُ، أنا بنفسي، قد علّمتُ أنجيلو واحدةً من جملي الزائفة: «الحقيقة ليست سوى وجهة نظر»، وحثثته على الدوام على أن يغيّر الحقيقة من حينٍ إلى آخر بعض الشيء مثلما يغيّر البشر ثيابهم، وأضفت: «يجب تغيير الحقيقة حتى لو كان فقط من أجل رؤية الأمور بطريقةٍ مختلفة أو التكيّف مع أوساطٍ أخرى. فهذا يصفّي الذهن».

وبالتالي، تكيّفت مع الوضع. ألقيتُ نظرة خفية على المتّهَمين.

أنا آسفة، يا ناتالي وورومان، أعتقد أنني لن أكون قادرة على أن أقدّم لكما الكثير من المساعدة حول هذه النقطة. ثمّ، وليكن هذا بيننا، هذه اللحظة من حياتي ليست هي اللحظة المناسبة التي أرغب فيها أن أساعدكما. فأنا تحت تأثير صدمة كلّ ما سمعته يُقال عنكما. كنتُ أجهل إلى أيّ مدى جنسكما مجرّد من الشفقة.

هذا ما فكّرتُ فيه، ولكنني لم أُفصِح عنه. ألقى فيثاغورس عليّ نظرةَ استهجانٍ. آه كم أكره تلك اللحظة عندما يحاول أحدهم أن يجعلني أشعر بالذنب. والأسوأ من ذلك، حينما يجعلني ذلك أشعر بالذنب فعلاً، ولذلك استأنفتُ الكلام:

– ومع ذلك...

ظللتُ عالقة عند هذه العبارة لبرهةٍ.

–... ومع ذلك، حتى إذا كنتُ أوافقكم الرأي بأنّ البشر بشعون حقّاً، علي أن ألفت انتباهكم إلى أنّه قد تكون هناك استثناءات. الكائنان البشريان اللذان يرافقانني هنا ليسا مثل أبناء جنسهما المقيتين.

وافقني فيثاغورس الرأي وحثّني بحركةٍ من أذنه على المتابعة في هذا الاتجاه.

– هذان الشخصان الماثلان هنا، أعرفهما جيّداً، لكثرة ما عشتُ إلى جانبهما، ويمكنني أن أضمن لكم أنّهما محترمان جدّاً.

ردّ سان جوست في الحال:

– وماذا تقصدين بكلمة «محترمان»، بالتحديد؟

– لقد عاملتني خادمتي على الدوام بكثيرٍ من الاحترام.

– ولكن ما رأيكِ؟ هل تعتقدين أنّكم، أنتم القططَ، المفضّلون عند البشر؟ الحقيقة أكثر مرارة من هذا. إنّهم يستخدمونكم كدمى بهدفٍ وحيد ألا وهو أن يرتاحوا.

نعم، أعرف: «دُمى». حككتُ ذقني بقدمي اليمنى لأكسب بعض الوقت. كان لا بدّ لي من أن أجد منْفَذاً، فخيرُ وسيلة للدفاع هي الهجوم:

– الحقيقة هي أنكم تغارون منّا. لطالما أحسستُ أنّ الخنازير تحلم بأن تصبح الحيوانات الصديقة للبشر. لكن خاب حلمكم هذا. في الحقيقة، أنتم من أردتم، في الجوهر، أن تصبحوا دمى لهم.

كان التأثير مذهلاً. اختنق سان جوست غضباً.

وضجّت القاعة في الحال بصخبٍ عدواني. نهض أرتور، وبحركةٍ منه استعاد الصمت في القاعة. استأنف سان جوست حديثه:

– هل تعلمين أنّ في باريس، على سبيل المثال، كان مدافعون عن البيئة قد طالبوا بإطلاق حملة للقضاء على القطط؟

– هذا ضربٌ من الحماقة. لماذا كانوا سيفعلون ذلك؟

– رسمياً، من أجل حماية تنوع أجناس الطيور والسناجب والفئران والخفافيش. إذاً، بالتأكيد لم يكونوا ينوون قتل القطط المنزلية، وإنما كانوا يريدون القضاء على القطط الشاردة.

– حملة من أجل قتل القطط على نطاقٍ واسع؟ يصعب عليّ تصديق ذلك.

– ومع ذلك، هذا ما كانوا يتهيّأون للقيام به قبل الانهيار. على سبيل المثال، في أستراليا، أراد بعض المدافعين عن البيئة إبادة ثمانية عشر مليوناً من قطط بلادهم الطليقة في الشوارع لأنهم كانوا يعتبرون أنّ القطط تقضي على الحيوانات المحلية وبالتالي، تقوّض الحياة البرية المحلية. والآن ما رأيكِ بذلك، أنتِ التي تحبّين دفء منازل البشر وقرمشة أطعمتهم المقدّمة إليكِ؟

ساد الصخب القاعة من جديد. أطلق الملك أرتور صيحة «سغروييي» مدوّية هدّأت المجلس، قبل أن يقترح الانتقال إلى مرافعة المحامي.

عدتُ إلى مكاني وسألتُ القطّ السيامي:

– كيف وجدتَني؟

– كنتِ ممتازةً.

بالطبع كنتُ ممتازةً. فأنا دائماً ممتازة.

حان الآن دور بادينتر لكي يقول كلمته. وقف الخنزير الشابّ النحيف أمام ناتالي ورومان.

سأل محامي الدفاع:

- هل أنتما نباتيان؟

ترجم ببغاء الكوكاتو وانهمر الجواب:

صاحت ناتالي في الحال:

- نعم، بالطبع!

أكمل رومان:

- منذ ولادتي، لم أذق قط طعم اللحم! كان والداي نباتيين. وكانت رضاعتي تُملأُ بحليب الصويا.

تابع بادينتر:

- إذاً، لم تتلوّث يدا هذين الكائنين البشريين بدماء أخوتنا وأخواتنا ولم تمتلئ معدتهما بها. انظروا إلى أحذيتهما: إنّها ليست مصنوعة من الجلد.

لحسن الحظّ، كان ناتالي ورومان ينتعلان أحذية رياضية مصنوعة من مواد اصطناعية.

احتجّ سان جوست:

- نعم، ولكنّهما لم يفعلا شيئاً لمنع تربية الحيوانات، والجزارة، واستهلاك لحوم الحيوانات. إن لم يكونا قاتلين أو مستهلكين للحم الحيواني، فإنّهما، على الأقلّ، متواطئان.

لم يفقد بادينتر توازنه:

- لقد تركتُك تتحدّث، دعني إذاً أتحدّث أنا أيضاً. وأيضاً دع شهودي يتحدّثون. أدعو إلى المنصّة... الثور.

فوجِئ كلّ الحضور بهذه الدعوة بعد الوصف الذي قدّمه هذا الأخير عن مصارعة الثيران. وقف الحيوان الضخم أمام القاضي، وبدأ المحامي باستجوابه:

- اذكر لنا لماذا ولِدتَ.

- من أجل مصارعة الثيران، كما ذكرتُ قبل قليل.

– إذاً، البشر هم من جعلوك تولَد لإحياء عروضهم من المصارعة، أليس كذلك؟

– هذه هي الحقيقة.

– هذا يعني أنّه، لولا هذه العروض، لما كنتَ قد ولدتَ حتى. لا أنت ولا كلّ الثيران الأخرى من أصدقائك. هل توافق على هذه النقطة؟

– نعم، ولكن...

– في الحقيقة، بما أنّكم لستم مشهورين بمذاق لحمكم الذي يُعتَبَر، كما أعتقد، قاسياً بعض الشيء بالنسبة إلى البشر، فمن دون مصارعة الثيران، كان جنسكم سينقرض بكلّ بساطة. مثل الماموث والأُرخُص.

ضجّت القاعة بصيحات «سغروييي» أكثر حدّة، بيد أنّ بادينتر واصل مرافعته، هادئاً، دون اضطراب:

– الحقيقة القاسية هي التالية: يعود الفضل إلى البشر في وجودكم. أعتقد أنّ الحدّ الأدنى من العرفان بالجميل يتطلّب ليس قتلهم بل تقديم الشكر إليهم لحفاظهم على حياة هذا الفرع من الجنس البقري الذي، لولاهم، لكان قد انقرض بكلّ تأكيد منذ زمنٍ.

قاطعه سان جوست:

– هذه حجّة زائفة ومضلّلة! مكان الثيران في الطبيعة لكي تقفز فرحاً، لا أن تُستخدم في عروض مصارعة الثيران.

– سيّدي القاضي، لقد ذكرت سبعين ملياراً من الحيوانات التي تُقتل كلّ عام. ولكن ما الفائدة من هذه المليارات السبعين من الحيوانات إن لم يكن هناك بشر؟ اعترفوا بذلك: ما كانت لتولَد حتى. والحال أنّها، بفضل انهيار الحضارة البشرية، سوف يمكنها أن تتكاثر بحريّة أينما تشاء. هذه هي حالنا نحن جميع الموجودين هنا، من خنازير وأغنام ودجاج وإوزّ. لقد ولِدنا بفضل البشر. إذاً، لقد أساءوا معاملتنا وأذاقونا العذاب وفصلونا عن صغارنا، وحبسونا، وسرّعوا نموّنا، ولكننا موجودون بفضلهم! أرجوكم أن تفكّروا بكلّ فصائل الحيوانات التي انقرضت لأنّها لم تكنّ تهمّ البشر. فلنفكّر لبرهةٍ في هذه الحيوانات: الأسد الأوروبي، الدبّ الرمادي

المكسيكي، سلحفاة ألدابرا العملاقة، وطائر الدودو الذي كان يعيش في جزيرة ريونيون...

قاطعه سان جوست:

- لقد نسيت أن توضّح بأنّه إذا كانت هذه الفصائل من الحيوانات قد انقرضت، فذلك بالتحديد لأنّ البشر قاموا باصطيادها، ودمّروا مصادر غذائها أو بيئتها.

أمر الملك أرتور بضرب قدمه الخلفية على الأرض:

- أنهِ مرافعتكَ التي يمكننا أن نصوّت عليها.

- حسناً، كشاهدٍ ثانٍ، أودّ استدعاء... القطّ فيثاغورس.

هيّا لنَرَ إن كنتَ أقوى منّي.

وقف القطّ السيامي في مواجهة المنصّة. توجّه إليه بادينتر، قائلاً:

- أعتقدُ أنّ لديك نفس الثقب الذي لدى صاحب الجلالة.

- أمم، نعم... يبدو أننا قد خضعنا لنفس العملية الجراحية في أحد مختبرات جامعة أورسيه.

- هل يمكنك أن تذكّرنا فيما تفيدُ هذه الفتحة؟

- هذه عينٌ ثالثة، تتيح الاتصال بحواسيب البشر من أجل الوصول إلى معلوماتهم.

- إلى أيّ معلومات؟

- حسناً، إلى كلّ المعلومات. أقصد في الأوقات العادية، لأنّه منذ فترة حجب فايروسٌ الاتصال بالإنترنت.

- إذاً، لقد منحكم البشر فرصة الوصول إلى كلّ معارفهم، هل هذا صحيح؟

- هذه هي الحقيقة.

- كلّ ما استغرقوا قروناً في تعلّمه أصبح جاهزاً لكي يُقدّم دفعة واحدة إلى قطٍّ بسيط... نفس الشيء الذي فعلوه مع خنزيرٍ بسيطٍ... هو ملكنا!

ضجّت القاعة بصيحة «سغروييي» بصوتٍ واحدٍ. وقف أرتور أمام عرشه وأشار إلى المحامي بظلفه المشقوق.

– إلى أين تريد الوصول، أيّها المحامي؟

– هل تعرفون الكثير من الأجناس الكريمة بما فيه الكفاية لكي تسمح لجنسٍ آخر بالوصول إلى كلّ معارفها التي حصلت عليها بصعوبة كبيرة؟

ردّ سان جوست في الحال:

– أنا أعترض، يا صاحب الجلالة! لم يفعلوا هذا بدافع الكرم، بل لكي يقوموا بإجراء تجارب يزعمون أنّها علمية. الذين لديهم ثقبٌ في جبينهم ليسوا مستفيدين سعداء من المعارف البشرية، بل ضحايا!

تدخّل أرتور:

– أكمل، عزيزي الشاهد، دون أن تخضع لتأثير مزاجية المدّعي العام.

أخذ القطّ السيامي وقته وعبّر عن موقفه وهو ينطقُ بفصاحة بالغة:

– الكائن البشري الذي أخضعني لهذه الاختبارات، ويدعى صوفي، التي قرّرت في النهاية أن تأخذني إلى بيتها وعاملتني بالفعل معاملةً حسنة.

سأل الملك أرتور:

– وما هو الحكم الذي تنصحون به على هذين البشريين؟

– صاحب الجلالة، أنا أفضّل أن يتمّ الصفح عنهما. أنا أعتقد أنّ حسناتهما أكثر من سيّئاتهما. ومن جهتي، أنا أسامحهما. ويبدو لي أنّ العفو سمة نوعٍ متطوّر.

ختم بادينتر:

– شكراً لك على شهادتك الحكيمة جدّاً، يا سيّد فيثاغورس.

أراد سان جوست أن يُدلي برأيه بدوره، لكنّ الملك أعلن أنّ المحاكمة استغرقت وقتاً طويلاً جـدّاً؛ فضرب بالمطرقة وأمر بفضّ جلسة هيئة المحلّفين.

بقينا ننتظر في صمت عودة المحلّفين الاثني عشر.

في هذه الأثناء، قلتُ في نفسي إنّه، عندما أُقيم مملكتي، سيكون من المهمّ أن أمتلك أنا أيضاً علامة مميّزة من نوع العلامة الموجودة في تاج أرتور. سيكون عليّ أن أحمل شيئاً ما يدلّ بوضوح على تفوّقي على الآخرين. شيءٌ يكون مرئياً من بعيد ويوحي على نحوٍ تلقائي بالاحترام.

ليس بالضرورة أن يكون تاجاً من الورق الذهبي. وأوّل ما ورد إلى ذهني، كان ما يحمله أباطرة الرومان: تاجٌ من الغار. أنا متأكّدة من أنّ ورق الغار سوف تناسب كثيراً عينيّ الخضراوين. أو الأفضل من ذلك، أن أضع شيئاً يوحي بالأنوثة أكثر ويُظهرني كقطّة: تاجٌ من الزهور. زهرةٌ يمكن لرائحتها القويّة أن ترتبط بمملكتي.

لقد وجدتُها. ورودٌ حمراء.

نعم، سوف أُقيم مملكتي حول التمثيل الرمزي لحالتي ومكانتي. تاجٌ من الورود الحمراء على رأسي، وطوقٌ يحتوي على كلّ معارف البشر حول رقبتي. وسوف أطلب أن ينادوني بصاحبة الجلالة عندما يتحدّثون إليّ، كما يفعلون تماماً مع ملك الخنازير.

أرى من المهمّ أن تكون هناك صيغة تذكّر من هم أدنى مكانةً منّي منْ يكونون ومنْ أكون أنا.

«الملكة باستيت الأولى»؟

«ملكة القطط»؟

*نعم سيكون هذا رائعاً. «**ملكة القطط**».*

وأخيراً، عاد المحلّفون إلى القاعة وأعلنوا أنّهم جاهزون لإعلان حكمهم الذي توصّلوا إليه.

فسأل الملك أرتور:

- منْ يعتقد أنّ المتّهمين أبرياء؟

رفع محلّفٌ واحد فقط قدمه.

- من يمتنع عن التصويت؟

فعل محلّفٌ آخر نفس الشيء.

- من يعتبر أنّ المتّهمين مذنبون؟

رفع المحلّفون العشرة الآخرون قدمهم اليمنى في نفس اللحظة.

أدركتُ أنّ هذه المحاكمة ليست سوى مهزلة، وأنّه ليست هناك على أيّ حال أيّ فرصة ليكون الحكم مختلفاً.

- صوتٌ واحدٌ فقط ضدّ الإدانة، وصوتٌ واحدٌ محايد، وعشرة أصوات لمصلحة الحكم بالإدانة. لقد اعتُبِرَ الكائنان البشريان مذنبين، ولأنّهما كذلك، سوف يكون عليهما الخضوع لما أخضعا أبناء جنسنا له. الموت والتحويل إلى نقانق «بشرية خالصة بنسبة 100%».

صدر صوتٌ:

- مهلاً، يا صاحب الجلالة!

استدرنا جميعاً نحو مصدر الصوت. رفع فيثاغورس قدمه. سأل أرتور، وهو مستاءٌ على نحوٍ واضحٍ من هذه المقاطعة:

- ما الذي تريده أيضاً، أيّها القطّ؟

- أُطالبُ بتحكيمٍ إلهي.

ويحي، ها هي عبارةٌ جديدة لا أعرفها. وبدا واضحاً أنني لستُ الوحيدة التي تجهل معنى هذه العبارة. حتى الملك أظهر جهله بها. أوضح القطّ السيامي فكرته:

- طالما أنّكم تهتمون كثيراً بالإجراءات القانونية للبشر، لا يمكنكم أن تتجاهلوا أنّ الحكم الإلهي كان عرفاً قضائياً قروسطياً وهو يبدو، في هذه الحالة، ذا معنى.

- ذكّرنا بما هو مقصود من هذه العبارة.

- الحكم الإلهي يعني حكم الله. ويتمثّل هذا بإخضاع المتّهم لبعض الاختبارات، وإذا ما نجا في نهايتها، يُبرّأ.

سأل أرتور، مندهشاً:

- أيّ اختبارات؟

- كان هذا يتوقّف على حالة كلّ متّهم. في بعض الأحيان، كان المتّهم يُرمى في الماء، ويداه موثوقتان. وفي بعض الأحيان، كان عليه أن يسير فوق طبقةٍ من الجمر. ولكن، في غالب الأحيان، كان عليه أن يقاتل في مبارزةٍ خصماً في غاية المهارة والبراعة في القتال.

هزّ الملك - القاضي رأسه في ارتيابٍ.

– وفي هذه الحالة، أيّ نوعٍ من الحكم الإلهي تتصوّره؟

– طالما أنّ الثور يرى أنّ مصارعة الثيران جائرة، أقترح أن يُمنحَ فرصة قتالٍ... بأسلحةٍ متكافئة ضدّ البشر.

فكّر أرتور وقيّم صلاحية هذا الاقتراح وجدواه. عدّل تاجه الذي بدأ بالانزلاق جانباً.

– لمَ لا، في نهاية المطاف. ولكن سيكون من حقّ الثور أن يقرّر إن كان يرغب في المشاركة في هذا الحكم الإلهي.

ترجم شامبليون، وفكّر الثور بدوره في الأمر، قبل أن يصرّح، قائلاً:

– حسناً، يا صاحب الجلالة، علي أن أعترف بأنني لطالما حلمتُ بمصارعةٍ للثيران تكون فيها فرصُ الفوز متكافئة بالنسبة إلى طرفي المصارعة.

سأل أرتور:

– وأنتما، أيّها البشريان، هل توافقان على مواجهة هذا التحدّي؟

لم يكن رومان ويلز مطمئناً تماماً، ولكن بعد أن ألقى نظرةً على رأسي الكائنين البشريين على الطبق الفضّي، رفع نظاراته ذات الإطار الأزرق وأفرج عن إشارةٍ للموافقة على العرض.

– سيكون لدي مطلبٌ وحيد: هل يمكنني الحصول على رداءٍ أحمر؟

ردّ الثور في الحال:

– سوف أعترف لكم بأمرٍ: أنا لا أميّز بين الألوان. أنا كنتُ أهاجم الرداء لأنني كنتُ أشعر تماماً بأنّ هذا هو ما كان متوقّعاً منّي – وأيضاً لأنّه لم تُحصَر خصيتاي بشريطٍ مطاطي. أريدُ أن أترك لكم الرداء طواعيةً إذا وضعتُم لي الشريط المطّاطي.

أجاب رومان أخيراً:

– دعونا ننسى الرداء الأحمر، يا جلالة الملك.

استعدّ الثور، وقال:

– في المقابل، إذا ما فزتُ، أتمنى أن يُحترَم العُرف المعمول به: أريدُ أن أحصل، كجائزة، على أذني وذيل هذا الكائن البشري.

48. محاكمات الحيوانات في فرنسا

بدءاً من العصور الوسطى، حضر الناس العديد من محاكمات الحيوانات في فرنسا.

من بين الحيوانات الأكثر تجريماً، هناك الخنازير، التي اتّهِمَت بأنّها تلتهم الأطفال الرضّع حينما يدير الوالدان ظهرهما لهم. كان اتّهام الخنازير وسيلة سهلة لكي يخلي الوالدان مسؤوليتهما، وكذلك للتخلّص من جثث الأطفال.

خلال المحاكمات، كان يتمّ إخضاع الخنازير لنفس صنوف التعذيب التي يتعرّض لها البشر المتّهمين بالشعوذة. حينما تبدأ الحيوانات المعذّبة بالصراخ، كان القساوسة يفسّرون هذه الصرخات على أنّها اعترافات، ونتيجةً لذلك، كانت الحيوانات تشوى حيّة على المحارق.

وبالمثل، كانت تعدّ محاضر تُتّهم فيها إناث الخنازير بإغواء الفلاحين لكي يحصلنّ منهم على ممارسات جنسية منافية للطبيعة. هنا أيضاً، كانت إناث الخنازير، بعد الاعتراف تحت التعذيب بممارساتهنّ الشاذّة، تتعرّض للتعذيب لكي يتم ثني الخنزيرات الأخريات عن القيام بنفس الشيء.

ولكن الأمر لم يقتصر على الخنازير فقط في سجلات المحاكم الجنائية.

في عام 1498، في بلدة أوتون، عندما دمّرت حشرات السوسية المحاصيل، وجدت نفسها في مواجهة دعوى مرفوعة ضدّها، قبل أن يصدر حكمٌ بطردها من الكنيسة من محكمةٍ كنسية.

وبالمثل، تمّ حبس ذبابةٍ خارجةٍ من أذنِ ميّتٍ في سجنٍ خاصٍّ بالذباب، وهو عبارة عن قفصٍ صغيرٍ مصنوعٍ من الشبك، وبعد أن تمّ الحكم عليها من قبل محكمة واعتُبِرَت مذنبة كتجسيدٍ للشيطان، تمّ تعليقها بمشنقة صغيرة.

في عام 1794، وجد ببغاءٌ نفسه أمام محكمةٍ ثورية لأنّه صاح «عاش الملك». كما تمّ قطع رأسِ كلبٍ عقاباً له على وفائه لصاحبه، وهو مناهضٌ للثورة، كان قد درّب الكلب على أن ينبح باستمرار أمام الزيّ الرسمي الأزرق للحرس الوطني.

وإذا كانت محاكمات الحيوانات استمرّت حتى عام 1800 في فرنسا، فإنّ دولاً أخرى لم تتخلّ قط عن هذه الممارسة.

في عام 1961، في ولاية تنيسي، تمّ شنق أنثى فيلٍ تُدعى ماري باستخدامِ رافعةٍ بسبب اعتدائها على مدرّبها.

ومؤخراً، في تركيا، في عام 2003، تمّ الحكم على حمارٍ بالموت من قبل محكمةٍ في مدينة أكبينار وذلك بتهمة «سلوكٍ شاذّ».

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

49. مصارعة الثيران

حانت اللحظة الحاسمة.

صاح ديكٌ صيحةً تردّدت أصداؤها وانتهت بارتجافٍ صوتيٍّ طويل. في الحلبة الدائرية التي أُعدّت على نحوٍ مرتجلٍ في الباحة الرئيسية، انتظر الثور، متوتّراً؛ دار بفارغ صبرٍ في حركةٍ دائرية. كانت مدرّجات قد بُنيت باستخدامِ صناديقِ خشبيةٍ متراكبة. كان الطقسُ جميلاً وتحلّق بعض الغربان فوق السور، بانتظارِ جثّة محتملةٍ لكي تقوم بالتهامها.

بحركةٍ من الملك أرتور، أطلق خنزيرٌ موسيقى من جهازٍ. أراد فيثاغورس أن يُظهر لي ثقافته فهمس في أذني باسم المقطوعة الموسيقية:

– هذه معزوفة «حدث ذات مرّة في الغرب»، للموسيقار إنيو موريكوني.

لم أعرف إلى ماذا كان يُشير.

فُتِح باب الحظيرة، تجمّد الثور في مكانه، وقد ثنى إحدى قوائمه، ولكن لم يكن هناك أحد. بدأ جمهور الخنازير، المحبط، بالخنخنة.

على جانبٍ، استطعنا رؤية صفٌّ من الأبقار في حالةٍ هستيرية فائقة. أصدرت صيحات «خوارٍ» حماسية لتشجيع بطلها الثور. راح هذا الأخير يحفر الأرض بحافره الأيسر كما لو أنّ من شأن ذلك إظهار خصمه.

ازدادت درجة ارتفاع صوت الموسيقى وأضفت على المشهد جوّاً غريباً. أدركتُ أنّ رومان يتردّدُ في الدخول إلى الحلبة، نظراً لحجم خصمه وقوّة عضلاته. فراحت الخنازير تجلبه وتُرغمه على التقدّم حتى وصل إلى مركز الحلبة.

انحنى الرجل في حركة احترامٍ لكي يُظهر رباطة جأشٍ. مدّ يده نحو الثور، كما لو أنّ هذا الأخير سيحيّيه بالمقابل.

حدّب الثور ظهره واتّخذ وضعية الاستعداد للانقضاض، تندفع من منخريه دفعاتٌ من البخار الكثيف.

ثمّ بدأ الهجوم، أو بالأحرى لنقل بدأت المطاردة، فقد انطلق الرجل راكضاً وهرول الثور خلفه. وجدتُ البروفيسور ويلز محبطاً بعض الشيء في هذه المسألة. كان بوسعه أن يتحاشى مسؤوليةً على الأقلّ، ولكن بدا من الواضح أنّه لا يمتلك حسّاً بحبّ الظهور. كشف كلّ شيء في سلوكه عن عدم اكتراثٍ تامٍّ بمتعة المتفرجين.

لم يستغرق هذا الجري وقتاً طويلاً، لأنّ الثور نجح في غرز قرنه في بنطال الكائن البشري حتى دون أن يجرحه. رفعه وقذف به في الهواء تحت هتافات الجماهير المحتشدة التي افتُتِنتْ أخيراً بالمشهد.

تمثّلت بقية المصارعة بتكرار هذا المشهد: المطاردة وغرز القرن والقذف في الهواء. وفي كلّ مرّة، حرص الثور على ألّا يجرح خصمه كما لو أنّه يتمهّل ليقضي عليه ببطءٍ. أمّا رومان، الذي ظلّ حيّاً، فراح يركض من جديد كلّما لامس الأرض.

سألني فيثاغورس:

– ما رأيكِ بما يجري؟

– أنا أفضّل أسلوب الثور. إنّه أكثر سخاءً.

– البشر لا يكونون مرتاحين إلا إذا كانوا هم من يضعون القوانين، وخاصّة حينما تكون القوانين لمصلحتهم.

من جديد، قُذِفَ رومان في الهواء تحت وابل التصفيق من حوافر الجمهور.

– اضطرّ الثور لإظهار فنونه أثناء منازلة مصارعة الثيران التي كان نجمها. هنا، يتواجه ممثّل خبير مع مبتدئٌ يفتقر إلى الحافز.

مرّة أخرى، طار رومان في الهواء، صارخاً.

أصبح المشهد مكرّراً ورتيباً بعض الشيء، مفتقراً إلى الإثارة والتشويق.

ومع ذلك بدأ بعض المشاهدين بالصفير. لم يعد الكائن البشري، المنهَك، يقوى على النهوض. وحينئذٍ، صاح الجمهور بشيءٍ ما، تخيّلتُ، اعتماداً على نبرة الصوت، أنّه يعني: «الموت!»

اقترب الثور، وهو يستشيط غضباً. أخفض رأسه ولامس بطرف قرنه القفص الصدري لرومان، المستلقي على ظهره، مستسلماً. وفي تلك اللحظة بالذات، قرّرتُ أن أتصرّف. قفزتُ ووقفتُ بين قرن الثور والبطن الرخو للكائن البشري. تحدّث ملك الخنازير، وترجم ببغاء الكوكاتو.

– ما شأنكِ في هذا، أيّتها القطّة؟

– أنا آسفة، يا صاحب الجلالة. لقد سمحتُ لنفسي بالتدخّل لأنّ موت هذا الرجل لن يجلب لكم شيئاً، ولكنّه سيكلّفني كثيراً. ربّما كان عليّ أن أخبركم بذلك مبكّراً، ولكن هذا الكائن يمتلك معرفة تكنولوجية فريدة من نوعها، يحتاج إليها سكان جزيرةٍ من أجل النجاة.

أجاب أرتور:

– هذا لم يعد يعنيكِ.

– أجل، وهذا يعنيكم أنتم أيضاً، يا جلالة الملك، لأنّه إذا قضت الجرذان على جماعتنا في جزيرة المدينة، لن يعود بوسع أيّ شيءٍ إيقافها. وعندئذٍ سوف تقضي على جميع الأنواع، كما فعلت ذلك سابقاً في بلدانٍ أخرى. ما الذي ستجنونه من تحرّركم من نير البشر إذا كان ذلك سيؤدّي بكم إلى الخضوع لعبودية الجرذان؟

أفرج الملك أرتور عن إشاراتٍ تنمّ عن نفاد الصبر.

– ليست لدينا مشكلة مع الجرذان.

– إنّ قطيعاً من مئات آلاف الجرذان على وشك أن يغزو كلّ شيء. إنّها تُقادُ من قبل جرذٍ أبيض اللون ذي عينين حمراوينِ ولا يوقفها أيّ شيء.

سرى ضجيجٌ وسط الحضور.

– هل تتحدّثين عن تيمورلنك؟

– أتعرفونه؟

– بالطبع. هو مثلنا، يمتلكُ عيناً ثالثة، أليس كذلك؟

ما بدأتُ أتوقّعه لم يعجبني على الإطلاق.

سأل أرتور، وهو يحدّق فيّ:

– هل لاحظتِ أنّه لا توجد جرذانٌ هنا؟

وسط الانفعال والخوف اللذين رافقا أسرنا، لم أنتبه حتى إلى ذلك. فعلاً لا توجد جرذانٌ هنا، مع أنّه لم يكن هناك أيّ سياج كهربائي، ولا أيّ حوضٍ لحمض كلور الماء ليمنعها من الدخول إلى هذا المكان. وهذا يعني أنّها قد رُدِعتْ بشيءٍ آخر أو بأحدٍ آخر. وقد أكّد أرتور صدق حدسي، حينما قال:

– الجرذان حلفاؤنا ضدّ البشر. الفرق الوحيد بيننا هو أنّ الجرذان تقتلُ البشر مباشرةً، أمّا نحن، فنقتلهم بعد أن نحاكمهم.

إنّه اختلافٌ في الشكل وليس في الجوهر.

كان عليّ أن أسكت. كان عليّ أن أسكت.

– أمّا بالنسبة إلى ملك الجرذان، تيمورلنك، فقد هربتُ برفقته من مختبر جامعة أورسيه. وهذا ما وطّد العلاقات بيننا.

حسناً، لا بأس، إذاً، هأنذي مرّة أخرى أُفسِدُ كلّ شيء بينما كنتُ أرغب في تدبير الأمور.

لم يتزحزح الملك أرتور عن موقفه:

– لكنّ هذا لا يغيّر شيئاً في الحكم: يجب أن يُعدَم هذان الكائنان البشريان الآن. إنّها العدالة.

بدأ فيثاغورس بالكلام، وترجم شامبليون ما قاله بأقصى سرعة، لكي يحافظ على تأثير كلماته:

- مهلاً، يا صاحب الجلالة، هل تتحدّث عن العدالة؟ أليست العدالة مفهوماً بشرياً؟ ألا يُبرهنُ الفعل الوحيد الذي استقيتموه من البشر لتحكموا على فردٍ منهم على أنّهم قد أحسنوا في إرشادنا إلى الطريق نحو الممارسات الأكثر تطوّراً؟ ثمّ حتى اسمكم، أرتور، تماماً مثل اسم سان جوست أو بادينتر، أليس مستوحى من ثقافة هؤلاء البشر أنفسهم الذين تقلّلون من شأنهم كثيراً؟

أطلق الملكُ تنهيدةً طويلة.

- اختتِمت القضية. كان يجب طرح هذه الحجّة قبل الآن. أمّا الآن، فقد فات الأوان. دعونا نتصرّف، أيّتها القطط. لقد أعماكم حبّكم للبشر وخوفكم من أن تفقدوا الأطعمة الخاصّة بكم. يجب أن يُوضّح الأمر لكم: البشرُ ليسوا ضرورة لا غنى عنها. لقد وجِدَ العالم قبلهم وسوف يستمرّ في الوجود من بعدهم.

دوّت الجملة كنبوءةٍ، وأثّرت فيّ. في الواقع، ربّما لكثرة ما عشتُ مع البشر انتهى بي المطاف إلى المبالغة في تقديرهم. ربّما طالما أنني لم أفهم تماماً مفاهيم الحبّ والفكاهة والفنّ، سوف أعتبرهم (نعم، أعرف أنّ هذا أمرٌ مضحك) كائنات «متفوّقة علينا».

ومع ذلك، لم أشأ أن أستسلم. بحثتُ عن حجّةٍ. فانضممتُ بدوري إلى فيثاغورس، وتحدّثتُ.

- اسمعني مرّة أخرى، من فضلك، يا جلالة الملك. البشر يُظهرون في بعض الأحيان الشفقة حيال الحيوانات، في حين أنّ الجرذان تزرع القوّة المفرطة واحتقار الضعفاء والمهزومين. لا يُظهِرُ أيّ جرذٍ الشفقة. بعد قتل كلّ البشر، سوف تقتل الجرذان كلّ الحيوانات الأخرى، بما فيها الخنازير والأبقار والثيران والإوزّ! بعد البشر، سيأتي دورنا نحن القطط، ثمّ دوركم أنتم، جميع الحاضرين هنا. وفي أعماقكم، تعرفون ذلك.

هذه المرّة، وجدتُ حجّة مقنعة. لا شيء يدفع الذهنيات قدماً مثل التهديد.

سرت ضجّةٌ وسط الحضور. لم يعودوا واثقين من أنفسهم، وبدأوا

يشكّون لأنّ الحيوانات الذكيّة هي القادرة على طرح الأسئلة على نفسها.

حتى أرتور ظلّ صامتاً. وحده سان جوست نهض وصرخ:

- الموتُ للبشر!

لكنّ نداءه لم يلق صدى. لقد بات معزولاً في رغبته التدميرية. أبدى الثور حركة صغيرة للتراجع، فاستغللتُ ذلك لكي أدعم حججي:

- إذا قتلتموه، فهذا يعني أنكم لستم أفضل منهم. وإذا عفوتم عنه، فسوف تُبرهنون، على العكس من ذلك، بأنكم عرفتم أن تأخذوا من البشرِ أفضل ما عندهم، الشفقة، الرأفة.

كرّر سان جوست نداءه:

- الموتُ للبشر!

ردّد ما يقرب من عشرة خنازير، لم تقتنع في النهاية، على ما يبدو، بحججي:

- نعم، الموت لهم!

أدركتُ أنني لم أكسب المعركة بعد. فبحثتُ عن حجّة أخرى. الحقيقة «خاصّتي».

- هذا الرجل ألّف موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة. وإذا ما عفوتم عنه، سوف يستطيع على الأرجح أن يساعدنا على استعادتها، لأنّها سُرِقَت منّا. ومن ثمّ سوف يكفينا أن نرجع إليها لجعل كلّ الأنواع الأخرى تستفيد منها. وبهذه الطريقة، سوف تملكون أفضل المعارف البشرية. هذه المعارف، علينا أنا نحافظ عليها بأيّ ثمن وإلّا فنحن معرّضون لخطر أن نبقى حيوانات جاهلة بلا تكنولوجيا، بلا عدالة، بلا كتابة، بلا كلماتٍ ومفردات. وحده هذا الرجل يستطيع أن يتيح لنا استعادة موسوعته النفيسة، موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة.

قطّب أرتور حاجبه الأشقر، الأمر الذي كان يعني بالنسبة إليه تفكيراً عميقاً؛ هزّ رأسه يمنةً ويسرةً، ثمّ نطق أخيراً بلهجةٍ حاسمة:

- للثور الفائز في المبارزة أن يقرّر.

ردّد سان جوست لكي يؤثّر على قراره:

- فلنقتلهم!

التفت الثورُ نحو الملك وقال:

- أنا أقرّرُ... العفو عن الكائن البشري. ولكن أريدُ أن نستفيد، نحن الثيران أيضاً، من جميع معارفهم، مثلما وعدت هذه القطّة. إذاً، أيّها الكائن البشري، هل تعدني بأن تتقاسم موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة عندما تصبح من جديد بين يديك؟

نهض البروفيسور رومان ويلز أخيراً من مكانه. نفض الغبار عن نفسه ونظر إليّ بامتنانٍ. ها هو كائنٌ آخر يُدركُ للتوّ أنني رائعة وأنني أمتلك قدرةً هائلة على قلب الأوضاع الأكثر خطورةً.

قال، وهو سعيدٌ بنجاته مع بعض الرضوض والجروح الخفيفة فقط، وهو يعد الثور:

- أُقسِمُ لكَ على ذلك.

همس لي فيثاغورس:

- لقد أبليتِ بلاءً حسناً.

بدا لي أنني لمستُ نبرة إعجابٍ في موائه.

ركضت ناتالي إلى وسط الحلبة وضمّت بين ذراعيها الكائن البشري ذا البنطال الممزّق. كان جريحاً ومرتعشاً، ولكنّه تعافى بسهولةٍ لا سيما أنّ الثور كان ماهراً جدّاً بحيث أهانه من دون أن يجرحه. شعرت خادمتي بالارتياح.

إنّها مؤثّرة أحياناً في ردود أفعالها الطفولية بعض الشيء.

أمّا بالنسبة إليّ أنا، فتمنّيتُ أن تسمح لهما هذه الحادثة بأن يسرّعا مسيرتهما الغرامية. ففي النهاية، هذا كلّ ما أتمنّاه لهما.

ذهبتُ إلى أرتور وأكّدتُ له من جديد مع سوء النيّة هذه التي أتّسم بها:

- بصفتي قطّة، أعدكَ بأنني سوف أذكّر هذين الكائنين البشريين بقَسَمِهما: عليهما أن يسلّماك موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة فور استعادتها.

ترجم شامبليون.

بالطبع لم أكشف أنّ الموسوعة موجودة حول رقبتي.

50. تاريخ الخنازير

لقد دُجِّنَ الخنزير البرّي قبل سبعة آلاف عام من الميلاد. وقد جرى هذا التدجين حينما استقرّ الإنسان في حياة حضرية. في الواقع، لم يستطع الخنزير، بخلاف الماعز والغنم، أن يلحق بالقبائل البدوية. وهذا هو السبب أيضاً في أنّه أُهمِلَ من قبل الشعوب المعتمدة على الرعي.

وكان أبقراط، الذي يُعدّ أبا الطبّ، قد لاحظ في عام 400 قبل الميلاد تشابهاً عضوياً مثيراً للقلق بين الخنزير والكائن البشري. وتشير بعض نصوصه إلى تشابهٍ تشريحي قاده إلى محاولة فهم الجسم البشري من خلال دراسة جسم الخنزير. وفيما بعد، ولأنّ الكنيسة منعت تشريح الجسم البشري، درس الطبّ في القرون الوسطى الفيزيولوجيا على الخنازير.

في تلك الحقبة، كانت الخنازير تتجوّل بحرّية بين القرى؛ وكانت تتغذّى على القمامة المرمية في السواقي وتقوم بذلك بدور جامعي القمامة.

نحو عام 1500، اكتشف قسٌّ يسوعي مرسَلٌ إلى قبيلةٍ آكلة للحوم من الأمريكيين الهنود أنّ للحم البشر والخنازير نفس المذاق تماماً.

وبدءاً من عام 1820، تدهورت ظروف حياة الخنازير مع ظهور أولى حظائر الخنازير الصناعية الكبيرة في إنكلترا. فبدأ السباق على الكفاءة وتخفيض تكاليف الإنتاج.

بدءاً من تلك المرحلة، استمرّ النطاق الحيوي للخنزير في التقلّص تدريجياً وحُرِمت عيونه من النور. ولأنّه حيوانٌ عاطفيٌّ جدّاً وحسّاسٌ جـدّاً، تمّ خلط طعامه على نحوٍ متزايد بأدوية ومضادات حيوية، ومضادات الاكتئاب، ومضادات القلق لكي يُتاح له الاستمرار في تلك الظروف الصعبة.

ولكن الخنزير لم يُستخدم في تقديم الغذاء فحسب، بل استخدِمَ في

الطبّ أيضاً. في عام 1964، بعد اختبار العديد من الحيوانات، تبيّن أنّ الإنسان لا يتقبّل زراعة الأعضاء المأخوذة من الشمبانزي (التي تتماثل نسبة 97% من حمضه النووي مع الحمض النووي للإنسان) ولكنّه يتقبّل على نحوٍ ممتاز زراعة الأعضاء المأخوذة من الخنازير (التي لا تمتلك سوى نسبة 95% من الحمض النووي المشترك مع الحمض النووي للإنسان). وبالتالي بدأت عمليات زرع صمامات القلب، والكبد، وقطع من الجلد وقلب الخنزير لمرضى من البشر - والأنسولين الذي كان يُحقَن لمعالجة مرضى السكري لزمنٍ طويلٍ كان الأنسولين المأخوذ من الخنزير.

في كندا، أظهرت تجربةٌ أنّ أنثى الخنزير تستطيع أن تحمل جنيناً بشرياً خلال بضع ساعات، وهو الزمن اللازم لإجراء عملية جراحية لأمٍّ تعاني من مشكلة.

فيما يخصّ صفاته، الخنزير هو أيضاً حيوانٌ مقدّرٌ له أن يكون قريباً من الإنسان: في الحالة الطبيعية، تهرب غالبية الحيوانات حينما يقترب منها إنسانٌ، في حين أنّ الخنزير يقتربُ منه بفضولٍ متزايد. في الحقيقة، الخنزير حيوانٌ يستسلم للترويض بسهولةٍ.

كما أنّ للخنزير إحساساً بالعائلة، وهو قادرٌ على إظهار المحبّة لصغاره، بل وللفلاح الذي يعتني به.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

51. العودة إلى أورسيه

لا أعرف ما هو رأيكم، لكنني في بعض اللحظات، أقول في نفسي إنّ الحياة ليست سوى سلسلة من التعقيدات التي تتيح لنا التطوّر. الشقاء يجعلنا نشعر بالحياة. إنّه يرغمنا على أن نبقى حذرين وأن نستمدّ من داخلنا قدرات دفينة.

لو لم تكن لدينا مشاكل، ربّما عشنا في ركودٍ، راضين عن أنفسنا. لو لم يكن لنا أعداء، ربّما أهملنا شجاعتنا. لو أنّ الحياة الزوجية بسيطة، ربما لما عادت تُثيرنا.

وأخيراً، أنا، بصفتي قطّة وبصفتي أنثى، عليّ أن أعترف صراحةً بأنني في بعض الأحيان أقوم بتعقيد الأمور كي لا أشعر بالضجر وأراقب ردود الفعل.

هنا، على سبيل المثال، في حين أنني ألعب بطرف قدمي بقمّة أذني فيثاغورس، أُدرك تماماً أنني أُزعجه ولكن هذا أقوى منّي. ثمّ هذه وسيلة للتحقّق من أنّه يحبّني بما يكفي لأن يتحمّل هذا النوع من المضايقة.

حافظ القطّ السيامي على رزانته وشدّ على فكّيه، في حين واصلتُ أنا عبثي. من حولنا، مرَّ المنظر الطبيعي أمام أنظارنا. سرنا على الطريق السريع المؤدّي نحو الشمال.

اقترحت علينا الخنازير، التي كانت قد خرّبت سيارة ناتالي وجعلتها غير صالحة تماماً، أن نستخدم واحدة من الشاحنات الضخمة التي في باحة المذبح. لحسن الحظّ، كان خزّانها لا يزال مليئاً بالوقود.

أراد الثور أن ينضمّ إلينا ليتأكّد من أنّنا سوف نسلّمه بالفعل موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة حينما نستردّها، ولكن رغم وجود أفضل إدارة ورغم كلّ تعاطفي معه، فإنّ ضخامة هذا الحيوان حالت دون قدرتنا على أخذه معنا.

وبالتالي، رفضتُ اصطحابه بلطف وتهذيب.

ثم إن هذا الثور له رائحة قويّة، وأنا حسّاسة جدّاً للروائح.

في قمرة قيادة الشاحنة، تجمعّنا جميعاً: أنا، وفيثاغورس، وناتالي، ورومان وشامبليون.

وقد رغب هذا الأخير في مرافقتنا لكي يعمّق معارفه اللغوية. وأثناء تواصله معنا، لاحظتُ أنّه بدأ يفقد قليلاً من نبرته الفارسية عندما يتحدّث بلغة القطط.

في الواقع، أعتقدُ أنّه قد كُلِّفَ من قبل الملك أرتور لكي يتحقّق من أننا نلتزم بوعدنا.

وقد كشف لنا الببغاء عن خطيئته الممتعة: تحصيل أصوات جديدة. ما إن يكتشف صوتاً حتى يسجّله في ذهنه ويُكرّره. ولكي يُقنعنا بهذه الموهبة الخاصّة، قلّد نباح الكلاب، وعواء الذئاب، ونقيق الضفادع، ولكن أيضاً صوت انغلاق أبواب السيارة، وصفّارات الإنذار، وصوت الرعد؛ ونجح حتى في تقليد هجيج النار!

وقد أدهشنا ذلك وسلّانا. بالفعل، كان هذا الببغاء بمفرده عرضاً مسرحياً كاملاً.

وإذا كنتُ قد وافقتُ على أن يرافقنا، فذلك لأنّه كان لديّ دافعٌ خفي: قلتُ في نفسي إنّه إذا ما عانينا من عجزٍ غذائي، سوف يكون بوسعي أن آكل هذا الطائر الذي أتصوّر أنّ للحمه مذاق لحم الدجاج.

قبل أن ألتهمه، سوف أشرحُ له بهدوء أنني آسفة، ولكنني لا أحبّ المنافسة وأنّ التواصل بين الأجناس هو ميزتي أنا وحدي.

التهيتُ للحظةٍ عن الحديث مع فيثاغورس وراقبتُ ناتالي، التي كانت تقود الشاحنة. في الواقع، أعتقدُ أنني أجرؤ أخيراً على الاعتراف بأنني لطالما كنتُ منبهرة بهذه الإنسانة. كنتُ أجدها تزدادُ جمالاً، على الأرجح لأنني أتحتُ لها اللقاء مع الذكر الذي، برأيي، سوف يُحسنُ منحها الكثير من المتعة حالما تتجاوز حشمتها وحياءها.

تعافى رومان ويلز، من جهته، من جراحه التي كانت، لحسن الحظّ، سطحية. ففي النهاية، كان الثور شهماً: أراد أن يهينه أكثر من أن يعطبه.

ولكي نشغل أنفسنا خلال الرحلة، سألت الببغاء:

– هل تعتقد أنّ بمقدوركَ تقليد صوت كالاس؟

– هل هذا ضجيجٌ؟

– كلا، هذا نمطٌ من الموسيقى.

قال الببغاء:

– كانت أمّي تقول دائماً: «إذا ما أزعجكَ ضجيجٌ، أصغِ إليه جيّداً وسوف تكتشف أنّه موسيقى».

أوه، لا أُريده أن يُرهقنا بذكر حِكَم والدته، فأنا أودّ أن أتفرّد بهذه الميزة أيضاً.

وسط الشكّ، اقترحتُ عليه أن يستمع إلى غناء هذه الكائنة البشرية التي تهدلُ بطريقة سلسة جدّاً وبصوتٍ عذب. بناءً على تعليماتي، بثّت ناتالي، بفضل البلوتوث، الموسيقى على راديو الشاحنة. ملأ الصوت البشري قمرة القيادة.

أصغى شامبليون، متفاجئاً، ثمّ مندهشاً. شعرتُ بأنّه يسجّل كلّ نغمة لكي يستطيع تقليدها، ولكنّه يلقى صعوبات في التقاط جميع الفوارق الدقيقة. حينما انتهت المقطوعة، سألته:

– حسناً، ما رأيكَ بما سمعت، وأنت الاختصاصي في الأصوات؟

اعترف الببغاء:

– من المدهش أن يتمكّن البشر من إنتاج أنغامٍ على هذه الدرجة من الثراء بحناجرهم.

أوضحت ناتالي:

– ليس جميعهم، فالمغنية كالاس استثنائية. كان زوجها أوناسيس يسمّيها «العندليب الأجشّ» على سبيل السخرية منها.

لم أعرف ما معنى «الأجشّ»، ولكن مع ذكر كلمة «العندليب»، نصّب شامبليون عرفه:

– لا أحبّ العنادل، إنّها متعجرفة ومغرورة.

كنتُ أجهل حتى تلك اللحظة أنّ هناك عنصرية بين الببغاوات والعنادل. من المؤكّد أنّ لدى كلّ نوعٍ ثقافة وقيم خاصّة به.

اقترح فيثاغورس:

– ما رأيكم أن نستمع إلى باخ؟

هذه المرّة، وضعت معلّمتي ما تسمّيه «اختراع ثنائي الصوت». شوّشت هذه المقطوعة الموسيقية ذهني: فبدل أن يكون فيها لحنٌ واحدٌ ثريٌّ بالتناغم، مثل أغلبية المقطوعات التي استمعتُ إليها حتى تلك اللحظة، كان هناك، هذه المرّة، خطّان موسيقيان مختلفان تماماً يُعزَفان في آنٍ واحدٍ.

شرح لنا رومان ويلز:

– هذه خصوصية باخ. هذا يُدعى «فنّ الطباق».

شعرتُ بأنّ دماغي انفلق إلى نصفين ويتبع كلّ نصفٍ منهما واحداً من اللحنين. والأمر الأكثر إزعاجاً هو أنّ هذا المزيج، بعد برهةٍ، أوهمني بأنني أسمع لحناً ثالثاً، مع أنّه لم يكن موجوداً.

هؤلاء البشر حقّاً أقوياء.

ظلّ الطريق من حولي يميد. اخترق شعاعٌ من الشمس السحبَ وبدا أنّه يدلّنا على الاتجاه الذي علينا أن نسلكه.

أثار الاستماع إلى باخ بهذه الطريقة شعوراً في داخلي لم أعرفه منذ زمنٍ طويل؛ ما الذي يمكننا أن نسمّي هذا؟

الانشراح؟

ربّما جعلني فهم الفكاهة والحديث المتزايد عن الفنّ أن أتطوّر.

شعرتُ بأنّ ذهني عبارة عن دائرة توسّعت حديثاً. وقد تكون حقيقة تغلّبي على الكثير من المحن ونجاتي منها قد منحتني الإحساس بأنني ناجية وأنني أحظى بحماية غير مرئية.

ثمّ دعونا لا ننسى أنني أنا، ووحدي، منْ أحمل ذاكرة العالم: موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة، الشهيرة. أشعر بالفخر بذلك.

سأل شامبليون، كما لو أنّه قرأ أفكاري:

– ما هي بالضبط موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة هذه؟

ناورت:

– مكتبة ضخمة محفوظة في مجلّد صغير. إنّه صغيرٌ جدّاً بحيث يستطيع البشر أن ينقلوه في أيديهم.

– وماذا يوجد في هذه المكتبة الضخمة؟

علّق فيثاغورس:

– جميع المعارف الضرورية لانبعاث حضارة منهارة.

قال الببغاء بلهجة جادّة:

– في هذه الحالة، أريدُ أن تعدوني بأنكم، حينما تستعيدون موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة، ستنفعون بها كلّ الحيوانات الأخرى.

لقد نجح الأمر، ودبّت فيه الحماسة. علاوة على ذلك، سبق أن وعدنا بذلك. سيكون عليّ ألا أثق بهذا الببغاء. فلا شيء أسوأ من أولئك الذين يعتقدون أنّهم يحسنون صنعاً وهم يفعلون شيئاً مختلفاً عمّا أقولُ لهم.

– ثمّ إنني أريد أن أكتشف المجتمع الطوباوي الذي أعدتم بناءه في جزيرة المدينة. هل تعرفون أكثر ما يؤلمنا، نحن الطيور التي نعيش في متاجر الحيوانات الأليفة؟ غياب الأفق. خلال فترة احتجازي في المتجر، كنتُ أتساءل دائماً عمّا يوجد خلف النافذة الوحيدة التي كنتُ أراها، والمطلّة على جدارٍ مزيّنٍ بإعلانٍ عن رحلةٍ، يظهر عليه شاطئٌ وبعض أشجار جوز الهند. بالنسبة إليّ، كان الخارج يشبه هذا الشاطئ، وكنتُ أرغب أشدّ الرغبة في الذهاب إليه.

أفرج عن تنهيدةٍ عميقة.

– لقد انتهى بي المطاف إلى أن فهمتُ أنّ ليس هناك سوى هذا الشاطئ في الخارج. ذات يوم، استُبدِلت صورة هذا الشاطئ بصورة جبلٍ مغطّى بالثلوج وأشجار الصنوبر. أدركتُ أنني لم أتوقّع سعة وتنوّع بقية العالم. وعندما استطعتُ التحاور مع سيّدي والتحدّث معه عن هذه الرغبة في المعرفة، أخبرني بأنّ هناك في الخارج أخطاراً قاتلة. وخاصّة أنتم، القطط. لقد حدّثني عن سنّوريات متوحّشة تُطاردُ الببغاوات وتأكلها.

قلتُ له ردّاً على حديثه وأنا أتخيّلُ في الوقت ذاته كيف سألتهم هذا الطائر حينما لا يعود نافعاً لي:

– يُبقي البشر علينا تحت رحمتهم من خلال خلق مخاوف غير مبرّرة في داخلنا.

ختم شامبليون حديثه بذكاء:

– أعتقد أننا وُلِدنا جميعاً لكي نتعلّم. وأن أسوأ ما قد يحدث لنا هو أن نبقى طيلة حياتنا في نفس المكان، مع نفس الأشخاص وأن نعيد نفس المواقف.

يُثير شامبليون غضبي عندما يطرحُ نفس أفكاري. لا بدّ من تسجيل براءة

اختراع الأفكار، ومن يجدها أوّلاً يقدّمها، وعلى من يعبّر عنها من بعده أن يقدّم له القرابين. على أيّ حال، الببغاوات معروفة بأنّها مجرّد حيوانات مقلّدة.

فكرتُ أكثر قليلاً.

الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو أنا نفسي حيث سيكون من حقّي، على سبيل المثال، أن أذكر عبارات أمّي، التي لم تعد، المسكينة، في هذا العالم.

واصل شامبليون الحديث.

-... من الآن فصاعداً، أريدُ أن أعيش في الخارج، وأكتشف العالم وشعوباً أخرى، وأسافر، وأصل إلى كلّ معارف البشر. ولهذا السبب، حرصتُ على أن آتي معكم.

سأل فيثاغورس بمكرٍ:

- ولكن ماذا كنتَ تفعل عند الخنازير؟

- عندما دُمِّر متجر الحيوانات الأليفة بسبب الحروب الأهلية البشرية، فرّ صاحب المتجر معي، لأنني كنتُ، ولا أعلم إن كنتُ قد أخبرتكم بذلك سابقاً، طائره المفضّل.

قال هذا وهو يرفعُ عرفه.

منْ يحسب نفسه، هذا الطائر المغرور! من العجيب أن يكون العالم مليئاً بأناسٍ يعتبرون أنفسهم على درجة كبيرة من الأهمية...

هززتُ رأسي، في إعجابٍ زائفٍ، لكي أمنحه الرغبة في مواصلة سرده.

- وفي خضمّ استعجالنا، تمّ توقيفنا، كما جرى لكم أنتم أيضاً، باستخدام فخٍّ كانت الخنازيرُ قد نصبته على الطريق.

بلع ريقه عند ذكر تلك اللحظة المشؤومة.

- في البداية، جرت الأمورُ على نحوٍ سيئ، ولكن حينما اكتشفت الخنازير موهبتي المدهشة في التواصل، تبنّتني لكي أقوم بالترجمة في محاكمة صاحبي.

- أَوَلَم يُشعركَ هذا بتأنيبِ الضمير؟

انطلق سؤالي دون أن أفكّر فيه. ولكنّ الببغاء لم يخرج عن سرده الرائع.

– بلى، عانيتُ من ذلك قليلاً، في البداية، ولكنني وجدتُ هذه الخنازير لطيفة بالفعل. ثمّ إنّ المحاكمة جرت بطريقةٍ وجدتها عادلة جدّاً. ما إن أصدرت حكمها، وأدانت وأعدمت صاحبي (وبالمناسبة، حوّل إلى نقانق)، أدركتُ أنّ هذه الخنازير أكثر ذكاءً بكثير من البشر طالما أنّها نجحت في القيام بما أرادت.

أراد فيثاغورس عرض علمه.

– بالمناسبة، كانت الخنازير على وشك أن تصبح هي الحيوانات المرافقة للبشر وكنّا، نحن القطط، على وشك أن نصبح حيوانات المزارع لاستخدامها في الصناعات الغذائية. في الصين، على سبيل المثال، كانوا يأكلون الكلاب والقطط، في حين كان الأطفال يلعبون مع الخنازير المروّضة. والحال أنّ خنزيراً، أثناء اندلاع حريقٍ، مات، ولما أراد طفلٌ أن يلمس جسده الحارّ احترقت يده عند ملامستها للدهون المغلية، فرفع يده إلى فمه ووجد ذلك لذيذاً. ومنذ تلك اللحظة، أصبحت الخنازير تُستخدَمُ لأمرٍ آخر غير تسلية الأطفال.

وصلنا أخيراً إلى أورسيه.

وجدنا أنّ الجامعة قد تغيّرت كثيراً منذ زيارتنا الأخيرة. ورأينا أنّ فتحاتٍ واسعة قد فُتِحت في سياج الأسلاك الشائكة المتواصلة. وفي المكان الذي كان فيه بشرٌ أحياء، وجدنا بشراً موتى. واكتشفنا أنّ رايةً سوداء مطرّزة بأحرفٍ بيضاء بأبجدية مجهولة قد وُضِعَت بدلاً عن الراية الزرقاء والبيضاء والحمراء في مدخل المبنى الرئيسي.

عثرنا أيضاً على جثثٍ لعلماء في صدرياتٍ بيضاء وأخرى لملتحين بزيٍّ أسود مرمية على الأرض.

قلتُ:

– إنّهم المتعصبون الدينيون الذين كانوا في مصنع المنتجات الكيميائية! لا بدّ أنّهم قد هاجموا بعددٍ أكبر من المرّة الأولى في سبيل استرداد موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة. لا بدّ أنّهم قد اعتقدوا أننا قد نقلناها إلى الجامعة. لم يسعهم أن يعلموا أننا قد تأخّرنا بسبب تدخّل الخنازير.

لمستُ بكفّي قلادتي لكي أتأكّد من أنّ الفلاشة الثمينة لا تزال موجودة.

بدا رومان منزعجاً ومتضايقاً.

تفحّص جثث الموتى وتعرّف على بعض أصدقائه الذين جسّ نبضهم ليرى إن كان بينهم منْ لا يزال حيّاً. ولكن تبيّن أنّ المهاجمين قد أجهزوا على كلّ الجرحى.

هكذا هو منطق الكائن البشري: الأكثر عنفاً من بينهم يقضون من كلّ بدٍّ على الأكثر سلمية بينهم. يتغلّب الهمجيون على الذين يفكّرون، بكلّ بساطة لأنّهم يتبعون منطقاً بسيطاً وواضحاً، في حين يتمهّل الآخرون بفعل إدراكهم لتعقيدات الواقع وبالتالي يشكّون في الأمور.

قلتُ في نفسي إنّه سيتعيّن أخذ ذلك في الاعتبار في المستقبل. لا يجب أن أدع ذكائي يعيق غريزة البقاء البدائية في داخلي. لا ينبغي أن أنسى أبداً القطّة المتوحّشة التي تكمن في داخلي. وألّا أنتظر ريثما تُحلّ الأمور من تلقائها. يجب أن أبقى قويّة حتى لا أُخضَعَ للآخرين. يجب أن أحافظ على صلابتي الطبيعية حتى لا تُغرقني عدوانية وحماقة المعاصرين لي.

كانت أمّي تقول: «اعتمدي على نفسكِ حتى لا تكوني ضحيّة أبداً».

لمّا رأيتُ هذا الخراب، أصبحتُ عازمة أكثر من أيّ وقت مضى على أن أَضرب قبل أن أُضرَب، وأن أَقتل قبل أن أُقتَل، وإذا ما بالغتُ في ذلك، سيكون لديّ فيما بعد كلّ الوقت لكي أشعر بالندم أو أقدّم الاعتذار.

بدا لي أنّ ناتالي لم تكن حزينة فحسب، بل شعرتُ بأنّها فزعة. فانضممتُ إليها وقفزتُ إلى كتفها وبدأتُ أخرخر بشدّة 24 هرتزاً.

وهمستُ إليها في نفس الوقت:

– لقد فات الأوان. علينا التفكير في الحفاظ على الأحياء بدل الحزن على الموتى.

لكنّ المسكينة غُمِرَت بموجةٍ من الذعر الشديد. انفعالٌ من النوع الذي لا يُفيدُ في شيء ويُعقّد كلّ شيء.

فوقفتُ أمامها وحدّقتُ بعمقٍ في عينيها:

– أصغي إليّ، يا ناتالي. لا تمارسي إنسانيتكِ! بالنسبة إليهم، لقد فات

الأوان، أمّا بالنسبة إلى الذين في جزيرة المدينة، فلا يزال أمامنا متّسعٌ من الوقت لكي نتصرّف لإنقاذهم.

لكنّها لم تُصغِ إليّ، فقلتُ في نفسي إنّه لا بدّ أن يكون هذا هو الجانب العاطفي للبشر الذي حدّثني عنه فيثاغورس كثيراً. يعيشون الأحداث على نحوٍ أكثر حدّة، الأمر الذي يجعلهم غالباً غير فعّالين.

قلتُ مرّة أخرى:

– لا ينبغي المكوث هنا. فلنغادر. يجب أن نذهب لإنقاذ رفاقنا.

فهم فيثاغورس موقفي الحاسم، لكنّ الكائنين البشريين اللذين شكلا ما يشبه موجةً عملاقة من الروح السلبية لم يفهماه. فقرّرنا، أنا وفيثاغورس، الانتظار إلى حين أن يتجاوزا الصدمة العاطفية التي أحدثها هذا الاكتشاف الرهيب.

طار شامبليون، من جانبه، من جهةٍ إلى أخرى لزيارة الجامعة.

سألني فيثاغورس:

– ما رأيكِ بكلّ هذا؟

– أشعر بالتأكيد بالشفقة عليهم، لكنني أجدُ أنّ البشر يبالغون في ذلك. فالبكاء على هذه الجثث لن يعيدها إلى الحياة. أنا سوف أخصّ الأحياء بشفقتي. وماذا عنك؟

– إنّ طقوس ومراسم الحداد من صُلب عقائدهم. لقد بنوا حضارتهم على تخيّل الحياة الآخرة، وبالتالي من الطبيعي أن يتصرّفوا بهذه الطريقة.

لعقتُ دموع ناتالي لأرى إن كان بوسع امتصاص الحزن البشري أن يساعدني على فهمه على نحوٍ أفضل. وفي النهاية، تنهّد رومان بعمق وأعلن:

– باستيت على حقّ. لم يعد من جدوى لمحاولة فعل أيّ شيءٍ في هذا المكان. فلنغادر.

فتوجّه الرجل ذو النظارات الزرقاء نحو أحد مستودعات الجامعة، ثمّ أخرج منه أشياء سمّاها فيثاغورس بكرات الأسلاك الشائكة ومولّدة كهربائية، ومحوّلاً. وبفضل رافعة شوكية، وضعها في الشاحنة المقدّمة من قبل الخنازير. أوضحتُ له:

- لا تنسَ المعدّات اللازمة للمنطاد!

أضاف بكرات من الألياف الاصطناعية وبعض أسطوانات غاز الهليوم وبعض الألياف الزجاجية وذلك بهدف إنشاء سلة منطاد كبيرة تكفي لنقل عددٍ كبيرٍ من الركّاب. وأضاف صناديق عدّة مليئة بقضبان اللحام، ومطارق ومفكّات ومفاتيح ومقصّات ومسدّسات المسامير وماكينات غرز الدبابيس ومكاوي لحام الحديد.

وضع كلّ هذه المعدّات بنوعٍ من الغضب الجامح في الشاحنة.

ذكّرنا فيثاغورس:

- يجب التفكير أيضاً في أخذ الطعام، إذ لا بدّ أنّهم يتضوّرون جوعاً الآن.

حالما امتلأت الشاحنة بهذه الأدوات المختلفة الأشكال والأحجام، ركبنا جميعاً. وهذه المرّة، قاد الموسوعي المركبة الضخمة.

على الطريق، التففنا على هياكل السيارات المهجورة والحفر المفتوحة في الإسفلت، ومختلف العوائق. ساد جوٌّ من الكآبة في قمرة الشاحنة.

اقترحتُ على ناتالي أن تضع موسيقى باخ. واستمعنا، أنا وفيثاغورس وناتالي ورومان وشامبليون، في صمتٍ مطبق إلى ما كان القطّ السيامي قد قال لي إنّه «أداجيو في سلّم ري الصغير».

بينما كنّا نسير في الطريق، لمحنا قطيعاً من القطط يتقدّم بالاتجاه المعاكس على الطريق.

بدا لي أنني تعرّفتُ على بعض أبناء جنسي. صرختُ في رومان:

- توقّف!

داس رومان فجأةً وبقوّة على المكابح فارتمينا إلى الأمام داخل القمرة. نزلتُ بحركةٍ خفيفة وسريعة من المركبة.

وجدتُ غالبية قطط القطيع عرجاء أو مُصابة بجروحٍ عديدة.

إنّها قططُ برج المياه!

كان القطّ سفينكس بينها وجسده مغطّى بالجراح، من بينها جرحٌ في رقبته كان لا يزال ينزف. اقتربتُ منه، فحدّق فيّ بعينيه الواسعتين الزرقاوين.

ماء، قائلاً:

– لقد كنتِ على حقٍّ.

– ماذا حدث؟

– لقد هاجمتنا الجرذان هذا الصباح. نجحت في تحطيم باب برج المياه. أردتُ أن أتوصّل معها إلى معاهدة، ولتحقيق هذا الهدف، تفاوضت مع بعض قادة القطيع.

– هل كان بينها جرذٌ أبيض اللون؟

– كلا، كانت فقط جرذاناً رمادية ضخمة. استغلّت مباحثاتنا لكي تصعد السلّم. وبعد ذلك، فات الأوان. فقد غمرتنا أعدادها الهائلة، ومن ثمّ وقعت المجزرة. ترين أمامكِ القطط الناجية، أي التي قفزت من أعالي برج المياه دون أن تتهشّم عظامها. أمّا بالنسبة إلى الأخرى...

لم يستطع حتى أن يُنهي جملته. ثمّ استأنف الكلام، قائلاً:

– كان عليّ أن أُصغي إلى نصيحتكِ، يا باستيت. لا جدوى من الرغبة في التعاهد مع الذين لا يُريدون سوى تدميرنا. ليس من شأن ذلك سوى تأجيل الوقت لتحقيق نفس النتيجة.

وها إنّكم ترون: مع مرور الزمن، انتهى الجميع إلى الاكتشاف بأنني كنتُ محقّة. لكن أن تكون محقّاً قبل الأوان أسوأ من أن تكون مخطئاً. إذ يكرهك الناس إلى أن تحين اللحظة التي يُدركون فيها أنّه كان من الأفضل لهم لو أصغوا إليك، ولسوء الحظّ، غالباً ما يكون ذلك بعد فوات الأوان.

حدّق فيّ سفينكس وفي نظرته شعورٌ سبق لي أن رأيته في عيني فيثاغورس: الإعجاب.

سألني:

– وماذا عنكم أنتم؟

– نحن نسير نحو باريس لننقذ أبناء جنسنا.

هزّ القطّ ذو البشرة الوردية رأسه، ثمّ دهمه فواقٌ وراح يبصقُ دماً. قال:

– أنا آسف، لن أستطيع مواصلة هذا الحديث، فهناك أمرٌ عاجل عليّ القيام به... عليّ أن أذهب لأموت.

فابتعد سفينكس نحو منطقة مشجرة قريبة جدّاً رافعاً بافتخار ذيله الأجرد الوردي الذي لم يعد يُضحكني.

إنّه يُجيد عزّة النفس حتى آخر لحظة.

كانت أصداء مقطوعة «أداجيو في سلّم ري الصغير» للموسيقار باخ لا تزال تتردّد حينما راح يختفي تدريجياً بين الأعشاب العالية.

سألت ناتالي التي انضمّت إليّ:

– إلى أين يذهب؟

– القطط تختبئ عندما تموت، بخلاف الكلاب التي تُريدُ إظهار ألمها لكي يشفق عليها الناس. نحن نكون هادئين وصامتين في لحظات احتضارنا الأخيرة. إنّها مسألة كرامة وعزّة نفس.

لم أجرؤ على القول إنني أنا بنفسي، في اللحظة المحتومة التي أشعر فيها بالموت قادماً إليّ، سوف أختبئ لكي أُغادر بمنتهى النُبل. سوف أموتُ وحيدة، متمنّية ألا يعثر أحدٌ على جثّتي ويرى كيف أنني، القطّة الرائعة، قد تحوّلتُ إلى جثّة مغطاة بالذباب، ثم تلتهمها الديدان.

صرختُ بقوّة بالغة، على أمل أن يسمعني:

– وداعاً، يا سفينكس!

ثمّ استأنفنا السير في طريقنا.

في المرآة العاكسة للشاحنة، رأيتُ القطط الناجية من برج المياه تواصل طريقها نحو الجنوب، وهي تخفض رأسها وتهدل آذانها وتضمّ ذيولها بين قوائمها، دون أيّ أملٍ في مستقبلها.

سرنا نحو باريس ولكن ما أن دخلنا العاصمة حتى لاحظنا أنّ شيئاً ما قد تغيّر.

لم أعد أرى جرذاناً. كانت هناك آلاف الجرذان، والآن لم يعد هناك جرذٌ واحدٌ.

ما الذي يمكن أن يكون قد حدث حتى تغادر جميعاً؟

ربّما أخطأ فيثاغورس عندما قال لي إنّها سوف تنتصر لأنّها أكثرُ عدداً.

ثمّة شيءٌ جديد.

كلّما تعمّقنا في الشوارع أكثر، ازداد إحساسي بأنّ هناك شيئاً ما على غير ما يُرام. من بعيد، رأينا عموداً من الدخان الأسود يتصاعد فوق جزيرة المدينة. انتابني شعورٌ سيّئ للغاية.

52. العلاقة بين كثافة السكان والتقدّم

حسب رأي الباحث إميل سيرفان شريبر، يرتبط المستوى التكنولوجي والتطوّر الثقافي والسرعة في الابتكار بالكثافة السكانية أكثر مما يرتبط بأدمغة الأفراد الذين يكوّنون السكان.

في كتابه *المجتمع المتفوق الفعّال*، يشرح أنّ أفضل وسيلة لضمان نقل المعارف هي مضاعفة عدد التلاميذ بغية زيادة فرص المحافظة على المعرفة التي يقدّمها الأساتذة.

وهذا يفسّر المراحل المختلفة لتاريخ البشرية.

في عصر البداوة، كان السكان مبعثرين والقبائل مكوّنة من عشرين إلى خمسين شخصاً يعيشون في أكواخٍ ويلحقون بالطرائد. كان جميع أفراد القبيلة من الصيادين والجامعين للثمار، وتُحفَظ المعرفة القليلة المتراكمة من قبل كلّ فردٍ من أفراد المجموعة وتُنقَلُ شفوياً من جيلٍ إلى آخر مع خطرٍ كبيرٍ عليها من الضياع.

ثمّ جاء العصر الزراعي. وأصبحت التجمعات البشرية تضمّ من خمسمئة إلى ألفي شخصٍ من المقيمين المستقرين في القرى. ومنذ ذلك العصر، أصبح من الممكن أن يختصّ بعض الأفراد في مجالات معيّنة وباتت المعرفة تنتقل من المعلّم إلى التلميذ، مثل مهن التعدين والزراعة وتربية الماشية والحرف اليدوية والطبّ والعمارة.

وبعد ذلك، حلّ العصر الصناعي. وشوهِدت في هذا العصر الهجرة الريفية التي أدّت إلى توسّع المدن وزيادة سكانها، بحيث باتت التجمّعات البشرية تضمّ من ألفين إلى عشرة آلاف من الأفراد الذين باتوا منذ ذلك الحين يقيمون في نفس التجمّع السكني. وبدأت المعرفة تُنقَل من خلال

المدارس والجامعات وأصبح هناك ميلٌ متعاظم في التخصّص في كلّ المجالات. وحلّ محلّ الأطبّاء العامّين أطبّاءٌ مختصون، من أطبّاء القلب والجلد والأسنان وسواهم. وبنفس الطريقة، رأى المهندسون والمعماريون وكلّ المهنيين الآخرين تلامذتهم وهم يتوزّعون على فروع الاختصاصات الخاصّة.

وأخيراً حلّ عصر التكنولوجيا الرقمية. باتت المدن تضمّ عشرات ملايين البشر. وبفضل الإنترنت، انتشرت المعرفة على نحوٍ متزايد وظهرت معارف أكثر تخصصيّةً.

في عصر البداوة، كان إجمالي الناتج المحلّي الذي تنتجه المجموعة أو الأمّة يتضاعف كلّ مئتين وخمسين ألف عام. أي كان لا بدّ من الانتظار مدّة مئتين وخمسين ألف عام حتى تسمح الابتكارات بمضاعفة الثروات. في العصر الزراعي، كان إجمالي الناتج المحلّي يتضاعف كلّ ألف عام (لأنّ الناس كانوا في مساحات أكثر كثافةً، استطاعوا أن يتخصّصوا في المجالات المختلفة وأن ينقلوا معارفهم على نحوٍ أسهلٍ). في العصر الصناعي، كان إجمالي الناتج المحلّي يتضاعف كلّ خمسة عشر عاماً.

في عصر التكنولوجيا الرقمية، يتضاعف إجمالي الناتج المحلّي... كلّ شهر. وهكذا، من خلال زيادة كثافة السكان على نفس الأرض، استطعنا الانتقال من مجتمع بطيء وعمومي إلى مجتمع متفوّق فعّال وسريع وتخصّصي.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

الفصل الثالث

الفكاهة، الفنّ، الحبّ

53. إعادة لم الشمل

لا أعلم بالنسبة إليكم، ولكنني، في بعض اللحظات، أشعر بأنني لستُ من هذا الكوكب. وكلّ هذه الكائنات التي تتحرّك من حولي تبدو لي كأنّها عبارة عن ممثلين في سيناريو أجهل حبكته المخفية.

في بعض الأحيان، تكون الأمور كلّها على ما يُرام، وفي أحيانٍ أخرى، تكون الأمور كلّها سيّئة، وأنا لستُ سوى فلينة صيدٍ يجرفها تيار النهر، أتخبّطُ من ضفّة إلى أخرى وأرتطم بالصخور الناتئة، وأنجرف بدوّامات المياه، ثمّ أُرمى دون سببٍ إلى ركنٍ رمليٍّ.

كانت أمّي تقول دوماً: «إذا شعرتِ بأنّكِ لستِ في مكانكِ المناسب في هذا العالم، فهذا لأنّكِ هنا لتخلقي منه عالماً جديداً».

فابتلعتُ ريقي وانتفضتُ وأنا أنخر بصخبٍ، وتقدّمتُ وسط هذا المشهد المقلق. كان الآخرون أيضاً على أهبة الاستعداد. تسارع تنفّس ناتالي. وانتصب شعر فيثاغورس.

خشينا أن تكون باريس محتلّة من قبل الجرذان، ولكن ما أثار دهشتنا هو أنّه كلّما تقدّمنا أكثر تبيّن لنا أنّ المكان فارغٌ.

وكأنّ عاصفةً قد ضربت المدينة. لم يعد هناك أيّ قارضٍ في المكان. هل يمكن أن يكون أعداؤنا قد اختفوا دفعةً واحدة؟

هذا أمرٌ غير طبيعي.

أرهفتُ كلّ حواسي إلى أقصى درجة. لم تعد هناك جرذانٌ، بل صراصير تزحف على الأرض وذباب يملأ الهواء. لم يسبق لي قطّ أن رأيتُ هذا الكمّ الهائل من الصراصير والذباب.

تركنا الشاحنة على ضفّة النهر وصعدنا إلى مركبٍ لكي ننتقل إلى جزيرة المدينة. لمّا وصلنا إلى الجزيرة، اكتشفنا أنّ صمتاً مطبقاً يخيّم على هذا المكان أيضاً.

فاق المشهد الذي كان بانتظارنا كلّ ما كان يمكنني أن أخشاه. كيف يمكن وصف المشهد الذي حضر أمامي؟

بدا أنّ كلّ جماعتنا من القطط والبشر قد أُبيدت. سألتُ فيثاغورس:

– أين الجرذان، برأيك؟

– على الأرجح تحرّك القطيع البنّي للقائد تيمورلنك في كتلةٍ متماسكة ودمّر كلّ ما صادفه في طريقه، قبل أن يذهب لغزو بلدٍ آخر.

كان فيثاغورس على حقّ في توقّعه، ليس هناك تفسيرٌ آخر: تقدّمت كتلة الجرذان في مجموعةٍ متماسكة، في تلاحمٍ تامّ، تدفعه الرغبة في تدمير كلّ شيء.

في الواقع، عدا رائحتهم، لم يكن هناك أيّ أثرٍ لمن أوقعوا هذه الكارثة.

سُرنا ببطءٍ وسط المكان الذي كان يوماً بمنزلة الفردوس لنا والمُدمّر الآن دماراً كاملاً. كانت آذاننا تدور حول محاورها في كلّ الاتجاهات لكي نلتقط ضجيج الخارج، لكن مشهد هذه المأساة هو الذي لفت انتباهنا وأذهلنا أكثر من المعلومات السمعية أو الشمّية. اكتشفنا الأسوأ لحظة وصولنا إلى ساحة الكاتدرائية.

توقّفتُ، مصعوقةً باللوحة التي امتدّت تحت أبصاري.

رأيتُ الأسد هانيبال مصلوباً على قطعتي خشب مثبّتين بعضهما على بعض على شكل الحرف (T) في اللغة الإنكليزية. كان بطلنا قد أُعدمَ وذراعاه مفتوحتان واسعاً، ومربوطتان بحبالٍ، كما لو أنّه يرغب في دعوة أحدهم لاحتضانه.

لم يكن كلّ جسد السنّوري المسكين مثخناً بالجراح فحسب، بل قُلِعت أنيابه ومخالبه أيضاً. كان هذا المشهد بمنزلة رسالةٍ تركتها لنا الجرذان، لكي تُظهِر لنا أنّها قد استطاعت أن تجرّد محاربنا الرئيسي من سلاحه. وقد تطابق تفسير فيثاغورس للواقعة مع تفسيري لها:

– كانت الجرذان بحاجة إلى التخلّص من خوفها من هذا القطّ العملاق، والانتقام لهزيمتها في معركة جزيرة البجع.

إلى جانب هانيبال، وجدنا أنّ قططاً أخرى قد أُخضِعَت لنفس صنوف التعذيب. تعرّفت على فولفغانغ. اهتزّ قفصه الصدري بتشنّجٍ خفيف، فقرّبتُ أذني منه وصرخت:

– لا يزال قلبه ينبض!

أنزلناه عن صليبه ووضعناه على العشب. ارتعش الرئيس السابق، قطّ الشارتروه الرمادي المائل إلى الأزرق. فتح فمه وأخرج لسانه.

نطق بصعوبة بالغة:

– أنا عطشان.

رحتُ ومصصتُ بعض الماء من نافورة قريبةٍ وأفرغته في فمه ليبتلّ سقف حلقه. ثمّ حككتُ خطمه بخطمي.

استطاع أخيراً أن يموء بشيءٍ مفهوم:

–... كان عددها كبيراً للغاية.

أعطيتُ له المزيد من الماء ليشرب. ارتعش لدى ذكر الرعب الذي عاشه، وتنهّد بعمق:

– لقد هاجمتنا على نحوٍ مباغتٍ هذا الصباح... إنّها تمتلك الآن القدرة على التحكّم بالنار... وبهذه الطريقة استطاعت أن تحرق السور الخشبي... وبعد ذلك... دخلت... قتلت الجميع... كان هانيبال رائعاً، لقد استطاع أن يكبح جماحها... قليلاً... وقد قاتل حتى النهاية...

ارتعش فولفغانغ رعشة عصبيةً جعلته ينتفض. سألته:

– هل كان معها جرذٌ صغير أبيض اللون؟

- لقد كان عددها كبيراً للغاية... لم نستطع أن نرى شيئاً... كان تقدّمها أشبه بنهرٍ هادرٍ من الفراء الرمادي...

هذا هو ما يؤكّد فرضية مجموعة متقدّمة بتماسكٍ. سعل فولفغانغ. أدركتُ أنّه سيكون من الصعب عليه أن يواصل الحديث عمّا جرى.

من حولنا، حاول ناتالي ورومان العثور على أحياء بين الشباب المرميين على الأرض، ولكن دون جدوى.

اجتاحني إحساسٌ جديد. الإحساس بالذنب. لقد ماتوا بسبب خطأي أنا.

لو لم أنتصر في معركة جزيرة البجع، لواجهنا «فقط» قمبيز، وهو خصمٌ من الأسهل بكثير التغلّب عليه. ثمّ أيّ فكرةٍ راودتني لكي أجمع كلّ هؤلاء الناس في جزيرة معزولة: بينما اعتقدتُ أنني أبني مملكةً، بنيتُ في الحقيقة سجناً.

تلفّظ فولفغانغ بصعوبة كلمةً. انحنيتُ لكي أفهمه:

- أنجيلو...

- ما به، أنجيلو؟ ماذا حدث لابني؟ تكلّم!

أخذ فولفغانغ نفساً عميقاً ليجد القوّة على مواصلة الحديث.

- أنجيلو، وأسميرالدا، وبعض القطط الأخرى والشباب من البشر...

توقّف، تنهّد من جديد؛ سال لعابٌ ممزوجٌ بالدمّ من فمه.

-... استطاعوا أن يفرّوا.

أنجيلو على قيد الحياة!

- إلى أين؟

- عبر نفق المترو...

ثمّ ارتعش فولفغانغ رعشةً وتلفّظ بشيءٍ غير مفهومٍ تماماً في تلك اللحظة:

- باستيت... أرجوكِ... يجب أن تجرّبي الشامبانيا مرّة أخرى. ليس لعقة واحدة فقط، بل كوباً كاملاً هذه المرّة، وسوف يساعدكِ هذا في إيجاد حلول جديدة.

لماذا يحدّثني عن الشامبانيا الآن؟

بدت لي هذه الجملة في هذه اللحظة المأساوية غير مناسبةٍ إلى درجة

أنني لم أعرف بماذا أُجيبُ عليها. ثمّ تذكّرتُ أنّ الطعام والشراب، بالنسبة إلى فولفغانغ، كانا من المصادر الرئيسية للسرور والارتياح. وإذ شعر بدنوّ نهايته، لا بدّ أنّه تذكّر المتع الصغيرة التي صنعت حياته.

قلتُ له:

- أعدكَ بأنني سأشرب الشامبانيا، وسوف أتذكّرك.

بدأ فولفغانغ يزحف. لم أساعده. مثل سفينكس تماماً، عرفتُ أنّه سيبحث عن مكانٍ لكي يختبئ فيه ويحتضر ويلفظ أنفاسه الأخيرة بعيداً عن الأنظار.

ألقيتُ عليه نظرة أخيرة.

وداعاً، يا فولفغانغ، موعدنا في محطّتنا الجديدة من حيواتنا التسع.

لم يعد هناك متّسعٌ من الوقت لنضيّعه. كان يجب أن أركّز طاقتي لكي أحافظ على الحياة بدل أن أحاول إيقاف ما لم يعد من الممكن إيقافه.

بحثتُ عن خادمتي ناتالي. هرولتُ وسط الأنقاض والجثث، وفي النهاية، عثرتُ على خادمتي بالقرب من جثمان باتريسيا، العرّافة. كان جسدها هي الأخرى مثخناً بالجراح التي أحدثتها الجرذان. تخيّلت أنّها قد قاتلت بيديها المجرّدتين المئات من الجرذان التي غمرتها بالكامل في النهاية. إذاً، لم تسمح لها موهبتها كعرّافة بالتواصل مع هذه الحيوانات لتقنعها بعدم قتلها.

باتريسيا! باتريسيا! تُرى هل لا يزال هناك ذرّة من الروح في هذا الجسد المحطّم يمكنها تلقّي رسالتي التخاطرية؟

ولكن هيهات، أعتقد أنّ هذا الغلاف الجسدي الآن فارغٌ تماماً من الروح. بكت ناتالي بحرقةٍ. اقتربتُ منها ولعقتُ خدّيها.

ثمّ، وقد أدركتُ ما يعنيه الحزن، المرتبط بالشفقة، أخذتُ مكاني بالقرب منها تماماً وأجريتُ لها جلسةً من الخرخرة الباعثة على الارتياح بشدّة 24 هرتزاً.

لقد أدركتُ أنّه حتى وإن كنّا مستعجلين للذهاب والبحث عن ابني وبقية الأحياء، عليّ أن أقضي بضع دقائق لكي أعيد شحذ الهمم بطريقة مثالية لكي نستطيع أن نكون فعّالين خلال الدقائق التالية.

رأيتُ خادمتي تبكي، والمنازل يتصاعد منها الدخان، ومن بعيد،

فولفغانغ الذي يزحف بحثاً عن مكانٍ يتوارى فيه عن الأنظار. انتابني شعورٌ غريب: بدأت أشعر بلسعةٍ في عينيّ.

لا معنى لهذا، فنحن القطط لا نستطيع البكاء، أليس كذلك؟

بدأ ذلك يحرق جفوني.

كلا، لا تبكي الآن. لا ينبغي أن أبكي. لا ينبغي أن أبدو كضحيّة أبداً.

لسنا مجرّد «قطط». نحن حيوانات مفترسة. نحن منْ نثيرُ الخوف.

بيد أنّ قطرةً لمعتْ في عينيّ.

يخونني جسدي.

لم أرغب في الإشفاق على نفسي على هذا الوضع. وصلت دمعةٌ أخرى. ومع أنني أعتبرُ البكاء ضعفاً، فإنّ هذه العملية أراحتني على نحوٍ مدهش.

حينئذٍ، وتماماً مثلما فعلتُ سابقاً مع الضحك، امتنعتُ عن كبح ما في داخلي وخفّفتُ التوتّر.

تبّاً لي، أنا أبكي مثل كائنٍ بشري.

ومع ذلك، بينما انهمر سائلٌ من عيني، فكّرتُ في خطّةٍ لئلا أستسلم تماماً لهذه الحالة.

فبدأتُ أخرخرُ بصوتٍ أقوى لكي أهدّئ نفسي.

54. العلاج بالخرخرة

مفهوم «العلاج بالخرخرة» ابتُكِرَ من قبل الطبيب البيطري التولوزي جان إيف غوشيه في عام 2002.

لقد اكتشف أنّ ذبذبات صوت القطط على الترددات المنخفضة من 20 وحتى 50 هرتزاً ليس لها تأثيرٌ مهدّئ ومُريح فحسب، بل تُسرّع أيضاً في تجبير العظام المكسورة. (تلتحم العظام المكسورة بسرعة أكبر بثلاثة أضعاف في هذه الظروف)، وكذلك الحال بالنسبة إلى العضلات الممزّقة، كما تعجّل على نحوٍ ملحوظ التئام الجراح.

في الواقع، تحثّ خرخرة القطط عند البشر إنتاج هرمون السيروتينين، وهو هرمونٌ يؤثّر على نوعية النوم والمزاج.

اكتشف جان إيف غوشيه أيضاً أنّ خرخرة القطط تخفّف التعب أو تتيح استعادة الراحة بعد رحلة بالطائرة.

حسب رأي هذا الباحث العلمي، تستطيع القطط بفضل فيرومو ناتنا (وهي جزيئات ذات رائحة تنبعثُ من ضمن ما تنبعث من عرقنا) أن تعرف متى لا نكون مرتاحين وتراودها الرغبة بطريقة تلقائية وعفوية في أن تُريحنا. تمتصّ الخرخرة كلّ طاقاتنا السلبية وتتيح لنا أن نكون في مزاجٍ أفضل بكثير. كما تسبّب الخرخرة في إنتاج الأندورفين الدماغي الباعث على السعادة (عن طريق مستقبلات تُسمّى «جسيمات باتشيني»)، ولكنّها تؤثّر أيضاً مباشرةً على جيناتنا من خلال فعلٍ كهرومغناطيسي (وخاصّة من خلال التأثير على جينات الكورتيزول، وهو مسكّن ألم طبيعي لنا، من خلال زيادة إنتاج الخلايا الجذعية المولّدة للنُسج).

في الوقت الراهن، يستخدم اختصاصيو العلاج الطبيعي العلاج بالخرخرة لمعالجة التهابات المفاصل، وآلام العمود الفقري وتسريع التئام العظام المكسورة. وتنفّذ دور التقاعد على نحو متزايد برامج المعالجة بالخرخرة. حسب رأي جان إيف غوشيه، هذه الموجة الخاصّة التي تصدرها حنجرة القطط تسمح للمسنّين الذين يبدأون بالمعاناة من مشاكل ذهنية بالتركيز على نحوٍ أفضل وتنظيم أفكارهم على نحوٍ أمثل.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

55. متاهة

أنا متأكّدة من أنّ فيثاغورس رآني أبكي.

لا أدري ما هو رأيكم، ولكن حسب رأيي، يمكن للمشاعر أن تساعد أحياناً وأن تُضيّع الوقت أحياناً أخرى.

شخصياً، أنا من أنصار المباشرة بالتصرّف، وفقط بعد ذلك، أطرح أسئلةً على نفسي.

بل سأقول إنني أبقى مقتنعة بأنّ الفعل يمنح راحةً للذهن، بينما لا يُسفر التأمّل الذاتي إلّا عن دوّامة جهنّمية تؤدي شعور الذات بالذنب.

في النهاية، هذا رأيي أنا، وأنتم لستم مضطرّين للاتفاق معه.

لعقتُ دموعي، وانتفضتُ واقترحتُ أن ننشغل بالبحث عن أنجيلو والناجين الآخرين الذين، وفق فولفغانغ، سيكونون قد فرّوا عبر نفق المترو.

فنزلنا، أنا ورفاقي في المغامرة، فيثاغورس، وناتالي، ورومان، وشامبليون، سلالم نفق المترو ووجدنا أنفسنا أمام الباب الذي ركّبناه بعد الهجوم الليلي الذي شُنّ علينا انطلاقاً من هذا النفق نفسه. كان الباب موصداً برمزٍ رقمي، الأمر الذي يُسهّل فتحه وإغلاقه.

لحسن الحظ، لا تزال الجرذان لا تجيد قراءة الأرقام.

دخلنا إلى النفق المظلم. استخدم ناتالي ورومان هاتفيهما الذكيين لإضاءة المكان. وأنا تقدّمتُ بحذر، مستسلمة للانقياد خلف رائحة آثار القطط والبشر.

كانت الروائح طازجة.

إنّها أحدث عطور جماعتنا.

امتدّت شعيرات شواربي لتستشعر أدنى حركة من حولنا.

وكلّما تقدّمنا أكثر، شممنا رائحةً لم تكن رائحة القطط.

ثمّة جرذانٌ هنا.

ربّما لا تزال هناك جرذانٌ هنا.

ما لم تكن تلاحق الهاربين.

تقدّمنا داخل المتاهة المعتمة لنفق المترو، تقودنا الروائح وحدها. راودني من جديد ذلك الحدس المنبئ بأنّ شيئاً ما سوف يحدث لي.

شعرتُ بأنّ الجرذان سوف تظهر بين لحظةٍ وأخرى. وأدركتُ تماماً أنّه في لحظة وقوع الهجوم، بوجود بعض العقبات والموانع، لن نتمكّن من الفرار.

وازدادت رائحة الجرذان أكثر فأكثر. لم أجرؤ على التوقّف، خشية أن أظهر جبانة أمام الآخرين.

في لحظةٍ، سمعتُ صوت صفيرٍ قادمٍ من السقف. توقّفت.

أهي جرذانٌ؟

تكرّر الصفير. تهيّأتُ للقتال، عندما تحوّل الصفيرُ إلى ضجيجٍ صادرٍ عن خفق الأجنحة.

كان سربٌ من مئات الخفافيش فوقنا.

واصلنا سيرنا تحت الأرض. خلخلت رائحة عفونة، فائحة من أشنيات على سياجٍ، الأثر الشمّي الذي كنّا نتعقّبه للوصول إلى ذوينا. استدرتُ نحو القطّ السيامي.

– ابقَ بالقرب منّي.

حتى وإن كان خائفاً، يمكنه في حالة الهجوم أن ينفعني كدرعٍ واقٍ. ففي الوقت الذي ستنشغل الجرذان بقتله، ربّما أتمكّن من الحصول على وقتٍ كافٍ للفرار.

سأل:

– إذاً، هل تهتمين بأمري؟

وفي هذه اللحظة بالذات، أقلقني صوتٌ جديدٌ مجهول. في الواقع، لمّا فتحت ناتالي ممرّاً، سقط شلالٌ من الصراصير فوقنا. أطلق البشر صيحاتٍ، وتخبّطنا ثمّ ركضنا بخطٍ مستقيمٍ نحو الأمام لنهرب منها.

أنا أكره الصراصير. أنا أكره الأنفاق تحت الأرض. أنا أكره هذه اللحظة.

وأخيراً وصلنا إلى مخرجٍ. انتفضنا لكي نتخلّص من كلّ الحشرات العالقة بفرائنا.

يجب أن أستردّ قواي، فأنا قويّة. لا شيء يُخيفني. أنا ملكة. ملكة القطط التي تُعدُّ ظهور حضارةٍ جديدة.

قالت ناتالي:

– لقد عبرنا ذراع نهر السين، وها نحن في محطّة مترو شاتليه. هل لا تزالين قادرة على شمّ أثر الفارّين، يا باستيت؟

شممتُ مخرج نفق المترو، وقلت:

- من هنا!

وأخيراً وصلنا إلى السطح. إلى الضوء. كان شامبليون، الذي لا يُطيق الظلام والأنفاق حيث لا يسعه الطيران فيها، أوّل الخارجين من النفق.

هرولتُ وأنا حريصةٌ على ألا أفقد أثر الشمّ. تخلّف فيثاغورس عنّا قليلاً.

أوضحت خادمتي وهي تغمز بعينيها:

- نحن في شارع ريفولي.

كان شارعاً محاطاً بعمارات منهارة، يتكوّم في وسطه حطام السيارات وهياكلها، وفي داخل بعضها هياكل عظمية بشرية.

سرنا في الطريق.

جعلنا الأثر الشمّي نسلك شارع ريفولي ووصلنا إلى مبنى يشبه كثيراً قصر فيرساي.

لمّا شممتُ جيّداً، اكتشفتُ رائحةً تشبه مزيجاً من رائحة أسميرالدا وأنجيلو. لا بدّ أنّهما مرّا من هنا. بالمقابل، لم يكن هناك أيّ رائحة للجرذان.

سألتُ فيثاغورس:

لماذا لا توجدُ جرذانٌ هنا برأيك؟

أجاب القطّ السيامي الذي بدا واضحاً أنّه قد طرح على نفسه السؤال نفسه:

- على الأرجح أنّ قطيع الجرذان البنّية قد ظلّ متماسكاً بعد ارتكابه لجريمته النكراء وراح يدمّر شعوباً أخرى في الشمال. في البداية، قطط برج المياه، ومن ثمّ قطط وبشر جزيرة المدينة، وبعد ذلك، ربّما قطط حي مونمارتر... لقد ظلّت متماسكة لكي تشكّل فوجاً فعّالاً لا يمكن تحطيمه.

سُرنا بحذرٍ ونحن نتّبع الآثار الشمّية للقطط.

قادتنا تلك الآثار إلى هرمٍ زجاجيٍّ شفّاف. بدا لي هذا الشكل الهندسي مألوفاً على نحوٍ مثيرٍ للدهشة. ورأيتُ خلفه العديد من المباني الفاخرة.

أوضحت ناتالي:

- هنا أيضاً أحد القصور القديمة التي آوت الزعماء البشريين، تماماً

مثل الشانزيليزيه وفيرساي. هذا يُسمى اللوفر، ولكنّه أصبح متحفاً. بل أكبر متحف في العالم.

- متحف؟ ماذا يعني متحف؟

- إنّه أشبه بمعبدٍ للفنّ.

يبدو أنّ كلّ شيء يساعدني في حلّ الألغاز الثلاثة للفنّ والفكاهة والحبّ. يتكالب الكون برمّته لكي أتطوّر.

دخلنا إلى الهرم الشفّاف. وبعد أن نزلنا سلّماً، وصلنا إلى منطقة تفترشُ أرضيتَها المرمرية جثثٌ بشرية. وكانت روائح القطط لا تزال تفوح من المكان.

لقد جاؤوا إلى هنا، هذا مؤكّد.

مؤتُ بكلّ ما أوتيتُ من قوّة:

- أنجيلو!

كرّر فيثاغورس النداء:

- أسميرالدا! نحن هنا! أين أنتم؟

قادتنا الآثار إلى أن وصلنا إلى صالةِ استحمام، أدركنا من خلال الفوضى المزروعة فيها أنّ جميع الناجين قد اغتسلوا بالصابون بهدف إخفاء رائحتهم. وربّما هذه هي فكرة الإنسان الحذر.

قال فيثاغورس، معترفاً:

- هذه المرّة، أضعناهم تماماً.

شجّعتنا ناتالي:

- متحف اللوفر كبير، ولكننا سنعثر عليهم من كلّ بدّ.

هرولنا داخل معبد الفنّ، الذي بدا مثل متاهةٍ، كانت بكلّ تأكيد أعلى سقفاً من نفق المترو وأكثر إضاءةً منه، ولكنّها أيضاً متاهة معقّدة جدّاً. أعقبت ممرّاتٌ ممراتٍ أخرى، وكانت القاعات فسيحةً جدّاً.

في لحظةٍ ما، أصبحنا أمام لوحةٍ كبيرةٍ، ولسببٍ أجهله، جذبتني وأشعرتني بالقلق. سألتُ ناتالي:

- ما هذا؟

أجاب رومان بدلاً عنها:

- *طوّافة قنديل البحر*، وهي لوحة رسمها رسّامٌ يُدعى جيريكو.

بدا أنّ رومان يولي أهمية خاصّة لهذه اللوحة.

- إنّها تمثّل بشراً تحطّمت بهم السفينة في أعالي البحار ولجأوا إلى طوّافة خشبية. وقد مات أغلبهم، الواحد تلو الآخر، وانتهى الأمر بالناجين إلى أن التهموا بعضهم بعضاً. من المؤكّد أنّ هذه الحادثة قد صدمت عصر الفنان كثيراً وألهمته هذه اللوحة الفنية. وما وراء السرد البسيط لحادثٍ حقيقي، أصبح هذا العمل الفني مجازياً ويمثّل ما يُمكن أن يحدث: البشرية الغارقة التي سينتهي بها الأمر إلى أن تأكل بعضها بعضاً لكي تبقى على قيد الحياة.

من المؤكّد أنني تأثّرتُ بمشاهد كوكبنا، ولكن هنا حدث شيءٌ جديد: أدركتُ أن أحد اهتمامات الفنّ ليس التأثير على الآخرين فقط، بل دفعهم إلى التفكير أيضاً.

لم أستطع منع نفسي من الارتجاف وأنا أتخيّلُ أنني فوق كدسٍ من الألواح الخشبية وسط البحر، محرومةً من الطعام. بقيتُ متسمّرة في المكان، مذهولةً بهذه اللوحة التي وجدتها تزداد جمالاً كلّما نظرتُ إليها أكثر.

بعد كالاس وفيفالدي وباخ، الرسام جيريكو هو الفنان البشري الجديد الذي أثّر فيّ بعمق.

سألتُ فيثاغورس:

- هل تعتقد أننا سوف نستطيع أن نبتكر فنّاً قططياً، مثلما هناك فنٌّ بشري؟

- هل تعتقدين حقّاً أنّ هذا هو الوقت المناسب لأن نطرح على أنفسنا هذا السؤال؟

- اعذرني على عدم اكتفائي بالتعامل مع خوفي ومحاولتي أن أكون رؤيوية بعض الشيء.

تنهّدتُ بعمق، ثم أضفت:

- إن لم ننجح في خلق أو على الأقلّ تصوّر ثقافة قططية، فلن نستطيع أبداً أن نبني حضارةً جديرة بهذا الاسم. هذا هو ما يجعلنا خلفاء محتملين

للبشر: نحن لا نكتفي بالبقاء على قيد الحياة أو الرغبة في تعيين موطننا، بل نحن قادرون على أن نستولي على أفضل ما أنتجوه في مختلف المجالات التي تبدو لنا، للوهلة الأولى، غير مفيدة، مثل الفنون.

بدا شريكي قلقاً ممّا قلته. ولكنني ألححت:

– ذات يوم، سوف يكون علينا، نحن القطط، أيضاً أن نرسم لوحات أو ننحت تماثيل أو نعزف موسيقى خاصّة بالقطط حتى نبلغ نفس الدرجة من الهيمنة التي يتمتّع بها البشر.

لم يكلّف نفسه حتى عناء الردّ عليّ، فواصلتُ حديثي:

– فلنأمل فقط ألا تنخرط الجرذان في نفس المشروع، وإلّا سوف يكون هناك خطر أن تتجاوزنا.

فلنعترف بذلك، لقد بدا لي غريباً أن أتحدّث عن الفنّ في ظرفٍ على هذه الدرجة الكبيرة من الحساسية. أعتقدُ أنّ عقلي الباطن كان يسعى إلى أمورٍ تلهيني كي لا أُصاب بالشلل من جرّاء خوفي من أن يحدث شيءٌ ما لابني أنجيلو. فواصلتُ الحديث:

– والعلم أيضاً. سيكون علينا أن نبتكرَ علماً قططياً.

هزّ القطّ السيامي رأسه. وأخيراً اعتقدتُ أنني قد أثّرتُ فيه.

– لا يمكننا الاكتفاء باستنساخ التكنولوجيا البشرية. علينا أن نمسك بزمام المبادرة وأن نحاول الذهاب بالمعرفة إلى آفاقٍ أوسع وآمادٍ أبعد، انطلاقاً من المكان الذي توقّف فيه البشر. ولإنجاز هذه المهمّة، سيكون علينا أن نقوم قبل كلّ شيء بعملية جرد لكلّ ما اكتشفوه كي لا نبدأ من نقطة الصفر. ولذلك علينا أن نعود إلى اقتراحي السابق في إعداد موسوعة كبيرة للقطط.

سرنا في ممرّات المتحف، وشعيرات شواربنا مشدودة لكي نلتقط أدنى رائحة يمكنها أن تدلّنا على حضور قططٍ وشبّانٍ بشريين. بدا فيثاغورس أنّه قد استوعب مونولوجي الداخلي وأصبح جاهزاً للتحاور:

– فنّ قططي، أوافقكِ الرأي، ولكن من أين نبدأ؟

– يبدو لي أنّ أوّل فنّ ضروري هو فنّ رواية القصص، ماذا كان يُدعى هذا؟

– الأدب.

– علينا إذاً أن نبتكر الأدب القططي. علاوة على الموسوعة التي تحصر المعلومات المفيدة، يجب ابتكار قصص بشخصيات ومغامرات. سيكون من المناسب جدّاً أن نبدأ برواية كلّ ما حدث لنا بغية إنتاج... خاصّتنا.

اقترح فيثاغورس:

– أسطورتنا؟

– نعم، «الأسطورةُ القططية».

– وبرأيكِ هل ستكونين روائية أم شاعرة، يا باستيت؟

من جديد، أحسستُ أنّ هذا الذكر الذي لا يُطاق مثيرٌ للسخرية. اجتاحتني نفحةٌ من التمرّد حينما فكّرتُ في كلّ اللحظات التي قلّل فيها الذكور من احترامي، من احترامي أنا واحترام الإناث عموماً.

راودتني الرغبة في ضربه، ولكنني تمالكتُ نفسي.

– أنا جادّة في ما أقول. ذات يوم، سوف أؤلّف كتاباً أروي فيه قصّة حياتي.

– وكيف تخطّطين للقيام بذلك؟ حتى إنّه ليست هناك أبجدية قططية.

– في البداية، سوف أروي حكايتي شفوياً، وبعد ذلك، إمّا أنني أتعلّم الكتابة وأكتب قصّتي بالأبجدية البشرية أو سوف أمليها على أحدهم لكي يكتبها.

– من الجيّد أن نحلم، لكنّ الحقيقة ماثلة أمامنا: نحن لسنا سوى قطط. ليست لدينا حتى أيادٍ. قد تكون الحضارة البشرية قد انهارت بالفعل، لكننا لا نزال غير قادرين على منافستها في هذا الميدان.

لم أُجب بشيء، ولكنني ازددتُ قناعةً بأنّ الجنس الذي سيسيطر على الكوكب، لن يكون فقط الجنس الذي يُظهر قوّته وذكاءه، وإنّما الجنس الذي سوف يبرز هذه القوّة وهذا الذكاء من خلال فنّه. أدركتُ أيضاً أنّه عليّ أن أوسّع مفهومي للجمال وأن أتجاوز معاييري القططية البسيطة.

تجوّلنا في المتاهة ذات الجدران المغطّاة بالمئات من اللوحات.

فجأةً، دوّى صوتُ صرخةٍ.

إنّها خادمتي. جرينا صوب مصدر الصوت. كانت تنظر بنوعٍ من الخدر إلى لوحةٍ تمثّل امرأةً كانت عيناها قد استُبدلتا بحفرتين كبيرتين. انتابني القلق، فسألتُ فيثاغورس:

– ما بها؟

شرح فيثاغورس لي:

– لقد دمّروا العمل الفني الأشهر للبشرية. ما ترينه، هذا البورتريه للمرأة ذات العينين المحفورتين، هو لوحة *الموناليزا* للفنان ليوناردو دا فينشي. لقد انتزع أحدهم عينيها ليترك هذين الثقبين الفاغرين.

– ولكن من الذي فعل هذا؟

– لا بدّ أنّ هذا قد حدث خلال الحرب الأهلية. يستمتع بعض البشر بتدمير ما هو جميل.

لم أفهم كلّ ما تضمره هذه الملاحظة.

– حسناً، إنّها لوحة تالفة، اتّفقنا، ولكن انظر حولنا، هناك الكثير من اللوحات الأخرى. هذا لا يستحقّ أن نضع أنفسنا في هذه الحالة. إنّها ليست سوى شيءٍ.

شرح فيثاغورس لي:

– لهذه اللوحة خصوصية بعض الشيء. إنّها تُعتبَر اللوحة الأجمل في العالم.

– وماذا تمثّل؟

– امرأة تنظر إليكِ بثبات. ولكن ابتسامتها تعبّر عن هدوء كائنٍ بشريٍّ ارتاح أخيراً.

في السابق، كانت الأهمية الفنيّة لهذه اللوحة تبدو لي أدنى من أهمية لوحة *طوّافة قنديل البحر* التي كانت تمثّل كلّ هؤلاء البشر الذين احتضروا وأكلوا بعضهم بعضاً.

– يجب أن نواصل البحث عن ابني والناجين من الجزيرة.

أنا أفهم جيّداً أهمية الفنّ: إنّه جميل، بل يمكنه أن يدفع إلى التفكير، ولكنّه لم يُنقِذ بعد أرواحاً، على حدّ علمي.

واصلنا السير وسط القاعات الكبيرة الصامتة التي صادفنا فيها أحياناً جثث سيّاح، أمكن التعرّف عليهم من خلال آلات التصوير خاصّتهم، وجثث حرّاسٍ، أمكن التعرّف عليهم من خلال زيّهم الموحّد الرسمي وخوذهم. التفتت عليها وأنا أحاول إبقاء نظري مثبّتاً على الجدران.

أخبرنا رومان بأنّه بعد اجتياز صالات الفنّ الفرنسي والإيطالي، وصلنا إلى الصالات المخصّصة لمصر.

هناك أيضاً، كانت الواجهات الزجاجية محطّمة وبعض التماثيل ساقطة على الأرض، لكنّ رومان أثار انتباهي فجأةً:

– ها هي مثيلتكِ.

أشار إلى تمثالٍ من الحجر الأسود.

– هذا التمثال يمثّل الإلهة باستيت. عمره خمسة آلاف سنة.

اقتربتُ ورأيتُ قطّة مهيبة لها جسدٌ بشري. لفت انتباهي تفصيلٌ في التمثال جعلني فجأةً أجفل. كان في رأس القطّة شقٌّ شبيه بالذي أصبحتُ الآن أحمله في جبيني.

رسموني قبل خمسة آلاف سنة. كيف أمكن ذلك؟

فحدث شيءٌ غريبٌ في داخلي. بعد الشفقة والضحك والحزن، انتابني شعورٌ جديدٌ قويٌّ ومجهول.

شعرتُ بأنّ قوائمي تهرب من تحتي، واجتاحني ما يشبه دوخةً. فقدتُ وعيي وسقطت.

أُغمِضَتْ جفوني.

تسرّب ذهني من متحف اللوفر وظهر مشهدٌ جديد أمام عيني.

في هذا المشهد، كانت لدي أذرعٌ تنتهي بأيادٍ. وكنتُ أحمل في أصابعي خواتم مرصّعة وفي معصميّ أساور ملوّنة ثقيلة.

لقد سبق لي أن حلمتُ بهذا، ولكن هذه المرّة شعرتُ بأنّ هذا ليس حلماً، بل أكثر واقعيةً.

على جذعي، نهدان مغلّفانِ في نسيجٍ رقيقٍ. وفي أسفل جسدي، أقدامٌ تنتعل صنادل. وأمامي، عمودان ضخمانِ من الحجر، أحدهما أسود والآخر أبيض، يسجد خلفهما حشدٌ من البشر.

مررتُ يدي على وجهي، ولامست أصابعي فرائي وشواربي. كان لا يزال لي رأس قطّة، فقط الجزء السفلي من جسدي كان قد تحوّل إلى... جسدٍ بشري! بدل عمودي الفقري الرشيق، أصبح لي ظهرٌ متين وصلب مثل شجرةٍ. لمستُ جبيني وشعرتُ بأنّ فتحة عيني الثالثة قد سُدّت بحجرٍ ثمين.

وهنا، أدركــتُ مكان تـواجـدي: كنتُ في معبد بوباستيس قبل خمسة آلاف سنة.

– باستيت! باستيت!

سمعتُ اسمي يُرفَع كترنيمةٍ من قبل الجمع البشري الذي يقدّسني.

رفعتُ يدي وسكت الجميع. بدأتُ بالتحدّث:

– أصدقائي... لقد عشتُ للتوّ لحظة رائعة. لقد دخلتُ في غيبوبةٍ ورأيتُ المستقبل! رأيتُ نفسي في متحفٍ يقع فيما وراء البحار، في بلدٍ يقعُ في الشمال، مع أصدقاء بشريين. كان لي جسد قطّة بالكامل وكان اسمي لا يزال باستيت.

سرى همسٌ وسط الحضور.

– لقد رأيتُ مدينة ليست موجودة بعد وسوف توجد ذات يوم. اسمها باريس، وفيها ستكون حياتي الثانية بعد التناسخ. سوف ينهار العالم البشري وسوف تهدّد الجرذان بالسيطرة على العالم. بمساعدة مجموعةٍ من الأصدقاء، سوف أحاول منع وقوع الأسوأ.

بدت الجماهير المصرية، في عام 3000 قبل الميلاد، متأثّرةً برؤيتي.

– نعم، أنا أضمن لكم ذلك، ذات يوم، سوف تُدعى القطط لكي تحكم العالم بدلَ البشر. وأنا سأكون القطّة السوداء والبيضاء التي سوف تسمح بتأمين هذا الانتقال للسلطة بين البشر والقطط.

حينئذٍ، من جديد شرع الجميع يهتف باسمي بصوتٍ أقوى:

- باستيت! باستيت!

لقد وصلتُ إلى المعلومة التي كانت تنقصني. إنّ إنجاز مهمّة إنقاذ العالم يقع على عاتقي أنا ولا أحد سواي، لأنني إلهةٌ سابقة.

56. متلازمة ستندال

تستمدّ متلازمة ستندال اسمها من حادثة من حياة الكاتب الفرنسي ستندال (1783-1842)، وعلى نحوٍ أدقّ من صدمة عاطفية أصابته خلال رحلته إلى إيطاليا في عام 1817.

بينما كان يزور كنيسة سانتا كروس في فلورنسا، المدينة التي وجدت نفسها مهداً لفنّ عصر النهضة، فتح مصلى نيكوليني الذي اكتشف فيه لوحة *نزول المسيح إلى الجحيم* للرسّام برونزينو.

بدأ قلبه يخفق بسرعة أكبر، وصعدت دموعٌ إلى عينيه. دار به رأسه وفقد توازنه.

اضطرّ، مترنّحاً، لأن يجلس على مقعدٍ وحاول أن يستعيد توازنه من خلال قراءة قصيدة شعرية، ولكن لم يسفر ذلك إلّا عن تفاقم الظاهرة لأنّ هذا النصّ ولّد، حسب شهادته الشخصية، فائضاً من الانفعال الفنّي الذي أضاف إلى جمال الصورة الجمال الأدبي.

لقد مَرِضَ واضطرّ لأن يلتزم سريره.

فيما بعد، كتب: «أصبحتُ في ما يشبه النشوة».

بعد ذلك بأربعين عاماً، قدّمت الكاتبة الإنكليزية فيرنون لي شهادةً مماثلة بعد أن اكتشفت لوحة *الربيع* للرسّام بوتيشيلي، فقد كتبت: «استولى عليّ العمل الفني وأحسستُ بلذّةٍ».

في عام 1979، أشارت الطبيبة النفسية الإيطالية غرازيلا ماغريني إلى أنّها قد سجّلت مئتي حالة مماثلة لسيّاحٍ أُصيبوا بمتلازمة ستندال خلال زيارتهم إلى فلورنسا.

حسبما قالت، لقد تأثّر الزوّار فجأةً بعمق عملٍ فنّي وعبقرية مبدعه فتعرّضوا إلى غيبوبةٍ تراوحت بين دوخةٍ بسيطة ونوبة هستيريا حقيقية.

في غالب الأحيان، تتمثّل أعراض تجربة كهذه بتعرّق اليدين وتسارع وتيرة التنفّس واضطرابات في الرؤية وشعورٍ بالغثيان وحالات ارتعاشٍ ورجفان وهذيان تعقبه في أغلب الأحيان ليال عديدة من الأرق.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

57. على هوى الأمواج

أعتقدُ أنّه حينما نولَد يُكتَبُ علينا في مكانٍ ما الشخص الذي سوف نصبح عليه. وما دور تقلّبات الحياة إلّا إرشادنا بدقّة إلى هذا المسار المُبرمَج لنا قبل أنفاسنا الأولى في الحياة.

وحينما ننسى هذه الحقيقة، تُذكّرنا بنفسها متى ما شاءت وأينما شاءت على شكل أحلامٍ وإشاراتٍ وحدسٍ.

ها هنا، لي الحقّ في صيحة تذكير.

يا له من شعورٍ دقيق!

حينما رفعتُ جفوني أخيراً، كان معبد بوباستيس قد تلاشى وإلى جانب فيثاغورس، رأيتُ أنجيلو.

عادت أذرعي من جديد إلى طبيعتها منتهيةً بمخالب قابلة للسحب؛ واستعاد ظهري رشاقته، ولم يعد لديّ نهدان، ولا ثياب، ولا مجوهرات، ولا صنادل.

ما الذي حدث لي؟

لم أكن أعلم حتى ذلك اليوم أنّ الفنّ يمكنه أن يكون على هذه الدرجة من القدرة على زعزعة الاستقرار.

لقد أتاح لي هذا التمثال الحجري الأسود التواصل مع الشخص الذي

كنتُه قبل خمسة آلاف سنة. انتفضتُ. بقيتُ فاقدة للوعي لقدرٍ من الزمن لا يمكنني تقديره. لكنّه من المؤكّد أنه كان وقتاً طويلاً.

لعق ابني وجهي، متأكّداً على الأرجح من أنني لستُ ميّتة. وأنا أيضاً شعرتُ بالارتياح لرؤيته حيّاً. دفعته بكفّي لكي يتوقّف عن دهن وجهي بلعابه، ونظرتُ إلى ما وراء تلك الوجوه المألوفة وتبيّن لي أنّ المشهد قد تغيّر.

خلف تلك الوجوه، كانت هناك العشرات من المقاعد المنسّقة أمام واجهات زجاجية سميكة تسمح برؤية منظرٍ متحرّك. لم نعد إذاً في متحف اللوفر.

سألني القطّ السيامي:

– هل أنتِ بخير؟

– أين نحن؟

شرح فيثاغورس:

– في قارب أجرة. حينما أُغمي عليكِ، شعرنا بالقلق عليكِ، ولكن بما أنّ قلبكِ كان ينبض، استنتجنا بأنّكِ تعانين من إغماءٍ بسيطٍ يعود على الأرجح إلى الانفعالات، ونقلناكِ معنا. ومن ثمّ جاء شامبليون يبحث عنّا بعد أن عثر على الناجين المختبئين في القطاع الروماني من المتحف.

تدخّل أنجيلو الذي لم يكن قد أقلع عن عادته في التبجّح من خلال الإيهام بأنّه هو صانع كلّ ما يحدثُ من أمرٍ مهمّ:

– على نحوٍ أدقّ، أنا من اكتشفتُ الطائر وقلتُ في نفسي إنّه لا بدّ أن يكون هنا من أجلنا!

ختمت أسميرالدا، قائلةً:

– فهربنا، كلّنا معاً، لكي نصل إلى الضفّة ونصعد إلى قارب الأجرة الوحيد الذي كان خزان الوقود فيه ممتلئاً.

هل أسميرالدا هذه هنا، إذاً؟

– قارب أجرة؟ ما هو؟

– إنّه قاربٌ ذو سطحٍ شفّاف يُستخدَم في نقل ما يقرب من مئة سائح عبر النهر، وبالتالي كبيرٌ بما يتّسعُ لنا جميعاً.

في ما وراء القطط المحيطة بي، لمحتُ في مقدّمة المركب رومان واقفاً أمام دفّة القيادة، وناتالي إلى جانبه. تراجع اهتمام خادمتي بي على نحوٍ متزايد، الأمر الذي كنتُ سأعتبره في أيّ مناسبة أخرى أعظم خطأ ترتكبه، ولكن هنا لم أنزعج وقلتُ في نفسي إذا ما نجحت في التقدّم في علاقتها مع ذكرها البشري المفضّل، سوف أسامحها على إهمالها لي.

لامس فيثاغورس خطمي بخطمه.

– وبما أنّ هذه السفينة تُستخدَمُ مطعماً أيضاً، استطعنا الحصول على بعض المعلّبات التي أتاحت لنا إطعام الناجين الجائعين.

استدرتُ إلى يميني ورأيتُ بالفعل العديد من الصحون المليئة بطعامٍ بنّي اللون يلتهمه قططٌ وبشرٌ سبق أن قابلتهم في جزيرة المدينة.

– كم عدد الناجين؟

أجاب فيثاغورس بدقّة:

– 193 قطّاً وقطّةً و16 شابّاً بشرياً.

– شعرتُ بالارتياح. لقد اجتمعنا أخيراً، أحياء، في مركبةٍ طافيةٍ سريعةٍ استطعنا بفضلها أن نهرب من جزيرةٍ لم تعد قط فردوساً ولا حتى مأوى بسيطاً.

دقّقتُ النظر أكثر في الأشخاص الموجودين حولي. كان الشباب البشريون نحيفين، شاحبين، ومجروحين. حتى القطط، كان وبرها مهلهلاً، وأذنابها منخفضة، وخطومها جافّة، ونظراتها قلقة. رأيتُ جسم العديد منها مثخناً بالجراح، وهو الدليل على أنّها خاضت مواجهة مباشرة مع الجرذان.

والحال هذه، هؤلاء هم آخر «الناجين من المجتمع الطوباوي لجزيرة المدينة».

بدا أنجيلو مضطرباً. بالنسبة إلى قطٍّ يافعٍ، ليس أمراً جيّداً أن يكون شاهداً على العنف في هذا العمر المبكّر. تمنّيتُ ألا يكون مصاباً بصدمةٍ نفسية. ومع ذلك كانت لا تزال له تلك النظرة المتعجرفة المغرورة التي جعلتني، في بعض اللحظات، أشعرُ بأنّه يعتبر نفسه... أنا. ولكنني قلتُ في نفسي إنّ

اعتبار المرء نفسه شخصّاً مهمّاً، في أوقات الأزمات العصيبة، يساعده في نهاية المطاف على التخفيف من آثارها عليه. عدتُ إلى طرح أسئلتي:

– وماذا عن المواد التي كانت في الشاحنة؟

– لقد نجح رومان في جلب الشاحنة إلى الضفة الجنوبية. أثناء إغمائكِ، استطعنا أن ننقل جميع المواد التي أحضرها من أجل صناعة السياج والمنطاد وقمنا بتخزينها في هذه السفينة.

وقد أشار لي بأذنه على كدسٍ مغطّى بمشمّعٍ.

أضافت أسميرالدا:

– الآن لدينا ما نحتاج إليه لكي ندافع عن أنفسنا ولكي نهرب به.

كان رومان الشجاع يتّخذ دائماً المبادرات المناسبة. سألتُ أخيراً:

– ما الذي حدث لي؟ لماذا أُغمي عليّ؟

أجاب القطّ السيامي لكي يُظهِرَ ثقافته:

– يمكن تفسير إغمائكِ بما يُسمّى متلازمة ستندال: وهذا يعني في الحقيقة أنّ عملاً فنّياً، سواء كان عبارة عن لوحة فنية أو معزوفة موسيقية أو منحوتة، يسبّب نشوة لا يمكن التحكّم بها مثلما يغيب المرء عن الوعي. لقد قرأتُ مقالةً قصيرةً عن هذه الظاهرة في موسوعة العلم النسبي والمطلق.

إذاً، كنتُ أملكُ الجوابَ على سؤالي في موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة التي أحملها معلّقةً حول رقبتي. واصل فيثاغورس تحليله:

– في حالتكِ، وبما أنّ هذا حدث أمام تمثال باستيت، أعتقدُ أنّ هذه المتلازمة مرتبطة بما تُسمى ظاهرة وهم سبق الرؤية. وهو الشعور بأننا نرى مشهداً سبق لنا أن عشناه.

الآن وقد أخبرني بذلك، هذا صحيح، لقد سبق لي أن عشتُ هذا الإحساس، حتى وإن لم يُغمَ عليّ قط قبل هذه المرّة.

فجأةً، دخل شامبليون تحت المظلّة التي تشكّل السقف وأخذ يصيح:

– **الجرذان**! النجدة! الجرذان قادمة!

سأل القطّ السيامي، غير مصدّقٍ:

– أيّ جرذان؟

– جرذان القطيع البنّي! إنّها تتقدّم على الضفّة الشمالية للنهر. إنّها تلاحقنا.

قلتُ:

– لكنّ سفينتنا تسير أسرع منها.

أجابت أسميرالدا:

– بالتأكيد، ولكن ستحين لحظةٌ علينا التوقّف فيها، وبالتالي سوف تلحق بنا وسنضطرّ لأن نواجهها.

عليها أن تحدّثني بنبرة مختلفة، أسميرالدا هذه.

حاولتُ أن أجري في ذهني تقييماً للوضع وانتهيتُ إلى القول:

– يكفي ألا نتوقّف.

أجاب القطّ السيامي:

– من الناحية النظرية، هذا ممكن. في هذه الحالة، سوف نصل إلى مصبّ نهر السين، أي مدينة لو هافر، التي تقع عند مصبّ النهر.

قلتُ:

– ممتاز.

– كلا، لأنّها سوف تتمكّن من اللحاق بنا إلى هناك.

– في هذه الحالة، سوف نبقى في السفينة، ونواصل الإبحار.

– وهذا يعني أنّ بعد مدينة لو هافر، لن تكون المياه هي نفسها مياه النهر، بل سنصل إلى عرض البحر...

– نحن على متن سفينة طافية على ما يبدو لي، وبالتالي لا بدّ أنّها تسير جيّداً فوق سطح البحر، أليس كذلك؟

– هذه سفينة نهرية وليست بحرية. سيكون مثار دهشتي أن تتمكّن سفينة مسطّحة القاع من مواجهة أمواج المحيط. سوف نحتاج إلى عارضة رئيسة لقعر المركبة.

لم أعرف عن ماذا كان يتحدّث ولم أكن في حالة تسمح لي بإثراء مفرداتي اللغوية.

أوضح لي كما لو أنّه استطاع أن يقرأ أفكاري:

- إنّها عارضة تمثّل ثقلاً موازناً يحافظ على السفينة مستقيمةً رغم الأمواج.

أفرد شامبليون عرفه الأبيض وشرع يسير جيئة وذهاباً تحت المظلّة، ليظهر لنا مدى قلقه.

قال فيثاغورس، بقلق:

- حتى الآن، كانت الجرذان تتفوّق علينا بالعدد ولكن ليس بالذكاء؛ من الآن فصاعداً، يبدو أنّها تحظى بالتفوّق عدداً وذكاءً.

- بما أنّك رأيتها، يا شامبليون، أخبرنا كم عددها.

هزّ الببغاء رأسه وأجاب:

- إنّها تُعدُّ بعشرات الآلاف. وهي أكبر حجماً من كلّ الجرذان التي عرفتها سابقاً.

شرح فيثاغورس هذه المعلومات:

- إنّها على الأرجح أكثر عدداً لأنّ تيمورلنك وحّد العديد من قطعان الجرذان ليشكّل قطيعه البنّي؛ أمّا بالنسبة إلى حجمها، فهذا بكلّ تأكيد لأنّها استطاعت أن تحشو بطونها بالطعام عند كلّ انتصارٍ.

تنهّد القطّ السيامي بعمق، ثمّ قال:

- كان القطّ سفينكس على حقّ. الوقتُ يلعب لمصلحتها. لدى البشر معدّل وسطي من طفلٍ واحدٍ من كلّ جماعٍ، يولَدُ بعد تسعة أشهر. أمّا نحن، فننجب ستّة صغارٍ بعد شهرين من الحمل. والجرذان تنجب سبعة صغارٍ بعد واحد وعشرين يوماً فقط. الأمر الذي يعني أنّ هناك فرصاً ضئيلة في إيقاف نموّها السكاني.

حاولتُ أن أحافظ على تفاؤلي.

- حتى الجرذان تحدّد نسلها ذاتياً حسب ظروف حياتها. إذا ما عانت من نقصٍ في الغذاء أو ازداد عدد مفترسيها، يتباطأ نموّها السكاني تلقائياً، بل يتوقّف.

أبدت أسميرالدا ملاحظةً:

- بالنسبة إليها، الظروف الحالية مناسبة للغاية، حيث هناك الكثير من

الطعام وليس هناك أيّ مفترس. وبالتالي لم يعد هناك أيّ شيء يمنعها من النمو والتكاثر.

أضاف القطّ السيامي:

– خاصّة أنّها وصلت الآن إلى تقنيات البشر، طالما أنّها نجحت على ما يبدو في استخدام بعض الأدوات بأيديها الصغيرة ذات الأصابع الأربع. وبالتالي، من الناحية المنطقية، إن لم نفعل شيئاً، لا بدّ أنّها سوف تقهر الأجناس الأخرى وتفرض سيطرتها.

وأنا أتناقش مع مجموعة القطط، راقبتُ رومان وناتالي اللذين ظلّا في المقدّمة، غير مدركين للخطر المحدق بنا.

لماذا لا يمارسان الحبّ؟ ألا يدركان أنّ ذلك سيحفظ بقاء نوعهما؟

شوّشت فكرةٌ ذهني.

إذا كان البشر على هذه الدرجة من قلّة الحيلة، فهذا ربّما لأنّه يجب أن ينقرضوا نهائياً، مثل الديناصورات. وإذا كانت الجرذان على هذه الدرجة من سعة الحيلة، فهذا ربّما لأنّها هي المدعوّة لتولّي الأمر.

وماذا لو كان المستقبل للجرذان؟ سوف تبني عالماً أكثر قسوةً، وأكثر تراتبيّةً، يتمّ فيه القضاء على الضعفاء وينشرُ فيه الأقوياء الرعب.

لم يبدُ لي هذا هو المستقبل المثالي ولكن ربّما هذا هو ما ينتظرنا رغم كلّ شيء، ولا سيما الآن وهي تمتلك قطيعاً متماسكاً ومنظّماً تنظيماً هرمياً، يقوده قائدٌ استراتيجيٌّ ذكي.

58. التسلسل الهرمي عند الجرذان

أراد البروفيسور ديديه ديزور، الباحث في مختبر البيولوجيا السلوكية في كلّية نانسي، أن يفهم قدرة الجرذان على السباحة. فجُمِعَتْ ستّة جرذانٍ في قفصٍ يفضي المخرج الوحيد فيه إلى حوض سباحةٍ ينبغي عليها أن تعبره سباحةً لكي تصل إلى مزود مليءٍ بأطعمة.

وسرعان ما تبيّن أن الجرذان لا تندفع مجتمعةً إلى البحث عن طعامها،

بل على العكس من ذلك، جرى كلّ شيء كما لو أنّ الجرذان قد وزّعت الأدوار بدقّة فيما بينها.مكتبة سُر مَن قرأ

كان بينها «سبّاحان مُستَغلّان»، و«اثنان لا يجيدان السباحة مُستَغِلان»، و« سبّاح منفرد»، و« واحدٌ لا يُجيد السباحة وضعيف».

كان المُستَغَلّان يغوصان تحت الماء ليذهبا ويجلبا الطعام. لدى عودتهما إلى القفص، كان المُستَغِلان يضربانهما إلى أن يتخلّيا عمّا جلباه من طعام؛ وبعدما يملآن بطنهما من الطعام يوافقان على أن يتركا لهما ما تبقّى من طعام. المُستَغِلّان لا يسبحان أبداً، ويكتفيان بترهيب السبّاحين لكي يسدّا جوعهما.

كان السبّاح المنفرد قويّ البنية، قادراً على جلب وجبته واجتياز حاجز الجرذين المستغلّين لكي يأكل ثمرة جهده الخاصّ.

وأخيراً، كان الضعيف عاجزاً عن السباحة وعن إخافة الجرذين المستَغَلين في آنٍ واحد، وبالتالي يكتفي بالتقاط الفتات المتساقط عن الجرذان الأخرى.

وقد تشكّل نفس التقاسم -سبّاحان مُستَغلّان، واثنان لا يجيدان السباحة مُستَغِلان، وسبّاح منفرد، وواحدٌ لا يُجيد السباحة وضعيف- في الأقفاص العشرين التي أُعيدت التجربة فيها.

ولفهمٍ أفضل لهذه الآلية في التسلسل الهرمي، وضع الباحث ديديه ديزور ستّة جرذان مستغلّة معاً في قفصٍ واحد. تقاتلت فيما بينها طيلة الليل، وفي الصباح قامت بنفس عملية تقاسم الأدوار فيما بينها.

وقد حصل على نفس النتيجة حينما وضع في القفص نفسه ستّة جرذان مُستغَلّة أو ستّة جرذان منفردة أو ستّة جرذان ضعيفة. وهكذا وأيّاً كانت فئة الجرذان، كانت تنتهي دائماً بتقاسم نفس الأدوار. أُجريت التجربة في قفصٍ أوسع يضمّ مئتي جرذٍ. تقاتلت الجرذان فيما بينها طيلة الليل. وفي الصباح، عُثرَ على ثلاثة جرذان مقتولة، كانت الجرذان

الأخرى قد ذبحتها. المغزى: كلّما ازداد نموّ السكّان، ازدادت القسوة حيال الضعفاء. في نفس الوقت، كانت الجرذان المُستَغِلّة في القفص قد عيّنت مستغِلّاً رفيعاً يخدمه ضبّاطٌ يعكسون سلطته حتى دون أن يحتاج إلى أن يتصرّف بنفسه.

واصل علماء نانسي التجربة من خلال قيامهم فيما بعد بتحليل أدمغة الجرذان التي جرت الاختبارات عليها. وقد تبيّن لهم أنّ الجرذان الأكثر توتّراً وتعرّضاً للضغط الذهني لم تكن الجرذان الضعيفة ولا الجرذان المُستَغَلّة، بل على العكس تماماً، كانت الجرذان المُستَغِلّة.

في الواقع، كانت تخشى دون أدنى شكّ أن تفقد وضعيتها المتميّزة وأن تُرغَم ذات يوم على أن تضطرّ للذهاب والبحث عن طعامها بنفسها.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

منقّحة وفق المجلّد الأوّل من موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة.

59. الإيقاف في غمرة الاندفاع

مثلما قلتُ لكم سابقاً، لدي الكثير من الأخطاء الصغيرة، ولكن لديّ أيضاً ميزة حسنة: أُجيد انتقاد ذاتي ومراجعة نفسي.

وهنا، أعتقدُ أنني ارتكبتُ خطأً لأنني لم أدلِ برأيي بما يكفي من المباشرة والوضوح.

استغللتُ فرصة وجود خادمتي البشرية وحيدة في مقعدٍ في مؤخّرة السفينة لكي أسألها:

– ما الذي تنتظرينه لكي تمارسي الحبّ مع رومان؟

سعلت مطوّلاً، ثمّ هدأت، وابتسمت وداعبت رأسي، وقالت:

– وبمَ يعنيكِ هذا؟

– كما تعلمين، يا خادمتي، منذ أن عشتُ معكِ، تعلّمتُ أن أُعجَبَ بكِ ولا أتمنى سوى سعادتكِ. وكنتِ تقولين لي: لكي تشبهيني، تلزمكِ ثلاثة

أشياء: الفنّ، الفكاهة، الحبّ. ولكن كلّما أراكِ مع رومان، أقول لنفسي إنّ الحبّ على طريقة البشر يعني فقط تعقيد الأمور في حين يمكنها أن تكون أكثر بساطة بكثير. ما الفائدة من جعل المراحل صعبة إلى هذه الدرجة، مثلما تفعلان؟ إنّه لغباءٌ بالنسبة إليكما، وأمرٌ مزعجٌ للمحيطين بكما.

– أعتقدُ أنّ أخذ الوقت الكافي يسمح لنا بأن نكون متأكّدين أكثر من مشاعر بعضنا حيال بعض.

– هل تمزحين؟ أنتما تتعاشران منذ عدّة أيام وهناك خطر أن تموتا بين لحظة وأخرى!

– وماذا لو لم يكن الشريك المناسب؟

– إذا ما مارستِ الحبّ معه، على الاقل سوف تعرفين إن كان شريكاً مناسباً. التسكّع بهذه الطريقة لن يؤدّي إلّا إلى بقائكِ في حالةِ جهلٍ به. ربّما ليست لديّ نصيحة أُسديها لكِ، ولكن لو كنتُ في مكانكِ لما تردّدتُ. كنتُ سأجعله يشمّ روائحي الطبيعية بدل أن أُخفيها بالعطور الاصطناعية. اجعليه يشمّ رائحة عرقكِ، هزّي له مؤخرتكِ، اغمري منخريه بفيروموناتكِ. أريهِ ردفيكِ. لا بدّ لهذا، على الأقلّ، أن يوضّح الأمور.

انفجرت ضاحكةً، ولكنني لاحظتُ أنّ ضحكتها كانت مصطنعة لتُخفي بها ضيقها أمام حقيقة لا تُريدُ مواجهتها.

كلّ هذا لأنها غير قادرة على فهم حكمتي الطبيعية. ولذلك تسخر منّي.

– حقّاً، أنا جادّة فيما أقول. كان عليكِ أن تُريه جسدكِ عارياً. كلّ هذه الثياب التي تمنع فوح روائحكِ الطبيعية من الوصول إلى منخريه تعقّد عملية تواصلكما الشمّي.

أرادت ناتالي أن تأخذني بين ذراعيها لكي تداعبني – وهذه حركة تنمّ عن نزعة التملّك. فهي لا تزال تراني دمية محشوّة. أو ربّما تعتبرني كلباً لا يزال يتسوّل مداعباتٍ من سيّده. تحرّرتُ من بين يديها بحركةٍ مفاجئة ودفعةً واحدة من بين ذراعيها وهربت.

– إلى أين تذهبين؟ عودي، يا باستيت!

– أنتِ تثيرين غضبي، يا ناتالي! تُثيرين غضبي إلى درجة لا يمكنكِ تخيّلها.

لحقت بي.

– ماذا تريدين أن أفعل، يا باستيت؟

وافقتُ على أن أعود.

– حسناً، طالما أنّ ما يُثير البشر جنسياً هو تلامس الشفتين وعرض الأثداء، قومي بهذه الحركات في مغازلتكِ، ثمّ انخرطي في فعلٍ تناسليٍّ تحرّري. يبدو لي أنّ هذا ليس أمراً معقّداً جدّاً.

وكردٍّ على اقتراحي، ابتسمت لي ابتسامةً عريضة.

إنّها تثير غضبي، إنّها تثير غضبي، إنّها تثير غضبي.

وقلتُ لنفسي في تلك اللحظة إذا ما استمرّت في تعقيد الأمر على نفسها وواصلت التمسّك بحشمتها سأهجرها لمصلحة إنسانٍ أو إنسانة أكثر حيويّة ومهارةً منها. من غير الممكن أن تكون على هذه الدرجة من السذاجة...

ولكن فجأةً دوّت صفّارة سفينة الأجرة.

ركضتُ إلى مقدّمة مركبنا لأجد نفسي في مواجهة مشكلة جديدة: النهر الذي كان حتى تلك اللحظة صالحاً للإبحار فيه أصبح مسدوداً بما يقرب من عشرة قوارب متداخلة، شكّلت حاجزاً لا يمكن عبوره.

غمغمت أسميرالدا:

– هذه المرّة، انتهى أمرنا.

وجدتُ فيها جانباً انهزاميّاً. ربّما حرمها غزو جزيرة المدينة من أيّ حكمٍ موضوعي.

التفتُّ نحو رومان:

– أيّ حلٍّ بقي أمامنا؟

أقرّ رومان:

– لن يعود بوسعنا مواصلة تقدّمنا عبر هذا الطريق النهري.

استغرق الكائنان البشريان في التفكير. كدتُ أسمعُ صوت دماغيهما يعملان.

جاء فيثاغورس ينضمّ إليّ ونظر بقلقٍ إلى الحاجز المتشكّل من القوارب.

قالت أسميرالدا في نواحٍ:

– سوف تأتي الجرذان الآن وتقتلنا جميعاً مثلما قتلت سكان جزيرة المدينة.

كانت هذه الجملة بالضبط من الجمل التي لا تتيحُ تحقيق تقدّم الأمور إلى الأمام والتي ليست لها، في رأيي، أي أهمية.

– أمّي هي الأفضل، ستجد من كلّ بدٍّ حلاًّ لهذه المشكلة.

ها هو أنجيلو يتفوّه هو الآخر بعباراتٍ لا فائدة منها.

حقّاً، أنا بصحبةٍ سيّئة.

ذهبتُ إلى ناتالي في مؤخّرة السفينة. رأيتُها تستخدمُ منظارها المقرّب.

– بدا لي أنّنا تجاوزنا جزيرة كبيرةً في أعلى مجرى النهر. وليس علينا سوى أن نعود إلى هناك. وهناك، سوف نتّخذ موقعاً يمكننا تعزيزه.

– في نهاية المطاف، لدينا بعض الأسلاك الشائكة والمواد اللازمة لصناعة منطادٍ، ويمكن لهذا أن ينفعنا.

أعلن رومان ويلز الذي انضمّ إلينا:

– لا بدّ أنها جزيرة لاكروا. لقد سبق لي أن ذهبتُ إليها. إنّها أكبر جزيرة في روان. فيها حلبة تزلّج وبعض البنى التحتية التي يمكن أن نستفيد منها. حتى إنني اكتشفتُ أنّ كلّ الجسور المؤدّية إليها مُدمّرة.

لاكروا (الصليب)؟ إنّه نذيرٌ شؤمٍ للهروب من أناسٍ يريدون صلبنا. ومع ذلك استدرنا ورسونا على طول هذا الملاذ المُحتَمَل.

تفحّصتُ المكان. وجدتُ أنّ جزيرة لاكروا أصغر مساحةً من جزيرة المدينة؛ ومبانيها أكثر حداثةً. ومثلما لاحظ رومان، كانت الجسور الثلاثة التي تربط الجزيرة بضفاف النهر منهارة (أو ربّما دُمِّرَت طواعيةً، وذلك على الأرجح أثناء الحرب الأهلية).

كانت الجزيرة إذاً مقطوعة عن أيّ صلة وصل مع البرّ.

بدأ رومان، بمساعدة شبابٍ بشريين آخرين، على عجلٍ ببناء سورٍ

كهربائيٍّ وقائي حول الجزيرة. استغرق هذا العمل عدّة ساعات. ثمّ أوصلوا نظامهم الكهربائي بمحوّلٍ. ولحسن الحظّ، كانت كهرباء البلدية تعمل. حسب رومان، كانت الطاقة موصولة مع محطّة نووية لتوليد الطاقة، مؤتمتة بالكامل قريبة من المكان، ولا تزال تعمل.

ما كاد خدمنا البشريون أن ينتهوا من تركيب نظامهم الدفاعي حتى ظهرت من بعيد سحابةٌ من الغبار.

الجرذان قادمة.

صعدتُ إلى أعلى مبنى برفقة ناتالي. استخدمت منظارها المقرّب لتقييم الوضع. ثمّ ناولتني المنظار. كانت في الحقيقة ألوف الجرذان تتقدّم. رغم بعد المسافة، هذه الكتلة من القوارض تنثر رائحةً قويّة تزكم أنفي.

غمغمت ناتالي:

- لم أتوقّع أن تكون بهذا العدد الهائل.

سوف يفاجئني البشر على الدوام بسذاجتهم. فقد شاهدت هي الأخرى مثلي حشود الجرذان في قصر فيرساي. حينما وصلت إلى الضفّة المقابلة لنا من النهر، أقبلت بضع مئات من الجرذان نحونا سباحةً. عبرت كتف النهر وماتت مصعوقة بالكهرباء لدى ملامستها لنظامنا الدفاعي.

لكنّ هذا لم يكن كافياً لإيقافها.

- هذا مدهش، مع أنّها ترى أن الجرذان الأولى التي تلامس الأسلاك الشائكة تموت، تحاول جرذانٌ أخرى العبور.

قالت خادمتي، متنهّدةً:

- إذا كانت لا تخاف الموت، سيكون من الصعب الانتصار عليها.

لم يوقفها أيّ شيء. حاولت الجرذان أن تبني جسراً من الجثث لعبور الأسلاك الشائكة.

جاء رومان ينضمّ إلينا ويشرح لنا ما يجري في تلك اللحظة:

- لأنّها مبلّلة من جرّاء سباحتها للوصول إلى الجزيرة، تصبح ناقلةً للكهرباء الأمر الذي يمنعها من النجاح في تجاوز السياج.

في الحقيقة، بعد العديد من المحاولات الفاشلة وبعد موت المئات منها، تخلّت الجرذان عن محاولات العبور وأقامت معسكراً على ضفاف النهر.

قالت أسميرالدا غاضبةً، بعد أن انضمّت إلينا برفقة فيثاغورس وأنجيلو:

- نحن لا نزال في حالة حصارٍ. انظروا، لقد بدأت بتنظيم نفسها لكي تُقيم حاجزاً عند أعلى مجرى النهر. لقد نجح هذا الأمر بالنسبة إلى جزيرة المدينة، ولذلك تقوم بإعادة تنفيذ نفس الخطّة. وماذا يفترض بنا أن نفعل، الآن؟ أن ننتظر قدومها، وأن تجوّعنا وتهاجمنا، كما حصل في المرّة السابقة؟

وماذا لو كانت الخرافة البشرية صحيحة؟ فأينما تواجدت أسميرالدا هناك مشاكل كما لو أنّ الأمر صدفة. لكونها قطّة سوداء، تجلب لنا المصائب. نظرتُ إليها، وأنا أُغرق عيني الخضراوين في عينيها الصفراوين، ثمّ قلت:

- ربّما لديّ حلّ.

نظر إليّ الجميع ونطقتُ الكلمة التي هي من صلب مسعاي الشخصي:

- **التواصل.**

حرّكت أسميرالدا أذنيها كعلامةٍ على الفضول.

- التواصل مع منْ؟

- مع تيمورلنك.

سألت ناتالي:

- ولكن كيف تريدين تحقيق ذلك؟

- من خلال شامبليون، سيمكننا الحصول على ترجمة بالتأكيد، ولكنني أفكّر في شيءٍ أكثر نجاعةً. لدى ملك الجرذان عينٌ ثالثة، وأنا أيضاً لديّ عينٌ ثالثة. يمكن لدماغينا التحادث مباشرةً. سيكون كافياً أن يتمّ توصيل دماغينا بعضهما ببعض وعندئذٍ يمكننا التحاور وربّما إيجاد اتّفاقٍ يناسبنا جميعاً.

ردّت أسميرالدا بحنقٍ:

- تُريدين التحدّث إلى الكائن الذي يُريدُ القضاء علينا كلّياً؟

قلتُ وأنا غاضبة لأنّها لم تفهمني:

- لا يمكن للمرء أن يُقيم السلام إلّا مع أعدائه.

ماءت القطّة السوداء:

- ولكن هذا ليس مجرّد جرذ، إنّه متعطّش للتدمير. وبمجرد أن يراكِ، سوف يقتلكِ، وبعد ذلك سوف يقتلنا نحن أيضاً. لم تكوني حاضرة أثناء مجزرة جزيرة المدينة، ولهذا تعتقدين أنّ الحوار معه ممكنٌ، ولكن صدّقيني، لا يمكن التحاور مع هذا الجرذ.

حكّ فيثاغورس قفا رقبته بكفّه الخلفي لكي يوازن جيّداً حسنات وسيئات اقتراحي.

ثمّ ماء:

- ولمَ لا، في النهاية.

شعرتُ بأنّ الكائنين البشريين كانا مرتابين في الأمر. اقترح شامبليون:

- إذا اتّخذتِ هذا القرار، يمكنني أن أساعدكِ في تنظيم هذا اللقاء. يمكنني أن أطير إلى ضفّة النهر لأنقل إليه اقتراحكِ. إنّ بقائي محلّقاً في الأعلى سوف يحميني من قواطع الجرذان.

- هل تجيدُ التحدّث بلغة الجرذان؟

- أُجيد التحدّث بلغة الفئران، والجرذان والفئران من نفس جنس القوارض، ولا بدّ أنّ لغتها ليست مختلفة كثيراً. ثمّ إنني أُجيد الارتجال والتأقلم.

بدا لي أنّ الطائر يصبح أكثر ضرورةً لجماعتنا الصغيرة. واقتنعتُ بأنّه سيكون عليّ في المستقبل أن آخذ بالحسبان موهبته التواصلية، ولكن أيضاً قدرته على الطيران للإفلات من كلّ التهديدات النابعة ممن يعيشون على الأرض.

لم أنتظر موافقة الآخرين، وقلت:

- دعونا لا نُضيّع الوقت. هيّا، يا شامبليون!

أقلع ببغاء الكوكاتو في الحال نحو الضفّة المغطّاة بالجرذان.

احتجّت القطّة السوداء ذات العينين الصفراوين:

- لم تعودي تسألينا حتى عن رأينا؟

– أنا أتّخذ القرارات وحدي، وأتحمّل النتائج وحدي، سواءً كانت إيجابية أو سلبية. وبهذه الطريقة، نتقدّم على نحوٍ أسرع.

هزّ أنجيلو رأسه في إشارةٍ إلى الدعم غير المشروط لأمّه. وجدته يبالغ حقّاً، وكان لا بدّ أن أشرح له أنّ القليل من التواضع يسمح في بعض الأحيان بإيصال المعلومة على نحوٍ أفضل.

احتجّت أسميرالدا:

– ولكن هل تدركين منْ هو الذي تستعدين لمواجهته؟

لن أكرّر ما قلت مرّة أخرى. هذه هي المشكلة مع من هم أقلّ ذكاءً منك: لأنّهم لا يُصغون جيّداً، سوف يضيعون وقتك في شرح ما هو بديهي وواضح.

في السابق، كنتُ أجد هذه المغنّية لطيفة ورائعة، أمّا الآن فتبدو لي متخلّفة تماماً. إنّها تتصرّف كقطّة أسيرة للمخاوف القديمة الكابحة بدل القبول بحداثةٍ أكثر حيويةً.

عزيزتي أسميرالدا المسكينة، لحسن الحظّ أنا الملكة هنا لا أنتِ. أنتِ لا تقترحين أيّ شيء، ولا تفعلين شيئاً سوى انتقاد مقترحاتي. ليس بهذه الذهنية يمكننا تحقيق انتصارات عظيمة.

لم أعد أكلّف نفسي عناء محاولة إقناعها، فوضعت المنظار أمام عيني من جديد. رأيتُ الببغاء يحلّق في وضعية ثابتة على ارتفاع مترٍ واحدٍ فوق منطقةٍ بدا لي أنني أرى فيها طيفاً أبيض اللون.

إنّه يتكّلم «معه».

استغرق ذلك بضع دقائق، ثمّ عاد الطائر نحونا سريعاً. حطّ على السور، وانتفض.

– ماذا قال؟

– في البداية، لم يقبل بأن أكون وسيطكم. أخبرته بأنّه توجد بيننا قططٌ مزوّدة بعينٍ ثالثة وبالتالي يمكن للحوار أن يُجرى مباشرةً من ذهنٍ إلى ذهن وبكلّ شفافية. ولكن لم يكن ذلك كافياً لإقناعه، ولذلك بحثتُ ووجدتُ حججاً أخرى.

رائع يا شامبليون!

سألت أسميرالدا، غير متيقّنة أمام هذا الأداء المبهر من قبل الببغاء:

– وما هي هذه الحجج؟

أجبتُ نيابةً عن الببغاء:

– الأمر الجوهري هو أننا نستطيع الآن أن نتصوّر إمكانية لترتيب الأمور معه.

أضاف فيثاغورس:

– بقي أن نختار مكاناً محايداً وآمناً يُعقَدُ فيه هذا اللقاء دون التعرّض للخطر.

هنا أيضاً، كان لدى الببغاء اقتراحٌ يعرضه علينا:

– أثناء تحليقي، رأيتُ في منتصف الطريق بين الجزيرة والضفّة قارباً صغيراً مهجوراً، محاصراً بالأعشاب الطويلة وسط النهر. وهذا القارب يتّسع لاستضافة لقاءٍ بين قطّة وجرذ.

هزّت أسميرالدا رأسها في إشارةٍ على السخط، ونصّب شامبليون عرفه، متسائلاً، وبدا الكائنان البشريان أيضاً متردّدين. نظرنا إلى المكان الذي أشار إليه الببغاء برأس منقاره.

قال فيثاغورس:

– ممتاز، سأذهب إلى هناك. ففي النهاية لديّ عينٌ ثالثة.

قلتُ:

– كلّا، يجب عليّ أنا الذهاب إلى هناك.

أبدى القطّ السيامي غضباً:

– لماذا أنتِ وليس أنا؟

– لأنني أنثى. وبالتالي أنا أكثر براعةً في كلّ ما من شأنه أن يشبه مبارزة نفسية. ثمّ، وفي النهاية، أنا من اقترحتُ فكرة هذا اللقاء، أليس كذلك؟

لم أستطع التصديق أنّه لا يزال عليّ أن أشرح هذا النوع من البديهيات! بيد أنني لم أستطع الاعتراف له بأنّه من السهل للغاية التنبّؤ بما يفكّر فيه الذكور والتلاعب بهم.

سألت أسمير الدا:

- ألا تخافين أن يقتلكِ؟

- الخوف لم يحقّق قط تقدّماً في المسائل. وهذه هي طبيعتي، يتغلّب فضولي دائماً على خوفي.

رأيتُ الوجه المشوب بالإعجاب لابني الذي لا بدّ أنّه كان يقول في نفسه إنّ أمّه بطلة معاصرة. وقد شجّعني هذا على التمسّك بموقفي.

قال فيثاغورس:

- ممتاز، هيّا انطلقي.

كأنني كنتُ بحاجة إلى أخذ الإذن منه...

بدت ناتالي هي الأخرى قلقة بشأني، فقالت:

- من الآن فصاعداً، بات كلّ شيء بين كفّيكِ، يا باستيت. الأمرُ متروكٌ لكِ لتعالجي الموقف.

تهيّأتُ للنزول، لكنّ فيثاغورس وضع كفّه على كتفي لكي يوقفني وسط اندفاعي.

- انتظري يا باستيت، اتركي موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة هنا. لا ندري ما الذي قد يحدث على ذاك القارب.

- هل تمزح؟ ليس هناك أيّ احتمال ليعرف تيمورلنك ما هذه. بالنسبة إليه، لن يكون هذا سوى طوقٍ مع قلادة.

ألحّ رفيقي:

- هل حقّاً لا تريدين أن تنزعي هذه القلادة؟

أدركتُ أنّه منذ البداية كان يحلم بأن يلفّ كلّ معارف البشر حول رقبته. يُريد أن يكون الملك بدلاً عنّي.

كانت أمّي دوماً تقول: «هناك مصدران للتعاسة: الملل والغيرة. الملل يزول بالعمل والإقدام على المخاطر. أمّا الغيرة، فلا يمكن التغلّب عليها إلّا بالإقلاع عنها». إذاً، كان من مصلحته أن أقنعه بأن يدعني وشأني وأُقدم على المخاطر.

على فيثاغورس أن يُدرك الحقيقة الواضحة: أنا أسير أسرع منه، وأنا أجد أفكاراً خلّاقة أكثر من أفكاره، وأنا حرّة. أمّا بالنسبة إلى موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة، فأنا حارستها الرسمية الوحيدة وليست لديّ النيّة على الإطلاق أن أتقاسم هذه المهمّة أو أوكلُها لأحد آخر أيّاً كان.

بيد أنّه لا بدّ من إيجاد حجّة مقنعة لعدم تعميق الشكّ عند هذا الذكر.

- إنّ وجود هذه الموسوعة حول رقبتي يمنحني الطمأنينة، كما لو أنّها تمدّني بالقوّة وتجلب لي الحظّ. كما لو أنّها تعويذة...

ماء فيثاغورس:

- ولكن مع ذلك...

- كما أنّ وجودها معي سيكون أكثر حكمةً واحتراساً. إذا ما وقع هجومٌ على الجزيرة أثناء محادثاتنا في القارب وتعرّضتم لحصارٍ، سوف يمكنني الفرار والحفاظ عليها.

- في هذه الحالة، أوافق على أن تحتفظي بها في رقبتكِ، ولكن مع ذلك، أوّد أن أقدّم لكِ ثلاث نصائح دبلوماسية. 1) دعيه يتحدّث عن نفسه؛ حينما يروي الناس أسطورتهم الشخصية، لا يرغبون في القضاء على الشخص الذي تلقّى هذه الحكاية. تبدو المسألة كما لو أنّهم يقدّمون بعض الشيء من ذواتهم، الأمر الذي يجعل المستمع فوراً أقلّ «خطراً». 2) لا تستهيني به. لقد هزم جميع الطامعين الآخرين في عرش الجرذان وأعتقدُ أنّه قد لا يكون الأقوى بينهم فحسب، بل الأذكى منهم جميعاً. 3) سيطري على ذهنكِ. لا ينبغي أن يفاجئكِ أيّ شيء، ولا ينبغي أن يُفقدكِ أيُّ شيء توازنَكِ. وفي هذه الحالة، أغلقي كلّ المنافذ، ولا تدعي مجالاً لظهور أيّ انفعالٍ عليكِ. على العكس من ذلك، ضعيه هو في موقفٍ يجعله يُظهر كلّ انفعالاته، سواء كان الغضب أو الفرح أو المفاجأة أو الإحباط. ما إن يكون المرء منفعلاً، فلا يعود يفكّر بطريقةٍ فاعلة.

أحسّت أسميرالدا هي الأخرى بأنّها مضطرّة لأن تقدّم نصيحتها:

- وتذكّري ما فعله بأبناء جنسنا. إنّه يحبّ الموت، يحبّ المجازر، يحبّ الألم.

حدّقت فيّ بعينيها الصفراوين العميقين، ثمّ ختمت حديثها:

– وبالتالي، إذا ما أُتيحَت لكِ الفرصة، لا تتردّدي: اقتليه!

60. لقاء كورتيس موكتيزوما

اللقاء بين حضارتين يكون دائماً لحظة حسّاسة، لا سيما حين يتعلّق الأمر بلقاءٍ بين زعيميهما.

في عام 1517، عرف إمبراطور الأزتيك، موكتيزوما (اسمه في لغة الناهواتل يعني «الذي يعبس»)، أنّ ثلاثة جبال كانت تتقدّم نحو البحر، وهي مغطّاة برجالٍ طوال القامة، ببشرة شاحبة جدّاً. لدى نزولهم، حاول هؤلاء الرجال الذين يمتطون أحصنةً أن يتحدّثوا مع الفلاحين، لكنّهم لم يستطيعوا أن يفهموا بعضهم بعضاً. ولذلك غادروا. وكان هذا أوّل اتّصال.

في يناير / كانون الثاني 1519، أرسل الإسبان بعثة جديدة من ألف رجلٍ إلى الشاطئ المكسيكي، محمّلة بالهدايا إلى الإمبراطور. بيد أنّهم خرّبوا الأماكن المقدّسة في القرى الأزتيكية التي زاروها، الأمر الذي أُبلِغَ به الإمبراطور.

فسأل موكتيزوما عن زعيمهم، وأُجيب بأنّ اسمه هيرنان كورتيس، فقام موكتيزوما بإيصال الهدايا إليه هو أيضاً، مانعاً في الوقت نفسه الإسبان من الدخول إلى بلاده.

فقرّر كورتيس تجهيز بعثة ثالثة، قادها بنفسه، لكي يزور مباشرةً العاصمة ويُقابل الإمبراطور.

في الثامن من نوفمبر / تشرين الثاني 1519، التقى الرجلان في تينوتشتيتلا، على ارتفاع ألفي مترٍ. ترجّل الفاتح، الذي كان يرتدي ثياباً سوداء بالكامل، عن حصانه لكي ينضمّ إلى الإمبراطور الذي وصل في صندوقٍ محمولٍ من قبل أبناء عمومته، وهو يرتدي بزّته الفاخرة الخاصّة بالاحتفالات. فُرِشَ سجادٌ وتقدّم عليه الرجلان بعضهما نحو بعض.

حاول كورتيس أن يعانق الإمبراطور، ولكن سرعان ما ردّه الحرّاس الأزتيك. عاد الهدوء، وتبادل الزعيمان الهدايا والمجاملات التي تكفّل بنقلها المترجمون. أُسكِن كورتيس في قصرٍ صغيرٍ في فترة إقامته.

جرى اللقاء الثاني في قصر موكتيزوما. هذه المرّة، صاغ الإسباني مطالبه: على الأزتيك أن يتوقّفوا عن تقديم الأضاحي البشرية وأن يعتنقوا المسيحية، وأنّ يقدّموا له ذهباً. قدّم لمحدّثه درساً سريعاً عن الدين وهو يشرح له أصل العالم، وآدم وحواء، ويسوع المسيح، مروراً بإبراهيم، ونوح، وموسى.

أصغى الأزتيكي إليه بانتباه، وتظاهر الرجلان بأنّهما قد تفاهما في الوهلة الأولى. إلا أنّ قتل مجموعة من البحّارة الإسبان من قبل رجال موكتيزوما أثار غضب كورتيس الذي جاء لرؤية الإمبراطور وطلب أن يكون من الآن وصاعداً سجينه. بدأ هذا الاخير برفض الطلب، ولكنّه، تحت تهديد الأسلحة النارية، استسلم في النهاية. حينما احتجّ شعبه على الإهانة المُلحَقة بإمبراطوره، أعلن موكتيزوما بنفسه أنّ هذا خياره وأنّ هذا جزءٌ من خطّته.

في الأوّل من يوليو / تموز 1520، أرغم كورتيس الإمبراطورَ على الظهور في شرفة قصره لكي يُلقي خطاب التنازل عن الشرعية لمصلحة التاج الإسباني. جرحت حجارةٌ ألقاها الحشد الغاضب الإمبراطور. وفي اللحظة ذاتها، تلقّى طعنة خنجرٍ في ظهره من رجلٍ إسباني. مات موكتيزوما متأثّراً بجراحه بعد بضعة أيام. ومنذ تلك اللحظة، استطاع كورتيس أن ينظّم عملية النهب التامّ لسائر ثروات البلاد وفرض العبودية على الشعب الأزتيكي.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

61. مبارزة الأذهان

كانت أمّي تقول: «طالما أنّكِ قطرة ما، يمكن لكِ أن تكوني القطرة التي تُطفِحُ المزهرية».

إذاً، سأقابله وجهاً لوجه.

الآن وأنا أُجيد السباحة، ذهبتُ إلى مكان الموعد وحدي.

وأنا أحرّك مياه النهر بقوائمي، تذكّرتُ إلى أي درجة كنتُ أخاف الماء وهنأتُ نفسي على التغيير الذي شهدتُه. استطعتُ، تحت ضغط الأحداث، أن أكتشف أنني قادرة على أداءٍ قاهرٍ لم أكن لأصدّق سابقاً أنني أستطيع تحقيقه.

كما أنّ امتلاكي لعينٍ ثالثة أقنعني أكثر بأنّ الحياة مكوّنة من مجموعة تجارب ومحن مفاجئة واكتشافات ترغمنا على تجاوز أحكامنا المسبقة.

لو لم يكن الأمر يتعلّق بي شخصياً، لتساءلتُ أيّ كائنٍ ساذجٍ يمكنه أن يُصدّق أنّ لقاءً مع شخصٍ مثل تيمورلنك قد يُسفر عن أيّ نتيجة إيجابية.

إنّ موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة الملفوفة حول رقبتي سوف تجلب لي الحظّ. لحسن الحظّ كانت محكمة الإغلاق ومضادة للماء والصدمات.

اقتربتُ من القارب. كان عليّ ألّا أقلّل من شأن الصعوبات ولا أن أبالغ في حجمها. وجدتُ القارب تماماً مثلما وصفه شامبليون، إذ كان قارباً مصنوعاً من البلاستيك متوقفاً بين الأعشاب العالية والأغصان العائمة.

وصلتُ أوّلاً إلى القارب وانتظرتُ فيه.

وسرعان ما رأيتُ بقعةً بيضاء تتقدّم باتجاهي يساعدها ذيلٌ طويلٌ كدافعٍ.

صعد الجرذ إلى القارب وهو مبلّل تماماً متشبّثاً بحبلٍ متدلٍ من القارب. انتفضنا لنجفّف وبرنا. والقيام بنفس الحركات معاً قرّبنا بعضنا من بعض. ثمّ نظرنا بعضنا إلى بعض وشممنا بعضنا بعضاً. كان أصغر حجماً ممّا كنتُ أتخيّل. له عينان حمراوان تلتمعان مثل جمرتين. لاحظتُ أنّه يحمل حول عنقه جُريباً بلاستيكياً يحتوي على وصلة يو إس بي.

لقد حسب حساب كلّ شيء.

كان على العين الثالثة لكلينا قبّعة بلاستيكية تعمل على حماية المعدن من الماء والغبار. رفعنا القبّعتين ووضعناهما مثلما يرفع البشر قبّعاتهم.

أمسك تيمورلنك بجريبه وفتحه بحركاتٍ دقيقة. استطعتُ أن أتبيّن أنّه ماهرٌ على نحوٍ خاصّ بقوائمه ذوات الأصابع الأربع. بدا كأنّه يُجيدها برشاقة تُقارب رشاقة كائنٍ بشري.

حلّ ببطء حبل وصلة الـ يو إس بي، وأدخل بقوّة القابس الذكر في مأخذ عينه الثالثة وناولني الطرف الآخر، الذي كان هو أيضاً عبارة عن قابسٍ ذكر، لكي أفعل نفس الشيء. وبهذا لن نحتاج إلى الترجمة طالما أننا سنتحدّث مباشرةً من ذهنٍ إلى ذهن.

بالكاد دخلت وصلة الـ يو إس بي إلى جمجمتي حتى وصلتني أفكار ملك الجرذان. كان إحساساً مباغتاً. شعرتُ بحماسة كبيرة لديه.

إنّه سعيدٌ بالتحدث معي. متلهّفٌ لمعرفة منْ أكون ولا يضمر أي عداء لي.

قلتُ في نفسي إنّ عليّ أن أتجاوز كلّ أحكامي المسبقة وأنني، وبخلاف ما نصحتني به أسميرالدا، سوف أنسى ما ارتكبه من فظائع: الكشّافون الستّة، وقطيع الذئاب، والقطّ سفينكس وقبيلته التي مُزّقت إرباً. عليّ أن أُزيل من ذهني منظر هانيبال وفولفغانغ المصلوبين.

يجب أن يكون عقلي محايداً، وأن أضع في ذهني فقط أنّه عليّ أن أنقذ جماعتي الجديدة وأبني مستقبلاً أفضل من الحاضر.

بدا تيمورلنك، هو الآخر، مندهشاً لرؤية مدى حسن تصرفي حياله.

كان قد تربّى على أن يكرهني، ولكن عليّ أن أتمكّن من تنحية هذه الفكرة جانباً. يجب ألا أفكّر إلّا بهدفي الذي ينبغي أن أبلغه. فتوجّهتُ إليه باللهجة الأكثر لطفاً:

– طاب نهارك أيّها الجرذ.

أجابني:

– طاب نهاركِ أيّتها القطّة. أنا أعرف اسمكِ، يا باستيت. إنّه إشارة إلى الإلهة المصرية، إلهة بجسد امرأة ورأس قطّة، أليس كذلك؟ أتمنى أن تكوني قطّة أكثر من أن تكوني إنسانة.

- أنا أيضاً أعرف اسمك. أنت الملك تيمورلنك، في إشارة إلى الفاتح التركي - المغولي في القرون الوسطى. كان على ما يبدو ذا قسوة أسطورية. أتمنى أن تكون محبّاً للسلام أكثر منه.

أضفتُ كلمة «ملك» مجاملةً له.

- سعيدٌ بهذا اللقاء.

- وأنا سعيدة أيضاً.

في هذه الأثناء، شعرتُ بأننا نتقدّم بنفس السرعة بعضنا باتجاه بعض.

- من الغريب بالنسبة إليّ أن أتحاور مع جرذٍ.

- من الغريب بالنسبة إليّ أن أتحاور مع قطّة.

شعرتُ بأنّ لديه نوايا محدّدة ولكنّه لا يريد أن يتسرّع في الكشف عنها. وعلى الأرجح لهذا السبب لجأ إلى استخدام هذه الاستراتيجية الإيحائية التي جعلته يردّد نفس جملي.

كان فيثاغورس قد نصحني بأن أجعله يتحدّث عن نفسه، فسألته:

- منْ أنت حقيقةً، أيّها الملك تيمورلنك؟

بدا متفاجئاً بالسؤال، الأمر الذي دلّ عليه قيامه بتنصيب أذنيه الصغيرتين البيضاوين والدائريتين.

- ماذا تعرفين عنّي من قبل، أيتها الملكة باستيت؟

استجاب لتقنيتي في بناء الثقة، ولكنّه كان متأخّراً عنّي، حيث استلمتُ زمام المبادرة. قرّرتُ أن أواصل السير في هذا الطريق وأن أستمرّ في مباغتته بلباقتي. لا بدّ أنّه لم يكن يتوقّع أن تحترمه قطّةٌ.

- أعرف أنّك تغلّبت على كلّ منافسيك. وأنّك تعيشُ في قصر فيرساي. وأنّك أعدت بناء جيشٍ فعّالٍ جدّاً يبدو أنّه كامل الولاء لشخصك.

هزهز طرف خطمه، وكشف على نحوٍ متقطّع عن أنيابه.

أقرّ:

- أنا لا أعرف والديّ. وكما تعلمين على الأرجح، ولدتُ في حديقةٍ

للحيوانات في جامعة أورسيه. منذ يومي الأوّل، وُضِعتُ مع مجموعةٍ من جرذانٍ أخرى بيضاء في قفصٍ بلاستيكيٍّ شفّافٍ، مليءٍ بنشارة الخشب. لم أرَ ضوء الشمس، بل ضوء مصابيح النيون فقط. لم أتغذّ بطعامٍ طازجٍ، بل بحبيباتٍ فقط. لم أولَد إلا لأُعذّب من قبل البشر. على سبيل المثال، يمكنني أن أذكر لكِ طريقةً من بين عدّة طرائق أخرى من التعذيب، وهي أنّهم كانوا يتلاعبون بنا من خلال رفعنا من أذنابنا!

بدرت منه حركة تنمّ عن سخطٍ لمجرّد ذكر هذه الذكرى. فلاحظتُ أنّه يكره أن يُرفَع من ذيله.

سجّلتُ نقطة، ولكن مع ذلك كان عليّ ألّا أفقد الزخم الذي انطلقتُ به.

– ولكن أيّ تجربةٍ محدّدة أجروها عليك؟ في جامعة أورسيه، خضع صديقي فيثاغورس لاختبارات على صلة بالإدمان على المخدّرات. أفترضُ أنّ التجارب التي خضعتَ لها كانت مختلفة.

– لقد استخدمني البشر في تجربة لفهم مبدأ التفاؤل. بموجب هذه المراسم، أخذ المخبري ما يقرب من مئة جرذٍ. ووضع كلّ واحدٍ منها في أنبوبٍ شفّاف ممتلئٍ حتى المنتصف بالماء. والجدران الزجاجية للأنبوب لم تكن تتيح أي فرصة للتمسّك بها بالأسنان وبالمخالب. ثمّ تَركنا نقاوم وسط الماء وهو يُصوّرنا.

– ولكن، يبدو لي أنّكم، أنتم الجرذان، تُجيدون السباحة.

– بالتأكيد. ولكن بسبب عدم قدرتنا على وضع قوائمنا على دعامةٍ متينة، كان الإنهاك ينالُ منّا في النهاية. في الواقع، كانت غالبية الجرذان تقاوم مدّة خمس عشرة دقيقة قبل أن ينال منها الإنهاك وتستسلم للغرق.

– كانت التجربة تُتابَع بفضل العين الثالثة؟

– نعم، بالفعل. بفضل جهازٍ مرسِلٍ – مستقبِلٍ لاسلكي، كان المخبر يراقب بدقّة نشاطنا الدماغي خلال عملية القتل هذه. ما كان يهمّه هو اكتشاف ما كان يدور في أذهاننا في اللحظة المحدّدة التي نستسلم فيها، في لحظة «فقدان الأمل».

نظرتُ حولي ورأيتُ الجرذان المتجمّعة على ضفاف النهر.

الزمي الهدوء، استأنفي النقاش دون التعبير عن أيّ شعورٍ سوى الشفقة.

– ولكنّك، أيّها الملك تيمورلنك، لم تمت...

– في مراسمٍ أخرى تشكّل جزءاً من التجربة، أخذ المخبريون ما يقرب من مئة جرذٍ آخر وتركوها مدّة أربعين دقيقة في الماء. وقبل أن تفارق الحياة بالضبط، أخرجوها، ونشّفوها، وأطعموها، وتركوها ترتاح. ثمّ، ما إن استعادت الجرذان قوّتها تماماً، وضعوها في الأنبوب الزجاجي المليء بالماء. فكانت الجرذان تقاوم في هذه الحالة حتى عشرين دقيقة.

– هل لأنّ إنقاذها لمرّة واحدة كان يعطيها الأمل بأن تُنقَذ من جديد؟

– بالضبط، الأمر الذي جعلها أكثر عناداً. بعد الغرق، كان العلماء البشريون يذبحون جرذان الاختبار (كانت لديهم مقصلة كهربائية لكي يذبحوا بأسرع ما يمكن أكبر عددٍ منّا)، وكانوا يستخلصون المواد المفرزة من دماغنا في محاولة لاكتشاف ما أُفرِزَ في لحظة استسلامنا وما أُفرِزَ في لحظة اعتمادنا على حقيقة أننا أُنقذنا.

– وفيما يفيدهم هذا الأمر؟

– في تطوير أدوية لمقاومة الضغط النفسي. البشر، مثلما تعرفون ذلك بالتأكيد، يعيشون على الدوام في حالةٍ من القلق. هذه الحالة تترك على جسدهم طفحاً جلدياً، وآلاماً في العمود الفقري، وحالات صداعٍ، وتقرّحاتٍ في المعدة، وهذا يُصيبهم بالإمساك، ويمنعهم من النوم. وبالتالي، يبحثون عن حلولٍ.

– ويبحثون عن الحلول بإغراق جرذانٍ؟

– نعم، من خلال عزل المواد المفرزة من الدماغ خلال أطوار اليأس، وتلك المفرزة خلال أطوار التفاؤل. حينما يجدون جزيئاً مناسباً أو يعتقدون أنّهم قد وجدوه، يصنعون دواءً، ويبيعونه، ويغتنون من ورائه. وبفضل هذه الأدوية التي تخلق أملاً مصطنعاً، نجحوا في تحمّل ظروفهم المأساوية. يسموّنها مضادات الاكتئاب.

– هذا شيءٌ مخزٍ.

– هذا شيءٌ بشري.

قال ذلك متنهّداً، كما لو أنّه يطلق أقذع الشتائم.

غيّر ملك الجرذان موقعه وجلس على حافة القارب في وضعية شبيهة بالوضعية التي سبق لي أن رأيتُ ناتالي تتّخذها حينما تُشاهد التلفزيون.

– بيد أنّ العلماء البشريين لم يرضوا بالجزيئات التي عثروا عليها وأرادوا أن يحصلوا على ما هو أكثر فاعلية باستمرار. أرادوا تركيب جزيء التفاؤل المطلق الذي سيكون قادراً على جعلهم يتحمّلون كلّ الضغوط النفسية المحتَمَلة. وبالتالي، في انتظار هذا الاكتشاف، تواصلت الأبحاث وماتت الجرذان غرقاً ومن ثمّ ذبحاً. ثمّ أُلقيت مئات الجرذان في أكياس القمامة أو أُعطيت لقسم زواحف حديقة الحيوانات لكي يتمّ إطعامها للثعابين.

– ولكن أنت بالتحديد، أيّها الملك تيمورلنك، نجوت...

توضيح: نحن الزعماء نكون بالضرورة مختلفين، نحن من اصطفانا القدر.

– لقد قاومتُ... إحدى وعشرين دقيقة.

ترك قسطاً من الوقت يمرّ وبلع ريقه لدى الحديث عن ذكرى تلك اللحظة العصيبة.

– وبالتالي، زادوا تدريجياً الزمن الكلّي للبقاء في الأنبوب. وحينما تجاوزتُ عتبة ثلاث وعشرين دقيقة من البقاء على قيد الحياة في الأنبوب، دخلتُ إلى فئة جديدة: فئة الأبطال. ومنذ ذلك الحين، لم يرغب العلماء البشريون في التضحية بسبّاحهم الأكثر كفاءةً.

في تلك اللحظة، وربّما بفعل قدرتي الجديدة على الشفقة، شعرتُ بنوعٍ من العطف حيال متحدّثي.

ما كنتُ لأتمنى أن أكون في مكانه. كان من شأن ميلادي حتى دون أن أعرف والديّ ومن ثم تعذيبي بهدف تطوير دواءٍ مهدّئٍ للبشر أن يكون مزعجاً لي بالفعل. مجرّد فكرة نقلي ممسوكةً من ذيلي أو إرغامي على أن أصارع مدّة خمس عشرة دقيقة في الماء أرعبتني. ما كنتُ لأتحمّل على أيّ حالٍ حياة كهذه لوقتٍ طويلٍ. كنتُ سأستسلم في الحال. على الرغم من... أنني قاومتُ جيّداً أثناء النزول إلى النهر.

أجبت:

– ثلاث وعشرون دقيقة في حين كان الآخرون يستسلمون بعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة. أنت حقّاً قويٌّ جدّاً! كيف فعلت ذلك؟

وأنا أطرح السؤال، حاولتُ أن أُشيع إحساساً صادقاً بالإعجاب. لم يكن كافياً أن أجعله يتحدّث عن نفسه، بل كان يجب أيضاً مدحه ومجاملته أكثر وأكثر، ولكن بطريقةٍ لا تثير الشكّ لديه.

تحدّث وهو يكزّ على فكّيه إلى حدّ إصدار صريفٍ خفيفٍ من أسنانه.

– كنتُ أقول في نفسي إنّه سيأتي يومٌ يدفع فيه هؤلاء البشر ثمن كلّ ما أذاقوني من عذاب. لدى البشر تعبيرٌ للدلالة على هذا الغضب الذي ينقذ المرء من اليأس: «الصمود». وهو يعني تنمية موهبة خاصّة للتعويض عن نقصٍ.

الصمود؟ كلمة جميلة أضفتها إلى مجموعتي من المفردات.

– ثلاث وعشرون دقيقة تُكافح خلالها في حين كانوا يُراقبونكَ... وكم مرّة أخضعوكَ إلى هذا التعذيب؟

– لم أُحصِها. لم أكن أفكّر سوى بانتقامي. ولأنني كنتُ أعلم أنّه يجب أن أُداهنهم، لعبتُ دور الجرذ الصغير اللطيف المُعجَبِ بالبشر العظام.

أخذ نفساً عميقاً. ارتعشت شعرات شواربه الناعمة، ولمعت عيناه الحمراوان.

– وانتهى بهم الأمر إلى أن أحبّوني. فعلتُ كلّ شيء للحفاظ على هذا الشعور. كنتُ أحضر إلى أمام باب القفص حينما يدخلون إلى الغرفة، وأنتصب على قائمتي الخلفيتين وأمشي مثلهم، وأهزُّ برأسي لكي أُضحكهم. وكنتُ أشعرُ بهم في لحظات سعادتهم وحزنهم. من السهل فكّ شيفرة البشر، فرائحتهم تنقلُ انفعالاتهم، تماماً مثل حركات عيونهم، بحدقاتها وهي تتّسع أو تضيق.

عليّ أن أنفتح على عالمه، أن أصبح هو، وأشعر بما هو عليه في أعماقه. عليّ أن أستطيع الإحساس بما يفكّر فيه. عليّ أن أرى بعينيه نفسي، أنا باستيت، أن أرى نفسي بعيني ألدّ أعدائي لكي أفهمه على نحوٍ أفضل.

– كان صاحبي البشري، مدير الجامعة فيليب سارفاتي، على صداقةٍ مع

امرأة لديها قطّ مع قابس يو إس بي موصول بالإنترنت، في حين تسلّى هو بفعل نفس الشيء معي أنا، ليرى إن كان جرذٌ موصولٌ بالإنترنت أكثر ذكاءً من قطٍّ يعيش في نفس الظروف.

- كانت الصديقة المقصودة هي صوفي، خادمة رفيقي فيثاغورس. كلّ شيء يؤكّد ذلك. هذا القطّ السيامي هو، على نحوٍ غير مباشرٍ، سبب تحوّلك.

- لقد أوصلني فيليب بوساطة قابس اليو إس بي خاصّتي بحاسوبه. أطلعني على عالمه، أطلعني على العالم، وجعلني أكتشف تاريخ البشر بالتفصيل. أنا الذي اخترتُ هذا القائد التركي - المغولي ككاشفٍ لما بدا لي بشرياً...

... تدمير كلّ شيء في طريقه؟

لم يلتقط فكرتي وواصل حديثه:

- من المدهش أنّ يغيّر البشر نظرتهم السابقة عنك لمجرّد أن تحمل اسماً. بعد حمل ذلك الاسم، لم أعد الرقم 366، وأصبحتُ تيمورلنك الرائع، بطل السباحة والتفاؤل.

نظرتُ إليه بطريقةٍ مختلفة. بهذه الطريقة، صنع البشر منه (تماماً مثلما كانوا قد فعلوا مع فيثاغورس) متحوّلاً تطوّر لينجو بفضل مواهب متميّزة جدّاً لا يمتلكها أبناء جنسه. انبهرتُ، وفي الوقت نفسه شعرتُ بالقلق.

من جديد حاولتُ أن أضع نفسي في مكانه لكي أحسّ على نحوٍ أفضل بسرده.

عليّ أن أطمئنه.

- أنا أفهم نجاحك على نحوٍ أفضل، أيّها الملك تيمورلنك. لقد أتاحت لك مثابرتك وكذلك صبرك وقدرتك على التحكّم بانفعالاتك أن تبقى على قيد الحياة حيث مات الجميع.

أطلق تنهيدةً وعلّق، قائلاً:

- البشرُ فخورون جدّاً بتقنيتهم وبمعارفهم إلى درجة أنّهم يريدون أن يُظهروا للأجناس الأقلّ شأناً منهم مدى تفوّقهم. ولهذا السبب منحونا فرصة الاتصال مع الإنترنت «خاصّتهم». نقطة ضعف البشر هي غرورهم.

كما كانت تقول أمّي: «أصغي إلى لوم وعتاب الآخرين وسوف تعرفين ما هي نقطة ضعفهم».

في واقع الأمر، لطالما لاحظتُ أنّ المنحرفين هم أوّل من يلقون محاضرات في الأخلاق، والجبناء أوّل من يشجبون جبن الآخرين، والكذّابون أوّل من يُشيدون بالصدق.

نحن نعيشُ في عالمٍ مليءٍ بالتناقضات.

شكراً لأنك دللتني على نقطة ضعفك، أيّها الجرذ. الغرور، إذاً.

– وبعد ذلك، ما الذي حدث لك، أيّها الملك تيمورلنك؟

– بعد أن أخرجني فيليب من القفص، أخرجني من حديقة الحيوانات، ثمّ من الجامعة، وتركني أعيشُ حرّاً طليقاً في شقّته الخاصّة. وكم كان مدهشاً أن أغادر سجني الضيّق والمُعقّم لكي أرى العالم! ضوء الشمس المتسرّب عبر النوافذ، والهواء المنعش، والروائح الفائحة من النباتات، وتنوّع الألوان، والعصافير، والحشرات، والحيوانات الأخرى، عالمٌ بدا لي معقّداً وبلا نهاية.

– لقد رأيتَ أنّ البشر ليسوا جميعاً قساة.

– كان فيليب يداعبني ويُقبّلني. في البداية، تظاهرتُ بأنني أحبّه. ولكنني واصلتُ اكتشاف تاريخنا على الإنترنت؛ وعلى نحوٍ أخصّ الأذى الذي ألحقه البشر بالجرذان. حملات الإبادة. سمّ الفئران الذي يسبّب لنا النزيف الداخلي. وأطفال الريف الذين كانوا يشقّون ظهور الجرذان لكي يضعوا ملحاً تحت جلدها ويُعيدون خياطتها، بحيث يجنّ جنون الجرذان من شدّة الألم، فتعود إلى جحورها وتقتل أخوتها. هذا ما تجهلينه أيضاً، على ما أعتقد...

أنا آسفة ولكن بعد مهرجانات مصارعة الثيران، والتغذية القسرية للإوزّ، وذبح الحيوان لإعداد النقانق من لحمها، بدأتُ أصبحُ عديمة الإحساس حيال كلّ هذه الفظائع التي يرتكبها البشر.

– إذاً، حتى إن لم يكن لديّ أيّ شيء ضدّ فيليب، ما إن أنقذني وأخرجني من سجني وتبنّاني ودرّبني وربّاني وعلّمني، هاجمته لكلّ ما كان يمثّله وحاولت قتله بعضّ جبينه بقوّة.

– وهذا هو سبب وجود ندبة على جبينه؟

هزّ الجرذ رأسه، موافقاً.

– وبعد ذلك، هربتُ. تواصلتُ مع أخوتي من جرذان المدن. تحدّثنا بعضنا مع بعض. كانت لا تزال تحت تأثير صدمة الهزيمة في جزيرة البجع. روت لي كلّ تفاصيل تلك المعركة. أخبرتني كيف أنّ قططاً، صديقة للبشر، نجحت في التغلّب على آلاف الجرذان في معركةٍ استخدمت فيها سلاحاً شنيعاً: النار. أدركتُ أنّ أبناء جنسي يفتقرون إلى الثقافة والمعارف. قدمّتُ نفسي لكي أكون ملكها، ولكنّها أجابت عليّ بأنّه، عند الجرذان، على الفرد أن يفوز بمكانه. فتقدّمتُ إلى الانتخابات وقاتلتُ في مبارزةٍ مع كلّ الذين كانوا يطمعون في نفس الموقع.

– وعندئذٍ هزمتَ كلّ منافسيك الواحد تلو الآخر.

– أمكنني التنبّؤ بتصرفاتهم. قبل أن يضربوا، كانوا ينظرون إلى المكان الذي سيضربونه. وحينما يخفقون، يغضبون. كانوا مقتنعين بأنّهم إذا ما هاجموا مباشرةً بغضبٍ سوف ينتصرون. ولم يكن من الصعب التفوّق عليهم. وحالما عُيّنتُ ملكاً جديداً، اقترحتُ أن نجد مكاناً.

– وهو قصر فيرساي؟

– لقد قرأتُ تاريخ هذا القصر. وقلتُ في نفسي إنّه لا يوجد شيءٌ مثل صورة مسكن ديكتاتوريٍّ بشري للتأثير على قطعان أبناء جنسي.

– ألم ترغب في اختيار الإليزيه أو اللوفر، وهما أيضاً كانا مسكنين سابقين للملوك؟

– وحده قصر فيرساي كان مؤثّراً بما فيه الكفاية لكي يترك أثراً في أذهان الجرذان التي لم تعش معظمها سوى في المجارير ومقالب النفايات. علاوة على ذلك، كان القصر يقع خارج المدينة وبالتالي من السهل السيطرة عليه. وبعد ذلك شكّلتُ طبقة أرستقراطية من البارونات والمركيزات والدوقات. في الواقع أعدتُ بناء نظام البلاط في عهد لويس الرابع عشر. ولكن، فيما يتعلّق بالجيش، استرشدتُ بمن أحمل اسمه، تيمورلنك العظيم.

– هل فكّرت من قبل في إنشاء قطيعٍ بنّي مدمّرٍ؟

اتّخذتُ بالضبط نفس وضعيته لكي أُشعره بالراحة وأن أنقل إليه لاشعورياً المعلومة بأننا متشابهان.

- بالطبع، يا ملكة باستيت.

هل ناداني من جديد «الملكة باستيت»؟ إنّه يحاول مداهنتي.

- كان لا بدّ من خلق صدمة نفسية عند كلّ منافسينا.

لقد منحنا الرعب أفضليةً في كلّ المعارك، بكلّ بساطة لأنّه حينما نخاف نفكّر بطريقة سيّئة.

- وبالتالي لجأتَ إلى الصلب لضرب الروح المعنوية، أليس كذلك، أيها الملك تيمورلنك؟

- كان يجب التصرّف بقوّة، بما في ذلك حيال أبناء جنسي لئلا يحاولوا التشكيك بسلطتي. كنتُ أعرف تماماً أنّ هناك خطراً من أن يسعى أحد باروناتي إلى التآمر ليستولي على منصبي. الترهيب هو ضغطٌ ديناميكي يفعل فعله في الخارج كما في الداخل. وهذا هو أيضاً ما يفسّر نجاح الكائن البشري الذي كان يحمل نفس اسمي.

- ومن هنا جاء هرم الجماجم؟

- نعم. لأنني اهتممتُ بأمركم، أنتم سكان جزيرة البجع الذين هزمتم أبناء جنسي وعلمتُ أنّكم مختبئون في جزيرة المدينة. كان يجب غسل هذا العار الذي ألحقتموه بنا، يا ملكة باستيت. أمرتُ بشنّ هجومٍ ليلي عبر نفق المترو، ولكنه فشل. أردتُ أن أقيّم مدى مقاومتكم. فأدركتُ أنّه يلزمنا المزيد من الوقت في سبيل توحيد المزيد من الجرذان.

- ومن هنا فرضتَ الحصار؟

- لقد استطعتُ، بفضل عدائكم لأبناء جنسي، أن أجمع الآلاف من الجرذان التي كنتُ سأحتاجُ إلى وقتٍ أطولٍ بكثير لإقناعها لو لم تكونوا موجودين. يجب عليّ أن أشكركم على هذا.

عليّ أن أحافظ على برودة أعصابي. وخاصةً عليّ ألا أظهر أيّ انفعالٍ سلبي أو إيجابي. وأن أحافظ على نبرةٍ مرحة.

- كان... من دواعي سرورنا.

- لكن في غضون ذلك، علمنا أنّ مجموعةً قد فرّت من جزيرة المدينة ونجحت في الوصول إلى جامعة أورسيه. فذهبنا إلى هناك، ولكنّنا وصلنا متأخّرين جدّاً: كانت الجامعة قد هوجِمت من قبل بشرٍ آخرين.

- المتعصّبون الدينيون....

- لا أدري، أنا أخلط بينهم جميعاً. بالنسبة إليّ، كلّ البشر سواسية.

- يمكن التعرّف عليهم من خلال لحاهم السوداء.

- في أورسيه المدمّرة، وجدتُ حاسوباً. أوصلتُ قابسي به فاكتشفتُ أنّه لم يعد هناك إنترنت، ولكن كان هناك ما هو أكثر أهمية بكثير: قاعدة بيانات تضمّ مذكّرات رومان ويلز الشخصية.

شعرتُ أنّ محدّثي سعيدٌ بجعلي في حيرةٍ من أمري بعض الشيء.

- وقد كتب فيها رومان ويلز في آخر مكانٍ منها أنّه قد سارع برفقة قطّةٍ إلى استعادة كلّ معارف العالم التي كان قد خزّنها في فلاشة يو إس بي سعتها مليارات البايتات.

تبّاً، لقد كتب هذا قبل أن ننطلق في مهمّتنا بالضبط. لا بدّ أنّه كان يخشى أن يُنسى كلّ ما كان قد أنجزه!

- كنتِ أنتِ، يا ملكة باستيت، أليس كذلك؟

توقّف تيمورلنك لبرهةٍ ثم استأنف حديثه:

- يُخبرني حدسي بأنّكما استعدتما الفلاشة من عند المتطرّفين، الأمر الذي يُفسّر أنّ هؤلاء الملتحين أنفسهم عادوا لتخريب كلّ شيء في أورسيه بحثاً عن هذا الجهاز الثمين.

من جديد، ترك بعض الوقت يمرّ لأستطيع تقدير جودة استنتاجاته.

- إلى أين تريد أنت تصل، أيّها الملك تيمورلنك؟

- لقد أكّد لي الببغاء أنّ الموجودين على متن هذه السفينة كانوا يملكون فلاشة اليو إس بي الشهيرة هذه التي تحتوي على كلّ معارف البشر.

تبّاً، لا بدّ أنّ شامبليون قد اعترض إحدى محادثاتي مع فيثاغورس وأدرك أنّه سوف ينجح من خلال هذه الحجّة في إقناع تيمورلنك بالموافقة على

اللقاء. ولهذا السبب لم يرغب في أن يشرح لنا ما الذي فعله كي ينجح في الإيفاء بهذا الوعد!

– أقترحُ عليكم صفقة، أيّتها الملكة باستيت. سوف أترككم على قيد الحياة، وفي مقابل ذلك، تقدّمون لنا، أوّلاً، موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة، وثانياً، تخضعون لنا كجنسٍ أدنى مسالم. وبالتالي سيكون بوسعكم أن تُغادروا ولن نلاحقكم بعد ذلك...

بينما كان يتكلّم، عبرت فكرة عابرة ذهني.

إنّه يعلم أننا نمتلك موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة، ولكنّه لم يتصوّر أنني...

توقّفتُ فجأةً عن التفكير، خوفاً من أن يُختَرَق ذهني تماماً. لكنّ ذلك لم يفت تيمورلنك:

– بماذا تفكّرين، بالضبط؟

– لا شيء. تابع، فأنا أُصغي إليك، أيّها الملك تيمورلنك.

حرّك أذنه حركةً خفيفةً وتبعها بارتعاشةٍ من خطمه؛ تابع حديثه، مرتاباً:

– إذاً، إن وافقتم على هذه الشروط، يا باستيت، يمكنكم أن تعيدوا دون خشية بناء مجمّعكم حيث يطيب لكم ويمكننا أن نقيم السلام بيننا.

لقد حذف لقب «ملكة»؛ وبات يتحدّث معي كتابعة له.

– ولكنني أُعيدُ عليكِ سؤالي: فيما كنتِ تفكّرين قبل قليل؟

لقد وصل إلى دماغي. وبالتالي، من الأفضل ألا أعود أفكّر في «ما لا ينبغي أن أفكّر فيه». يجب أن يكون دماغي قلعة حصينة. عليّ أن أختلق بأسرع ما يمكن تسلية تلهيه عن سؤاله، وأن أتحدّث عن أمرٍ آخر.

– هل الخضوع مقابل الحصول على السلام هو ما اقترحته أيضاً على قطط برج الماء، يا تيمورلنك؟

– القطط التي كانت تُقاد من قبل قطٍّ شنيعٍ بلا وبر؟ نعم وقد وافقت على شرطنا.

– يبدو لي أنّ ذلك لم يجلب لها الحظّ.

– لم نكن متّفقين تماماً على معنى كلمة «خضوع». لقد أرادت أن

تتفاوض معنا... ولم تكن في وضعية تسمح لها بفعل ذلك. أمّا أنتم، فبلى، يا باستيت.

كان عليّ أن أكسب وقتاً، فقلتُ:

- أحتاج إلى التفكير في الأمر.

لا تفكّري في أيّ شيء. لا تفكّري في أيّ شيء.

- لقد فهمتُ أنّكِ فكّرتِ بألّا تفكّري في شيء. ولذلك أسألكِ: ما الذي لا ينبغي عليكِ التفكير فيه؟

ضغط ذهن هذا الجرذ بسؤاله الملحّ على ذهني، إلى حدّ إيلامي.

لا تفكّري في أيّ شيء. لا تفكّري في أيّ شيء.

- في لا شيء.

- بلى. أشعرُ أنّكِ تخفين في داخلكِ... سرّاً، شيئاً ما تحاولين ألا أعرفه بأيّ ثمن.

لا تفكّري في أيّ شيء. لا تفكّري في أيّ شيء.

فجأةً، شعرتُ أنّ ذهنه يتحوّلُ إلى سهمٍ وينغرزُ في ذهني لاستكشافه.

عرفتُ أنني لن أنجح في الامتناع عن التفكير في أيّ شيءٍ لوقتٍ أطول، ولذلك احتجتُ إلى شيءٍ ما لكي ألهيه. احتجتُ إلى فكرةٍ تُحدِثُ ما يُشبهُ انفجاراً في رأسي. ففكّرتُ في ذيل القطّ سفينكس وضحكتُ.

- لماذا تفكّرين في ذيل سفينكس؟ لماذا تشعرين بهذا الشعور الغريب؟

أوف، لا يعرف ما هي الفكاهة. إذاً، يمكن للضحكِ أن ينقذني.

ظللتُ أركّزُ تفكيري على ذيل سفينكس، ولكي تشتدّ بي الرغبة في الضحك، تذكّرتُ عضوه الذكري الخالي من أيّ شوكة والذي اندسّ فيّ بكلّ سهولة وسعلتُ من شدّة الضحك.

- **ما الفكرة التي تحاولين التخلّص منها، يا باستيت؟**

أردتُ أن أنفصل عنه، لكن مفاصل أصابع أقدامي كانت أقلّ عدداً من مفاصل أصابعه، وفي حين شددتُ قابس اليو إس بي لكي أسحبه من عيني

الثالثة، ضغط هو بأصابعه الأربع ليُرغمني على الإبقاء على ذلك الجهاز المتدخّل، الموصول مباشرةً مع دماغي.

- بماذا تفكّرين؟

العضو الذكري للقطّ سفينكس. العضو الذكري للقطّ سفينكس. العضو الذكري للقطّ سفينكس. وخاصّة عدم التفكير بما هو حول...

- موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة، تحملين موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة حول رقبتكِ!

لقد خسرتُ.

حاول تيمورلنك أن ينتزع قلادتي، لكنّ القلادة قاومت. سدّدتُ عليه ضربة قوية من قدمي رمته بعيداً عنّي. انخلع الحبل فجأةً، وانفصلتُ أخيراً عنه.

استطعتُ أن أفكّر بعد أن أصبحتُ مستقلّة في ذهني.

لكنّ خصمي لم يشأ أن يستسلم بهذه السهولة. أقبل نحوي واستخدم ذيله الأحمر كسوطٍ ودوّم به وهو يتبوّل قبل أن يصفقه على خطمي.

آخ.

شعرتُ بألمٍ حارقٍ انطلق من خطمي وانتشر في كلّ أنحاء جسمي. أصابت ضربةٌ ثانية عينيّ وأعمتني. كان ألماً حارقاً. حاولتُ أن أسدّد إليه ضربات بقوائمي، ولكنّها ذهبت في الفراغ.

ولكنّ هذا الخصم كان سريعاً بالفعل وتجنّب في كلّ مرّة مخالبي الحادّة، في حين واصل هو ضربي بدقّة.

ولأنّه كان من المحتمَلِ أن يكون الالتحام المباشر لمصلحته، تراجعتُ. نفشتُ فرائي لكي أبدو أضخم حجماً.

وقف القارض الصغير ذو الفراء الأبيض على قائمتيه الخلفيتين، متأهّباً لشنّ هجوم جديد. انتصبتُ بدوري على قائمتي الخلفيتين لكي أذكّره بأنني أكبر حجماً.

رأيتُ دائرتي عينيه الحمراوين تلمعان ببريقٍ مختلفٍ بعض الشيء. لم يعد يشعر أحدنا نحو الآخر بأيّ شفقة. أصبحنا مجرّد خصمين.

قبل أن أحظى بالوقت لكي أتحاشى هجومه، التفّ عليّ وغرز مخالبه في ظهري. وما كدتُ أشعر بالألم حتى غرز سنّيه القاطعين في رقبتي.

لحسن الحظّ، لم تكن لديه الأسنان الطويلة بما فيه الكفاية لتعبر كتلة فرائي وتثقب عميقاً جلدي. نجوتُ بفضل سماكة الوبر المحيط برقبتي. كانت هذه أفضليتي على سفينكس. الوبر.

واصل استخدام ذيله الطويل الوردي كسوطٍ، فلفّه حول رقبتي وضغطَ بقوّة لكي يخنقني.

بدأتُ أختنق. حاولتُ أن أضربه، ولكن لأنّه كان فوق ظهري، لم يلقَ أيّ صعوبة في تحاشي ضرباتي غير الدقيقة.

وبسبب نقص الهواء، بدأتُ أضعف.

كان فيثاغورس على حقّ، ما كان عليّ أن أحمل معي موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة.

قد أكون بالفعل غبيّة ومغرورة وعنيدة. أنا التي وقعتُ في فخّ الغرور. سأموت وسيحصل تيمورلنك على موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة.

أحسنتِ، يا باستيت، ها هو تفاوضٌ يجري بنجاح... كم أنا حمقاء. لقد لعبتُ وفي النهاية خسرتُ كلّ شيء دون أن أكسب أيّ شيء.

جرّبتُ آخر ضربة عبثية من مخالبي على ظهري ولم أنجح إلا في جرح نفسي.

ما كان عليّ أن آتي إلى هنا.

ومن ثمّ، فجأةً، وبينما بدأتُ أفقدُ الأمل، سمعتُ ضجّةً، ولمحتُ طيفاً وارتخى الضغط تماماً عن رقبتي دفعة واحدة.

إنّه شامبليون الذي ظهر وأمسك تيمورلنك بين مخالبه.

أحسنت أيها الكوكاتو!

رفع الطائر الجرذ ذا العينين الحمراوين وحمله في الهواء. طار البلاء.

ارتفع شامبليون عالياً وأخيراً أفلت فريسته التي سقطت في مياه النهر.

يا لها من خسارة: كان عليه أن يُلقي به على الأرض، كنّا ستتخلّص حتماً

من تيمورلنك. يا له من انعدامٍ لحضور الذهن! حسناً، إنّه في نهاية المطاف ليس سوى ببغاءٍ، لا بأس بما فعله، بالنسبة إلى كائنٍ من جنسه.

مستفيدةً من هذه المهلة، أسرعتُ في السباحة إلى أن بلغتُ جزيرة لاكروا، تلحق بي مجموعة من الجرذان التي أرادت أن تقبض عليّ قبل أن أصل إلى معسكري.

تدخّل رومان، الذي كان يتابع الوضع عن بعد من خلال منظاره المقرّب، وفصل بحركة خفيفة الكهرباء عن سور الأسلاك الشائكة وفتح معبراً ليتيح لي الدخول ومن ثمّ أعاد توصيل التيار الكهربائي بعد ذلك في الحال.

أمّا الجرذان التي لحقت بي، مدفوعةً بحماستها، فقد صُعِقَت بالتيار الكهربائي.

وكان فيثاغورس وأنجيلو وأسميرالدا يقفون هناك لكي يستقبلوني.

انتفضتُ ولعقتُ فرائي.

ماء القطّ السيامي، قائلاً:

– كاد تيمورلنك أن يأخذ منكِ موسوعة العلم النسبي والمُطلق!

مع ما تعرّضتُ له للتوّ من موقفٍ عصيب، لم أكن في مزاجٍ جيّدٍ لكي أسمع عتاباً.

– كان عليكَ أن تلحّ عليّ بألّا آخذها معي. بسبب خطأك، كنّا على وشك أن نخسر كلّ شيء.

أعدتُ الضربة إلى مرسلها.

وبدل أن تهنّئني على نجاتي، قامت أسميرالدا أيضاً بانتقادي.

– الآن، سيكون هناك حافزٌ أكبر لدى الجرذان لكي تهاجمنا.

وبدأت تثير غضبي. أعتقدُ أنني أخبرتكم سابقاً، ولكنني أُعيدُ وأقول إنني أكره أن يُشعرني أحد بالذنب.

ما كان عليهم سوى أن يذهبوا ويتفاوضوا مع تيمورلنك إذا كانوا يعتقدون أنهم أقوى منّي.

قالت القطّة ذات الفراء الأسود والعينين الصفراوين، بلهجة عتابٍ:

– سوف تقوم الجرذان مرّة أخرى بفرض الحصار علينا، وسوف نُصاب بالإنهاك من جديد. وهذه المرّة، سنموت جميعاً.

آه، ما يُزعجني في هذه اللحظات هو هذا! لم أفهم قطّ لماذا يكون الناسُ انهزاميين إلى هذه الدرجة. ما الجدوى من القول إننا سنموت جميعاً، بكلّ صراحة؟ سواء حدث هذا وفي هذه الحالة لا يمكن فعل أيّ شيء. أو لم يحدث هذا وفي هذه الحالة لا معنى للذعر. وددتُ لو أراها تخضع لتجربة الأنبوب المليء بالماء. بتشاؤمها الشديد، ما كانت لتصمد حتى مدّة خمس عشرة دقيقة.

عاد الببغاء، فخوراً بنفسه، منفوش الريش؛ وحلّق ثابتاً فوق رؤوسنا. هدّأتُ قليلاً من زهوه، لكي أُشتّت انتباه الجميع.

– لماذا لم تُلق تيمورلنك على الأرض؟

قال الببغاء:

– أنا آسف، لم أفكّر في ذلك في تلك اللحظة.

ولكي أُزيد عليه الضغط، قلت:

– بهذه الطريقة، أصبح خطر تيمورلنك علينا داهماً أكثر من أيّ وقتٍ مضى...

– صدّقيني، يا باستيت، إذا ما أُتيحت الفرصة مرّة أخرى لأُلقي به من الأعلى، لن أنسى أن...

– لن تكون هناك مرّة أخرى.

في الحقيقة، أنا أعشق جعل الآخرين يشعرون بالذنب.

كما أنّ هذه الظاهرة مسلّية: ما إن تلقي باللوم على أحدهم، يُعيده ذلك إلى التوبيخات التي تلّقاها من والديه أو المحيطين به ويبدأ بطريقة غريزية بالاعتذار دون تفكيرٍ.

أنصحكم نصيحة، إذا أردتم ذات يوم أن تحكموا أنتم أيضاً: لا ينبغي أبداً التردّد في إلقاء اللوم على الآخرين في أتفه الأمور. خاصّةً إذا كنتم أنتم المخطئين.

كثّفتُ من الضغط عليه:

– أكاد لا أُصدّق، لو أنّكَ أحسنتَ التصرّف، لاستطعنا أن ننعم أخيراً بالهدوء والسلام.

حطّ منقذي على كتف رومان وقال:

– لا أعرف ما الذي أفعله لكي أكفّر عن هفوتي.

قلتُ:

– ابحث.

– حسناً، على سبيل المثال، يمكنني الذهاب بحثاً عن المساعدة.

– مساعدة؟ أيّ مساعدة؟

– حسبما أتذكّر، كان آرتور، ملك الخنازير، قد اقتنع بحججكم حول الخطر الذي تشكّله الجرذان. ربّما أتمكّنُ من إغرائه بالمجيء إلى هنا.

إنّه على حقّ! هذا هو الحلّ: الملك آرتور وخنازيره! إنّه يعرفنا، وقد فهم الأمر، ويمتلك القوّة العسكرية الكافية.

إلّا أنني حرصتُ على ألا أُظهر الكثير من حماستي:

– الخنازير لن تكفي. نحتاج إلى حلفاء آخرين.

اقترح الببغاء:

– قبل أن تصلوا إلى مصنع سوسيسونو، ربّما التقيتم مع شعوبٍ أخرى.

قلتُ باستياء:

– قطط برج المياه لن تساعدنا.

أضاف فيثاغورس:

– ولن يساعدنا البشر المتطرفون الدينيون أيضاً.

صاحت ناتالي:

– الكلاب! لقد ساعدتنا قرية الكلاب.

– هناك أيضاً أنثى الصقر تلك. الآن وقد رأيتُ كيف يمكن للقوى الجوية أن تقلب الوضع رأساً على عقب، أعتقدُ أنّه قد يكون في مصلحتنا الاتصال بأنثى الصقر الساحرة هذه. سأخبرك أين يمكن العثور عليها.

رفع الببغاء عرفه، قلقاً.

- هوم... الأمر... أننا، نحن الببغاوات، ليست لدينا علاقات جيّدة مع الصقور.

- إنّها ليست أنثى صقر عادية، إنّها أنثى صقر أدين لها بحياتي. إذا ما حدّثتها عنّي ووصفتني لها، أعتقدُ أنّ من شأن هذا أن يقنعها.

- ولكن عليّ أن أستطيع الاقتراب منها.

بدرت حركة ذعرٍ من الببغاء بمجرّد ذكر لقاءٍ محتمَلٍ مع مفترسه الطبيعي.

- من مصلحتكَ أنا تساعدنا، يا شامبليون. خصوصاً أنني أعرف الآن كيف دبّرت اللقاء: لقد أخبرت تيمورلنك بأننا نمتلك موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة!

طأطأ رأسه، خجلاً.

- هذا صحيح، اعذريني. ولكنني لم أجد سوى هذه الوسيلة لكي أحصل على موعدٍ للقاء على متن القارب.

- وقد رأينا النتيجة.

- أنا آسف.

- لا جدوى من أن تكرّر الاعتذار، بل ينبغي عليك أن تصحّح أخطاءك. هيّا، يا شامبليون، لقد تحاورتُ مع ألدّ أعدائي، ويمكنك أن تتحاور مع صقرٍ! لا تقل لي إنّك علاوة على كونك طائراً أرعن، ببغاءٌ جبان أيضاً.

انتفض.

لقد مسستُ بكبريائه.

أفرد عالياً عرفه ذا الطرف الأصفر لكي يمنح نفسه هيبةً.

- سأحاول.

قال فيثاغورس:

- إذاً، كلابٌ، خنازير، صقرٌ. ومنْ أيضاً يمكنه أن يساعدنا؟

- ربّما بقي علماء جامعة أورسيه الذين فرّوا من هجوم الملتحين واختبأوا في المناطق المحيطة...

هزّ شامبليون رأسه موافقاً.

- حسناً. سأرى ما الذي يمكنني فعله... ومهما يكن من أمر، أضمن لكم

أنني من الآن ولغاية ثلاثة أيام على أقصى تقدير سوف أجلب لكم تعزيزات لكسر الحصار الذي تفرضه الجرذان.

وحلّق الببغاء نحو الجنوب، ورافقته كلّ آمالنا.

استدرتُ ورأيتُ بوضوح ملك الجرذان على ضفّة النهر، وهو ينظر إليّ نظرةً بدت لي مليئة بالحقد والضغينة.

فقلّدتُ حركة خاصّة بالبشر كنتُ قد شاهدتها في فيديو، وتُعبّر عن إشارة تحدّ: مددتُ له لساني.

ماءت أسمير الدا:

– كفّي عن استفزازاتكِ! لقد رأيته يقود قواته أثناء مجزرة جزيرة المدينة. إنّه ليس مجرّد عدو، إنّه تجسيد الموت والدمار. طالما أنّ هذا الجرذ الصغير الأبيض ذا العينين الحمراوين لم يُمت ويُدفَن تحت حجرٍ، لن ننعم بالهدوء.

62. لعنة قبر تيمورلنك

على شاهدة قبر تيمورلنك، نُقِشَت العبارة التالية: «من يُزعج قبري يُطلق العنان لغازٍ أفظع منّي. عندما أقوم من الموت سيرتعد العالم».

كان السوفييت يعتبرون أنّ هذه اللعنة عبارة عن خرافة من القرون الوسطى. في يونيو / حزيران 1941، أرسل الدكتاتور الروسي جوزيف ستالين الأنثروبولوجي والطبيب الشرعي ميخائيل غيراسيموف، المتخصّص في تحليل الهياكل العظمية، لكي يستكشف مع فريقٍ من العلماء ضريح تيمورلنك الذي يقع في سمرقند بأوزبكستان.

حذّر سكانُ المدينة العالمَ الروسي من اللعنة القديمة التي تلقي بظلالها على القبر، ولكن العالم لم يأخذ تحذيراتهم في الحسبان ونصب كلّ معدّاته. حُطِّمَ القبر في 20 يونيو / حزيران. وتمّ تصوير عملية فتح القبر ونقلها في بثّ مباشر. أخذ غيراسيموف عظام الهيكل العظمي ونجح في إعادة تركيب الجسد إلى حدّ الحصول على المظهر المحتمل لهيكل تيمورلنك. وأكّد أنّه كان يعرج. وأعلن أنّ طوله كان يبلغ متراً

واثنين وسبعين سنتمتراً، وهو طولٌ فارع بالنسبة إلى عصر تيمورلنك، وخاصّة بالنسبة إلى رجلٍ مغولي. بعد يومين من ذلك، في يوم 22 يونيو / حزيران، أطلق الدكتاتور الألماني أدولف هتلر عملية غزو روسيا بجيشٍ قوامه ثلاثة ملايين جنديّ.

كانت عملية بارباروسا، وقد سُمّيت بهذا الاسم نسبة إلى الإمبراطور الألماني فريديريك باربروس (1122–1190) قائد الحملة الصليبية، الذي مات وهو يحاول تحرير القدس والذي كان يُعتبَر، هو الآخر، حسب الأسطورة، بأنّه لم يمُت في الحقيقة ويُحضّر نفسه لكي يستيقظ ذات يوم لكي يُعيد لألمانيا عظمتها السابقة.

وإذا كانت عملية بارباروسا قد أُقرّت سرّاً منذ عام 1940، فإنّ المصادفة بين فتح قبر تيمورلنك وهجوم النازيين طبع الأذهان.

أوقعت عملية بارباروسا 20 مليون قتيلٍ من الجانب الروسي (أي أكثر من ضحايا هجمات تيمورلنك التي لم تكن قد أوقعت «سوى» 17 مليوناً من الأشخاص...).

وفي النهاية، اعتبر ستالين أنّ الخرافة المحيطة بجثّة تيمورلنك تستحقّ أن تؤخَذ بالحسبان وأمر في نوفمبر / تشرين الثاني 1942 بإعادة رفات تيمورلنك إلى ضريحه.

بعد مضي بضعة أيامٍ، حقّق الجيش السوفياتي أخيراً أوّل انتصارٍ له، في معركة ستالينغراد.

هنا أيضاً، ربّما لا يتعلّق الأمر إلّا بمصادفةٍ، ولكن منذ ذلك الحين، لم يعد يجرؤ أحد على فتح قبر تيمورلنك.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

63. قطرة الشامبانيا التي جعلت الكأس يفيض

كانت أمّي تقول لي دائماً: «لا تؤجّلي أبداً إلى الغد العمل الذي يمكنكِ أن تجعلي الآخرين يقومون به اليوم».

لا أدري ما هو رأيكم، ولكن بالنسبة إليّ أرى أنّ هناك أوقاتاً يجب أن تتصرّف فيها بنفسك، أوقاتاً أخرى يجب أن تدع الآخرين يتصرّفون فيها بدلاً عنك.

سأرتاح أخيراً وأعلم أنّ على رعيّتي التصرّف في هذه اللحظة لكي تُرضيني، أنا ملكتها.

هناك حاجة إلى أن نعزّز قواتنا. وخدمنا من البشر ينجزون هذا ببراعة. ثمّ هناك تدبير أمور الحياة اليومية. ولهذا السبب، أعتمدُ على أبناء جنسي من القطط لاصطياد الفئران، والعثور على الأطعمة، وتنظيف أماكن عيشنا. وأخيراً، هناك الحلفاء الذين ينبغي علينا الذهاب للبحث عنهم. ولكن هذه المرّة، لم يعد الأمر يتعلّق بإرسال فرقة خاصّة، وإنّما علينا فقط أن نأمل في أن يُثبت شامبليون لنا أنّه على قدر الثقة التي منحتُها له.

أقام كلٌّ منّا في شقّة من المنازل البشرية العديدة في جزيرة لاكروا.

في الأيام التالية، حاولت بعض الجرذان العنيدة حثيثاً أن تشنّ هجوماً لكي تتحقّق إن كان نظامنا الدفاعي الكهربائي لا يزال يعمل بفاعلية. واكتشفت بذلك فاعلية تجهيزات عبقريتنا التكنولوجية البشرية: البروفيسور رومان ويلز.

مرّت ستّة أيام.

أشرقت الشمس ونظرتُ إلى الأفق من فوق سطح العمارة الأكثر ارتفاعاً في جزيرة لاكروا. جاء فيثاغورس وأنجيلو وأسميرالدا وانضمّوا إليّ.

قلتُ:

– يجب أن نتحلّى بالصبر.

أبدى فيثاغورس ملاحظةً:

– عدد أعدائنا يزداد يوماً بعد آخر.

قالت أسميرالدا بصوتٍ أقربِ إلى الأنين:

– لقد تلقّوا مساعدة من حلفاء...

صاح أنجيلو بحماسةٍ:

– سوف نقاتلهم جميعاً، لأننا نحن الأقوى! دعيني، يا أمّاه، أتكفّل

بالهجوم عليهم مع بعض الرفاق. بفضل الشاكوندو، أضمن لكِ أنني سوف أستطيع أن أجلب لكِ رأس هذا الجرذ الصغير الأبيض الذي يسخر منّا.

قال فيثاغورس:

– لقد مضى على مغادرة شامبليون سبعة أيام. وكان قد تحدّث لنا عن ثلاثة أيامٍ ولا نعلم شيئاً عن أخباره حتى الآن، وهذا أمرٌ غير طبيعي.

التفت القطّ السيامي نحوي وتحدّث في الوقت الذي لم أكن أرغب في سماع أيّ شيء. وقال:

– ربّما كان عليكِ أن ترضخي وأن تعطيه ما طلبه.

– ماذا كانت العبارة التي علّمتني إيّاه بنفسك عن ذاك الكائن البشري، تشرشل؟ آه تذكّرت: «لقد أردتم أن تتجنّبوا الحرب فاخترتم العار، وفي نهاية المطاف لحق بكم العار ولم يحل ذلك دون خوضكم الحرب!» هل رأيتَ ما حلّ بالقطّ سفينكس؟

أخفض أذنيه.

قال، معترفاً:

– أنا خائف.

وهأنذي أرى أنّ الفكر الانهزامي للقطّة أسميرالدا قد أصبح معدياً. لماذا لا تكون كلّ الإناث بمثل شجاعتي أنا؟ حسناً، لا بدّ من إيجاد فكرة.

– هل يمكن لأحدكم أن يذهب ليجلب لي بعض الشمبانيا، من فضلكم؟

فاجأ طلبي المستمعين إليّ وترك تأثيراً إيجابياً في صرف الانتباه عن كلّ ما قيل خلال الدقائق الأخيرة.

سألتني أسميرالدا التي بدت تعرف تأثير هذه المادة:

– أتُريدينَ أن تثملي؟

– أُريدُ أن أتحقّق إن كان بوسع هذا المشروب الذي نصحني فولفغانغ به أن يفتح أبواباً في روحي تتيح لي إيجاد الحلول التي تغيب عن بالي في حالتي الذهنية الطبيعية.

تحدّث فيثاغورس عن ذلك مع ناتالي. راحت تفتّش في ثلّاجات الشقق

المحيطة لتجد لي تلك الشمبانيا الشهيرة التي ستفتح لي، مثلما أتمنّى، أبواباً روحية.

بعد مرور بضع دقائق، عادت لتُخبرني بأنّها قد عثرت على زجاجةٍ:

- إنّها ليست من أفخر الأنواع، ولكن هذا كلّ ما عثرتُ عليه. وأنا آسفة جدّاً، فهي فاترة.

سنرى إن كان هذا سينجح رغم كلّ شيء. بهذه الطريقة، سوف أعرف إن كان فولفغانغ محقّاً في الإصرار على شربه حتى أنفاسه الأخيرة.

ملأت خادمتي كأساً لي. شممتُ ووجدتُ أنّ رائحتها كريهة جدّاً، حتى إنّها أسوأ من تلك التي شربتها آخر مرّة. قرّبتُ رأس لساني وغمسته في الكأس. كانت قذرة.

عليّ أن أشرب المزيد منها لكي أجد فكرةً. يجب أن أُطلق كلّ ما يكبّل تفكيري لكي أنجح في فتح نافذة جديدة تقدّم لي حلّاً ينقذنا.

عليّ فعل ذلك.

من أجل فولفغانغ، ومن أجل جماعتي ومن أجل مستقبل الجميع. عليّ أن أفعل ذلك وأُريدُ أن أفعل ذلك. أنا جاهزة.

لعقتُ المشروب الساخن، وبعد أن تغلّبتُ على تقزّزي الأوّل (كان في الواقع للمشروب مذاق بولٍ فوّار)، أنهيتُ الكأس وتجشّأتُ تجشؤّاً خفيفاً.

عاد أثر الغثيان من جديد، بالإضافة إلى الرغبة في التقيّؤ، وبالإضافة إلى الشعور بأنني قد وضعتُ مادّة سامّة في جسمي.

تُرى هل كان فولفغانغ مخطئاً؟ إلا إذا كان هذا المشروب يناسبه وحده.

ومن ثمّ دار كلّ شيء من حولي، وبدأتُ أرى أمامي ومضاتٍ.

بدا لي أنّ فقاعات تفرقعُ تحت جمجمتي.

ودهمتني هلوساتٌ.

غمضتُ عيني.

حرّكتني رؤية كوكبي. وفعّل اكتشاف تمثال منْ تحمل نفس اسمي باستيت متلازمة ستندال لديّ. وأحدث ابتلاع كمية كبيرة من الشمبانيا تأثيراً

أكثر إرباكاً على دماغي. شعرتُ بأنني لم أعد أسيطرُ على أيّ شيء. وقد ذكّرني هذا باللحظة التي كنتُ فيها داخل النهر، محمولةً بالدوّامة المائية.

حسناً، إذا كنتُ أُريد توسيع خيالي، عليّ أن أواصل الشرب.

شربتُ المزيد، وفي لحظة ما، لم أعد قادرة على الشرب لأنني انقلبتُ جانباً. وبعد أن أفرجتُ عن آخر فواقٍ، انطلقت روحي...

وجدتُ نفسي أمام الإلهة المصرية باستيت. لم أعد في جمجمتها، كانت هذه المرّة في الخارج، تقف أمامي، وقالت لي:

– عليكِ أن تكتبي تاريخنا! هذه مهمّتكِ الحقيقية.

– ملفّ حاسوبي، صفحة على الإنترنت؟

– كلّا، كتابٌ ورقي. هذا الكتاب سيمنحك السلطة لتكوني ملكة.

– وأنتِ، هل ألّفتِ كتاباً؟

– كلا! ولتحقيق هذا الهدف بالتحديد تجسّدتُ فيكِ. لكي تستطيعي أن تفعلي ما لم أفعله. ولكي أذكّركِ بهذا الأمر، لا أكفّ عن الاتصال بكِ من خلال الأحلام أو الحدس.

– ولكنني قطّة، ولا أُجيد الكتابة.

– تحملين في داخلكِ مواهب سوف تسمح لكِ بالنجاح في ذلك. من جهتي، استفدتُ من حلمٍ لناتالي لكي أقترح عليها أن تُطلقَ عليكِ اسمي. ووضعتُ في طريقكِ فيثاغورس الذي كان الوحيد، بفضل عينه الثالثة، الذي يعرفني. أنتِ بنفسكِ، منحتكِ عمليتكِ الجراحية فرصة الوصول إلى معارف البشر. وأنا التي أردتُ كلّ هذا. أنا التي ألهمتُ الجميع عملهم لكي يصلوا إلى مشروعي في الكتابة. لقد بدأتِ بفهم مفرداتهم، الأمر الذي يجعلكِ قابلة لأن تصوغي أفكاراً مجرّدة. وعلاوة على ذلك، أنتِ مهتمّة بشكلٍ طبيعي بكلّ هذه المفاهيم، والأعداد، وتعقيدات المفردات... كلّ هذا لا يخدم سوى هذا الهدف: إنجاز أوّل كتاب مكتوب من قبل قطّة، يضمّ موسوعة لمعارف القطط معزّزة وثرّية بمعارف البشر: كتابكِ، إنجازكِ، مهمّتكِ!

– الكتابة، قلتِ لي...

– بالطبع، الكتابة هي السلطة الأكبر بين كلّ السلطات! إنّها أقوى

من الحُكم، إنّها أقوى من المتعة، إنّها أقوى من النصر في المبارزات أو المعارك. إنّ من يترك أثره المكتوب يمنح لنفسه إمكانية أن يعيش فكره في كلّ مكان وفي كلّ زمان.

- ولكن...

- كفّي عن قول «ولكن». أصغي إليّ، يا من هي «تجسيدٌ مستقبليٌّ لا يجرؤ على تطوير قدرته الطبيعية»...

- لا أعدكِ...

قالت بسخرية:

- أتهينين التي ستُصبحُ أنا؟ هذا سيغضبني، احذري!

الإلهة المصرية التي كنتها نظرت إليّ بـازدراءٍ وتعالٍ، مستفيدةً من هيئتها البشرية.

- عليكِ أن تكتبي!

- لا تغضبي. أنا أصغي إليكِ.

- هل أدركتِ أهمية ما ستنجزينه، ولو بالنسبة إليكِ شخصياً؟ ستتيحُ لكِ الكتابة تنظيم فكركِ وجعله سلساً وتوطيده. ستتيحُ لكِ إزالة كلّ ما هو ضعيفٌ في عقلكِ واكتشاف قوّتكِ الحقيقية. ستتيحُ لكِ تحمّل كلّ مصائبكِ من خلال تحويلها إلى تاريخ. سوف تتقدّمين أكثر ممّا تستطيعين فعله من خلال التفكير والحوار. من خلال الكتابة، سوف تستكشفين طبقات منسية أو مخفية لعالمكِ الداخلي، وسوف تشعرين بأنّ التأمّل الذاتي البسيط يتيحُ لكِ ملامسة فهمكِ لذاتكِ. طالما أنّكِ لا تكتبين، سوف تبقى أفكاركِ عادية وغامضة وناقصة وسريعة الزوال. سوف تكتفين بأفكار صغيرة ومتواضعة لن تعرفي بالضبط قيمتها. وحالما تحوّلي ما تشعرين به إلى جمل مكتوبة، سوف تزداد حساسيتكِ، وتتحوّلين إلى مستقبِلة فائقة الحساسية ومُرسِلة قويّة.

ضغطت على قفصي الصدري بسبابتها، وقالت:

- بماذا ينفعكِ التفكير إن لم تثبّتي أفكاركِ من خلال الكتابة؟ تفكّرين من أجل لا شيء! تعيشين من أجل لا شيء! أنتِ لا شيء!

- فهمتُ جيّداً، ولكن ليس لديّ يدان، ولا أصابع، ولا إبهام قابل

للثني مقابل الأصابع الأخرى. كيف سيمكنني أن أكتب كتاباً على طريقة كائنٍ بشريّ؟

– عندما يريد المرء حقّاً شيئاً ما، ينتظم الكون لكي يكون ذلك ممكناً. أنا سوف أساعدكِ.

– ثمّ، أنا، هنا، في خطرٍ حقيقي. نحن معرّضون لخطر أن نُقتَلَ جميعاً من قبل كلّ هذه الجرذان...

– كفّي عن إزعاجي بهذا الهراء! لطالما كانت هناك أخطار على الجميع وفي كلّ العصور. صدّقيني، الأخطار التي واجهتُها في عصري كانت أفظع من جرذانكِ «الصغيرة». هيّا، الآن وأنتِ تتذكّرين السبب الذي من أجله ولدتِ، باشري العمل. لا تضيّعي وقتكِ بعد الآن بالانشغال بكلّ هذه المشاكل التافهة، اكتبي عملاً أدبياً سوف يجعلكِ (وسوف يجعلني) خالدة. وهكذا يمكن أن توجد حضارة القطط. حضارةٌ مبنية قبل كلّ شيء على كتابٍ مرجعي! بالنسبة إلى البشر، كانت هناك كتب: *أوديسة*، أو *الكتاب المقدّس*، أو *البهاغافاد غيتا*، أو *رأس المال*، أو *الكتاب الأحمر الصغير* أو *بوبول فو*! والآن يقع على عاتقكِ أنتِ أن تطبعي قيمنا في سردٍ. يمكنكِ أن تسمّيه، على سبيل المثال: *القطط غداً*.

– هذا يعني أنّ...

– لا تخذليني، يا باستيت. أنتِ فرصتي الأخيرة للنجاح. أنتِ تناسخي التاسع. تناسخي الأخير. **ألّفي كتاباً! أُريدُ ذلك! هذا أمرٌ!**

عبستْ. أضفتُ بصوتٍ خافت:

– من أجل إنقاذنا من الخطر الراهن، أليست لديكِ فكرة يمكنها أن تساعدني؟

– افعلي كما فعلتِ من قبل. اهربي عبر الأجواء.

64. عبادة باستيت

كانت الإلهة باستيت، في الأصل، إلهة محلية لمدينة بوباستيس المصرية («بسطه» كناية عن اسم باستيت). وقد اكتُشفَت أنقاض المعبد الكبير المكرّس لها في عام 1887 من قبل عالم الآثار إدوارد نافيل.

وقد عُثِرَ عليها بالقرب من مدينة تُدعى الآن تل بسطه، التي تقع على بعد 80 كيلومتراً إلى شمال شرق القاهرة.

كان المعبد فخماً بوجود مأوى ضخم للقطط. وكان الكهنة يقدّمون الطعام فيه لآلاف القطط التي كانت تعيش بحرية َمطلقة. وكان هؤلاء الكهنة أنفسهم يدفعون الفدية في سبيل نقل القطط التي تُعامل معاملة سيئة من البلدان الأجنبية المجاورة إلى مصر.

بدءاً من السلالة السادسة للفراعنة، في عهد حكم الفرعون بيبي الثاني، انتشرت عبادة هذه الإلهة سريعاً.

وكانت باستيت تُعتبَر ابنة إله الشمس رَع.

ويمكن لها أن تتجلّى في هيئتين: هيئة امرأة برأس قطّة، أو هيئة قطّة طبيعية.

وهي في آنٍ واحد إلهة الموسيقى وإلهة اللذّة الجنسية والخصوبة.

واعتُبِرَت باستيت حامية النساء، لأنّها كانت تمتلك القوّة السحرية في تحفيز الحب الجسدي وجعل النساء طافحات بالخصوبة.

وإذا عُرِفَت غالباً بخصال حميدة وعطوفة، فإنّها اشتهرت أيضاً بنوبات غضبها الجامحة في الحالات التي يتمّ فيها التقليل من الاحترام لها.

وأتى نجاحها بشكلٍ خاصّ من الاحتفال السنوي الذي يُكرّس لها في المعبد الكبير المبني بالجرانيت الأحمر في مدينة بوباستيس. كان هذا الاحتفال هو الحدث الأكثر حضوراً في كامل حوض البحر الأبيض المتوسّط. خلال هذه الاحتفالية، كان جميع المصريين الحاضرين يتنكّرون في هيئة القطط، من خلال وضع آذان نافرة وارتداء ثياب موصولة بها أذناب طويلة، والنساء ترسم على وجوههنّ بالمساحيق ملامح القطط، بل ويفتحن جراحاً في جسدهنّ لكي يسكبن فيها دم القطط.

بعد أن زار العالم اليوناني هيرودوت، الذي يُعتبَرُ أوّل مؤرّخ حصيف في تاريخ البشرية، مصر، كتب ما يلي: «يجتمع أكثر من سبعمائة ألف

شخص كلّ سنة في معبد بوباستيس احتفاءً بالإلهة باستيت. يصلون في سفنٍ، وهم يغنّون ويرقصون ويعزفون الموسيقى. يعزف الرجال على المزمار، بينما تدقّ النساء على الأصناج أو الطبول أو يصفّقن بأيديهنّ. والجميع متنكّرون في هيئة القطط. ما إن ينزلوا من السفن على البرّ، حتى تعمّ فرحة عارمة الحشود. ومن ثمّ تبدأ الاحتفالات الفعلية. تُقدّم قططٌ ميّتة، محنّطة، وموضوعة في صناديق، قبل أن تودعَ في الأنفاق تحت الأرض في مدينة بوباستيس. ثمّ يشرع جميع المشاركين في الشرب ويتجرّدون من ثيابهم ويمارسون الجنس احتفاءً بالإلهة باستيت».

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

65. خطّة للفرار

– إذن هل وجدت فكرة لإنقاذنا؟

شعرتُ بصداعٍ شديدٍ. دوّى مواء فيثاغورس بكلماتٍ متداخلة في رأسي مثل دوي جرسٍ في كاتدرائية نوتردام.

لماذا يتكلّم بصوتٍ قويّ جدّاً؟

دسستُ رأسي بين كفّي وحاولتُ أن أسدّ أذنيّ. سمعتُ صوتاً غامضاً، وظننتُ أنّه يكرّر جملته. وصلتني نتفٌ منها فقط:

– إذاً، هل وجدتِ فكرةً لإنقاذنا؟

انتفضتُ. بحثتُ عن كلماتي، وتثاءبتُ لكي أرخي فكّي وأخيراً قلتُ بهدوء:

– نعم.

– نحن نصغي إليكِ.

كان الجميع قد حضروا ويراقبونني لكي يروا إن كنتُ أفي بوعودي. لماذا ينتظر الآخرون الكثير منّي؟

لأنني ملكتهم، إنّهم يعرفون ذلك، ودائماً عرفوا ذلك. كل ما أعيشه ليس

سوى سلسلة من الاختبارات قبل بلوغي العرش. ومن ثمّ، سوف أحكم وسوف يحترمونني لما سأصبح عليه.

ملكة القطط.

أمّا بالنسبة إلى الكتابة، فلن أسمح لنفسي على أيّ حال بأن أتلقّى الأوامر من أحد تجسيداتي السابقة. «القطط غداً»؟ يمكن لهذا أن يؤجّل، لأنّه عليّ أن أتدبّر أمر «الجرذان اليوم». على أيّ حال، إذا ما قَتَلتْنا الجرذان، لن يكون هناك لا كتابة ولا كتاب، ولا ملكة.

راقبني فيثاغورس وأسميرالدا وأنجيلو. يجب أن أستجمع أفكاري وأنشط. يجب أن أنجح في إفهامهم كلّ كلمة:

– سنهرب جميعاً عبر الجوّ. تحدّث رومان عن صنع منطادٍ، وقد جلبنا من الجامعة كلّ المواد الضرورية لتنفيذ هذا المشروع. هذا هو الحلّ الذي رأيته خلال انتشائي بالشامبانيا.

نظر الجميع إليّ بمزيجٍ من الريبة والإعجاب.

أعلم بماذا يفكّرون. يتساءلون لماذا لم نفعل ذلك قبل الآن. هذا لأننا كنّا مأخوذين بحماسة الإقامة في الجزيرة، ومن ثمّ بالخوف من هجومٍ، ولذلك فكّرنا فقط في تنظيم دفاعاتنا دون أن نفكّر في الهروب.

حاولتُ أن أمشي.

لا تترنّحي.

وجدتُ رومان يتناول الطعام مع خادمتي. كما لو أنّ ذلك محض صدفة. لم يفاجئني ذلك. إنّها نفس طقوس المغازلة بينهما التي تسير ببطء. تساءلت كم من الوقت يحتاجان لكي يمارسا الحبّ. يومٌ واحدٌ؟ أسبوعٌ واحدٌ؟ شهرٌ واحدٌ؟ ستّة أشهرٍ؟ عامٌ واحدٌ؟

ولكن هذا ليس أوان المشاعر، وإنّما أوان الفعل والبناء.

– رو – مان!

قطع فواقُ الثمالة جملتي. حسناً، فالشمبانيا تفتح أبواباً ولكنّها تُبطئ التفكير، وتُفقدُ التوازن، وتخلّ التركيز.

- رومان! ناتالي! يجب أن تجلبا كلّ المواد المخزّنة في الزورق النهري وتشرعا بالعمل في بناء المنطاد.

لماذا يصعبُ عليّ لفظ كلماتي؟ أشعرُ بنبضٍ قويٍّ في صدغيّ.

أقرّ رومان:

- لم أعد أفكّر في ذلك.

أصبحت الفكرة تناسبه أكثر لأنه لاحظ، مثلي تماماً، أنّ البشر بدأوا يفقدون معنوياتهم وأنّ الغذاء بدأ ينفد.

لا شيء أفضل من هذا المشروع الطموح لكي يستعيد البشر حماستهم. وبالتالي، انكببنا جميعاً على مهمّة «الفرار عبر الأجـواء». حتى القطط شاركت في ورشة العمل، ممسكة بالأدوات في فمها.

جرى كلّ شيء في القاعة الواسعة لحلبة التزلّج في جزيرة لاكروا. وبهذه الطريقة، لن تتمكّن الجرذان المحتشدة على ضفاف النهر من رؤيتنا ونحن نعمل.

خيطت مغازل النسيج الصناعي بعضها مع بعض. سوف يكون البالون وحده أكبر بعشرة أضعاف من منطادنا الأوّل. وبجانبه، سوف تُبنى سلّة المنطاد. وهذه السلّة ستكون أوسع من حوضنا السابق وسوف تتّسع بسهولة لكلّ القطط والبشر الموجودين.

على جانبي السلّة، ثبّت رومان مروحتين، سوف تعملان، إذا ما فهمتُ جيّداً، بواسطة كائنين بشريين سوف يدوسان على دوّاساتهما. وبهذه الطريقة، لن نعتمد على إمدادات الوقود.

وكلّما رأيتُ المنطاد يتجمّع قطعةً بعد أخرى، أدركتُ كيف سيعمل بوجود دفّة قيادته في الأمام وشفرات التوجيه في الخلف.

تطلّعتُ بنفاد صبرٍ إلى الطيران لكي أغادر تقلّبات عالم الزواحف على الأرض، وأنا أرتفع عالياً وأرى كلّ شيءٍ من الأعلى.

عدا ابني الكسول، لم يضيّع خدمي الوقت.

خاطت ناتالي مغزلاً طويلاً من النسيج. اقتربتُ منها، وحككتُ جبيني

بساقها لكي أضع بعضاً من رائحتي على جسدها، وخرخرتُ ثمّ، استقررتُ بارتياحٍ على ركبتيها.

مرّرت أصابعها الطويلة بين شعرها الأسود وابتسمت لي.

– أنا على دراية بالفرصة المتاحة لي لأستطيع التحدّث إليكِ، يا باستيت. في هذه اللحظة، أفكّر بكلّ الذين حلموا بالتحدّث إلى قططهم...

– وأنا أيضاً، أفكّر بكلّ القطط التي حلمت بالتحدّث إلى خدمها...

– نعم، وأقول لنفسي إنّه أخيراً يمكننا أن نبدأ بالتفاهم.

– عليّ أن أخبركِ بأمرٍ آخر، يا ناتالي، وهو أنّه الآن وهنا، ورغم الظروف الاستثنائية بعض الشيء، أنا سعيدة. كنتُ بكلّ تأكيد راضية عندما كنتُ في شقّتي معكِ، ولكن منذ فترة تضاعف هذا الشعور بفعل إثارة المغامرة. وتُبهرني معرفتي بأننا سننطلق معاً وسط السحب لكي ننقذ كلّ جماعتنا وتُسعدني إلى أعلى درجة. نعم، أريدُ أن أخبركِ بأنّكِ خادمةٌ جديرةٌ بي.

– حسناً...

– أتمنى أن يكون هذا الوضع مريحاً بالنسبةِ إليكِ أيضاً. لطالما اعتقدتُ أنّ الناس الذين خدموني لهم أيضاً الحقّ في بعض الارتياح الشخصي. وهذا هو السبب الذي جعلني أغامر إلى حدّ أن أنصحكِ بأن تمارسي النزاء مع زميلكِ... ولكنني أدركتُ أنّ المقاربة العاطفية عندكم بطيئة جدّاً وتدريجية جدّاً، وأنا أحترم ذلك.

تشنّجت يدها، وكفّت عن مداعبتي.

– ألهذا السبب تريدين التحدّث معي، يا باستيت؟

– بل قبل كلّ شيء لتقييم الأهداف الثلاثة التي حددتِها لي: الحبّ، الفكاهة، الفنّ.

أراحها جوابي قليلاً.

– أعتقدُ أنني فهمتُ أمراً: أفضل طريقة للتعلّم ليس أن نعيش الأشياء بل أن نقرأها.

– عفواً؟

- أعتقدُ أنّ الكتبَ تُثير انفعالات أقوى من التجربة العملية. لأنّه حينما نعيش الأشياء، لا نضع بالضرورة الكلمات المناسبة في هذه التجربة، في حين أنّ اختصاصياً في الكلمات، مثل كاتبٍ، سوف يكون قادراً على أن يصف بدقّة متناهية شيئاً ننظر إليه بغموض.

- أنتِ أوّل شخص يتكلّم بهكذا لغة. ويصبح هذا الكلام أكثر إثارة للدهشة حينما يصدر عن قطّة.

- أُريدكِ، حينما نهرب في السماء ونصبحُ في أمانٍ، أن تعلّميني قراءة النصوص المحفوظة في موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة.

- الأبحاث؟

- كلا، الروايات. إذا ما فهمتُ بشكلٍ صحيح، الأبحاث لا تُعطي سوى معلومات، في حين أنّ الروايات وحدها تُتيح الإحساس بالمشاعر. ولذلك أريد أن أرى كلّ ما أعيشه بارتباكٍ موصوفاً في روايةٍ يرويها شخوصٌ غيري. وبهذا، سوف أفهمهم على نحوٍ أفضل. ومن ثمّ، ربّما أستطيع بدوري أن أرويه بل وأكتبه. هذا هو هدفي الجديد من الآن فصاعداً.

نظرت إليّ وتفاعلت مع ما طرحتُه وهي تفعل أكثر ما أخشاه: ضحكتْ. الآن وقد عرفتُ ما يعنيه الضحك، صدمني ردّ فعلها هذا.

إنّها تسخرُ منّي لأنها تعتقدُ أنني كقطّة لن أستطيع أبداً أن أقرأ وأكتب.

تـردّدتُ في الغضب ومعاقبة هذه الوقحة، لكنني تمالكتُ نفسي وفكّرتُ بأنّه إذا كان لا بدّ من أن تعلّمني، يجب أن أتحمّل هذا النوع من السخرية. سألتُها:

- هل ستعلّمينني القراءة، يا ناتالي؟

- حسناً، لا أدري من أين نبدأ.

- من الأبجدية، ثم الكلمات، والجمل؛ أخيراً! لا تتظاهري بالجهل، إذ يبدو أنّ كلّ البشر يحفظون هذا عن ظهر قلب.

توقّفت عن الضحك وتهيّأت لأن تقول شيئاً ما، حينما ناداها رومان ويلز ليطلب مساعدتها.

أتمنّى أن تكون قد فهمت رسالتي. لقد جاملتها كثيراً، وربّما سيساعد هذا في الأمر.

مرّت الأيّام وراح المنطاد يأخذ شكله.

كان شامبليون قد غادر منذ خمسة عشر يوماً حينما أعلن رومان أنّ مركبتنا الطائرة الجديدة التي عملنا عليها جميعاً بصورة جادّة قد أصبحت جاهزة للإقلاع.

بدت سلّة المنطاد مثل قاربٍ كبير، وكان الغلاف الذي من المفروض أن يحافظ عليه معلّقاً في الجوّ واسعاً جدّاً. وتماماً مثل المنطاد الهوائي، حدّدنا مسبقاً مساحةً مثالية للإطلاق. وهذه المرّة، اخترنا سطح حلبة التزلّج.

ثبّتنا السلّة بأوتاد مربوطة بحبال. أوصل رومان قوارير غاز الهليوم، وفتح سدادة الغاز فانتفخ البالون وأعطى للجزء العلوي شكلاً ليس كروياً وإنّما بيضوياً، شبيهاً بقثاءٍ.

ومن ثمّ جرى كلّ شيء تحت إشراف البروفيسور رومان ويلز. بدا مرتاحاً تماماً للخطوات المتّخذة.

ركبنا جميعاً، من القطط والبشر، في السلّة نصف المفتوحة في جزئها العلوي. عند إعطاء الإشارة، قطعت ناتالي الحبال وتحرّر المنطاد.

لم نشعر كما في المرّة السابقة بالحرارة الشديدة لفوهات النار، وبدا لي أنّ غاز الهليوم قد تحسّن كثيراً.

كان أنجيلو قريباً منّي.

قلتُ له:

– استعدّ لتعيش تجربة استثنائية. سوف نصعد إلى ارتفاعٍ يعلو السحب، وحينئذٍ لن يحصل لنا أي مكروه.

– أنا متلهّفٌ لرؤية ذلك، يا أمّاه!

ارتفعت مركبتنا البيضوية. انحنيتُ على حرف السلّة ورأيتُ الجرذان المذهولة التي رأت كلّ جهودها في سبيل فرض الاستسلام علينا تذهب هباءً منثوراً.

أنا آسفة، أيّتها الجرذان، ولكن ما ترونه هنا هو نتيجة تعاونٍ فعّالٍ بين

الحضارتين البشرية والقططية. تماماً مثل النار، لديكم تقنية متخلّفة، الأمر الذي يسمح لنا أن نعوّض نقصنا العددي.

بدا لي أنّني تعرّفتُ على طيفٍ أبيض جاثمٍ على صخرةٍ على ضفّة النهر.

وداعاً، يا تيمورلنك، كان من دواعي سروري أن ألتقي بك ويسرّني أكثر أنني تخلّصتُ من أنيابك. أنا من أملك موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة، ولستُ مستعدّة لأن أقدّمها لك ولا أن أخضع لك.

لقد خسرتَ. لقد ربحتُ.

ارتفع المنطاد ببطءٍ.

بيد أنّ ضجيجاً غريباً لفت انتباهي. كما لو أنّ حبّات بَرَدٍ ضربت غلاف المنطاد. ثمّ دوّى ضجيجٌ ثانٍ مشابهٌ للأوّل.

مدّ رومان عصا في رأسها مرآةٌ لكي يرى ما الذي يجري في قمّة المنطاد. قال:

- حماماتٌ! المئات من الحمامات! إنّها تحاول ثقب الغلاف بمناقيرها!

رأيتُ أنّ بعضها، مثل المرّة الأولى، تندفعُ بحماسة وتُغير على المنطاد وهي تمدّ رؤوس مناقيرها إلى الأمام. في حين كانت مجموعة أخرى، على طريقة نقّار الخشب، تنقرُ بعنادٍ على نفس المكان.

بدأنا بالنزول قليلاً.

- ألا توجد وسيلة لمنعها من الاستمرار؟

- كلا، هذا يحدث في قمّة المنطاد!

سأل أنجيلو:

- لماذا تهاجمنا الحمامات؟

فكّرتُ في الأمر ووجدتُ تفسيراً محتملاً، ولكنني لم أجرؤ على الإفصاح عنه. وتحدّث فيثاغورس نيابةً عنّي:

- إنّها تكرهنا لأننا قتلنا بعضها خلال غارتنا الأولى بالمنطاد.

قال أنجيلو الذي ربّما لم يكن محدود التفكير بالقدر الذي كنتُ أعتقد، مستغرباً:

- ولكن كان ذلك في باريس، ونحن الآن هنا في روان، كيف استطاعت أن تعرف؟ فهي لا تتواصل بعضها مع بعض عن بعد!

– منْ يدري؟ ربّما لديها وسيلة لتبادل المعلومات نحن لا نعرفها. في كلّ الأحوال، يبدو أنّها تعرف منْ نحن.

لكلّ شيءٍ ثمنٌ يُدفَع، حتى أصغر الحماقات – إذا ما استطعنا أن نعتبر قتل ما يقرب من عشر حمامات إحدى هذه الحماقات الصغيرة.

سمعنا طقطقةً في نسيج البالون وبدأنا ننزل على نحوٍ متسارع. لحسن الحظّ، نجح رومان في التحكّم بالدقّة وتوجيه عملية السقوط لكي نهبط في نفس المكان الذي أقلعنا منه. هزّنا الارتطام بالأرض.

ألقت الجرذان التي فهمت ما يحدثُ لنا بنفسها في الماء لكي تستغلّ الفرصة.

كان لدى رومان من حضور الذهن ما يسمح له بالخروج سريعاً من سلّة المنطاد، والركض سريعاً للضغط على المقبض الذي يوصل التيار الكهربائي بسياج الأسلاك الشائكة.

ومع ذلك، نجحت بعض الجرذان في اجتياز دفاعاتنا، بحيث ما أن نزلنا من المنطاد، اضطررنا لمطاردتها لكي نمنعها من إيقاع الكثير من الأضرار. وقد أُخليت سريعاً.

قالت أسميرالدا التي لم تتردّد في تقديم البراهين:

– لقد انتهى الأمر، وكلّ هذا العمل لن ينفع في شيء.

بينما كنّا نتساعد في سبيل الخروج من المنطاد المحطّم، حامت قرابة مئة حمامةٍ فوق رؤوسنا وأمطرتنا بوابلٍ من زرقها اللزج.

اضطررنا للجوء إلى داخل مبنى حلبة التزلّج الذي حمانا سقفه من تلك الطيور اللعينة.

تنهّد فيثاغورس.

– من الآن فصاعداً، لدينا عدوٌّ ثانٍ: الحمام. ولسوء الحظّ أعداده كبيرة.

– كانت أمّي تسمّيها «الجرذان الطائرة»، وقد انضمّت إلى «الجرذان المحتشدة».

شعرتُ بأنّ معنويات جماعتنا قد تأثّرت بهذا الإخفاق. فعرضتُ بطريقة ارتجالية اقتراحاً:

- يمكننا أن نبني غلافاً للمنطاد مضاداً للمناقير.
أجابت ناتالي:
- كلا. يجب أن تكون الأغلفة رقيقة وخفيفة، وبالتالي سوف تبقى دائماً سهلة على الثَقب.
ألحّت أسميرالدا في السؤال:
- إذاً، ما الذي سنفعله؟
ولمّا شعرتُ بنبرة سخطٍ في صوتها، حاولتُ أن أطمئن قواتي:
- سوف ننتظر استقدام تعزيزات من قبل شامبليون. يجب أن نمنح وقتاً لهذا الببّغاء.
لمستُ تدنّي الروح المعنوية لدى جماعتنا، ولكن لم يخطر ببالي أيّ حلٍّ آخر على نحوٍ فوري. ربّما سنحتاج إلى الأدوية السحرية التي يصنعها البشر من خلال تجاربهم على الجرذان، تلك الكبسولة التي تشيع التفاؤل التي ستكون مفيدة جدّاً لنا في هذه اللحظة.
في المساء، بقيتُ فوق سطح المبنى الأعلى أنظر إلى القمر الذي تحوّل إلى بدرٍ مكتملٍ وأصفر اللون.
سألني أنجيلو:
- ما الذي سيحدث، يا أمّاه؟
- لا تقلق، يا بنيّ، سوف ننتصر. وهل تعرف لماذا؟ لأننا نملك أفضل مشروعٍ للمستقبل. هكذا يسير العالم، من يرى أبعد في المستقبل ومن يطرح الحلّ الأكثر انسجاماً ينتصر، رغم الأحداث المزعزِعة أحياناً. إنّ من لديهم الخيال يتفوّقون دائماً على المقيّدين بعاداتهم.
- ولكن عملياً، خلال الأيام والأسابيع المقبلة ثمّة خطر نشوب معركة ضد الجرذان. ويمكن لهذه المعركة أن تضع حدّاً لكلّ أحلامنا بالمستقبل، أليس كذلك؟
- الحرب ليست إلّا طارئاً.
- ما معنى طارئ؟
- حادثٌ غير متوقّع يُغيّر حالة الأمور. سواء انتصرنا، أو انهزمنا، نحن

نسير في اتجاه تطوّر الحياة، في حين أنّ الجرذان عبارة عن انبعاثات عالمٍ قديمٍ قائمٍ على القسوة والعدد.

– آه؟ أوليس هذا أمراً جيّداً؟

– ما أريدُ قوله لك، يا بنيّ، هو أنّ الجرذان، والآن الحمام أيضاً، هي الماضي، أمّا نحن القطط، فنحن المستقبل. لا بدّ أن يأتي يوم تسود فيه العالم السعادة القططية. وبالتالي، مهما حصل في الساعات القادمة، فقد انتصرنا من خلال الروح.

– ولكن ليس بالمادّة؟...

أيستفزّني هذا الشقيّ الصغير؟

– دائماً تتخلّف المادة قليلاً عن الروح.

– هل سنموت، برأيكِ؟

كم يستطيع هذا الطفل أن يكون سلبياً في بعض الأوقات! كان هذا التشاؤم البليد هو ما يزعجني عند والده.

رغمَ أنني، في الحقيقة، ولأنني حبلتُ به أثناء سهرة جماعية، لم أعد أتذكّر من كان أباه بالتحديد.

أو ربّما أنّ هذا الجانب المزعج في شخصية ابني قد جاء نتيجة للتأثير السلبي الذي مارسته أسميرالدا عليه. اضطرّت لأن تشغل مكان الأنثى البالغة المرجعية أثناء غيابي والأرجح أنّه اعتبرها والدته البديلة.

ولا بدّ أنها هي من زرعت هذا الغرور في شخصيته.

هذا أمرٌ غريب، منذ اليوم الأوّل الذي رأيتُ فيه هذه القطّة السوداء ذات العينين الصفراوين، شعرتُ بأنّها تخلق لي المتاعب. أهي ظاهرة سبق لي أن عشتها، أم أنّه حدسٌ سنّوري؟

كافأتُ ابني بمداعبةٍ خفيفةٍ على جبينه.

– سوف نموت جميعاً ذات يوم، يا أنجيلو. ولكنني سأبذلُ قصارى جهدي كي لا يحدث هذا سريعاً جدّاً، لكي نحظى بالوقت الكافي لبناء هذا المستقبل المثالي النابع من خيالنا.

- وكيف ترين هذا المستقبل المثالي؟

هنا، عليّ أن أزِن كلّ كلمة من كلماتي.

- مستقبلٌ سوف ينتجُ عن نقاشٍ جماعيّ بين كلّ الأجناس لضمان عالمٍ يسوده السلام للأجيال القادمة.

- تريدين القول: البشر والقطط؟

- بل والكلاب أيضاً، والخنازير والأبقار والذئاب والأغنام ومن المحتمل أيضاً شعوب الجوّ، أي الطيور، وشعوب الماء، أي السمك، وشعوب الأرض، أي الحشرات.

هذه المرّة، نظر إليّ ابني كما لو أنني مجنونة. بيد أنني لم أستسلم:

- وبعد ذلك، أتصوّر أنّ هذه الحلقة قد تتّسع لتشمل النباتات أيضاً.

- هذا مستحيل. النباتات لا تتكلّم وليست لها عيون.

- ولكن لها روحٌ. وهذا كلّ ما يهمّ.

- وأنتِ متأكّدة من أنّ للنباتاتِ روحاً، يا أمّاه؟

- كلّ ما يحيا له روحٌ من كلّ بدّ. أعتقد أنّ طاقةَ حياةٍ قد عبرتنا وأنّ هذه الطاقة هي قاسمنا المشرك الأصغر. ويكفي أن يتمّ توصلينا من جديد بهذا المصدر حتى نكتشف أننا جميعاً متّصلون بالفعل، أو على الأقلّ يمكننا أن نتّصل بعضنا ببعض.

نظر إليّ أنجيلو وهو يحرّك أذنيه ببطءٍ. واهتزّت شواربه بتشنّجاتٍ خفيفة. شعرتُ للمرّة الأوّلى أنّ هذا الذي كان صغيري قد أدرك أيّ أمٍّ رائعة حظي بها.

- ثمّ، لا بدّ أن أنجح في إقناع كلّ واحدٍ بأنّه من مصلحتنا جميعاً أن يعمل مجموع نظام الحياة في انسجامٍ، مثل جهازٍ عضوي عملاق.

- ما معنى جهاز عضوي؟

- لا بدّ أن أنقل إليكَ شغفي بالمفردات. الجهاز العضوي هو جسدٌ حيّ مليء بالخلايا.

- تريدين أن يترابط كلّ من يعيش مثل خلايا جسدٍ واحد؟

- أريد في كلّ الأحوال ألا تعود هذه الخلايا منقسمة بين العديد من الأرواح المتنافسة والحاسدة والعدوانية، التي تتقاتل من أجل سرقة الطاقة من بعضها.

توقّف وفكّر، الأمر الذي يتجلّى عنده باضطرابات خفيفة في طرف ذيله.

- إذاً، سوف ننتصر ونقتل كلّ هذه الجرذان لكي نجعلها تفهم ما هو التواصل والانسجام بين كلّ الأجناس؟

أطلقتُ تنهيدة إحباطٍ.

قلتُ بأقصى ما أمكنني من هدوء:

- حسناً، يا أنجيلو، سوف نتوقّف عن هذا النقاش عند هذا الحدّ. آمل أن يكون لديك الوقت الكافي لاحقاً لكي تفكّر في كلّ هذا... الآن، دعني وشأني. أحتاج إلى أن أبقى وحدي بغية إيجاد خطّة إنقاذٍ للأيام المقبلة.

- سؤالٌ واحدٌ إضافي، يا أمّاه، في إطار رغبتكِ في إقامة التواصل، هل تشملين أعداءَنا الجرذان أيضاً؟

- لا يمكننا أن نتحارب إلى الأبد.

تنهّدتُ تنهيدةً عميقة، ثمّ أردفت:

- لكنّ هذا سوف يستغرق وقتاً طويلاً لدفع المعسكرين إلى القبول بهذه الفكرة، ومن هنا تأتي أهمية العمل على مسألة التواصل.

هزّ أنجيلو رأسه، غير مقتنعٍ تمام الاقتناع.

إنّه يعتقد أنني أهذي؛ بالنسبة إليه، يجب فقط قتل كلّ الجرذان. ونظراً للوضع القائم، يمكنني أن أفهم هذه النظرة التبسيطية.

ومع ذلك أزعجني ابني بعض الشيء.

أعتقدُ أنّ الحبّ الأمومي ليس تلقائياً: هذا مجرّد اعتقادٍ، لكنّ الواقع مختلفٌ تماماً. أطفالنا هم أيضاً غرباء وهناك الكثير من الفرص لأن نتفاهم معهم مثلما نتفاهم مع أيّ شخصٍ غريب.

تركته وذهبتُ إلى الجزيرة بحثاً عن رفيقي فيثاغورس. رأيته منهمكاً في حديثٍ مع أسميرالدا.

أوه كلا، ليس هذا. ليس هو. ليس معها.

تردّدتُ في أن أثير فضيحةً.

الأمر الذي خيّب أملي أكثر هو أنني كنتُ في هذه اللحظة بالضبط، وبعد كلّ هذه العواطف، أرغب في أن أمارس الجنس لكي أرتاح. وبالتالي كان الحلّ الأبسط هو أن أعثرَ على شريكٍ آخر. ولكن المثير للدهشة هو أنني لم أرغب حقّاً في ذلك.

يا للهول: أتمسّك بذكرٍ محدّدٍ في اللحظة التي يتحدّث هذا الأخير مع منافستي اللدود.

أعتقدُ أنني متناقضة مع نفسي. لدي القدرة على أن أكون رؤيوية لكلّ بني جنسي بل لكلّ الكوكب، ولكنني أيضاً أتحوّل بين لحظةٍ وأخرى إلى قطّة صغيرة محبّة للتملّك والاحتكار الحصري.

في تلك اللحظة، حلمتُ لو أنني أستطيع مراجعة موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة الموضوعة حول رقبتي، لكي أجد حلّاً للمشاكل التي تعترضني في هذه اللحظة: كيف أتحاشى أن أكون غيورة، وبالمناسبة، كيف أواجه قطيعاً مكوّناً من عشرات الآلاف من الجرذان الغاضبة التي تُطيعُ قائداً واحداً ذكيّاً جدّاً.

دعونا نعترف أنّه على الرغم من كلّ نظرياتي الكبرى حول الشفقة، وروح التعاطف والتواصل الشامل، وددتُ مع ذلك أن أقتل هذا الجرذ القذر، الأبيض ذا العينين الحمراوين.

تيمورلنك....

شعرتُ أنه سبق لي أن اضطررتُ لأن أواجه هذه الروح الشريرة في العديد من حيواتي السابقة. لقد سبق أن عرفته في مكانٍ آخر وفي زمنٍ آخر. إنّه ليس مجرّد عدو، إنّه عدوٌ قديم.

66. ظاهرة وهم سبق الرؤية[1]

ظاهرة وهم سبق الرؤية مفهومٌ ابتكره عالم النفس الفرنسي إميل بويراك في عام 1894 في كتابه مستقبل علم النفس ومن ثمّ تحوّل إلى

1- ظاهرة وهم سبق الرؤية: (بالفرنسية Déjà-vu)، تصف هذه الظاهرة التجربة الغريبة التي يراودنا فيها شعور بأننا نعلم موقفًا معينًا بتفاصيله. المترجم

مفهومٍ شعبي من قبل الفيلسوف هنري برغسون. وقد أطلق عليه هذا الأخير مصطلح «ذكرى الحاضر».

أثناء ظاهرة وهم سبق الرؤية، يمتلك المرء الشعور العميق بأنّه في حضرة مكانٍ أو شخصٍ أو موقفٍ سبق أن عرفه، رغم أنّ هذا في الواقع غير ممكن، بما أنّه لم يكن قط في هذا المكان، ولم يستطع قطّ مقابلة ذلك الشخص، ولا أن يشعر بهذه التجربة.

تبعاً للمواضيع، يمكن لوهم سبق الرؤية أن يكون محدّداً بما فيه الكفاية لكي يعرف المرء بداهةً ما سيحدث لاحقاً، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بذكرى. حسب هنري برغسون، واحدٌ من كلّ شخصين عرف ظاهرة وهم سبق الرؤية. والفئة الأكبر التي تشهد هذه الظاهرة هي الشباب، من ذوي الميول الوسواسية أو الهستيرية.

في كتابه تفسير الأحلام، يقول سيغموند فرويد إنّ ظاهرة وهم سبق الرؤية تجد أصلها في «تمّ الحلم به سابقاً». فالأحلام إذاً هي التي تتيح لنا أن نستكشف وقائع موازية أخرى، تأتي في بعض الأحيان لتتوافق مع واقعنا المرجعي.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

67. الثلج

عبر نافذة شقّتي في جزيرة لاكروا، اكتشفتُ ظاهرة جديدة.

تساقط الثلج.

بقيتُ أراقب الندائف المتساقطة، منبهرةً بالظاهرة الطبيعية الجديدة.

لا بدّ أنّ الثلج تساقط طيلة الليل، لأنّ كلّ شيء كان الآن مغطّى برداءٍ أبيض، حتى النهر.

ارتعشتُ من البرد وانضممتُ إلى الآخرين في الطابق الأرضي. كانوا

متجمّعين بالقرب من نار المدفأة التي أبقوا عليها مشتعلةً من خلال إطعامها بقطع الكراسي والطاولات.

ومن فوائد هذه النار أيضاً، مع حرق كلّ هذا الحطب، هو أنّ الجرذان إذا ما نجحت في إلقاء القبض علينا فلن تجد دعامات خشبية لصلبنا عليها.

سألتُ فيثاغورس:

– ما رأيك بهذا الطقس؟

أجابت أسميرالدا:

– لا شيء جيّد فيه. من الآن فصاعداً، لسنا معرّضين لخطر الموت جوعاً فحسب، بل لخطر الموت برداً أيضاً.

– لم أطرح السؤال عليكِ أنتِ.

بدت أنّها فوجئت بردّي عليها، ولكنّها سكتت. انضم البشر إلينا وبدوا بدورهم قلقين.

قال رومان ويلز:

– لقد ذهبتُ ورأيتُ الوضع. لقد تجمّد النهر تماماً في الليل بسماكةٍ كافية لكي نستطيع السير على سطحه. وممّا أتذكّر من خلال قراءتي، أنّ آخر مرّة وصلت فيها درجة البرودة إلى هذا الحدّ، كان في شهر ديسمبر/ كانون الأوّل، عام 1954.

قالت ناتالي بأسى:

– هذا سيتيح للجرذان التقدّم بسرعةٍ وفي مجموعات، في حين كان الماء يرغمها سابقاً على أن تصل إلى الجزيرة ببطء وعلى نحوٍ متفرّق.

قال الموسوعي:

– من المؤكّد أنّها ستهاجمنا.

قلتُ:

– ممتاز. لقد هزمنا قوات قمبيز بالنار، وسوف نستطيع قهر قوات تيمورلنك بالجليد.

في الواقع أنا أعشق العبارات والصيغ التي تبدو تاريخية بعض الشيء.

سألت القطّة السوداء المزعجة:

– وكيف تنوين القيام بذلك؟

– لقد قال فيثاغورس إنّها ستستطيع أن تهاجمنا سيراً على سطح النهر المتجمّد؛ سوف يكفينا إذاً أن نثقب جليد سطح النهر في اللحظة التي تصبح الجرذان فوقه. وبذلك سوف تغرق جميعاً في المياه المتجمّدة.

قلتُ هذا لكي أبقى إيجابية، ولكنني شعرتُ بأنّ فكرتي ليست سهلة التنفيذ بالشكل الذي طرحتها.

قالت أسميرالدا بتأوّهٍ:

– ممتاز، لقد فهمت: سنموت.

بقينا لوقتٍ طويلٍ نراقب الثلج، ثمّ فجأةً ماء أحدهم من بعيد.

– **الجرذان تُهاجم!**

استعدّ الجميع ليأخذوا مواقعهم الدفاعية. اتّخذ ما يقرب من عشرين شخصاً من البشر الموجودين في مجمّعنا كلّ ما استطاعوا العثور عليه كأسلحة لاستخدامها ضدّ الجرذان.

أعلن رومان أنّه سيرفع من شدّة التيار الكهربائي لجدران الحماية.

خرجتُ، على الرغم من الثلج المتساقط. سرتُ وسط الثلج المذرور وخضتُ في هذه المادّة البيضاء. سمعتُ صوت طقطقةٍ تحت قوائمي.

على نحوٍ غريب، شعرتُ بأنّ الثلج رغم برودته يحرق أطراف قوائمي ويبلّل فخذيّ. وتركت خطواتي أثاراً عميقة.

لم يسبق لي أن بردتُ إلى هذه الدرجة.

ذهبتُ إلى حلبة التزلّج، وصعدتُ على سطحها، لكي أراقب تتمّة الأحداث.

اندفع أوّل صفٍّ من الجرذان هرولةً نحو جدارنا المبني بالأسلاك الشائكة المكهربة، كما لو أنّها لا تراه أو لا تخشاه. الجرذ الأوّل الذي لامس الأسلاك الحديدية انفجر مثل حزمةٍ، ولكن بدا أنّ موته لم يقلق أبناء جنسه. في الواقع، اندفعت جرذان أخرى نحو الحاجز.

إنّها تضحّي بنفسها من أجل بناء جسر من الجثث.

عشرة جرذان، مئة جرذٍ ماتت بتماسٍ مع جدارنا الواقي، ولم تتوقّف جرذانٌ جديدة عن الجري سريعاً كما لو أنّ ذلك جزءٌ من خطّتها الهجومية.

قال القطّ السيامي الذي لحق بي على السطح:

- لن نتمكّن من الصمود. يجب أن نهرب.

- نهرب؟ ولكن إلى أين نذهب؟

- فلنبدأ بالصعود إلى سطح المبنى الأعلى.

انضمّ أنجيلو وأسميرالدا وناتالي ورومان إلينا على شرفةٍ تطلّ على كامل جزيرة لاكروا.

استطعنا من ذلك العلوّ أن نتابع على نحوٍ أفضل الوضع. جرى كلّ شيء سريعاً جدّاً.

شكّل الخطّ الأوّل المكوّن من مئات الجرذان الانتحارية جسراً عازلاً بما فيه الكفاية لكي تتمكّن موجةٌ ثانية من عبور جدارنا الواقي. وبذلك لم يعد أمام الجرذان أيّ عائق يمنعها من الوصول إلينا.

اكتشفت موقعنا واندفعت في مدخل المبنى الذي كنّا نتواجد على قمّته. ولكنّ رومان نصب فخّاً: سكب صفائح من الوقود بدءاً من الطابق الأوّل، وبينما كانت الجرذان تتسلّق بالمئات الدرج، أشعل الوقود. وبهذه الطريقة، أوقفنا الموجة الثانية بالنار بعد أن عجزنا عن إيقافها بالكهرباء.

بيد أنّ همّتها لم تفتر وعزيمتها لم تضعف. واصلت بعض الجرذان المشتعلة بالنار هجومها رغمّ كلّ شيء لكي تأتي وتموت في أعلى نقطة ممكنة في طوابق مبنانا.

- كم من الوقت يمكن لدفاعنا أن يصمد؟

أجاب رومان:

- بضع ساعات. ما لم تتمكّن من إطفاء النيران من خلال تغطيتها بطبقةٍ من الجثث، كما فعلت مع السياج الكهربائي.

انحنيتُ على حافّة الشرفة وتبيّن لي كم كان عدد الجيش المعادي كبيراً.

ربّما كان عدده يقرب من مئة ألف.

مئة ألف جرذٍ مقابل مئتي قطٍّ وقطّة واثنين وعشرين كائناً بشرياً متحصّنين في المبنى الأكثر ارتفاعاً في جزيرة لاكروا.

ماءت أسميرالدا:

- سوف نقاتل حتى النهاية وإذا ما نجحت الجرذان في العبور والوصول إلينا، سوف نلقي بأنفسنا من الأعلى، وبذلك لن تتمكّن من صلبنا!

هذا هو الكلام الذي لا جدوى منه.

- وماذا لو قمنا بعملية إنزال بالحبل؟

كانت خادمتي ناتالي هي التي تتكلّم. مهتمّة بكلّ اقتراح في سبيل إخراجنا من هذا المأزق الخطير، سألتها:

- ما هذا؟

شرح رومان:

- ستُنفّذ العملية بمدّ حبلٍ بين هذه النقطة المرتفعة من الجزيرة ونقطة أكثر انخفاضاً من الضفّة، لكي ننزلق عليه.

بدت لي هذه الفكرة مناسبة من الناحية النظرية، ولكنني لم أعرف كيف يمكن وضعها موضع التنفيذ.

فتح رومان صندوقاً حديدياً كبيراً مثبتاً على الجدار وكان يحتوي على خرطومٍ مصنوعٍ من النسيج.

أشار فيثاغورس:

- إنّه خرطوم إطفاء الحرائق. إنّه طويلٌ ومتينٌ بما فيه الكفاية لكي يوفّر لنا عملية إنزال ناجحة بالحبل.

حلّ رومان الخرطوم، ثمّ صنع منه حبلاً، ودوّم به وألقى به إلى أبعد ما يمكن باتجاه مدخنة مبنى في الطرف المقابل على ضفّة النهر.

ولكنّه لم ينجح حتى في تجاوز نصف المسافة.

قال:

- سوف تلزمنا طائرة من دون طيّار. كانت لديّ واحدة في المختبر، ولم أفكّر في أخذها!

بسبب عدم توفّر ما هو أفضل، صنع ما يشبه رمحاً وألقى به إلى مسافة أبعد بقليل، ولكنّ الرمية لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية لتثبيت العروة على المدخنة.

لحسن الحظّ، ظلّت النيران مشتعلة في بيت الدرج واحتوت القطيع البنّي.

وفي تلك اللحظة سمعتُ صيحةً حادّة لطائرٍ بدت لي مألوفةً.

إنّها أنثى الصقر «خاصّتي»، تلك التي ابتلعتُ بيضها والتي أنقذتها بعد ذلك.

حطّت أنثى الصقر بالقرب منّي تماماً وبدأت تتحدّث بلغتها الخاصّة التي لم أفهم بالطبع شيئاً منها.

لا بدّ أنّ شامبليون هو الذي اتّصل بها وأقنعها بالقدوم لمساعدتنا. ولكنّه ليس هنا لكي يترجم لنا ما تقوله.

كيف يمكننا أن نشرح لأنثى صقرٍ مشروعنا في الإنزال عبر الانزلاق على حبلٍ؟

ركّزتُ تفكيري وحاولتُ أن أشرح لها عبر التخاطر.

من فضلكِ، خذي هذا الحبل وانقليه إلى الطرف المقابل.

هزّت رأسها.

أدركت ناتالي من جهتها الفرصة الرائعة التي توفّرها هذه الحليفة التي حضرت على نحوٍ مفاجئ. اختارت خادمتي لغة الإشارات العالمية. وراحت في شرحها إلى حدّ إمساك الحبل بفمها وهزّ ذراعها كما لو أنّها طائر، قبل أن تشير إلى المدخنة على الطرف الآخر من ضفّة النهر.

هزّت أنثى الصقر برأسها، وهي تنظر إلينا بالتناوب بكلّ عينٍ من عينيها الجانبيتين.

ناولها ناتالي طرف الحبل.

تردّدت أنثى الصقر، ثمّ أمسكت أخيراً الرباط بمخالبها وعبرت ذراع النهر. وحينما وصلت إلى البيت المقابل لنا على الضفة الأخرى، خفقت بجناحيها لكي تحافظ على وضع ثابت لبضع ثوانٍ، ثمّ حرّرت الحبل... الذي سقط بجانب المدخنة.

فشلت المهمّة. لا حظّ لنا، فقد وقعنا على أنثى طائرٍ خرقاء. لكنّ أنثى الصقر لم تستسلم. أعادت المحاولة مراراً وتكراراً وتمكّنت أخيراً من لفّ الحبل حول المدخنة. وبعد أن ثُبِّتَ هذا الرباط جيّداً، لم نضيّع الوقت.

صنع رومان مقبض تثبيتٍ للانزلاق على الحبل باستخدام قطعةٍ من سلكٍ معدني.

انطلق أوّلاً للاختبار ووصل دون عوائق إلى السطح الذي توجد عليه المدخنة. أمّن التثبيت جيّداً ثمّ عبر ما يقرب من عشرين كائناً بشرياً، الواحد تلو الآخر، باستخدام نفس الوسيلة الثمينة، يحمل كلٌّ منهم كيساً مليئاً بما يقرب من عشرة قطط، النهر المتجمّد، تاركين أنفسهم ينزلقون على طول الحبل المنحدر.

أنا شخصياً نُقِلتُ مع أنجيلو وفيثاغورس وأسميرالدا من قبل خادمتي.

لقد حان وقت إخلاء الجزيرة.

لقد وصلت الجرذان بالفعل إلى قمّة المبنى الذي كنّا موجودين على سطحه وبدأت تقضم بأنيابها القاطعة الحبل النسيجي لخطّ إنزالنا.

وحده الكائن البشري الأخير الذي انطلق مع قططه سقط ومات في اللحظات التالية وهو يتحطّم على السطح الجليدي للنهر.

لقد أحسنتُ التصرّف بالانطلاق ضمن أوائل المغادرين للسطح.

أطلقت الجرذان صفير الإحباط وخيبة الأمل.

وجدتُ نفسي أسير نحو أنثى الصقر.

لا أصدّق أنّ هذا الحيوان الذي كانت لي في البداية علاقات معقّدة جدّاً معه أصبح اليوم هو منقذنا. هذا هو الدليل على أن الشفقة تؤتي ثمارها. وفي الحال قلتُ في نفسي إنّه يجب أن أنمّي هذه الموهبة لكي أتواصل مع أشكالٍ أخرى من الحياة: أن أحسّ بمحنتها في البداية، ثمّ أُبادر إلى إنقاذها، والتواصل معها أخيراً.

خطرت فكرةٌ أخرى على بالي. إذا كانت أنثى الصقر هنا، فهذا لأنّها «الحليف» الوحيد الذي نجح شامبليون في استقدامه. هو الذي كان يخاف أنثى الصقر هذه، في النهاية لم ينجح إلّا في إقناعها هي وحدها.

كنّا نعلم أنّه لا ينبغي أن نضيّع الوقت. البيت الذي هبطنا فوق سطحه كان عبارة عن مخزن لبيع الأدوات الرياضية. وجد رفاقنا من البشر الشبّان في ذلك فرصةً لحيازة أحذية التزلّج على الجليد لكي يتمكّنوا من الفرار على نحوٍ أسرع فوق سطح النهر المتجمّد.

تزوّدوا بأحذية التزلّج وحقائب الظهر الرياضية الأكبر حجماً، التي أقمنا، نحن القطط، في داخلها.

نزلت ناتالي إلى الجليد وبدأت بالتزلّج. وانطلق بقية البشر الذين كانوا، لحسنّ الحظّ، يجيدون بمعظمهم التزلّج، خلفنا وسط النهر.

كان الطقسُ بارداً لكنّ الإحساس بالتزلّج كان رائعاً.

باستخدام أحذية التزلّج، تقدّم البشر بسرعة تفوق السرعة الاعتيادية بعشرة أضعاف.

اجتزنا حاجز القوارب واندفعنا مسرعين نحو الغرب.

تلاعبت الرياح بوبر فرائي في حين استمرت ندائف الثلج بالتساقط.

أُعجبتُ بسلاسة البشر في التزلّج على النهر المتحوّل إلى مرآة. شجّعتُ خادمتي تشجيعاً قويّاً:

– هيّا، أسرعي يا ناتالي، هذا ليس أوان التنزّه، يجب أن نبتعد عن هذه القوارض اللعينة.

زادت من سرعتها ومن جديد راودني الشعور بأنّ أفكاري وقراراتي هي التي أتاحت لنا النجاة بأعجوبة من خطرٍ جسيمٍ.

ما الذي كان سيحلّ بنا لو لم أنسج علاقة صداقة متينة مع أنثى الصقر هذه؟ لم أجرؤ على أن أتخيّل النتائج. ومع ذلك، لستُ متأكّدة تماماً من أنّ الآخرين سيكونون ممتنّين لي بذلك. بالتأكيد، بالنسبة إليهم، كلّ هذا أمر طبيعي...

كبحت ناتالي فجأةً أحذية التزلّج خاصّتها.

ظهر أمامنا في الحال صفٌّ من الآذان الدائرية والقواطع الحادّة مثل السيوف.

غمغم فيثاغورس:

– لقد توقّع تيمورلنك بالفعل أننا سوف نتمكّن من اجتياز السدّ. إنّه بالفعل قويٌّ جدّاً.

ظهرت جرذانٌ أخرى خلفنا وعلى الجانبين.

قالت أسميرالدا:

- لقد حاصرتنا.

تجمّعنا في منتصف النهر المتجمّد الذي ظلّ الثلج يتساقط عليه.

نزلنا، نحن القطط، من حقائب الظهر، وشكّلنا خطّاً دفاعياً دائرياً. واتّخذ الواحد والعشرون بشرياً مواقعهم بحذر خلفنا.

قيّمنا مواقف بعضنا من بعيد. ناولتني ناتالي المنظار المقرّب.

فوق حشد الوبر البنّي، رأيتُ تيمورلنك محمولاً من قبل جرذين مسنودين من قبل أربعة جرذان، تستند بدورها إلى ثمانية جرذان. شكّلت هرماً حيّاً يتيح لملك الجرذان الرؤية من الأعلى.

نظرتُ بانتباهٍ ودقّة لأحصي عدد أعدائنا. ما من شكّ في أنّ عددها يفوق بعشرة أضعاف عددها أثناء معركة جزيرة البجع. وإذا كان عددها آنذاك عشرات الآلاف، فعددها الآن يبلغ مئات الآلاف.

في هذه اللحظة بالذات، بدأتُ أتمنّى أشدّ التمنّي أن توجد قوّة ما فوق رؤوسنا تريد لنا الخير.

لا بدّ أنّ هناك الكثير من الذين يجدون أنفسهم في وضعٍ كوضعنا يقولون في أنفسهم إنّهم يحتاجون من الآن فصاعداً إلى معجزة ليتمّ إنقاذهم.

68. الكاثار

ظهرت الحركة التي تُسمى حركة الكاثار في القرن الثاني عشر في فرنسا، في منطقة تولوز.

كلمة «كاثار» مشتقّة من كلمة كاتوس-catus («قطّ-chat») في اللغة اللاتينية، التي سوف تتحوّل في اللغة الإنكليزية إلى cat). أطلق خصومهم هذه التسمية عليهم لأنّهم كانوا يزعمون أنّ الكاثار يقبّلون مؤخّرة القطط لإظهار خضوعهم للشيطان لوسيفر[1]. وكان الكاثار، فيما بينهم، يسمّون أنفسهم بـ «الرجال الجيدين».

1- لوسيفر: أحد الملائكة الذين وصفوا بالكمال دفعه كبرياؤه إلى رفض عبادة الله فسقط من السماء إلى أعماق الجحيم وأصبح اسمه الشيطان. المترجم

وهي حركة مسيحية تنتقد أسلوب الحياة الباذخ لباباوات الفاتيكان.

وكانت فلسفة الكاثار تبحث عن مسيحية الأصول، قبل أن يتمّ تزييفها، حسب رأيهم، من قبل التسلسل الهرمي في الفاتيكان.

لم يكن الكاثار يعبدون الصليب (رمز الموت)، وإنّما البجع. كانوا يقارنون المسيح بهذا الطائر الذي يحلّق، بروحه، فوق المادة.

كانت الحركة الكاثارية تكنّ احتراماً غير مشروطٍ للحياة (كان القتل ممنوعاً في معتقدهم، حتى قتل الحيوانات) وتسعى إلى بلوغ الطهارة. وكان على «الكاملين»، وهو اللقب الذي يطلقه الكاثار على قساوستهم، أن يتجنّبوا الحياة الجنسية. كانوا نباتيين على نحوٍ صارم، وصائمين عملياً لأوقات طويلة في صيامٍ يسموّنه *أندورا*. وكانوا يرفضون الملكية الخاصّة. أرادوا أن يكونوا مسالمين ورفضوا فكرة الشيطان. كان أطفال الكاثار يتلقّون التعميد ليس عند الولادة وإنّما في سنّ الثالثة عشرة، وهي السنّ التي اعتقدوا أن الطفل يصبح فيها قادراً على فهم معنى التعميد.

في عام 1119، أدان البابا الحركة بزعم أنّ الأندورا هو شكلٌ من أشكال الانتحار وأنّ رفض الحياة الجنسية يمنع تكاثر المؤمنين.

في عام 1028، أعلن البابا إينوسنت الثالث أنّ الكاثار هراطقة وطلب من ملك فرنسا فيليب أوغست أن يشنّ ضدهم حرباً صليبية بنفس اسم الحرب التي تُشنّ ضدّ الكفرة. وقد جاء ذلك في مصلحة ملك فرنسا لأنّه كان رغب في استعادة السيطرة على تلك المنطقة في الجنوب.

حينما وصل مبعوث البابا إلى تولوز لخوض الحرب الصليبية ضدّ الكاثار، لم يكن الكونت ريمون السادس، كونت تولوز، متحمّساً للقتال ضدّ رعاياه، أيّاً كانت معتقداتهم الدينية. لا سيما أنّها حربٌ صليبية مسيحية ضدّ مسيحيين.

قُتِل مبعوث البابا المرسل إلى كونت تولوز.

وحينما علِمَ إينوسنت الثالث بالخبر، قرّر أن يعزل ريمون السادس.

وجُرِّد كلّ السكان الناجين من ممتلكاتهم وطُردوا، وهم عراة، إلى خارج المدينة. هاجم سيمون دو مونفور بعد ذلك مدينة ألبي. وحاول أيضاً الاستيلاء على تولوز، ولكنّه لم يفلح في ذلك.

وفي محاولةٍ لتهدئة الوضع، قرّر ريمون السادس أن يعتذر علناً للبابا إينوسنت الثالث ووعد بألّا يعود إلى دعم الكاثار.

فأُلغي قرار عزله.

لكن العديد من عمليات الحصار وارتكاب المذابح استمرّت بعد ذلك في المدن التي اعتُبِرَت متواطئة مع الهراطقة.

واستأثر بهذه الطريقة بارونات الشمال بأراضي كونتات الجنوب وأعلنوا ولاءهم لملك فرنسا والبابا اللذين كانا قد أرسلاهم لخوض الحروب.

استمرّت الحرب على الكاثار عشرين عاماً، وتسبّبت بمقتل مليون شخص وانتهت في عام 1244 بمحاصرة ومن ثمّ الاستيلاء على قلعة مونسيغير في جبال البيرينيه التي كان ما تبقى من الكاثار قد لجأوا إليها.

وقد تمّ حرق المئتين والخمسة عشر شخصاً من الكاثار الناجين وهم أحياء على المحارق.

وقد قال المندوب البابوي عن سكان مدينة بيزيه، الذين لم يكونوا جميعهم من الكاثار، هذه الجملة التي أصبحت شهيرة: «اقتلوهم جميعاً، سوف يتعرّف الربّ على ملكه».

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

69. دمٌ على الجليد

لا أعرف الأمر بالنسبة إليكم، لكن في بعض الأحيان، أشعر بالتعب من كفاحي لكي أُبرهنَ على أنني محقّة.

أرغب فقط أن أقول: «حسناً لقد انتهى الأمر، اقتلوني، ولننتهِ من هذا الأمر بأسرع ما يمكن. وأنا آسفة للإزعاج».

بالإضافة إلى ذلك، أتساءل في بعض الأحيان إن لم أكن أنا المخطئة منذ البداية وإن لم يكن خصومي، في نهاية المطاف، هم الذين يرون الأمور بشكلٍ صحيح.

وهكذا، بينما كنتُ أتأمّل حشد الجرذان ينقضّ على جماعتنا الصغيرة الناجية، خالج شكٌّ ذهني.

وماذا لو كان هذا هو اتجاه التاريخ؟ أن ينتصر خصومنا وننهزم نحن. أن يحدث الأسوأ. أن يموت الخيّرون لكي يتأسّس نظامٌ قاسٍ وجائر، دون شفقة، دون مرح، دون فنّ. نظامُ الجرذان.

بعد كلّ هذه الجهود المبذولة في مواجهة المحن، عليّ أن أعترف بأنّه لا يمكن للمرء أن يوقف بأرجله مياه نهرٍ. وهذا القطيع البنّي ليس سوى نهرٍ حيّ، قاتمٍ وأكّال.

وداعاً، يا فيثاغورس، لقد أحببتكَ بإخلاص.

فكّرتُ في ذلك ولكنني لم أقله.

ثمّ كانت الصدمة. لقد ضُربنا بقوّة من قبل الخطّ الأوّل للمنقضين علينا. ضربت المخالبُ القواطعَ، وشقّت الأقدامُ الهواءَ، وضجّ المكان برمّته بالعضّ والجراج والصراخ. أصبح الاشتباك مزيجاً من المخالب والأسنان.

قاتلنا لكي نقاوم مقاومة الأبطال قبل أن نموت. من فوقنا، سدّد البشر، كعمالقة، ضرباتٍ بكعاب أحذيتهم إلى الجرذان التي حاولت تسلّقهم. استخدمتُ فنّ الشاكوندو لكي أقفز بين خصومي الذين هاجمتهم وأن أُطلق بين هجمة وأخرى مواءً حادّاً تمنّيته أن يكون مخيفاً. بيد أن الكثرة غلبتنا. تراجعنا وسقط بعضنا.

فجأةً، دوّى صوتُ طلقةٍ، تبعته رشقة من الطلقات. توقّفت الجرذان، متفاجئةً، ورأيتُ بعضها تنفجر في حزمٍ دموية تحت الطلقات المنطلقة من الضفة الجنوبية للنهر.

بعد الطلقات، حدثت انفجارات. تحطّم الجليد. وأصبح الماء الأسود للنهر مرئياً وابتلع المئات من المنقضين علينا.

هجومٌ مباغت من المتعصبين الدينيين. خرج ما يقرب من عشرين شخصاً ملتحٍ من ثلاث سيارات مركونة على ضفّة النهر. ركضوا وقتلوا بشكلٍ منتظم الجرذان واستخدموا في ذلك أسلحة نارية وقنابل يدوية.

كيف عرفوا أن يأتوا إلى هنا؟

شامبليون.

كلّما فكّرتُ في الأمر أكثر، بدا لي هذا الأمر أكثر وضوحاً. لا بدّ أنّ الببغاء قد بحث عن المساعدة في كلّ مكان، مثلما كان قد وعد. وبما أنني طلبتُ منه الاتصال مع بشرٍ، فقد فعل ذلك، إلّا أنّه لم يجلب البشر الذين كنتُ أتمنّى جلبهم.

لقد جاء المتعصّبون الدينيون لكي يستولوا على موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة.

من حولنا، لم يكفّ البشر الملتحون عن إطلاق النار وإلقاء القنابل اليدوية على قطيع الجرذان. وبعد ذلك، شعرتُ بأنّ كلّ شيء يجري ببطءٍ.

شاهدتُ بشراً لا أحبّهم يكافحون ضدّ جرذانٍ لا أحبّهم أكثر من هؤلاء البشر. هذه هي المفاجآت السارّة في الحياة: في بعض الأحيان يقتل أعداؤك بعضهم بعضاً.

فجأةً، ظهرتْ يدٌ، أمسكت بي من جلد رقبتي، ورفعتني وأخذتني.

إنّه رجلٌ ملتح.

لقد أدركوا (أو ربّما أخبرهم شامبليون بذلك) أنني أنا من أمتلكُ موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة حول رقبتي.

أردتُ أن أخرمشه بمخالبي أو أعضّه بأسناني، ولكن حينما يُمسكُني أحدهم بجلد قفا أذنيّ، أفقدُ كلّ وسائل الدفاع عن نفسي. أعادني هذا الوضع إلى طفولتي، عندما كانت أمّي تنقلني في فمها ممسكةً برقبتي.

فعلاً هذه هي نقطة ضعفي، ردّ فعلٍ عميق مفروض، تماماً مثل الأضواء الحمراء الليزرية التي تُبهرني أو بكرات محارم التواليت (أكون عاجزة عن منع نفسي من دحرجتها وحلّها).

ركض الملتحي الممسك وهو يلوّح بي مثل جائزةٍ حصل عليها.

فهِمَ تيمورلنك، الذي كان يراقب من بعيد، الوضع، وصفّر مصدراً الأوامر وهو يشير إليّ. فلحقت بنا في الحال جرذانٌ.

الجميع يريدني أنا!

ركض المتعصّب الديني فوق سطح النهر المتجمّد، ولكن ثوراً ظهر على يسارنا. أسقط أرضاً خاطفي الذي أفلتني. وحظيتُ فقط بالوقت الكافي لكي أتعرّف على ثور مسابقة الثيران الذي قابلته عند الخنازير.

فوقه، حلّق شامبليون الذي لا بدّ أنّه قاده نحوي.

لم يكن الببغاء والثور وحدهما: وصلت معهما تعزيزات مؤلّفة من قرابة مئة خنزيرٍ من مصنع سوسيسونو، يقودها محامينا بادينتر، بالإضافة إلى قطيعٍ من الكلابٍ بقيادة الكلب بوردر كولي.

– شامبليون!... كنتُ متأكّدة من أنّكَ سوف تنجح في مهمّتكَ.

وفكّرتُ، دون أن أجرؤ على الإفصاح عن ذلك:

ولكنني لا أهنئكَ على التزامك بالدقّة في المواعيد.

وما حصل بعد ذلك صعبٌ على الوصف. كانت المعركة الكبرى. فضّلت الجرذان أن تهاجم الملتحين المسلّحين الذين باتوا فجأةً لا يستطيعون إطلاق النار بنفس السهولة. استبدّ الذعر ببعضهم فألقوا قنابل يدوية فتحت ثغراتٍ جديدة في الجليد بحيث سقطت الجرذان وسبحت في الماء البارد.

مستفيدة من الإلهاء، قاتلت الكلاب والخنازير والثور أرتال الجرذان التي تفرّقت في كلّ الاتجاهات.

الجميع بحث عنّي، مثل كرة في مباراة لكرة القدم (أو مثل فأرة في لعبة كرة القطط). عدا أنّ هذه المرّة كان الملعب عبارة عن نهرٍ متجمّدٍ أبيض اللون وأملس، وأنّ الفريقين يتكوّنان من عشرات الآلاف من اللاعبين من أجناس مختلفة وأنّ الكرة كانت... أنا.

حينما استهلك الملتحون ذخيرتهم وقنابلهم اليدوية، بدأوا بالقتال باستخدام السيف، وهو يشقّ عشوائياً كتلة الوبر البنّي.

في لحظة ما، وجدنا، أنجيلو وفيثاغورس وأنا، أنفسنا محاصرين بما يقرب من مئة جرذٍ. وفي تلك اللحظة، ظهرت ناتالي على أحذية التزلّج خاصّتها وأمسكت بي وضمّتني إلى صدرها. اندفعت متزلّجةً على الجليد لتحاول إبعادي عن منطقة المعارك.

أحسنتِ يا خادمتي.

طاردني ملتحون آخرون. وإذ كانوا مجرّدين من أحذية التزلّج، تحرّكوا بصعوبة بالغة، وتزحلقوا وسقطوا أرضاً.

في النهاية، تساءلتُ إن كان من الأفضل أن أسلّم موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة إلى فيثاغورس.

في تلك اللحظة بالضبط، انضمّ إليّ فمؤتُ له:

– هل تريد أن تأخذ موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة؟

– في هذه اللحظة، أعتقدُ أنّكِ تتدبّرين أموركِ أفضل مما سأفعل.

يا له من جبان، هذا القطّ.

ركضت ناتالي وهي تلوّحُ بي بطرف ذراعها ولكن المئات من الجرذان لاحقتنا. تدخّلت مجموعة من الخنازير في هذه اللحظة إلى جانبنا وضربتها.

تعرّفتُ على بادينتر الذي، بحركةٍ من فتحة أنفه، أفهمني بأنني أستطيع أن أتسلّق ظهره. غرزتُ مخالبي في جلده لكي أتمسّك جيّداً وبدأ يهرول بكلّ ما أوتي من قوّة بقوائمه الضخمة التي تمسّكت جيّداً بسطح النهر المتجمّد للوصول إلى الضفّة. على الأرضية المغطاة بالثلج ولكن الأكثر صلابةً، استأنف الجري.

لاحقنا القطيع البنّي.

في حين بدأ بادينتر يشعر بالتعب، اقتربت منه مجموعة من الجرذان جرياً. قلتُ:

– انتبه، سوف يلحقون بنا!

ولكنّه لم يفهم موائي.

تجمعّت الخنازير الأخرى، بطريقة غريزية، حولنا، تساعدها القطط والكلاب لتشكّل مجموعة حماية متماسكة...

لم أكن لأتصوّر يوماً ما أنني سأكون قادرة على توحيد الكثير من الأفراد من حولي.

قرّرتُ أن أنزل عن ظهر خنزيري المنهك والمتصبّب عرقاً. لا بأس، سوف أتدبّر أمري بمفردي.

في كلّ مكان، ساد الصراخ والصياح والضرب والقتل. امتزجت صرخات الجرحى مع صيحات الغضب التي يُطلقها المقاتلون السالمون.

أنا بنفسي لم أوفّر ضرباتي. قفزتُ وعضضتُ ومزّقتُ، وتفاديتُ ضربات الأنياب والأذناب.

ولكن التعب نال منّي أيضاً، والعدد الكبير لخصومي منحهم الأفضلية.

ظهر الثور من جديد ودعاني بدوره إلى اعتلاء ظهره. تشبّثتُ بعموده الفقري مثلما فعلتُ مع باديتر. أخفض رأسه واندفع نحو الجرذان التي داس عليها وغرز طرفي قرنيه فيها؟ كان الثور آلة حرب مذهلة، وكاد يكون بنفس فعالية الأسد هانيبال.

بدا لي فجأةً أنني تعرّفتُ وسط الفوضى العارمة على تيمورلنك، وهو لا يزال منتصباً على جرذانٍ أخرى ليرى لأبعد ما يمكن. تبادلنا نظرةً، والتقت عيناه الحمراوان بعينيّ الخضراوين.

أردتُ أن أقول للثور بأن ينقضّ عليه، ولكنني لم أكن أجيد التحدّث بلغة الثيران، ورغم محاولاتي في التواصل مع ذهنه، إلا أنّ الثور كان هائجاً للغاية بحيث لم يستطع أن يسمعني.

من حولنا، تعقّدت الأمور أكثر: الثلج الذي ظلّ يتساقط بغزارة متزايدة قصّر من مدى الرؤية. وكذلك لعب الزمن لمصلحة قطيع الجرذان التي كانت أكثر عدداً وتمكّنت باستمرار من أن تدفع بقوات جديدة إلى المعركة.

تشبّثت مجموعةٌ من الجرذان بقوائم ثوري، وتمكّنت من إيقافه في مكانه، ولكنني، قبل أن تقبض عليّ، قفزتُ وركضتُ مسرعةً على طول ضفّة النهر المغطّاة بالثلوج.

لم يسعفني الوقت سوى في رؤية صديقي الثور وهو يتغطّى بكراتٍ من الفراء الرمادي ذات الأنياب القاطعة. نزل على ركبتيه، ثمّ انهار.

وداعاً، أيها الثور، لقد كنت مقاتلاً بطلاً حتى النهاية.

تقدّمت الجرذان بعزمٍ لا يلين.

شعرتُ بالبرد. شعرتُ بالخوف. نويتُ أن أقاتل قتالاً بطولياً قبل أن يتمكّنوا من الاستيلاء على موسوعة العالم النسبي والمطلق الشاملة المثبّتة حول رقبتي.

وفي تلك اللحظة ظهر شامبليون وحاول أن يحلّق ممسكاً بي، لكن الببغاء بالغَ في تقدير قواه. كان قادراً على أن يرفع جرذاً صغيراً مثل تيمورلنك، لا قطّة ضخمة مثلي. حاول القيام بذلك لمرّات عديدة، بينما كانت الجرذان تقترب مكشّرة عن أنيابها.

– لقد فعلت كلّ ما بوسعك، يا شامبليون، ولكن هنا الأمر فوق طاقتك.

لم يستسلم الببغاء، أطلق صرخةً بلغة لم أفهمها. وفي تلك اللحظة، أقبلت أنثى الصقر، التي كفّت عن التحليق فوق ساحة المعركة، نحوي وأمسكت بي بين مخالبها.

شعرتُ بأنني ممسوكة ومنجرفة بعيداً في الجوّ.

من حسن حظّي أنني لستُ ثقيلة جدّاً. لقد أحسنتُ صنعاً في الاهتمام برشاقتي في الفترة الأخيرة، وإلّا لما استطاعت أنثى الصقر أن تنقذني أبداً.

رفرف جناحا أنثى الصقر فوقي. ولما انحنيتُ إلى الأسفل، رأيتُ الجميع ينظرون إلينا من الأرض. حاولتُ أن أتّخذ وضعاً مهيباً، مناسبة لوضعي كملكة.

هأنذي أطير من جديد، لا بمنطادٍ، ولا بسفينة هوائية، ولا بالإنزال بالحبل، وإنّما بطائرٍ. بدأتُ أتساءل إن كانت السماء هي المخرَج المثالي لكلّ الحالات الحرجة.

لا شكّ أنّ البراثن المغروزة في فرائي أوجعتني، لكن الوقت لم يكن مناسباً للمطالبة بالأوضاع المريحة. لم أكن أتمنّى سوى شيءٍ واحدٍ، وهو ألا تُرخي أنثى الصقر قبضتها. طرنا وسط زوابع ندائف الثلج التي دوّمت من حولنا.

من موقعي العالي، رأيتُ على نحوٍ أفضل المعركة. لم تسمح الخنازير المحتشدة بطريقة جيّدة بأن تغمرها الجرذان. ونجحت الكلاب أيضاً في الاتّحاد مع قطط وبشر جزيرة المدينة لتشكيل خطّ مقاومة متين.

انسحب الملتحون باتجاه سياراتهم. افترضتُ أنّ ذخائرهم قد نفدت أخيراً.

سحبتني أنثى الصقر نحو سطح مبنى عالٍ في غرب مدينة روان.

هبطنا على السطح. انضمّ إلينا شامبليون.

تحدّث بلغة الصقور، وأجابته الأخرى، ثمّ التفت أخيراً نحوي:

– إنّها تعرف، بفضلي، كم هي نفيسةٌ موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة. وهي تريد أن تتذكّري مقاسمة هذا الإرث من المعرفة البشرية مع الصقور. وقد أخبرتها بأنّكِ قد وعدتِ بأن تنقلي المعارف المعلّقة برقبتكِ إلى العديد من الأجناس الأخرى وأننا نستطيع أن نضيف الصقور إلى هذه الأجناس.

ازداد تساقط الثلوج غزارةً. تلاعبت الرياح بالندائف التي تطايرت. ارتجفتُ من شدّة البرد. قرّرنا أن ننزل لكي نقيم في إحدى شقق الطوابق السفلية. توجّهتُ إلى شامبليون:

– من الأفضل أن نبقى، أنثى الصقر وأنا، هنا وننتظرك في حين تذهب أنت لترى كيف تتطوّر الأمور في ساحة المعركة.

وافق على الاقتراح ثمّ طار. وأخيراً شعرتُ بأنني أستطيع أن أتنفّس قليلاً.

أيها الببغاء الشجاع لقد أنجزت بالفعل عملاً رائعاً.

70. فكاهة الببغاوات

دخل رجلٌ إلى متجرٍ للحيوانات الأليفة، وقال إنّه يريد شراء ببغاءٍ يتكلّم.

عرض عليه البائع ببغاءً جميلاً جدّاً سعره مئة يورو، وببغاءً آخر أكثر جمالاً من الأوّل بمئتي يورو، ثمّ ببغاءً ثالثاً فائق الجمال بخمسمئة يورو، وأخيراً ببغاءً عجوزاً رماديّ اللون، مجرّداً من الريش، بألف يورو.

سأل الزبونُ البائع:

– ما الذي يفسّر هذا الاختلاف في الأسعار؟

– الببغاء الذي سعره مئة يورو يتحدّث الفرنسية بشكلٍ جيّد. والذي سعره مئتا يورو يتحدّث الفرنسية والإنكليزية.

– رائع. والذي سعره خمسمئة يورو يتحدّث خمس لغات؟

– في الواقع، يا سيّدي، يتحدّث بطلاقة الفرنسة والإنكليزية والألمانية والإسبانية والصينية.

– إذاً في هذه الحالة، أتصوّر أنّ العجوز الرمادي الذي سعره ألف يورو يُجيد عشر لغات؟

– كلّا يا سيّدي، الرمادي لا يجيد أيّ لغة، ولا يفعل سوى النقنقة والصفير مثل طائرٍ عاديّ.

سأل الزبون باستغرابٍ:

– إذاً، لماذا سعره مرتفعٌ إلى هذه الدرجة، إن كان عجوزاً وقبيحاً ولا يجيد التحدّث بطلاقة حتى لغة واحدة؟

– آه، هذا لأنّ الثلاثة الآخرين عندما يخاطبونه ينادونه «الزعيم».

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

71. بعد المعركة

هناك لحظات يتعيّن على المرء فيها أن ينفجر في وجه العالم، وأوقات أخرى يكون من الأفضل أن يبقى مختبئاً في انتظار أن يقتل الآخرون بعضهم بعضاً.

بقيتُ مع أنثى الصقر، مختبئتين جيّداً في الشقّة البشرية. تبادلنا النظرات. أغمضتُ عينيّ. ومن جديد حاولتُ أن أتواصل معها ذهنياً. ركّزتُ ذهنياً وبثثتُ هذه الرسالة:

أشكركِ ليس على إنقاذكِ لشخصي فحسب، بل لإنقاذ كلّ معارف البشر التي أحتفظ بها حول رقبتي.

أدارت رأسها، حائرةً، شعرت بأنّها ترغب في أن تفهمني. فواصلتُ التحدّث معها بذهني:

مما لا شكّ فيه أنني سوف أتشارك معارف موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة معكم ومع جميع من يرغبون فيها، باستثناء الجرذان، بالطبع.

ظلّت تنظر إليّ بالتناوب بكلّ عينٍ من عينيها.

أردتُ أن أخبركِ أيضاً بأنني آسفة بشأن بيضكِ. الآن وقد عرفتُكِ وبعد ما فعلتِهِ من أجل إنقاذي، أشعر بالخجل من المسّ بذريتكِ. وأنا سعيدة بإنقاذ البيضة الأخيرة.

فتحت منقارها المعقوف، ومدّت لسانها كحلزونٍ أصفر اللون وأصدرت صوتاً، فسّرته كالتالي:

أنتِ على حقّ، يا باستيت. لقد أصبح ذلك من الماضي، دعينا لا نعود إلى الحديث عنه.

انتظرنا لوقتٍ طويلٍ.

عاد شامبليون أخيراً وانتفض مطوّلاً لكي يتخلّص من المسحوق الأبيض الذي يغطّيه. قاطعته بنفاد صبر:

- هيا أخبرني، من انتصر في المعركة؟

- تساقط الكثير من الثلج بحيث لم يعد من الممكن مواصلة المعركة. البرد وانخفاض مدى الرؤية نالا من حماسة المقاتلين. تفرّق الجميع وتشتّت الصفوف. أعتقدُ أنّه منذ اللحظة التي علِمَ فيها تيمورلنك بأنّكِ انتُشلِت من قبل أنثى الصقر التي طارت بكِ، تلاشى اهتمامه بهذه المقتلة الجماعية. لا بدّ أنّ قواته سئمت للغاية من الجري فوق الجليد حافية، خاصّة بعد أن فقد هذا القتال جدواه.

مدّ الببغاء ثمّ سحب عرفه ذا النهايات الصفراء. أحببتُ حركته هذه، الجميلة جدّاً، وكأنّ عرفه تحوّل في لحظةٍ إلى زهرةٍ.

- إذاً، ليس هناك من منتصر؟

- في لعبة الشطرنج (سيّدي علّمني أن ألعبها)، يُقال عن هذه الحالة «تعادل».

- أين أنجيلو وفيثاغورس وأسميرالدا وناتالي ورومان؟

- أنا هنا من أجل هذا الأمر بالضبط. لقد طلب منّي رومان أن أنقل إليكِ رسالةً. إنّه يضرب معكِ موعداً على رصيف ميناء لوهافر. أنتِ تعرفين هذه المدينة التي تقع تماماً عند مصبّ النهر والمطلّة على البحر. يكفينا أن نسير على طول نهر السين لكي نصل إلى مصبّه. أنا سوف أقودكِ إلى هناك. ومن ثمّ، أوضح بأنّه حينما نصل إلى هناك يجب علينا أن نعثر في الميناء على قطاع عدّة السفن القديمة. وأخبرني أنّ فيه مراكب شراعية قديمة مصنوعة من الخشب كبيرة جدّاً وعالية جدّاً.

- وهم، كيف سيذهبون إلى لوهافر؟ النهر متجمّد، ولا يمكنهم مواصلة طريقهم باستخدام المركب.

- لقد عثروا على عدّة شاحنات لا تزال مزوّدة بالوقود وركب الجميع فيها. الشبّان من البشر يقودونها.

- شاحنات؟ هل تكفي لنقل مئتي قطٍّ وقطّة وعشرين شخصاً من البشر؟

- لقد وقعت خسائر في صفوفنا. في الوقت الراهن، يبلغ عددنا مئة وخمسين قطّاً وقطّة واثني عشر كائناً بشرياً.

- وماذا عن الخنازير والكلاب؟

- بعضها مات، وبعضها عاد من حيث أتى. لم يبقَ سوى مجموعة صغيرة توزّعت بين مختلف الشاحنات.

- كم بقي منها بالضبط؟

- قُرابة عشرة خنازير، بينها بادينتر، وقُرابة عشرة كلاب، بينها كلب البوردر كولي، الذي كشف لي عن اسمه. كان صاحبه قد سمّاه نابليون. حسناً علينا ألا نتأخّر كثيراً. ما إن يخفّ تساقط الثلج قليلاً، أقترح عليكِ أن نغادر.

وافقتُ على مقترحه وأنا ألعق كفّي، في إشارةٍ إلى أنني أستعدُّ للمشي.

قال شامبليون:

– دعونا حتى يتوقّف تساقط الثلج. ثمّ علينا أن نحسب الحساب لعدوٍّ جديدٍ مخيف: الحمام. لقد اعترضتُ اتصال الحمامات بالهديل الذي لا يترك مجالاً للشكّ في أنّ تيمورلنك قد عقد تحالفاً معها.

– آه، هل لأنّك تتحدّث لغة الحمام أيضاً؟

– إنّها أسهل بالنسبة إليّ لأنني أيضاً طائر. لغة الحمام تتكون بشكلٍ خاصّ من أصوات صادرة عن الحنجرة.

– ولكن كيف استطاع تيمورلنك إقناعها؟ فهو لا يجيد التواصل معها.

– أعتقدُ أنّه قادرٌ على أن يتدبّر أموره من خلال مزيجٍ من التواصل التخاطري الأساسي وحركات مستوحاة من لغة القرود. وهذا يكفي حينما يكون الذهنان على نفس طول الموجة.

سُحقاً، لقد نجح ألدّ أعدائي حيث أجد الكثير من الصعوبة. سيكون عليّ حقّاً أن أعمل على لغتي الإيمائية لكي ترافق رسائلي التخاطرية.

– الآن، السماء مليئة بالجواسيس الذين يبحثون عنكِ، يا باستيت. لن يعود بوسعنا التحرّك بطريقة مكشوفة. إذا ما رأتكِ حمامةٌ، ستجد طريقة لإخبار الجرذان بذلك.

كانت أمّي على حقّ، حقّاً الحمامات جرذانٌ طائرة.

قلتُ:

– لدينا أنثى الصقر لحمايتنا من الحمامات.

توجّه شامبليون إلى أنثى الصقر، وتحاور معها ثمّ ترجم لي:

– تقول إنّها بالتأكيد جاءت لكي تقدّم المساعدة، ولكنّها لا تستطيع البقاء معنا إلى ما لا نهاية. عليها أن تعود لتهتمّ بفرخها الأخير.

البيضة التي أنقذتُها. لو كنتُ أعلم، لربّما حرّرتُ هذه الأمّ من «التزاماتها العائلية».

قلتُ بتهذيبٍ:

– أتفهّم ذلك، بالتأكيد.

وإذ اعتبرت أنثى الصقر أنّها قد أنهت مهمّتها، وضعت إعلانها موضع التنفيذ، فوقفت على حافة النافذة، ثمّ طارت تحت الثلج الذي واصل تساقطه.

– ألا تتضايق من ندائف الثلج؟

– لا بدّ أنّ جناحيها أقوى من جناحيّ. وهي تجيد الارتقاء إلى ما فوق الغيوم. أمّا أنا فلن أستطيع أن أفعل ذلك.

قلتُ، متنهّدةً:

– ها نحن الآن وحدنا، فقط أنت وأنا، يا شامبليون.

انحنى الببغاء ليُراقب ما يحدث خلف النافذة.

اقترح، قائلاً:

– سوف نستأنف طريقنا حينما يغدو الطقس أكثر اعتدالاً.

من جهتي، لم أستطع الامتناع عن الإقرار بأنّ كلّ ما جرى مؤخّراً أتاح للعديد من الأجناس التي لم تتواصل من قبل البدء بالتفاهم.

في البداية، التفاهم بين بشرٍ وقططٍ. ثمّ أُضيفت الكلاب والخنازير والثيران والصقور. الحرب هي نوعٌ من التنفيس الذي يُرغمُ الكائنات على تجاوز عاداتهم والاهتمام بالآخرين. حتى الجرذان اضطرّت لأن تعترف بأنها لم تستطع بمفردها أن تنتصر واضطرّت لأن تتحالف مع كائنات مختلفة جدّاً مثل الحمام في حين كانت قد أهملتها منذ الأزل. كلّ هذا بفضلي أنا. وعلاوة على ذلك، أنا وأنا وحدي تحدّثتُ مع ملك الجرذان. وأنا التي أحتفظ حول رقبتي بأغلى شيءٍ في الكون.

سألني شامبليون:

– بماذا تفكّرين؟

– كنتُ أقول في نفسي إنّ كلّ ما حصل لنا هو لمصلحتنا. وحتى حينما بدا الوضع صعباً، أرغمنا ذلك دائماً على أن نتطوّر، بحيثُ رأينا أنّ بعض المصائب التي وقعت أثّرت إيجاباً علينا.

هزّ جناحيه.

ختم، قائلاً:

– أمّا أنا، فأفضّل السعادة، دون الرغبة في أيّ شيءٍ آخر.

هذا لأنّ رؤيته محدودة. السعادة تجعلك تنام، والشقاءُ يجعلك تستيقظ، ولكنّه لن يتمكّن أبداً من فهم هذا. إنّه لا يبحث إلّا عن الهدوء،

ككلّ المسالمين من أمثال فيثاغورس. الصراع يحفّز الشجاعة والذكاء؛ أمّا السلام، فهو للكسالى.

أعتقدُ أنّ هذه فكرة عليّ أن أطرحها باعتدال، وإلّا فإنني سأجازف بتشجيع دعاة الحرب الأغبياء من أمثال أنجيلو.

بقينا ننتظر لوقتٍ طويل. مع حلول الليل، توقّف الثلج عن التساقط.

قال:

– تعالي. ولا تنسي أن تختبئي فوراً إذا ما سمعتِ خفق جناحٍ أو هديل حمامٍ، أو إذا ما رأيتِ حمامةً من بعيد.

خرجنا لنسير في شوارع روان المكدّسة بالثلوج. تركت ملامسة الثلج الناعم لباطن كفوفي تأثيراً غريباً عليّ. تركت كلّ خطوةٍ أثراً عميقاً خلفي. سرتُ بملامسة الجدار لأخفي نفسي قدر المستطاع عن الأنظار من السماء.

لو قيل لي ذات يوم إنني سوف أخاف الحمام...

ولأنّ شامبليون ثرثارٌ كبير، لم يتحمّل الصمت، فبادر إلى طرح موضوعٍ للنقاش:

– هل تعرفين الكاتب جان دو لافونتين؟

– كلا.

– لقد علّمني سيّدي حكايات لافونتين التي لم يكن عليّ أن أحفظها عن ظهر قلبٍ فحسب، بل أن أفهمها أيضاً.

– لماذا تحدّثني عنه؟

– لقد فهم لافونتين كلّ شيء عن عصره. ولكن لأنّه لم يستطع أن يعبّر عن ذلك بطريقة مباشرة وصريحة، خوفاً من إغضاب الملك، اختار أن يستخدم الحيوانات أبطالاً لقصصه على سبيل الاستعارة.

– ما معنى «استعارة»؟

– إنّها طريقة لتقديم الأمور بشكلٍ غير مباشر. في إحدى حكاياته، يروى لافونتين على سبيل المثال كيف يلتقي ثعلبٌ بغرابٍ يمسك بمنقاره طعاماً. يتحدث الثعلب إليه، ويُغدِق عليه بالثناء حتى وصل إلى لحظةٍ قال له فيها إنّه لا بدّ أن يملك صوتاً جميلاً. وحينئذٍ، رغب الغراب أن يُظهر جمال صوته،

ففتح منقاره وأفلت الطعام الذي استولى عليه الثعلب، بكلّ سرور. هذه الحكاية تُظهر لنا أنّه علينا ألا نثق بمن يمدحنا.

– وبأيّ لغة كان هذان الحيوانان يتحدّثان؟ هل كان لديهما ببغاء يترجم أقوال كلّ منهما للآخر؟

– يتجنّب لافونتين مشكلة التواصل، وينطلق من فرضية أنّ الحيوانات جميعها تفهم بعضها بعضاً أيّاً كان نوعها.

– احكِ لي حكاية أخرى من حكاياته.

– حكايةُ أخرى عنوانها «الحيوانات المرضى بالطاعون». أُصيبت جميع الحيوانات بوباءٍ قاتل؛ فقرّرت أن يقرّ كلٌّ بدوره بذنبه – أي أن تكشف عن أخطائها. أقرّ كلٌّ منها بأنّه قد ارتكب جرائم: أكلَ الأسدُ الغزالةَ، وأكل الذئب الخروف، وهكذا إلخ، حتى اعترف الحمار بأنّه قد رعى عشباً. وهنا، وكما لو أنّ الأمر مصادفةٌ، اعتبرت الحيوانات جميعها أنّ هذه هي الجريمة الأسوأ، فقتلت الحمار.

– لم أفهم شيئاً من هذه الحكاية.

– هناك أيضاً حكاية الزيز والنملة...

– اللذان كانا يتحدّثان بعضهما مع بعض أيضاً من دون مترجم؟

– نعم، ولكن...

لم أصدّق للحظةٍ حكايات لافونتين، إنّها ليست واقعية على الإطلاق.

– هل هناك حكايات عن القطط؟

– بالطبع. على سبيل المثال، «القطّ وابن عرس والأرنب الصغير». إنّها حكاية الأرنب الذي يختلف مع ابن عرسٍ ويطلب أن يكون قطٌّ هو الحكم في خلافهما و...

– لماذا تحدّثني عن لافونتين هذا؟

– تمهّلي. لقد طرح أن الحيوانات يمكنها أن تحلّ المشاكل السياسية المعقّدة. هذا هو ما أردتُ أن أصل إليه.

– وبالتالي نحن أيضاً نعيش الآن في ما يشبه حكاية من حكايات لافونتين، أهذا ما تقصده؟

– أنا مقتنعٌ بذلك.

قلتُ بشيءٍ من السخرية:

– يمكننا أن نسمّي حكايتنا: «القطط والجرذان والببغاء»؟ كلا، أنا آسفة، يا شامبليون، ولكن يبدو لي أنّ صاحبك لافونتين يتفوّه بحفنةٍ من الترّهات التي لا يمكن مقارنتها أبداً بوضعنا الحالي.

تارةً أبقيتُ عينيّ مثبّتتين نحو الأرض لكي أرصد أيّ جرذٍ، وتارةً أدرتُ عينيّ نحو السماء لكي أرصد ظهور أيّ حمامةٍ.

قلتُ في نفسي لو أنني أقابل هذا الكاتب، جان دو لافونتين، لشرحت له أنّه لا ينبغي هدر موهبته في رواية أكاذيبٍ وسوف أعلّمه كيف يتواصلُ بالفعل مع الحيوانات.

عبر الذهن، وعبر المترجمين من ببغاوات الكوكاتو، وعبر ربط وصلة يو إس بي بعينها الثالثة.

كنّا نمشي، حينما حامت حمامةٌ فجأةً فوقنا.

أبدى شامبليون في الحال ردّ الفعل المناسب: بدأ بإطلاق صيحةٍ شبيهةٍ بصيحة الصقر. صيحةٌ فظيعة، صيحةٌ مرعبة، صيحةُ طائرٍ جارحٍ.

72. فزّاعات الطيور

منذ عام 1960، نُسِبت تسع وسبعون حادثة جويّة إلى اصطدام طيورٍ بمحرّكات الطائرات النفّاثة.

في فرنسا وحدها، يُسجّل سنويّاً ثمانمئة حادث اصطدام بين الطائرات والطيور، تُعتبر نسبة 15% منها حوادث خطيرة.

ومنذ عام 1989، زوّدت جميع المطارات في فرنسا بـ«فزّاعات الطيور».

وكانت الفزّاعات عبارة عن رجال مكلّفين بإخافة الطيور التي قد تحلّق فوق المطارات. في البداية لم تكن الفزّاعات تستخدم سوى بنادق أو مكبّرات صوت تطلق صيحات قويّة تقلّد أصوات العديد من

الأجناس، ولكنّ الطيور اعتادت عليها وعادت إلى المطارات. ولذلك، قرّرت فزّاعات الطيور أن تعمل باستخدام صقور حقيقية، وجّهتها بالتحليق فوق المطارات وطرد الحمام والزرازير والزقزاق والغربان والسقاوة.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

73. قبالة البحر

وصلنا أخيراً إلى مدينة لوهافر.

اكتشفتُ أنّ الهواء مليءٌ بروائح اليود التي دغدغت خطمي وحلقي بشيءٍ من الحدّة. بحثنا عن المرفأ مسترشدين بالروائح البحرية. تلاعبت الرياح بحبال وأشرعة المراكب مصدرةً صخباً كصوت الأجراس، الأمر الذي ساعدنا على اكتشاف مكان الحبال والأشرعة القديمة.

وصلتُ للمرّة الأولى في حياتي إلى واجهة البحر وفوجئتُ بادئ ذي بدء بحجمه الهائل.

لا أدري إن كنتمُ رأيتم البحر من قبل، ولكنّه رائعٌ جدّاً. يُمكن أن يكون النهر واسعاً في بعض الأحيان، لكنّ البحر أوسع منه بكثير.

كيف أصفه لكم؟

البحر هو الماء على مدّ البصر وفي كلّ الاتجاهات. يشكّل ما يشبه سجّاداً أخضر لا نهاية له. مع البحر لا يعود هناك لا شجرة ولا بيوت ولا طرق ولا أيّ شيء آخر. ليس هناك سوى الماء، والماء فقط، وفي كلّ مكان. حتى الثلج لا يستطيع أن ينير هذه الكتلة المائية الداكنة.

بعد أن تجاوزنا شعور «لم يُشاهد من قبل»، اهتممنا بالقوارب. إنّها أكبر حجماً من الزورق النهري، أكبر حجماً وأعلى ارتفاعاً، وفي الحقيقة أجمل أيضاً. في الحقيقة، كانت صواري بعضها بحجم أشجارٍ، أوراقها هي الأشرعة الكاشفة.

مشيتُ على أرصفة ميناء لوهافر.

فجأةً شممتُ عطراً معروفاً.

رائحة بول فيثاغورس!

من المؤكّد أنّ شريكي في المغامرة امتلك البصيرة في أن يترك علامات في هذه الأنحاء تحسّباً لوصولي.

سرتُ مع المسار المرسوم برائحة البول التي قادتني إلى مركبٍ أزرق اللون. حلّق الببغاء فوق السفينة.

أشار:

- إنّهم جميعاً هنا!

استخدمتُ سلّم الصعود للوصول إلى السفينة. وبالفعل وجدتُ الناجين من معركة جزيرة لاكروا. فيثاغورس وأنجيلو وناتالي ورومان وأسميرالدا، والخنزير بادينتر وحتى كلب البوردر كولي الذي أصبحتُ أعرف أنّه يُدعى نابليون...

اندفع ابني قبل الجميع نحوي ولعق وجهي.

- لقد أطلتِ الغياب، يا أمّاه.

ويجرؤ على أن يعاتبني أيضاً.

تابع طفلي:

- يجب أن نرحل سريعاً عن هذا المكان، يا أمّاه. لا أحب القوارب. لا أحبّ البحر. لا أحبّ رائحة الميناء.

إنّها بداية جيّدة.

- ثمّ سيكون أمراً جيّداً أن تهتمي بي أكثر.

أنا السيّئة، بدون شكّ.

رغبتُ في أن أؤنّبه، ولكن من جانبٍ آخر، قلتُ في نفسي إنّه لا جدوى من ذلك، وخاصّة في هذا الوقت. ففعلتُ العكس تماماً: أظهرتُ أنني أكثر حناناً حيال أنجيلو، باحثة في أعماق جيناتي عن هذه «الغريزة الأمومية» الشهيرة.

أنعمتُ عليه ببعض الضربات الحنونة من لساني تفي بالغرض تماماً، قبل أن أدفعه بلطف بقدمي وأحكّ جبيني ببقية رفاقي في المغامرة.

أعلن فيثاغورس:

– أعلم أنّكِ سوف تسألينني عن عددنا، ولذلك يمكنني أن أخبركِ بأنّ جماعتنا تتكوّن الآن من 144 قطّاً وقطّة، واثني عشر كائناً بشرياً، وخمسة وستين خنزيراً واثنين وخمسين كلباً. كما يمكنني أن أكشف لكِ عن اسم السفينة، فقد أسميناها *الأمل الأخير*.

بدأنا جميعاً نلعق بعضنا بعضاً لكي يتذكّر كلّ منّا طعم الآخرين.

تأكّد رومان ويلز من أنني لا أزال أحمل معي موسوعة العلم النسبي والمطلق الشاملة، وأنّها سليمة تماماً.

من الواضح أنّه لم يكن مشغول البال بشأني وإنّما بشأن قلادتي.

وسط كلّ هذه المشاعر الجيّاشة، قطعت صرخةٌ من شامبليون فرحتنا باللقاء ولمّ الشمل:

– احذروا! الجرذان!

هذه الجرذان لن تدعنا وشأننا.

صاحت ناتالي بأعلى صوتها:

– ارفعوا سلّم الصعود إلى السفينة! أَرخوا المراسي! ارفعوا الشراع الكبير.

كان على البشر الاثني عشر أن ينتظروا الإشارة، لأنّهم يتحرّكون امتثالاً لأوامر خادمتي التي بدت أنّها تجيد على نحوٍ ممتاز قيادة هذا النوع من المراكب.

أخذت مكانها خلف دفّة القيادة. تكدّسنا في مؤخّرة السفينة لكي نراقب تقدّم أعدائنا. وسرعان ما رأينا مدّ الكرات الرمادية يتدفّق باتجاهنا.

القطيع البنّي الرهيب لتيمورلنك.

مرّة أخرى، انبهرتُ بهذا الجيش المدمّر الذي بدا أن لا شيء يستطيع إيقافه. وفوق الجيش، ظهرت المئات من الحمامات، مشكّلة «الإسناد الجوّي» لجيشه. لا بدّ أنّها هي التي اكتشفت مكاننا وقادت القطيع إلينا.

الجرذان الطائرة اللعينة.

بدأت الحمامات بقصف الشراع بوابلٍ من فضلاتها اللزجة. أصابت واحدة من تلك المقذوفات كتفي؛ تنحّيتُ جانباً لكي أنظّفه في الحال. لكن

قوّة التصاق هذه المادة الخضراء كانت مدهشة واضطررتُ لأن أنتزع حزمةً من وبري لكي أتخلّص منها.

أطلق شامبليون صيحة صقرٍ، ولكن بدا أنّ هذه الحيلة لم تعد تنطلي عليها. فجرّب شيئاً آخر: قلّد صيحة طائرٍ آخر.

وعلى نحوٍ غريب، تبيّن أنّ هذه الصيحة ليست لإخافة الحمامات، وإنّما لجذب طيورٍ، لأنّ طيوراً أخرى ظهرت في السماء.

لقد استدعى النوارس.

أربك حضور هذه الطيور البيضاء الضخمة ذات المناقير الطويلة الحمامات الصغيرة الرمادية القاذفة.

قلتُ لشامبليون:

- كأنّ تحالفنا بدأ يتوسّع.

ومع ذلك، وبعد زوال تأثير عنصر المفاجأة، استغلت بعض الحمامات تفوّقها العددي، واستجمعت شتاتها؛ وهاجمت في مجموعاتٍ النوارسَ المعزولة وهي تنقرها بمناقيرها الصغيرة الحادّة.

في الواقع، للسماء أيضاً أقاليمها.

شاهدنا معركة جوّية بين الحمامات والنوارس، ولاحظنا أنّ الأولى أكثر حماسةً في حين كانت الأخرى أكثر تثاقلاً. في بعض الأحيان، نجحت الحمامات في نقر النوارس، وفي لحظات أخرى، نالت النوارس من الحمامات. اشتبكت المناقير والأجنحة والمخالب.

بيد أنّ الطيور البحرية حقّقت تفوّقاً على خصومها: استطاعت أن تطير لارتفاعات أعلى وتنزل إلى سطح الماء، في حين كانت قدرة الحمامات محدودة في مناورات الارتفاع والسرعة.

تمكّنت النوارس من تشكيل حلقات والقيام بانعطافات حادّة والتحليق على علوٍّ منخفض. سحبت الحمامات إلى أعالي البحر ولعبت مع الأمواج.

ورغم أنّ رفاقنا من البشر قاموا بنشر ومدّ أشرعة القارب، فإنّه استغرق وقتاً للابتعاد عن الرصيف لكونه ثقيلاً وضخماً. ولكي يزداد الطين بلّة، هبّت الرياح من البحر نحو اليابسة.

فخاطرت بعض الجرذان الأكثر إصراراً بكلّ شيء: ألقت بنفسها في المياه لتقفز إلى المركب. استطاع بعضها أن يسبح بطريقة ممتازة في مياه البحر وبدأت بتسلّق جوانب مركبنا الشراعي...

لم يسبق لي قط أن رأيتُ حيواناتٍ على هذه الدرجة من العناد. لقد عرف تيمورلنك بالفعل كيف يجعلها متعصّبة، مثل المتعصّبين الدينيين. لم تعد تفكّر، ولم تعد تتمسّك بحياتها؛ وبات همّها الوحيد إرضاء زعيمها.

ظهرت بعض الجرذان، منهكةً، على ظهر المركب. قاتلنا، نحن القطط، بمساعدة بعض الكلاب والخنازير الحاضرة، هذه الجرذان المتهوّرة.

اندفع أنجيلو ليهاجم الجرذ الأصغر والأكثر تعباً من بينها. وددتُ لو أنّه يهاجم الأكبر حجماً. ولكي أقدّم له المثال، اخترتُ جرذاً بحجم أرنبٍ وهاجمته. لكن ابني لم يكلّف نفسه حتى عناء النظر إليّ، لكثرة ما انشغل بالانقضاض على خصمه البائس الذي تجمّد في مكانه.

تمكّنت جرذانٌ أخرى من التسلّق حتى وصلت إلى ظهر المركب، ولكننا لم نواجه صعوبةً في تحييد هؤلاء الخصوم الأصغر حجماً.

وما أن قضينا على آخر جرذٍ من هؤلاء الجسورين، أصبحت الجرذان التي كانت لا تزال في مياه البحر في غاية الإنهاك بحيث لم يعد بوسعها أن تصعد إلى السفينة.

انحنيتُ على الطرف الخلفي من السفينة الشراعية، وانتصبتُ على قائمتي الخلفيتين. بدا لي أنني تعرّفتُ على طيفٍ أبيضَ مرفوعٍ على ظهر أبناء جنسه.

فموؤتُ بكلّ قواي:

– **أنا هنا، يا تيمورلنك!**

أظنّ أنّه لم يفهمني بدقّة، ولكنني أعلم أنّه تلقّى بكلّ تأكيد معنى صرختي. فأكملتُ جملتي بمواءٍ قويّ، وهو نفس المواء الذي أُطلقه عادةً للإشارة إلى الذكور المحيطين بي بأنني في حالة شبق وأنني أسمح لهم بأن يقيموا علاقة جنسية معي.

إنّها صرخة قويّة مدويّة.

أعاد أنجيلو نفس الصرخة ولكن بصوتٍ أكثر حدّة.

ثمّ صرخت كلّ القطط.

في هذا المواء الجماعي، خفّ أخيراً كلّ التوتّر المتراكم منذ انطلاقنا من جزيرة البجع.

– مياااااااااووووو!

ثمّ أسرعت سفينة *الأمل الأخير*. وأصبحنا الآن في منأى عن أيّ هجومٍ جديدٍ للجرذان. أصبحنا محميين من الحمام بفضل النوارس، ومحميين من الجرذان بفضل مياه البحر، فارتحنا أخيراً وحظينا بالهدوء.

– هل رأيتِ، يا أمّاه، كم أنا قويّ؟ هل سيمكننا أن نقتل المزيد منها فيما بعد؟

أدرتُ له ظهري وانضممتُ إلى خادمتي ناتالي المتشبّثة بدفّة القيادة. نظرتُ إلى الأفق وطرحتُ السؤال الذي يؤرقني:

– والآن، إلى أين سنذهب؟

أجابت ناتالي:

– أقترحُ أن نذهب إلى جبل القديس ميشيل. من السهل الدفاع عن هذه الجزيرة، فهي مسوّرة بأسوارٍ عالية.

ردّ رومان، الذي جلس خلفي:

– كلا، هذه الجزيرة ليست بعيدة بما فيها الكفاية. وعلاوة على ذلك، سوف تستطيع الجرذان أن تهاجمنا من الشاطئ أثناء حالة الجزر في البحر.

قالت أسميرالدا بصوتٍ عالٍ:

– لا ينبغي أن نعرّض أنفسنا لأدنى مخاطرة في مواجهتها مرّة أخرى.

– في هذه الحالة، يمكننا أن نواصل رحلتنا حتى نصل إلى جزر القنال الإنكليزية، وسنكون في أبعد مدى عن القارّة.

أجاب الموسوعي:

– برأيي، هذه أيضاً ليست بعيدة جدّاً.

- بماذا تفكّر في هذه الحالة، بالذهاب إلى إنكلترا؟

- كلا، بوجود القنال تحت بحر المانش، سوف يتمكّن تيمورلنك من العثور علينا.

أصبحت سفينتنا تسير الآن بسرعة جيّدة. وأطلقت النوارس صيحاتٍ وهي ترافقنا.

مؤثٌ:

- أنا أعرف إلى أين يجب أن نذهب.

التفت الجميع نحوي.

-... نيويورك.

تركتُ موقفي يشقّ طريقه في أذهان المحيطين بي.

سألت ناتالي، باندهاشٍ:

- نيويورك؟ تُريدين الذهاب إلى أمريكا بهذه السفينة الشراعية؟ إنّها بعيدة جدّاً.

لم أعرف تماماً ما الذي قَصَدَتْه بكلمة «بعيدة».

- ليس هناك سوى هذا المكان يمكننا أن نتأكّد من أن تيمورلنك لن يلحق بنا إليه. وعلاوة على ذلك، أذكّركم بأنّ علماء نيويورك قد أنشأوا ملاذاً حقيقياً بفضل مبيد الجرذان القويّ الذي أنتجوه. في نيويورك، لم يعد هناك جرذٌ واحدٌ. وإذا ما أحسنتُ فهم ما رواه لنا فيليب سارفاتي، ربّما يكون هذا هو المكان الوحيد الذي يتمتّع بهذه الميزة.

قال رومان:

- باستيت على حقّ. طالما نحن في أوروبا، يمكن أن نصادف القطيع البنّي أو أحد القطعان المنافسة له. ألا تشعرين بأنّكِ قادرة على عبور الأطلسي، يا ناتالي؟

رفعت خادمتي خصلات شعرها الأسود. أشعلت سيجارةً وسحبت نفساً طويلاً قبل أن تنفث الدخان. شعرتُ بأنّ هذه السيجارة ساعدتها في تركيز ذهنها.

- حتى الآن، لم أُبحِر إلّا على سفن لا يزيد طولها عن اثني عشر متراً وفقط في البحر الأبيض المتوسّط.

سأل فيثاغورس الذي انضمّ إلينا:

– هل هناك خطرٌ حقيقي في أن نتعرّض للغرق؟

وقبل أن تردّ ناتالي، أجبتُ على سؤاله:

– إنّه خطرٌ أصغر من خطر مواجهة مئات الآلاف من الجرذان المدعومة بآلاف الحمامات!

هزّت ناتالي رأسها في علامة على الرضا ثمّ أخذت مكانها أمام دفّة القيادة. اقترب فيثاغورس من أذني.

– لقد جاءت هذه الفكرة في مكانها: لطالما حلمتُ برؤية أمريكا.

– لماذا؟

– لقد قرأتُ في الموسوعة أنّ أمريكا الشمالية هي البلد الذي يوجد فيه أكبرُ عددٍ من القطط. يُقدّر عدد القطط في ذلك البلد بمئة مليون مقابل عشرة ملايين في فرنسا.

معلومة ثمينة. تلهّفتُ للقاء هذه القطط التي يبلغ عددها مئة مليون والتي تعيش في بلدٍ يمتلك مبيدَ جرذانٍ مطلق الفاعلية.

شقّت السفينة الشراعية طريقها بين الأمواج محدثةً هديراً صاخباً. تماوج فرائي تحت الهواء المنعش وشعرتُ بأنني أترك خلفي العالم القديم الذي سوف تقضمه الجرذان تدريجياً. من شأن هذا أن يصبح خطراً داهماً على القطط والخنازير والكلاب والبشر الناجين.

أنا آسفة، لا أستطيع أن أنقذ كلّ العالم في الحال.

جاء شامبليون وحطّ بالقرب منّي، شدّ ومدّ عرفه وقال، بوقارٍ:

– كانت لدى جان دو لافونتين عبارة يمكنها أن تلخّص ما حدث لنا: «قبل أن تأتي بأي فعل، تبصّر بعواقبه».

74. جان دو لافونتين

وِلِد جان دو لافونتين في عام 1621 في قرية شاتو تييري شمال شرق باريس. بدأ في سنّ مبكّرة جدّاً بكتابة حكايات ونصوص مسرحية وكُتيبات الأوبرا. عرض عليه صديقه الوزير المكلّف بإدارة الشؤون

المالية نيكولا فوكيه فكرة تحديث أساطير الكاتب الإغريقي القديم إيسوب. وهكذا أقام لافونتين نظاماً للقصص تبدأ أو تنتهي في غالب الأحيان بجملة تحمل حكمةً ذات مغزى.

«كلّ متملّق يعيش على الذي يبلع مديحه» («الغراب والثعلب»).

«للقوّة منطقها الغاشم» («الذئب والحمل»).

«حتى أصغر المخلوقات قد يُفيدكَ في يومٍ لا تتوقّعه» («الأسد والفأر»).

«قبل أن تأتي بأيّ فعل، تبصّر بعواقبه» («الثعلب والتيس»).

«لا فائدة من الركض، إن لم نبكر في الشروع» («الأرنب والسلحفاة»).

«ساعد نفسك يساعدك الله» («سائق العربة التي انغرست في الطين»).

«لا تبع جلد الدبّ قبل صيده» («الدبّ والصديقان»).

لكتابة حكاياته الأسطورية، استلهم لافونتين نصوص إيسوب، ولكن أيضاً نصوص كاتبي الأساطير الرومانيين بابريوس وفيدر. بل استقى بعض حكاياته من النصوص الشرقية (حكاية «الأسماك والغاق» على سبيل المثال مستوحاة، باعتراف لافونتين، من كتاب *الفصول الخمسة* وهو كتابٌ هندي للقصص والأساطير).

كما استقى بعض أفكاره من كتاب الثعلب رينارد، وهو عبارة عن مجموعة قصص الحيوانات المؤلّفة في القرون الوسطى موضوعها الرئيس هو انتصار الحيلة على القوّة.

نشر جان دو لافونتين كتابه الأوّل للقصص الخرافية في عام 1668 وسرعان ما لاقى نجاحاً واسعاً. في الواقع، لم تكن قصص لافونتين الخرافية مجرّد وسيلة لوصف مشاكل المجتمع الفرنسي والبلاط فحسب، ولكن، وعلى نطاقٍ أوسع، لوصف كلّ آليات الانحراف السياسي أيضاً.

بفضل الاستعارة الحيوانية، استطاع لافونتين أن ينتقد بلاط لويس الرابع عشر، من خلال الكشف عن الألاعيب التي سمحت للأقوياء بسحق الضعفاء واستغلال سذاجتهم.

دون أن تنتبه السلطات لذلك، كان لافونتين، المزروع في قلب نظام السلطة (بلاط فيرساي)، يوقظ الوعي. بيد أنّ نجاح حاميه نيكولا فوكيه تسبّب بغيرة الملك. فأوقف هذا الأخير الوزير برسالة مختومة وألقى به في السجن دون صدور أيّ حكمٍ عليه. استعاد الملك كلّ الحرفيين الذين كان فوكيه يحافظ عليهم في قصره فو لو فيكونت (طباخه الخاصّ فاتيل، والبستاني لو نوتر، والمعماري لو فو، والموسيقار لولي، والكوميدي موليير، إلخ) وأيضاً راوي الحكايات الخرافية خاصّته.

ولكنّ لافونتين، الوفيّ في صداقته، تكفّل بالدفاع عن فوكيه، من خلال حكاية «الثعلب والسنجاب» - كان السنجاب رمز منزل فوكيه. أغضب هذا الموقف لويس الرابع عشر، فنفى الشاعر لبعض الوقت قبل أن يردّ إليه اعتباره بعد عدّة سنوات.

«أنا أستخدم الحيوانات لتعليم البشر»، هذا ما صرّح به جان دو لافونتين. في غسق حياته، ولأنّه كان قد نشر أيضاً حكايات إباحية وعاش زنديقاً، أي متحدّياً السلطة الدينية، امتنع القسيس عن منحه «المسحة الأخيرة». ولكي يحصل على هذه المسحة، كان عليه أن يحرق أمامه كتبه التي اعتبِرتْ داعية للإلحاد.

بعد موته (في عام 1695)، ظلّت حكاياته تُقرأ وتُدرَس باستمرار في معظم المناهج المدرسية، في فرنسا وفي الكثير من البلدان الأخرى، واستُخدِمَت في توجيه الأجيال الجديدة نحو الحكمة.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

75. الأمل الأخير

في الحقيقة، لا أدري إن كان عليّ أن أنصحكم ذات يوم بالذهاب إلى شاطئ البحر ناهيكم عن ركوب سفينة لعبور المحيط الأطلسي.

حقّاً أنّ أمريكا بعيدة.

والحال أنّه من المخيف جدّاً أن يرى المرء نفسه وسط مكانٍ مجهول، محاطاً بالماء المالح، دون أيّ معلمٍ ظاهرٍ في الأفق.

منذ انطلاقنا من مدينة لوهافر، شعرتُ بالقلق. شعرتُ بأنه إذا ما صادفتنا مشكلة، فلن تكون لديّ أي وسيلة للفرار. رغم أنني أجيد السباحة، ولكن سيكون من المدهش أن أتمكّن من قطع كلّ هذه المسافة الطويلة.

بالنسبة إلى من يعاني أصلاً من رهاب المياه، يكون الموقف صعباً للغاية على التحمّل. تذكّرتُ لوحة *طوّافة قنديل البحر*[1]. وماذا لو حدث لنا نفس الموقف. بعد المجاعة في جزيرة، هل نواجه مجاعة في البحر؟ وسينتهي بنا الأمر جميعاً إلى أن نلتهم بعضنا بعضاً، بما في ذلك القطط.

استولت صورةٌ على ذهني.

إنّها بالضبط نفس لوحة جيريكو في متحف اللوفر، ولكن استُبدِل فيها الرجالُ بالفئران التي صعدت بعضها فوق بعضها لتلوّح بقطعةِ قماشٍ أبيض.

اعتقدتُ أنّ خيالي يتلاعبُ بي، وأنني أختلق أخطاراً لا وجود لها، وذلك على الأرجح لكي أبقى يقظة ومتأهّبة. في الواقع، لا أحب أن أكون في هدوءٍ. أنا أحبّ مواجهة التحدّيات.

إنّ كلّ هذه المحن التي واجهتها والتجارب التي خضتها هي التي جعلتني ذات حساسية فائقة بل مذعورة.

كنتُ سارحة بأفكاري في أعالي البحر على متن *الأمل الأخير*، حينما سمعتُ أصواتاً غريبة تصدر من حجرةٍ.

1- طوافة قنديل البحر: لوحة للفنان الفرنسي تيودور جيريكو. تمثل الطوافة ما تبقى من السفينة ميدوزا بعد تحطمها بالقرب من ساحل موريتانيا في الخامس من تموز عام 1816، ومن الركاب الـ 157 نجا فقط 15 راكباً، خلال الثلاثة عشر يوماً التي سبقت إنقاذهم أكل بعضهم لحم البشر. المترجم

اقتربتُ واكتشفتُ خادمتي البشرية ناتالي وهي في نزاعٍ مع ذكرها المرجعي، رومان.

وأخيراً تجاوز هذان الشخصان ثغرات تربيتهما البشرية ليعبّرا بحرّية عن غرائزهما الحيوانية.

ربّما لأنني متلصّصة بعض الشيء، ولكن أيضاً لأن الطبيعة البشرية بالنسبة إليّ مصدرٌ ثرّ للدهشة، جلستُ على حرف النافذة لكي أراقبهما.

جاء أنجيلو خلسةً وانضمّ إليّ ونظر بنفس الاتجاه الذي نظرتُ إليه. تردّدتُ في طرده. إذا كان هناك شيءٌ أورثته لابني، ربّما هو الفضول. وطالما أنّه فضوليٌّ بشأن كلّ ما لا يعرفه، لا يمكنه أن يصبح غبيّاً غباءً تامّاً.

فراقبناهما بصمت.

بدا واضحاً أنّ الحبّ عند الكائنين البشريين ليس مشهديّاً. التزما ضبط النفس أكثر من الانقياد للمتعة.

شعرتُ أنّهما يركّزان على تحليل مشاعرهما بدل الاستمتاع بها بالفعل. عبساً.

وبشأن الوضعيات التي اتّخذاها، كانت قدراتهما محدودة لأنّهما يفتقران إلى الرشاقة. على سبيل المثال، رأيتُ بوضوح أنّ ناتالي غير قادرة على أن تمرّر ساقيها خلف أذنيها (الأمر الذي كان سيسمح لها بالتأكيد بأن تجد مصادر جديدة للمتعة). أمّا بالنسبة لقضيب الذكر الذي لمحته للحظةٍ، فهو مجرّد من أيّ شوكة وأملس مثل قضيب سفينكس.

مع ذلك، بدا كلاهما يكتفي بهذا النمط من الاتصال الجسدي. أصبحت ناتالي تشهق على نحوٍ أقوى تدريجيّاً وانتهت بإطلاق صريرها الحادّ الشبيه بصوت فأرة وهو الذي وجدته شخصياً مثيراً للضحك (لماذا لا تصرخ لتسمح لأنفاسها بالخروج؟) في حين بدا رومان بدوره كأنّه يقلّد خوار الثور الذي رفعه مرّات كثيرة عن الأرض خلال مصارعة الثيران.

هكذا يتكاثر الجنس الذي حكم لزمنٍ طويلٍ جدّاً الكوكب.

وفي حين سرّع الاثنان من أصوات فمهما لينتقلا من التجشؤ إلى

الصراخ، شعرتُ بهذا الضغط الداخلي ولم أستطع الامتناع عن الانفجار ضحكاً، الأمر الذي تمثّل لديّ بأنواعٍ من السعال المتكرّر.

ضحكتُ أمام أنجيلو الذي حاول أن يفهم ما يحدث لي. شعرتُ بأنّه قلقٌ.

لأنه لا يعرف هذه الظاهرة، من المؤكّد أنه اعتقد أنني أختنق.

لا طاقة لي لأشرح له، سوف يفهم ذلك ذات يوم. بعد الضحك، جاء انفعالٌ آخر. رغبتُ بدوري في ممارسة الحبّ. ومن المفارقة أنّ مراقبة مهزلة التكاثر البشري أثارتني إثارة بالغة.

أهي إثارة شبيهة بتلك التي يشعر بها البشر عندما يُشاهدون أفلامهم الإباحية؟

دون أن استمرّ في الاهتمام بالبشريين ولا بابني، خرجتُ إلى الجسر وناديتُ فيثاغورس. لم يردّ.

إلى أين ذهب هذا أيضاً؟ دائماً ما يغيب حين نحتاجه.

وأخيراً، ردّ عليّ من الأعلى. رأيته في كبسولة المراقبة الدائرية في قمّة الصاري المركزي.

كائنٌ آخر متناقض، يدوخ في المنطاد، ولكن يجب أن يقف دوماً في مكانٍ عالٍ.

تسلّقتُ للانضمام إليه من خلال التشبّث بالحبال والأشرعة.

– ماذا تفعل هنا؟

– أحاول أن أرى ما إذا كنّا نقترب من اليابسة. لماذا ناديتِني؟

هذه هي المشكلة أيضاً مع الذكور، لا يشعرون بالأشياء، يجب أن نشرح لهم كلّ شيء.

– لقد رأيتُ خادمينا البشريين يمارسان الجنس.

– حسناً، إنّه الوقت المناسب لذلك.

– ولكن حينما نراهم كيف يتكاثرون، نتساءل كيف استطاع هذا الجنس أن يستمرّ إلى الآن.

– لا يكفي الوصول إلى القمّة، بل يجب البقاء فيها.

– هل تقصد الحضارة البشرية؟

قال فيثاغورس:

- بالضبط. لقد كانوا في أعلى قمّة، ولم يُجيدوا البقاء فيها. قبل عدّة أيام، حلمتُ حلماً. تراءى لي فيه أنّ البشر قد تحوّلوا إلى جنسٍ في طريقه إلى الزوال، مودَعين في حدائق الحيوانات. وكلّما أنجبوا صغيراً، نُشِرَ الخبرُ في وسائل الإعلام، حالهم حال آخر حيوانات الباندا.

لم أفهم تماماً إلى ماذا كان يلمّح، ولم أعرف ما هي حدائق الحيوانات أو حيوانات الباندا، فواصلتُ حديثي:

- عند البشر، يستغرق النزاء وقتاً طويلاً، ألا تلاحظ ذلك؟

- يستغرق عندهم عشرات الدقائق، مقابل بضع ثوانٍ عندنا.

- لماذا تكون مدّته طويلة جدّاً؟

في تلك اللحظة، أطلقت ناتالي صرخة قويّة جدّاً بحيث سمعنا صوتها من برج المراقبة.

أشار القطّ السيامي كخبيرٍ عارفٍ بالأمور:

- لقد تمّ الأمر. لقد بلغتْ ذروة النشوة الجنسية.

- اللذة ستريحها. وجدتها متوتّرة في الفترة الأخيرة. بعد كلّ ما عانته، إنّها تستحقّ هذه المتعة.

- بعد تسعة أشهر، سوف تنجب طفلاً صغيراً.

- هذا يلهمني. أنجب لي أطفالاً، يا فيثاغورس. أجد أنّ حملي الأوّل لم يُسفر إلّا عن مسوّدة تبدو لي قابلة للتحسّن.

- تقصدين أنجيلو؟ ليس من اللائق أن تقولي هذا عنه.

- إنّه مغرورٌ جدّاً.

أفرج عن تنهيدة محبِطة:

- منذ أن التقينا، مارسنا الحبّ غالباً ومع ذلك لم تحبلي.

- أعتقدُ لأنّ جسدي كان يعلم أنّ اللحظة لم تكن مناسبة للحمل، فعقلي يتحكّم بجسدي، كما تعلم...

قلتُ هذا الكلام جزافاً، لكنني أعتقد أنّ هذا صحيح. عليّ أن أكبح، في

دماغي، شيئاً ما لكي يصبح الإخصاب ممكناً. وهذه أيضاً واحدة من مواهبي المخفية المتطورة حالما أتحكّم بذهني: أستطيع أيضاً التأثير على خصوبتي.

توجّهنا إلى الحجرة التي اتّخذناها مسكناً خلال الرحلة. في الطريق، صادفنا الركّاب الآخرين.

صادفنا كلاباً تتحدّث مع خنازيرٍ وهي تتفاهم ببساطة من خلال نبرة الصوت. لم يعد بادينتر ونابليون يفترقان قط. كما صادفنا قططاً تأخذ قيلولةً، وبشراً نائمين، وآخرين يلعبون بالورق أو بالشطرنج.

لمّا وصلتُ إلى مخدعنا، أغرقتُ عينيّ الكبيرتين الخضراوين في عينيه الكبيرتين الزرقاوين.

مؤتُ:

– أُريدُ أن أعرض عليك تجربة... جديدة بعض الشيء. هل تودّ أن نمارس الحبّ ونحن نوصل عيننا الثالثة بواسطة وصلةٍ؟

– ماذا؟

أعرف أنّه طرح عليّ السؤال فقط لكي يكسب بعض الوقت في التفكير. مستبقةً ردّه، تابعتُ:

– سنحتاج إلى وصلةٍ. هل لديك وصلة؟

– كلا، وأنتِ؟ ربّما احتفظتِ بوصلة الحديث مع تيمورلنك على متن القارب.

– رغم امتلاكي لسرعة البديهة والحضور الذهني، فإنني، في اللحظة التي هربتُ فيها من القارب، فكّرتُ في إنقاذ حياتي وموسوعة العلم النسبي والمطلق أكثر من التفكير في جلب ذكريات لقائنا.

ذهبنا، القطّ السيامي وأنا، إلى الحجرات بحثاً عن وصلةٍ. عثرنا على واحدة في صندوق قمرة القيادة، مع قابسين ذكرين، ومأخذ يو إس بي طبيعي وآخر صغير.

عدنا إلى حجرتنا. تمكّن فيثاغورس من دفع ترباس الباب كي لا يزعجنا أحد. وأنا سحبتُ الستائر.

كنّا نعلم أنّ هاتين الحركتين من الطقوس البشرية.

ثمّ جلسنا بعضنا أمام بعض وجهاً لوجه على فراش الحجرة. سألته:

- هل أنت متوتّر؟

انتفض فيثاغورس.

- لم يخض أحدٌ هذه التجربة من قبل على حدّ علمي، حتى عند البشر.

- هذا دليلٌ إضافي على تفوّقنا. الاتصال المزدوج، إنّها *الأرض المجهولة* بالنسبة إلى العقل.

لقد سبق لي أن قرأتُ هذه العبارة. أعلم أنّ بوسع الكلمة أن تُبهرَ سامعها، الأمر الذي لا بدّ أن يضع حدّاً لآخر لحظات تردّد محدّثي.

- هل أنتِ متأكّدة من أننا لا نقوم بحماقةٍ؟

- الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك، هو أن نجرّب.

استخدم كفّيه لينزع الكرة التي تعمل كجهاز إرسال واستقبال في تواصله مع البشر، وأدخل قابس وصلة اليو إس بي في مأخذ عينه الثالثة. أجريتُ نفس العملية. شعرتُ في الحال باختلاج كهربائي. عرفتُ أنّه صادرٌ عن كهربائنا الدماغية الطبيعية. متأثّرةً قليلاً، سألته:

- هل أنت جاهز؟

ارتعش رعشةً خفيفةً.

- كلا، انتظري... في حال كانت هذه... أقصد... تجربة سلبية، لا أريدكِ أن تعتقدي أنّ...

- هل تخاف أن أصل إلى الأفكار الأكثر سريّةً في ذهنك؟

قال، متلعثماً:

- أوه... كلا، كلا...

يبدو أنّ تخميني كان صحيحاً.

- إذاً، تخيّل مسبقاً أنّك ستعيش تجربة إيجابية، اتّفقنا؟

اتّخذتُ وضعيةً لكي أستقبل جسده قبل أن أستقبل ذهنه. اندمج عضوانا الجنسيان. حينما أحسستُ أنّ لذّتي تتصاعد، أغمضتُ عينيّ.

في البداية، لم تختلف التجربة في شيء عن ممارساتنا المعتادة للجنس.

ولكن فجأةً، حدث شيءٌ جديد، من الصعب وصفه بالكلمات.

في البداية، تصاعدت اللذّة بطريقة استثنائية. كانت أقوى بضعفين، ثلاثة أضعاف، عشرة أضعاف من ممارسة طبيعية. رأيتُ سلسلةً من الألوان تسري خلف جفوني. تحوّلت الألوان إلى خطوطٍ ثمّ إلى شراراتٍ نارية. بدا لي أنني أرى ألسنة لهبٍ تلتهم دماغي، صفراء وبرتقالية وحمراء وسوداء.

وفجأةً راودتني رؤية.

رأيتُ أمّي وهي تلدُ. في الواقع، أنجبت ست هريرات، من بينها أنا. والمدهش في الأمر هو أنني عرفتُ أنّ هذه الهريرة هي أنا، ولكن بمظهرٍ مختلفٍ عن مظهري الحالي. كان فرائي رمادياً بدل أن يكون أبيض وأسود. حتى عيناي كان لهما لونٌ آخر، كانتا زرقاوين ياقوتيتين، في حين أنّهما الآن خضراوان زمرّديتان.

كنتُ رمادية ذات عينين زرقاوين عندما كنتُ صغيرة!!!

لقد تغيّرتُ.

بعد ذلك، رأيتُ نفسي أرضع من ضرعها، وألعب مع أخوتي وأخواتي. ضربتهم بقوائمي لكي أصل إلى الضرع الأكثر امتلاءً بالحليب.

كنتُ قاسية وأنانية.

اكتشفتُ نفسي بعد ذلك بقليل، حين أصبحتُ أكبر حجماً، وحصلتُ على فأرةٍ كجائزة لي. رأيتُ نفسي كما لو أنني خارج ذاتي. بدوتُ فخورةً بتلك القطّة الصغيرة التي تعرف بأنّها ستحكم ذات يوم. لم أكد أبلغ من العمر بضعة أسابيع، حتى حصلتُ على موقع زعيمة القطيع.

ثمّ تسارع كلّ شيء في سلسلة من المشاهد: مشاهد وأنا مع خادمتي ناتالي في شقّتها، أضع صغاري؛ في معركة جزيرة البجع، إقامتنا في جزيرة المدينة، ومقطوعتي المرتجلة على أرغن نوتردام دو باريس، طيراني بالمنطاد، وضحكتي الصاخبة الأولى حينما رأيتُ ذيل سفينكس، والمرّة الأولى التي سبحتُ فيها في مياه النهر، والتغلّب على هلعي، وانفتاح ذهني بالعين الثالثة، وصورة كوكبي المرئي من الفضاء، والمحاكمة البشرية عند الخنازير، ومصارعة الثيران، واكتشاف الفنّ في

متحف اللوفر، والمعركة على النهر المتجمّد، والآن التحام جسدي وذهني مع فيثاغورس.

إذاً، هذه أنا.

شعرتُ بأنّ فيثاغورس أيضاً يرى شريط حياته يسير متسارعاً، ونجحتُ في الوصول إلى أفكاره، فتجسّستُ عليها: رأيتُ ولادته، شبابه ولحظاتنا معاً مثلما عاشها، بطريقة تختلف أحياناً تماماً عن طريقتي.

فإذاً، هذا هو.

مساران للحياة يفضيان إلى هذه اللحظة الراهنة المحدّدة التي يتوحّد فيها قدرانا.

انضمت ألسنة لهبي إلى ألسنة لهبه في مسحة لونية زرقاء، خضراء، رمادية، بيضاء، سوداء. امتزج حريقا دماغينا ليشكّلا لوناً وحيداً هو الأرجواني اللؤلؤي.

بصورة متزامنة، أحسستُ بحرارةٍ تنطلق من أسفل آخر فقرة في ذيلي، وسرت على طول عمودي الفقري لتنفجر في فرجي، ثمّ في دماغي.

شعرتُ بقلبي مثل ضوءٍ يومض على إيقاع يتسارع على نحوٍ متزايد. تزامنت نبضات قلبينا. وأصبح نورنا أكثر كثافةً.

رأيتُ ما رآه، ورأى ما رأيتُه. شعرتُ بما شعر به وعرفتُ أنّ الشيء نفسه ينطبق عليه.

أنا أصبحُ هو، وهو يصبحُ أنا.

أصبحنا معاً كياناً أكبر يتجاوزنا ومزوّداً بأربع عيونٍ، وأربع آذانٍ، وثماني أرجلٍ، وخطمين، وفمين، ودماغين، وقلبين، وعضوين جنسيين.

في نفس الوقت، استبدّت بي لذّة بالغة، ولكن لذّة مختلفة عن كلّ الملذّات التي عرفتها حتى الآن، إنّها لذّة جسدية منبعثة من لذّة ذهنية.

وددتُ لو أنّ هذه اللحظة لا تنتهي أبداً.

اجتاحت دماغي النشط للغاية أفكارٌ متزايدة السرعة.

لم أعد مقيّدة سوى بفكرة أنني أصنع نفسي بنفسي. ولكنني لستُ فقط ما أعتقدُ أنني عليه.

أعتقدُ أنني باستيت، ولكنني أستطيع أن أكون أكثر من ذلك بكثير. أستطيع أن أكون باستيت «و» فيثاغورس.

أستطيع أن أكون جميع القطط. أستطيع أن أكون جميع الحيوانات.

أستطيع أن أتّصل بكلّ ما يحيا. حتى الأشجار، حتى الكواكب، حتى النجوم، حتى الكون.

أنا أكثر بكثير من كلّ ما كنتُ أعتقده...

أستطيع أن أكون الآخرين.

الحبّ الحقيقي، هو أن نفهم هذا.

في اللحظة التي استوعبتُ فيها هذه الفكرة تماماً، بدأتُ أصرخ بقوّة هائلة، بكلّ قدرة حبالي الصوتية.

صرختُ صراخاً طويلاً وشديداً.

ولم أتوقّف إلّا حين طُرِق باب الحجرة.

فتحتُ عينيّ. وفتح فيثاغورس أيضاً عينيه. نظرنا بعضنا إلى بعض بإمعانٍ. بدا فاقداً للوعي. سألتُ:

- كم الساعة؟

سحب الستارة. وجدتُ أنّ الليل قد حلّ.

قال:

- لقد استغرق وقتاً طويلاً.

- كان شيئاً مذهلاً. وماذا بالنسبة إليك؟

- شيءٌ استثنائي. لا أعرف كيف أصف هذه التجربة. شكراً لكِ على هذه الفكرة، يا باستيت.

- شكراً لك، يا فيثاغورس.

ازدادت الطرقات الحادّة على باب الحجرة.

سحبتُ قابس اليو إس بي. فعل الشيء نفسه وراح يفتح الباب.

ظهرت ناتالي بالباب، وبدت قلقة وتحدّثت بلغة البشر. أعدتُ جهازي المرسل والمستقبِل للترجمة إلى عيني الثالثة.

– لقد أيقظتما الجميع. نسمعكما تصرخان منذ عشر دقائق، ما الذي يحدث؟ هل أُصبتما بجروح؟

رغبتُ في أن أتكلّم معها عن التجربة الاستثنائية التي عشتُها للتوّ (**الحب** بالأحرف الكبيرة)، ولكنني اعتقدتُ أنّها، بدماغها البشري المحدود الأفق، لن تستطيع استيعاب هذا المفهوم، رغم أنّها هي أوّل من حدّثتني عن مفهوم الحبّ هذا كميزة خاصّة بجنسها.

– كونا أكثر احتشاماً... لقد أزعجت ممارستكما للجنس جميع من في السفينة.

هذا هو، ما إن يكون المرء سعيداً، حتى ينزعج الآخرون.

خفّت تدريجياً العاطفة الكبيرة التي شعرتُ بها.

قلتُ لخادمتي:

– يجب أن نتكلّم.

سحبتُ ناتالي إلى حجرتها، ثمّ أخذتُ مكاني على حرف النافذة لكي أكون بالضبط على مستوى نظرها.

– ربّما يجبُ أن تُقيمي لي أخيراً الاعتبار المنبثق عن مكانتي. أشعرُ أحياناً بأنّكِ تنسين منْ أكون.

كان من المبكّر أن أطلب منها أن تناديني باستمرار «صاحبة الجلالة»، ولكنني واصلتُ حديثي:

– أنا باستيت، أنا أعدّ ثورة عالمية، ثورة **الحضارة القططية**. لقد آن الأوان لكي تدركوا، أنتم البشر، أنكم من الآن فصاعداً تشغلون مكانة جديدة، مكانة أدنى من مكانتنا. إنّ عهدكم، أنتم البشر، قد انتهى، مثلما انتهى عهد الديناصورات. الآن، يمكنكم أن ترتاحوا. نحن سنتولّى الأمر.

هل بوسعها أن تُدركَ هذه الحقيقة بعقلها المحدود؟

وختمتُ حديثي:

– الآن، ارتاحي، ثقي بي، سيسير كلّ شيء على ما يُرام. أنا أتكفّل بكلّ شيء.

فكرتُ في نفس الوقت:

الآن وقد فهمتُ معنى الفكاهة والفنّ والحبّ، أنا من سأقودكم جميعاً على طريق الحضارة القططية.

76. التسلسل الهرمي في قطيع الذئاب

في قطعان الذئاب، تتقدّم الذئاب العجوز والمريضة السير، لأنّها هي التي ستحدّد سرعة تقدّم المجموعة.

وتأتي خلفها مباشرةً بعض الذئاب الضخمة القويّة التي سوف تتكفّل بالهجوم إذا ما برز أمامها عدوّ أو ظهرت فريسة.

ثمّ، في الوسط، تكون هناك خمسة ذئابٍ أخرى أقلّ قوّة ستهبّ لمساندة عمل ذئاب المقدّمة. والذئب الذي يسير في مؤخّرة القطيع هو القائد. وهو يراقب من الخلف ليرى إن كان القطيع يسير سيراً حسناً. وهكذا، عند الذئاب، الضعيفة تكون في المقدّمة، والقوية خلفها، والقائد في نهاية الرتل لكي تكون لديه رؤية شاملة للأحداث.

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

المجلّد الثاني عشر.

77. الأرض الموعودة

كانت أمّي دوماً تقول: «يكفي أن نراقب مطوّلاً وبتركيزٍ وانتباه أيّ شيء حتى يغدو المشهد الذي يبدو الأكثر إيذاءً مشهداً أخّاذاً».

نظرتُ إلى البحر وقلتُ في نفسي إنني استفدتُ من هذه المغامرة في المقام الأوّل لكي أراقب حياتي الخاصّة، التي اكتشفتُ فيها قدرةً لا يرقى إليها الشكّ. وقد أغرقني هذا في حالة روحية لا بدّ أنّها جعلتني أبدو غريبةً في نظر الركاب الآخرين على متن السفينة الشراعية.

بعد جلسة الاتصال الجسدي مع فيثاغورس، بدأتُ أجد كلّ الناس لطفاء؛ حتى ابني (الذي فعل في الحقيقة كلّ شيء ليصبح غير قابلٍ للتحمّل) بدأ يلهمني الحنان.

ومن ثمّ تلاشى الأثر السحري. مع مرور كلّ يوم، عدتُ قليلاً إلى الوراء لأصبح «مثلما كنتُ سابقاً» بعض الشيء. وجدتُ الركاب الآخرين مثيرين للإحباط، وشعرتُ بالقلق من غزو الجرذان للعالم، وباتت أبسط نظرة من أنجيلو تزعجني.

في المقابل، لم أكرّر حالة الالتحام الجسدي والذهني مع فيثاغورس. كانت تجربة قاسية جدّاً، تجربة لا تُمارس غالباً؛ دعونا نقول إنّها تُمارس كلّ سنة مرّة.

لقد أنجزتُ تلك التجربة، وفتحتُ باباً أوسع في روحي، والآن أعلم أنّها ممكنة، ولكنني لا أعتقد أنّ هذه هي اللحظة المناسبة للهذيان في حين أنّ هناك الكثير من الأمور التي ينبغي تسويتها.

إنّها مشكلة السعادة: نجري خلفها، وعندما نُدركها، لا نستطيع الحفاظ عليها.

حتى ناتالي ورومان انتقلا من حالة الحبّ الشغوف إلى تدبيرٍ يوميٍّ أكثر ابتذالاً. لم أعد ألمس لديهما التوتّر الكهربائي العالي الذي كان موجوداً عندما يرغبان في الجماع. ربّما لهذا السبب يُطيل البشر كثيراً الخطوات التمهيدية للعلاقة: إنّهم يدركون أنّ علاقتهما ستصبح فيما بعد أقلّ إثارةً بكثير.

تذكّرتُ فيثاغورس. وأصبحتُ أعرف الآن لماذا أُبدي نوعاً من التحفّظ حياله.

حينما نحبّ شخصاً حبّاً حقيقياً، نعيش خوفاً دائماً من أن نفقده.

لا ينبغي أن يبطئ الحبّ تقدّمي. لا ينبغي أبداً أن أتعلّق بهذا القطّ الخاصّ. إنّه ليس إلا ذكراً بين الذكور الآخرين.

سيكون عليّ أن أكون حذرة للغاية كي لا أقع في الحبّ أبداً.

انتفضتُ، وغسلتُ كلّ جسمي لعقاً، ثمّ انضممتُ إلى خادمتي في مؤخّرة السفينة، وتثاءبتُ وتمطّيتُ، قبل أن أسألها:

– كم يوماً مضى على إبحارنا؟

– منذ خمسة وثلاثين يوماً.

- ومتى سنصل باعتقادكِ؟

- لا أدري.

مؤت:

- لا أودّ أن يذهب كلّ ما اجتزته وعشته سدىً. ولذلك سأروي كلّ ذلك للقطط التي على متن السفينة وأطلب منها أن تدوّنه إن استطاعت.

لم تبدِ اهتماماً خاصّاً. ألححتُ عليها أكثر.

- ولكن لأنني أتخيّل أنّها لن تتمكّن من القيام بذلك، أودّ أن أملي عليكِ مذكّراتي. لن يكون عليكِ سوى تسجيلها وسوف أحدّثكِ كما لو أنني أتكلّم إلى جماعةٍ من القطط الشابّة. ومن ثمّ سوف تنسخين كلّ ما قلته لكي تجعلي منه كتاباً. ولديّ مسبقاً فكرة عن العنوان: *القطط غداً*.

قطّبت جبينها.

- أريدُ أن تكوني ناسختي الخاصّة.

أشعلت سيجارةً ودخّنت بهدوء. شعرتُ بأنّها لا تزال لا تأخذني على محمل الجدّ. إنّه لأمرٌ مدهشٌ الأحكام المسبقة التي يُطلقها البشر بشأن القطط. لا يزالون يعتبروننا مجرّد حيوانات أليفة، رغم كلّ ما عشناه وما عانيناه معاً.

ألححتُ عليها:

- سيكون هذا الكتاب ركيزة حضارتنا القططية. مثل الكتاب المقدّس.

هزّت كتفيها، ساخرةً، وداعبتني بحنان ومودّة. شعرتُ بأنّها لم تفهمني أصلاً. لم تعد المشكلة مشكلة ترجمة، وإنّما مشكلة ذهنية.

لا تزال تعتقد أنها أرقى منّي بكثير.

لفت انتباهي حينئذٍ تفصيلٌ مدهش. حلّق نورسٌ عالياً وأطلق صيحةً قويّة. ناتالي أيضاً رأته وسمعته.

دوّى صوت جرس الإنذار في سفينة *الأمل الأ*خير. اندفعنا في الممرّات لنهرع نحو مقدّمة السفينة الشراعية. أصبحنا جميعاً في حالة تأهّبٍ قصوى. هزهز أنجيلو ذيله، وهزّت أسميرالدا رأسها، مرتابةً. حكّ فيثاغورس بعصبية

أذنه اليمنى، رفع شامبليون عرفه الأبيض عالياً جدّاً، وأمسكت ناتالي بمنظارها المقرّب وتفحّصت الأفق. فجأةً، بدأ البشر بإطلاق الهتافات. سألتهم:

- هل هذه نيويورك؟

قالت ناتالي، مبتهجةً:

- نعم، لقد نجحنا، ها أنا أرى أولى العمارات. لقد وصلنا إلى مقصدنا.

- أعطيني المنظار من فضلكِ، أيّتها الخادمة.

وضعتُ عينيّ على فتحتي عدستي المنظار. رأيتُ بدوري العمارات الشاهقة التي بدت مثل غابةٍ من المستطيلات الرمادية. اقتربت سفينتنا بسرعةٍ جيّدة ولاحظتُ على نحوٍ أفضل الديكور الجديد أمام أنظاري. حرّكتُ ببطء آلتي البصرية لاستكشف الشاطئ.

قالت خادمتي وهي توجّه المنظار نحو جهة محدّدة:

- هذا هو تمثال الحرية.

فتعرّفتُ على نفس التمثال لامرأةٍ ترتدي رداءً وتلوّح بمشعلٍ، وهو تمثال كنتُ قد رأيته في طرف جزيرة البجع. الفرق الوحيد هو في حجم التمثالين. هذا التمثال بدا أكبر حجماً بعشرة أضعاف.

لفت تفصيلٌ صغير نظري وأذهلني. بدا لي أنني أرى بقعاً بنّية اللون على الذراع الممدودة نحو السماء. نظرتُ بإمعانٍ وتركيزٍ أكثر.

إنّه ليس صدأً.

- هل يمكنكِ تكبير الصورة، أيّتها الخادمة؟

- ضبطت عدسة التقريب وأفزعني ما رأيت.

- هل يمكنكِ أن تكبّري الصورة أكثر، من فضلك؟

فأصبحت الصورة أقرب وأوضح. ابتلعتُ ريقي خوفاً.

لا، ليس هذا.

لقد رأيتـ «ها». أصبحتُ أرى بوضوح القاعدة والأرضية المحيطتين بتمثال نصب هذه المرأة التي بدت كإلهة لا ينقصها سوى رأس قطّة.

كان هناك ليس فقط المئات ولا الآلاف، ولا عشرات أو مئات الآلاف، بل ملايين الجرذان البنّية.

أوه كلا، ليس هذا، ليس هنا وليس الآن. كلّ شيء إلّا هي.

كان عددها كبيراً جدّاً بحيثُ لا تُرى الأرض عملياً، وتشكّل ما يشبه سجّادة بنّية متماوجة.

وفي اللحظة التي وصلنا فيها إلى الهدف الذي حدّدتُه لنفسي، أدركتُ أنّه لم يكن الحلّ الصحيح. شاركني جميع ركّاب سفينة الأمل الأخير إحباطي.

إنّ رؤية كلّ هذه الجرذان في هذا المكان الذي كنّا نتوقّع ألّا نرى فيه أيّ جرذٍ أثارت لديّ إحساساً غريباً، وجديداً.

غطّى سائلٌ عينيّ، وفي الوقت ذاته، شعرتُ بحكّةٍ في حلقي.

هذه ظاهرة جديدة، خليطُ شعورين قويين ومتناقضين.

ضحكتُ لئلا أبكي.

(يتبع...)



بطاقات شكر

إلى أميلي أندريو، فيفيان بيريه، جان إيف غوشيه، جوناثان فيربير، سيلفان تيمسي، جيريمي غيرينو، سيباستيان تيسكيه، زويه أندريو، إيريك فيتزل، كوني بيدروسيان، ستيفان بويو، شارلوت غانونا -كوهين، ميلاني لاجواني، تيري بيلار، إيميل سيرفان- شريبر، إلى البروفيسور ديديه ديزور.

إلى محرّرة أعمالي كارولين ريبول وكلّ فرق التحرير في دار آلبان ميشيل التي تساندني وتدعمني في كلّ رواية جديدة.

وبالطبع إلى محرّري أعمالي منذ البداية: ريشار دوكوسيه وفرانسيس أسمينار.

الموسيقى التي كنتُ أسمعها خلال كتابة هذه الرواية

توكاتا، مقطوعة «Air»، منوعات جولدبيرج، اختراع ثنائي الصوت، أداجيو في سلّم ري الصغير للموسيقي يوهان سيباستيان باخ.

«كاستا ديفا»، المعزوفة الشهيرة لأوبرا نورما، المؤلّفة من قبل فينسينزو بيلليني ومعزوفة من قبل ماريا كالاس.

«بيردايس فلايت»، المأخوذة من ألبوم بيرداي للموسيقي بيتر غابرييل.

«الربيع»، لأرغو، مأخوذة من الفصول الأربعة، للموسيقي أنطونيو فيفالدي.

المحتويات

في البدء، كنتُ، مثل الكثيرين من بينكم، قطّة هادئة تعيش في منزلها الهادئ، في عالم هادئ، تتوالى فيه الأيام دون مفاجآت. كنتُ أجد طعامي الخاصّ في الصباح موضوعاً في قصعتي الخاصّة بالطعام (وكنتُ أفضّل من بينها تلك الأطعمة المحضّرة من لحم الدجاج المدخّن والمضافة إليها نكهة الأعشاب المجفّفة المستجلبة من إقليم بروفانس)، وكذلك أجد حليباً (وهو طبيعي، مع نسبة 20٪ من المواد الدسمة) في كوبي الخاصّ بالشراب، وتبقى درجة الحرارة في أجهزة التدفئة على درجة مستقرّة وثابتة، وهي الدرجة 21 مئوية، ولديّ محفّة لمخالبي، ووسادة من المخمل الأحمر، بل وحتى كمية من نعناع الهرّ الحقيقي للحظات جنوني.

في لحظة ما، ومن أجل تسليتي، قُدِّم إليّ ذكرٌ من فصيلة الأنغورا أبيض اللون له عينان خضراوان، ويُدعى فيليكس. ولكنّه أُصيب بالاكتئاب بعد استئصال خصيتيه ووضعهما في وعاءٍ، وازداد وزنه باستمرار وهو يتناوب على النظر إلى خصيتيه اللتين خسرهما تارةً وشاشة التلفزيون تارةً أخرى - مع تفضيله لمشاهدة مباريات كرة القدم.



كانت خادمتي تُدعى (ولا تزال تُدعى) ناتالي. ربّما لم أوضّح لكم بعد أنّ خادمتي كانت كائناً بشرياً. هل تعرفون البشر؟ لا بدّ أنّكم قد رأيتم أو لمحتم بعض البشر. البشر... هيا لنتحدّث عنهم، وأنتم تعرفون جيّداً: تلك الكائنات الثنائية الأقدام التي لا فراء لها، ولها فقط أجمة شعرٍ في قمّة جمجمتها.

كانت لخادمتي عينان خضراوان (مثلي أنا، ولكن لونهما أغمق قليلاً)، وشعرٌ طويلٌ أسود اللون، ذو لمعانٍ، تضمّه غالباً برباطٍ أحمر اللون. كانت في الحقيقة صغيرة الحجم مقارنة بحجم البشر بشكلٍ عام، وترتدي غالباً بلوزةً بيضاء اللون وبنطال جينز أزرق اللون. أظافرها مطلية باللون الأحمر، تغطّي شفتيها بمادة دهنية لامعة من لون طلاء الأظافر نفسه. أعتقد أنّ اختيار هذا اللون له علاقة بالدم. حسب المعايير البشرية، لا بدّ أنّ هذه مسألة جمالية.


9 789933 676001